زهرة النار

قصة نار القلب والوطن

قصة من وحي الخيال

بقلم: خيال

سالت دموعها على خدها وهي تنظر إليه
غير مصدقة قائلة "رغم كل ما بذلته لأجلهم؟"
قال زافراً "لم أفعل ما فعلته لأجل أحد.. بل لأجل وطني.."
لو استطعت القضاء على جندي واحد فهذا يكفيني حتى لو كلفني هذا حياتي ذاتها.."
ثم أضاف مبتسماً "عزائي أنني رأيت وجهك لآخر مرة، ولو أنني لا أحب رؤيتك باكية.."
لم تستطع ميا إيقاف دموعها وهي ترى وجهه الشاحب على غير العادة
والابتسامة التي نادراً ما يمنحها لأحد تشيع على وجهه برضى، ودماءه تغمر
الضمادات من جديد بلا توقف..
وسمعته يهمس "مهما حدث لي.. فلا تبك يا ميا.. نحن الثوار هكذا..
نودع رفاقنا بابتسامة.. لا يمكننا البكاء على كل من يرحل وإلا ما وجدنا وقتاً
لعمل شيء آخر ولضاعت قضيتنا دون أن تجد من يحملها.."

[عن أسطورة زهرة النار]

هي أسطورة زهرة تحرقها النيران..

فيظن البشر أنها هلكت واحترقت..

فإذا بها تبعث من بين الرماد من جديد..

أسطورة زهرة تهلك بالنار..

وتولد بالنار..

ولا تستمر إلا بالنار..

أسطورة متجددة..

كلما نسيناها، بعثت لتذكرنا بقصتها من جديد..

هي قصة تحدٍ بين زهرة ونار..

بين أبيض وأسود..

بين كل ما يمثل الخير وما يمثل الشر في الكون..

هي أسطورة ثورة، ضد الظلم، ضد العدوان،

ضد كل ما يمثل الجبروت والطغيان..

فلنسمعها ولنرددها..

ولـنُغنّي..

مقدمة:

ما معنى أن يفقد شخص ما حريته؟.. لابد أن يكون أمراً مؤسياً... وما معنى أن يفقد وطن حريته؟.. لابد أن يكون أمراً صادماً بشدة...

لكن ما معنى أن يفقد عالم كامل - كوكب كامل - حريته؟.. ما معنى أن يرزح تحت وطأة غزو لا يرحم ولا يعرف أي تعقل؟.. ما معنى أن تواجه شعوب بأكملها نار العبودية وظلام الحرب دون بارقة أمل؟.. لابد أن يكون الأمر عسيراً على الوصف والتخيّل معاً..

عندما ظهرت تلك الطائرات السوداء الكئيبة في سماء الكوكب، ظن البشر أن الأمر، على غرابته، ليس مستهجناً، وأوجدوا له تفسيرات مختلفة.. وعندما بدأت تلك الطائرات في تحطيم كل المناطق الحيوية والمنشآت الرئيسية في المدن، كان الاستهجان كبيراً، وإن لم يتجاوز ذلك مع قناعتهم أن الجيش، والدولة، قادرين على صدّ ذلك الاعتداء المجهول الذي لم يعرفوا مصدره.. لكن عندما رأى البشر جيوشهم، وأسلحتهم، وقاداتهم، تباد بكل يسر وسهولة، وعندما دمرت مقار البث العالمية ومؤسسات الاتصال لينقطع الاتصال تماماً بين مدن ودول العالم، ساد الذعر غير المتعقل وظلّل البشر مصير مظلم لا يدركون حدوده وأبعاده..

في البدء، توالت الأخبار من الطائرات التي اتضح أنها قادمة من عمق الفضاء، والتي انتشرت في كل مكان.. السيطرة التامة على الكوكب ونشر النفوذ على سكانها هو الهدف الأساسي، والذي أباح لأصحاب تلك الطائرات بأرديتهم السوداء وخوذاتهم المعتمة وشفاههم المزمومة بقسوة التلويح بأسلحتهم ذات الأشعة الصفراء في وجوه الجميع والأشعة تصيب كل من يقف في وجهها دون رحمة..

ثم اتضح الهدف الذي لم يعلنه أحد، استغلال خيرات الكوكب واستخدام سكانه كعمال سُخْرةٍ بلا أجر لتلبية احتياجات الفضائيين وكوكبهم البعيد من ثروات الكوكب الغنية.. كما تنامت إشاعات لم يعرف مصدرها أن الكوكب نفسه قد يتم إعداده لسكنى الفضائيين الذين ضاق بهم كوكبهم، مما يعني الاستغناء عن حياة أهل الكوكب، أو نصفهم على الأقل، مما نشر فزعاً ورعباً بين البشر مع عجز جيوش دول العالم التصدي للغزو وسقوط وزارات الدفاع في كل مكان ومقتل الرؤساء ووزراء الدفاع وكل من قد يحمل بذرة مقاومة في صدره..

أبيدت جميع الأسلحة الخاصة بالدول، ولم يعد أحد يملك سلاحاً فاعلاً يمكن أن يدافع به البشر عن أنفسهم، وانتشرت الاستحكامات الأمنية في كل الشوارع عبر دوريات المراقبة ومراكز الأمن، وفرض حظر تجول مع مغيب الشمس.. غدا كل إنسان يخشى على حياته، وغدا التحدث بأمور تمسّ الفضائيين والمقاومة والرفض تثير الخوف والذعر، مع إدراكهم أن الفضائيين يجيدون لغات الكوكب كلها، وإن لم يعرفوا أكان ذلك بمهارة شخصية من كل فضائي أم تم ذلك بمعاونة الخوذة التي بدا أنها تحوي العديد من الأجهزة التي لا يعرفون ماهيتها..

ومع كل هذا، ومع مرور السنوات دون أن تبدو لهم أي فرصة للخلاص، من أين يأتي الأمل في غد أفضل؟..

****

ملحوظة: الأحداث في الرواية خيالية، لا علاقة لها بالواقع بتاتاً. هي مجرد رواية خيالية فاستمتعوا بها كما هي.

الفصـــل الأول

التمع برقٌ خاطفٌ في السماء، فأنار الغابة المظلمة لوهلة قصيرة قبل أن يعود السواد ليغلف كل شيء وسط الأمطار المنهمرة بغزارة.. وبعد ثوانٍ هدر الرعد ورددته الجبال بشكل أفزع الحيوانات التي التجأت إلى مخابئها، وأضفى كآبة ووحشة على الغابة الخالية من البشر تقريباً..

استمر هطول المطر الغزير في المكان مغرقاً الموجودات، والسحب الكثيفة تغطي وجه السماء بشكل كامل في تلك الليلة من ليالي الشتاء المطيرة..

أشعلت مِيا مصباحاً متوسط الحجم أنار جزءاً محدوداً من منزلها المظلم، فوضعته على الطاولة قبل أن تفرك كفيها لتبعث الدفء فيهما وهي تنظر إلى الغابة من خلف النافذة.. أثار منظر الغابة الموحشة الرجفة في أوصالها فضمّت ذراعيها إلى جسدها وهي تغمغم "تباً لهذه المولدات القديمة.. إنها تصرّ على التعطل في أحلك الأوقات.. ها نحن مقطوعون عن العالم بلا جهاز تدفئة ولا إنارة.. ألم يكن من الأفضل استبدالها بالمولدات الحديثة التي لا تتعطل تحت أي طارئ؟.."

ثم قالت وهي تتطلع من النافذة إلى حظيرة في جانب المنزل مضيفة "ستتجمد الحيوانات من البرد.. لكن ليس لي حيلة في الأمر.. يجب استبدال بعض القطع التالفة في المولد ولا خبرة لي بالأمر..لو كانت لدي وسيلة اتصال بأبي في المدينة لأبلغته بذلك وطلبت منه شراء تلك القطع.. لكن هذا مستحيل قبل توقف العاصفة.."

تراجعت ميا إلى إحدى الغرف وارتدت معطفاً على كتفيها لتدفئ جسدها، ثم عادت إلى النافذة تراقب الطريق المؤدي إلى منزلها وهي تفكر في أبيها.. مر نهار كامل ولم يعد من المدينة بعد.. هل ستقضي هذه الليلة بمفردها؟.. ثم زفرت مغمغمة "لابد أنه حظر التجول.. أرجو أن يكون بخير.."

قطع تفكيرها رؤية البرق يشق السماء أقوى مما سبق، ثم تبعه ضوء لامع عَبَرَ الغيوم وهو يهوي إلى الأرض.. فقطبت وهي تراقب سقوطه السريع بدون أن تتأكد من هويته حتى غاب خلف الأشجار.. ولم يطل بها الوقت حتى سمعت دويّاً ناتجاً عن ارتطام ذلك الجسم بالأرض.. فأجفلت من الصوت وهي تقول "لاشك أنها مركبة طائرة هوت بركابها.. أهي.....؟"

لم تكمل جملتها وهي تهرع لارتداء معطف ضد المطر وتحمل مصباحاً ضوئياً في يدها، ثم خرجت من المنزل مواجهة العاصفة الشديدة التي كادت تلقيها أرضاً.. لكنها بذلت جهدها وهي تشق الغابة إلى الموقع الذي قدّرت أن الجسم قد سقط فيه.. فاستغرق منها البحث وقتاً طويلاً لبعده عن منزلها، ولما اقتربت من الموقع رأت بوضوح نور اللهب الناتج عن احتراق الطائرة، والمطر يطفئ النار بشكل حثيث جاعلاً الدخان يتصاعد بكثافة في السماء.. رأت ميا الطائرة السوداء ذات الشعار المميز وقد تحطمت بشكل عنيف وحطمت عدداً من الأشجار المحيطة بالمكان، عندها تأكد لها أن الطائرة لم تكن إلا للغزاة، ومن المستحيل بحالتها هذه أن يكون هناك ناجون.. لم

تنزعج للفكرة كما أنها لم تسعد لها.. فرغم كل شيء هي تعيش في بيت جبلي منعزل حيث لا يحتكون بالغزاة إلا نادراً بعد أن ركز الغزاة جهودهم على المدن المزدحمة أكثر..

دارت حول الحطام متفحصة دون أن تدري عم تبحث.. ولما يئست من العثور على شيء، وقفت تحت شجرة تخفف عنها هطول المطر وهي تغمغم "يبدو أن جثة قائد الطائرة قد تفحمت الآن.. ربما عندما يعود أبي غداً قد يجد في هذه الخردة ما قد يفيده.."

ورفعت بصرها للسماء البادية من بين الأشجار مضيفة "سيكون صعباً على أصحابها إيجادها من الأشجار الكثيفة هـ....."

قطعت جملتها وهي تشعر بقطرة تسقط على جبهتها.. لم تكن قطرة ماء، ورغم أن قطرات الماء الساقطة من السماء كانت أكبر حجماً من المعتاد، إلا أن هذه القطرة بدت أثقل وأكثر لزوجة وهي تسيل بشيء من البطء على وجهها.. مدت ميا يدها ومسحت وجهها، ولما رأت يدها مخضبة بالدماء اعتلاها شيء من الذهول للحظة، ثم رفعت بصرها متفحصة أفرع الأشجار على الضوء الضعيف للمصباح بالإضافة للنور الذي تمنحها إياه النار التي بدأت تخمد.. فلاحظت الجسم الأسود الملقى على أحد الأفرع وقد تهشمت الأفرع الأخرى فوقه وحواليه من تأثير سقوطه عليها قبل أن يستقر على فرع استطاع تحمل وزنه وقوة سقوطه.. غمغمت ميا وهي تحاول تدقيق النظر "إذن أحدهم قد نجا.. أو يبدو أنه كذلك"

فكرت في طريقة لإنزاله دون أضرار دون أن تسأل نفسها لماذا تفعل ذلك.. ولما توصلت إلى الطريقة المناسبة عادت إلى المنزل راكضة لتدخل إلى حظيرة الحيوانات، ففكت رباط أحد أقوى الأحصنة التي يملكونها وهي تهمس له "هيا أيها الشجاع، أنا واثقة أن عاصفة محدودة كهذه لا تخيفك"

رفس الحصان الأرض برجله في تذمر، بينما أسرعت هي لإحضار حبل قوي وطويل من الحظيرة، وربطت الحصان إلى عربة صغيرة تستخدم لأغراض المزرعة المتنوعة، ثم أخرجت الحصان والعربة من الحظيرة لتغلق بابها جيداً، وامتطت الحصان الذي وقف منزعجاً من الجو العاصف ثم لكزته قائلة "هيا أيها البطل"

سار الحصان بسرعة محدودة في الممرات غير الممهدة والزلقة يجر خلفه العربة التي كادت تتحطم أكثر من مرة عند ارتطامها بالصخور.. وخلال وقت قصير كانت تقف قرب الحطام، فأسرعت ميا لتفك الحبل من الطرفين وتأكدت من ربط لجام الحصان إلى شجرة قريبة كي لا يهرب عند أول هزيم للرعد يفزعه، ثم ارتقت الشجرة بشيء من الصعوبة لكونها لم تفعل ذلك منذ فترة طويلة، ربما منذ تجاوزت مرحلة الطفولة.. اقتضاها ذلك بعض الوقت حتى وصلت إلى الفرع، فتقدمت من الجسد الذي كان ملقى على بطنه، الخوذة السوداء المميزة تغطي وجهه، وثيابه سوداء أيضاً تغطيه بالكامل.. حاولت نزع الخوذة بعد أن حاولت عبثاً معرفة إن كان على قيد الحياة بتحسس نبضه عبر يده، ولما نجحت بخلعها تحسست عروق رقبته بحثاً عن أي دليل يشجعها على متابعة ما تفعله، ولما أحست بنبضات قلبه بوضوح، تفحصته بسرعة لتتأكد من جراحه وأنها لن تؤذيه بأي شكل، لتجد لديه جرحاً في جانبه الأيسر، بالإضافة لآخر في ركبته اليسرى تمنت وهي تراه ألا يكون قد هشم عظامه أثناء سقوطه.. كان عدد من الحبال يحيط بصدره ويرتبط بقطعة قماشية كبيرة سوداء علقت في الأفرع فوقهما، ويبدو

أنه استخدمها في الهبوط بعيداً عن الطائرة.. حاولت ميا التخلص من تلك الحبال بعدة طرق قبل أن تفلح في فكها من ثيابه، عندها ربطت الحبل الذي جلبته معها إلى حزامه وتوثقت منه جيداً، ولأنها تعرف أن استخدام قوتها وحدها في إنزاله يعني نتائج وخيمة، هبطت ومعها طرف الحبل الآخر وربطته في الحصان بعد أن فكت لجامه من الشجرة.. ثم عادت إلى الجريح وأنزلته ببطء شديد جاعلة فرع الشجرة يتحمل ثقله ويسند الحبل حتى يصل إلى الأرض.. بعدها صفرت لحصانها وأشارت له وهي تصيح "هيا أيها البطل.. اقترب ببطء.. ببطء الآن ولا تتسبب في مآس أخرى"

أطاعها الحصان الذي كان معتاداً عليها منذ جاء إلى المزرعة في سنة عمرة الأولى، فبدأ يقترب من الشجرة بهدوء سامحاً للجريح في الجانب الآخر من الفرع بالهبوط متأرجحاً.. ولما كاد يصل إلى الأرض، وبعد أن اطمأنت ميا أن الحبل لن يعلق لأي سبب من الأسباب، شرعت في الهبوط لتكمل ما بدأته.. لكن الفرع الذي بدا لها قوياً في البداية لم يكن كذلك فعلاً، ففوجئت به ينكسر تحتها لينهار جسد الجريح أرضاً، بينما أفلحت هي بالتمسك بجذع الشجرة بصعوبة ولم تصب إلا ببعض الخدوش.. ووسط صهيل الحصان الذي أفزعه ما حدث، أسرعت ميا إلى الجريح لتطمئن أنه لم يصب بمزيد من الجروح، فوجدته بالفعل قد أصيب بشج في رأسه وذلك بسبب الصخور التي سقط عليها..

حاولت ميا إيقاف النزيف بقطعة من ملابسها المبللة، ثم حاولت بشتى الطرق أن تنقله إلى العربة القريبة.. ولم تدر لم بدا لها ثقيلاً، أهو وزن جسده مقارنة بها؟ أهي ملابسه التي تبدو قاسية؟ أم هو تعبها بعد يوم شاق في العمل ومن المجهود الذي بذلته في إنزاله؟..

بعد محاولات عدة أفلحت في سحبه بصعوبة حتى ضمّته العربة فوقها، واستخدمت الحبل لتربطه بها كي لا يقع.. ثم ربتت على الحصان وهي تديره ليعود بهدوء إلى المنزل وقد خفتت العاصفة في تلك اللحظة كثيراً ولم يتبق منها إلا رشات خفيفة من الأمطار في أوقات متباعدة.. ولم يعد البرق ينير الطريق أمامها، لكنها كانت تحفظ طريقها إلى المنزل جيداً ولم تكن بحاجة حتى لاستخدام المصباح.. كان التعب قد بلغ منها مبلغه، لكنها علمت أن وصولها إلى المنزل ليس نهاية تعبها وعبئها الذي اختارته لنفسها في هذه الليلة، بل كان بداية عبء جديد في المحافظة على حياة الجريح وعلاجه.. سارت صامتة وهي تحمل الخوذة بذراع وتقود الحصان بالأخرى.. وللمرة الثانية تجاهلت السؤال الذي يلح في عقلها.. لماذا؟ لماذا واحد منهم؟ لماذا الاهتمام بجندي من الغزاة ربما كان عائداً من غارة على منازل بعض الأهالي الأبرياء؟.. لكنها لم تجرؤ على السماح لعقلها بطرح تلك الأسئلة.. ليس في هذه اللحظة بتاتاً..

****

انهمكت ميا بعملها على الضوء الشحيح لمصباح وضعته على طاولة قريبة بجوار عدتها الطبية.. كانت قد ضمدت جرح رأسه واعتنت بركبته بعد أن تأكدت أنه لم يهشم العظام، وهي تكاد تفرغ من الجرح الذي احتل

جزءاً كبيراً من جانبه الأيسر.. كان الجرح على شيء من السوء استغرقها بعض الوقت لخياطته والصمت يسود الدار تماماً بعد أن هدأت العاصفة ولم يبق منها إلا البلل العالق بكل شيء..

تنهدت ميا بتعب وهي تلقي نظرة على وجهه الذي لم يُبْدِ لمحة لاستعادة الوعي.. ثم عادت إلى عملها بصمت من جديد وهي شبه غارقة في أفكارها حتى كادت تنتهي، عندما فوجئت بيد صلبة تقبض على يدها مما جعلها تشهق مجفلة وتنظر جهة الجريح لتراه على وضعه السابق وإن رفع رأسه قليلاً وعيناه ترمقانها بحدة مشبوبة بالحذر..

جذبت ميا يدها بسرعة وكأن ثعباناً قد لمسها وهي تحاول إيجاد الكلمات لتنطق بها، ثم بعد جهد قالت بارتباك "إنني أعالج جراحك.. لا أنوي سوءاً"

ظل ينظر إليها صامتاً لثوانٍ، ثم أراح رأسه مجدداً على الوسادة مما شجعها لتمارس عملها مدركة أنه يراقبها بدون أن يتفوه بكلمة.. ولما انتهت غمغمت وهي تحمل عدتها ومصباحها "يجب أن تنام.. مازال الليل طويلاً"

وأسرعت تغادر الغرفة ورغماً عنها تساءلت إن كان يفهم ما تقوله، ولما كادت تخرج سمعته يقول بلغتها وبلكنة مميزة للغزاة الذين سمعتهم من قبل "شكراً"

رغماً عنها شعرت بنفضة لسماع صوته الهادئ ولحديثه بلغتها، فلم تجب وسارعت للخروج من الغرفة مغلقة بابها خلفها.. عندما سمعت تلك الكلمة البسيطة لا تدري ما اعتراها.. فجأة بدا لها وجوده حقيقياً، وقبلها لم تكن تشعر به إلا كجسد جريح، وربما جثة هامدة لا ضير منها.. أما الآن، فقد عادت الأمور إلى نصابها.. إنه من أعدائها، من الغزاة.. وهي قد أحضرته بنفسها إلى منزلها عازمة على علاجه بدل أن تسعد لموت واحد من أعدائها..

الآن سنحت لعقلها فرصة الصراخ بما لديه.. لماذا؟ لماذا تهتم لأمر عدو قد يفجر رأسها فور أن ينهض من فراشه؟ لماذا تحرص على حياته وهي تعلم أنه لن يحرص على حياتها أو حياة أبيها قيد شعرة؟ لماذا تتجاهل كراهية أبيها الشديدة للغزاة ومقت شعبها له وتفعل شيئاً ضد ضميرها؟...

ضميرها؟!.. بل الأحرى هذا الضمير هو ما دفعها للقيام بكل هذه الأعمال التي سيعتبرها شعبها خيانة في حقهم.. ضميرها لم يسمح لها برؤية جريح يعاني الألم وقد يواجه الموت دون أن تمد له يد المساعدة بغض النظر عن هويته.. ضميرها هو الذي دفعها لتجاهل كل مشاعرها تجاه الغزاة والنظر إليه كرجل عادي يحتاج للمساعدة العاجلة.. ومادامت قد أرضت ضميرها، فلا داعي لأن تقلق لأي شيء آخر..

اتجهت ميا إلى غرفتها وتأكدت من إغلاق بابها بإحكام، ثم رمت بنفسها على السرير منهكة وهي ترجئ التفكير في أي شيء آخر إلى الصباح..

****

في اليوم التالي، وبينما كانت الشمس تحاول النفاذ من الغيوم الكثيفة لتبدد شيئاً من البرودة المنتشرة في الأجواء، دلفت ميا بهدوء إلى غرفة الجريح حاملة فطوره لتجده قد استيقظ واعتدل جالساً على سريره رغم الإنهاك البادي

على وجهه.. لم تقل ميا كلمة وهي تضع الطعام قريباً منه على السرير، ثم تتجه لفتح ستائر الغرفة عندما تعالى الصوت الذي كانت تخشى مجرد سماعه والجريح يقول "أشكرك مجدداً على عنايتك بي.. أنت ماهرة في التمريض حقاً"

لم تعلق وهي تفتح بعض النوافذ سامحة للهواء بدخول الغرفة التي بدت لها خانقة، فعاد يقول "ولكن لماذا؟ لماذا بذلت كل هذا الجهد من أجلي؟"

أجابت باقتضاب "لأنك جريح.."

فقال بدهشة "فقط؟.. يدهشني هذا التعاطف الذي تبدينه نحو غريب هو عدوك وعدو شعبك"

اقتربت ميا من السرير محتدة رغماً عنها وهي تقول بصوت عالٍ "تعاطف؟ ما الذي هيأ لك هذه النكتة؟ إنه الواجب تجاه شخص جريح، ليس إلا"

أجفلت قليلاً لنظرة عينيه الحادتين بلونهما الرمادي الذي لم تر مثله من قبل، فأدارت ظهرها وغادرت الغرفة بصمت مغلقة الباب بشيء من الحدة.. وجالت في صالة المنزل قليلاً قبل أن تخرج من الباب متفحصة الطريق الذي يصل منزلها بالقرية القريبة ومنها إلى المدينة.. كان التوتر يغمرها وهي تبعد تفكيرها عن ذلك الجريح وتنقل أفكارها إلى أبيها.. لقد تأخر كثيراً.. ترى ما الذي سيقوله عندما يرى ما يحدث في منزله؟ هل سيعاقبها؟ هل سيقتله؟ ما مقدار الثورة التي عليها أن تتوقعها؟.. تتمنى لو يغادر ذلك الجندي منزلها قبل عودة أبيها.. ذلك خير لها وله..

حاولت ميا أن تشغل نفسها أطول وقت ممكن برعاية الحيوانات التي يملكونها، ورعاية المزرعة الصغيرة التي تحتل التل الصغير بجانب الحظيرة.. لم تكن ترغب بالعودة إلى المنزل والعودة إلى هواجسها التي لا تتوقف.. ولما اضطرت لذلك بعد أن صرخت معدتها جوعاً، فوجئت بالجريح جالساً وسط الدار ويبدو أنه تحامل على نفسه كثيراً ليفعل ذلك مع إصابة ساقه.. ولما رآها قال "المنزل خالٍ.. هل تعيشين بمفردك؟"

غلبها التوتر لتساؤله وهي تحاول إيجاد مغزاه، فأجابته بحدة "من سمح لك بالتجوال كما تشاء؟"

رفع يديه قائلاً "لم أكن أنوي التطفل.. حاولت الخروج من الغرفة كي لا أجنّ وحيداً"

فغمغمت وهي تدير ظهرها "لا بأس.. هذا لا يهم"

فقال قبل أن تبتعد من جديد "اسمعي.. أنا أتفهم عدائيتك لي ولا ألومك عليها.. أنا عدوك وإنقاذك لي أكثر مما قد أتمناه.. لكن لو عرف كل منا الآخر بشكل أكبر فقد يزول هذا الخلاف"

فقالت بجفاء "لا يهمني أن أعرف من أنت، ولا يشرفني أن تعرف من أكون"

وأسرعت إلى المطبخ لتعد الغداء تاركة إياه يزفر وهو يحاول تناسي آلام ركبته التي بدأت بالتزايد..

مر ذلك اليوم صامتاً دون أن يتفوه أحدهما بكلمة، وميا موزعة بين أعمالها وبين استكشاف الطريق أملاً في رؤية عربة والدها عائدة بسلام.. كان القلق ينهبها من هذا التأخر وهي التي تتوجس شراً كلما اضطر إلى الذهاب للمدينة لبعض أعماله..

وفي عصر ذلك اليوم، وبينما كانت تبدل ضمادات الجريح بصمت، سألها بشيء من التردد "هل أستطيع أن أسألك شيئاً؟"

نظرت إلى وجهه في إجابة صامتة، فقال "أريد أن تدليني على الموقع الذي سقطت فيه طائرتي.. أريد العودة إليها والبحث عن شيء مهم.."

فقالت "لا أنصحك اليوم.. سيسوء جرح ركبتك فالمكان ليس قريباً.."

نظر إلى الأربطة القديمة التي نزعتها من حول ركبته وشيء من الدماء تغمرها مغمغماً "لا.. ليس ركبتي.. إصابة كهذه قد تحطمني كطيار"

فقالت "عندما تشفى يمكنك الذهاب حيث تشاء.."

عاد يسألها "في أي اتجاه سقطت الطائرة؟"

هزت كتفيها مجيبة "لا أدري إن كان وصفي سيفيدك.. لقد وقعت شمال منزلنا وسط الغابة.. وبالنسبة لشخص جريح فالمسافة بعيدة"

لم يعلق بكلمة وهي تكمل عملها بصمت، ثم عاد يقول "هل لديكم هنا بعض الأجهزة التي يمكن أن تتسبب في تشويش الإرسال؟"

نظرت له بشيء من الحدة وهو يشير إلى الخوذة الموضوعة قريباً منه قائلاً "حاولت الاتصال بقيادتي كي أطمئنهم أنني لم أمت بعد، لكني وجدت تشويشاً غريباً يمنعني من إكمال الاتصال"

فقالت بشيء من الصرامة "لا نملك هنا أي أجهزة مما قد يخطر على بالك.. ثم إنه من غير المقبول به أن تتصل بقيادتك وتخبرهم بمكانك.. إن جاء هؤلاء الجنود فسيعيثون فساداً وقد لا أنجو بحياتي كذلك.. لذلك مادمت في هذا المنزل فأنا أمنعك من إجراء أي اتصال.. وإن أصررت على ذلك فأنا أطالبك بالرحيل فوراً"

ابتسم محاولاً تهدئتها وهو يقول "لا تقلقي.. يهمني ألا أسبب لك الأذى بعد ما قدمته لي.. لن أجري أي اتصال حتى أغادر هذا المنزل"

فجمعت أغراضها وغادرت الغرفة بصمت، فيما استرخى هو في سريره مغمغماً لنفسه "لا بأس من أخذ إجازة في هذا المكان الهادئ على الإطلاق.. حتى لو لم يعجب هذا رؤسائي"

وابتسم لنفسه متخيلاً ردة فعل صديقه الذي كان يتوق لأخذ إجازة طويلة كهذه وهم عادة لا يحظون إلا بيوم واحد على فترات متباعدة..

****

في صباح اليوم التالي، عندما دلفت ميا إلى الغرفة، أدركت على الفور أن الجريح لم يكن على ما يرام.. بدا لها محموماً من احمرار وجهه والعرق ينضح من جبهته وصدغيه رغم برودة الجو والغيوم تعود للتلبد بكثافة مانحة الأرض جواً مظلماً بارداً وكئيباً.. سارعت ميا لتقيس حرارته فوجدت أنها عالية فعلاً.. فتفحصت جراحه لترى إن

كانت إحداها ملتهبة بحيث تسبب هذه الحمى، لكن لم تجد شيئاً كهذا.. فأسرعت لتجهيز بعض الدواء وحقنته به، عندها أجفل وهو يفتح عيناه المتعبتان وينظر إليها.. فقالت على الفور "أنت محموم.. هذا علاج سيهدئ الحمى قليلاً"

ظل صامتاً وكأنه عاجز عن التفوه بكلمة.. فيما ميا تحاول قدر استطاعتها أن تعيد جسده إلى حرارته الطبيعية بالأدوية والكمادات الباردة.. ولما استطاع التحامل على نفسه والجلوس ساعدته على تناول بعض الطعام كي يستعيد قوته بسرعة، وأمضت معظم ذلك الصباح بجوار سريره تعني به.. كان نائماً أغلب الوقت، وعندما يصحو لا يكاد يتفوه بكلمة وهو ينظر إليها بعينين ممتنتين.. لم تكن تريد شكره وامتنانه، لكنها وهي تبدل الكمادات التي تضعها على جبهته لم تشعر بنفسها إلا وهي تتأمله.. كانت تتخيل أن وجوه الغزاة ستكون دالة على قسوتهم التي سمعت عنها.. تخيلتهم بوجوه قاسية شاحبة، أعين ضيقة باردة، فم نحيف مريع، وشعر خفيف، بل ربما رؤوس صلعاء تجعلهم أقرب للثعابين السامة..

لا تدري سبب هذه الصورة التي ثبتت في ذهنها وهي لم تر أحداً من الغزاة بدون الخوذة التي تغطي ملامحه تماماً.. لكنها الآن استغربت هذه الصورة وهي ترى هذا الجندي ذو السمرة المتوسطة، بشعر أسود كثيف ناعم، عيناه الرماديتان اللتان أثارتا فزعها في البداية لا تبدوان بهذه القسوة، بل في بعض الأحيان كانت تراهما مرحتين عندما يبتسم.. بدت ملامحه عادية كأي شاب تراه في القرية..

نفضت تلك الفكرة من رأسها كي لا تسمح لنفسها بأن تنسى من هو.. تطلعت إلى خوذته الصامتة السوداء، وثياب الجنود الممزقة الملقاة جانباً بعد أن استبدلها ببعض ملابس أبيها التي منحته إياها في اليوم السابق.. هذه الخوذة وهذه الملابس تذكرانها دوماً بحقيقته، وبما يجب أن تشعر تجاهه..

بعد أن مضى نصف النهار، كان الجريح قد استعاد شيئاً من عافيته، وجلس في سريره يتناول حساءً وميا قربه تجهز لإعطائه جرعة أخرى من الدواء.. في تلك اللحظة سمعت صوتاً خارج المنزل، فنظرت من النافذة بحثاً عن مصدر الصوت، لكنها كانت تطل على جانب المنزل ولا يمكن رؤية ما يحدث في مقدمته.. فتركت الدواء على الطاولة واتجهت خارجة من الغرفة لترى ما يحدث.. رأت باب المنزل يفتح في تلك اللحظة ليدخل منه رجل أشيب اللحية والشعر، ويبدو التعب على وجهه.. فصاحت بسرور وهي تعانقه "مرحباً بعودتك يا أبي.. لقد تأخرت كثيراً.."

ربت الأب على رأسها بحنان ثم جلس على كرسي قريب وهو يقول زافراً "كانت عودتي صعبة.. لقد شددوا الحراسة كثيراً هذه المرة وأفلتوني بالكاد"

أسرعت ميا تحضر له كوباً من الماء، وجلست قريبة منه والابتسامة تنير وجهها قائلة "أنا سعيدة لأنك بخير.. لقد قلقت عليك كثيراً"

شرب الأب الماء بجرعات كبيرة ثم قال "أرجو أنك لم تواجهي مشاكل في تلك الليلة العاصفة.. كيف هي الحيوانات؟"

أجابت ميا "جميعها بخير.. لقد أفزعتهم العاصفة كثيراً كما أفزعتني أنا، كما أن المولد قد تعطل كالعادة.. لكني....."

فوجئت بأبيها ينتفض واقفاً.. ولما رأت وجهه الذاهل وتتبّعت نظرته وجدته يحدق عبر باب الغرفة المفتوح في الجندي الذي جلس في سريره يراقبهما صامتاً.. غمرها الفزع لدى إدراكها أنها لم تغلق الباب خلفها، ولم تنتبه أن جلوس أبيها في هذه الناحية يتيح له رؤية الغرفة بوضوح، رغم أن ذلك لن يؤخر معرفته بالحقيقة.. لم تدر ما تفعله وهي متجمدة في موقعها.. وبعد لحظات الذهول تلك، التفت إليها الأب ليقول بصوت صارم "من هذا؟"

حاولت أن تبتسم ابتسامة مرتجفة وهي تقول "إنه رجل جريح وجدته قرب المنزل في تلك الليلة العاصفة.. فلم أجد بداً من إنقاذه"

نظر إليها الأب بحدة، ثم تقدم من الغرفة بسرعة ليقف عند بابها.. فلم تفته رؤية الخوذة السوداء وملابس الجنود الملقاة جانباً، فالتفت إلى ابنته قائلاً بثورة "رجل.. أم جندي؟"

شحب وجه ميا وهي تصمت، بينما دلف الأب إلى الغرفة مخاطباً الجندي بحدة "ما الذي جاء بك إلى هذه الأنحاء؟ ما الذي ينتويه رؤسائك من إرسالك إلى قرية جبلية؟"

أجاب الجندي بهدوء "لم أكن مرسلاً إلى هنا.. سقطت طائرتي وأنا في طريق العودة إلى المدينة بسبب العاصفة.. وقامت ابنتك مشكورة بإنقاذي"

صاح الأب بعنف "إنقاذه؟"

لم تتحمل ميا النظر إلى وجهه، فخفضت رأسها والأب يسألها بشدة "لماذا فعلت ذلك يا ميا؟ كان يجب أن تطلقي على رأسه الرصاص"

قالت ميا بخفوت "لم أستطع إلا أن أنقذه.. كان مشرفاً على الموت، وضميري لم يسمح لي بتجاهله"

صرخ فيها "وهل نسي ضميرك آلاف المدنيين الذين يُقْتَلون كل يوم؟"

ثم اتجه إلى الجندي وقال بغضب "أما أنت.. فأنا لا أصدق أكاذيبك.. لابد أنك أرسلت لتحدث خراباً في القرية البريئة وتفسد حتى تُرضي رؤسائك.. من مصلحتك أن تقول الحقيقة"

قال الجندي بصرامة "أنا لا أكذب أبداً.. ولست خائفاً منك لأفعل"

تبادلا النظرات المتحدية والأب يحمرّ غضباً، ولما انتبه الأب أن نظرات الجندي تحولت من وجهه إلى عنقه، سارع لتغطية عنقه بوشاح صوفي كان يرتديه، ثم وجدته ميا يندفع خارج الغرفة وهي واقفة عند الباب.. فنظرت إلى الجندي بقلق لتراه هادئاً رغم كل شيء.. وفي لحظة عاد الأب وهو يقول بغضب "لا يحق لك ألا تخافني.. لست مرهف الإحساس كهذه الفتاة"

فوجئت ميا برؤية سلاح في يد أبيها، فهتفت "ماذا تنوي أن تفعل؟"

صاح فيها "لا تتدخلي.. اغربي عن وجهي فحسابك سيأتي لاحقاً"

أسرعت تقف أمامه صائحة "كلا.. أنا لم أعالجه بكل ما أملك كي تقتله الآن"

اقترب منها بغضب قائلاً "قلت ابتعدي"

قالت بعناد "لا.. إنه لا ينوي لنا شراً مادام في هذا المنزل"

دفعها الأب بعنف لترتطم بالحائط وهو يصرخ "أنت حمقاء.. سيعود لينشر شرّه مع رفاقه فيما بعد"

والتفت إلى الجندي بسلاحه ليجده قد نهض واقفاً رغم الحمى التي لم تغادره وهو يقول بحدة "رغم أنك أباها، إلا أنه لا يحق لك أن تعاقبها على نبل أخلاقها وأنت لا تملك مثلها"

ضغط الأب زناد سلاحه دون تردد وغضبه يشتد، لكن الطلقة طاشت ولم تصب الجندي بعد أن أبعدت ميا يده جانباً بدفعة من يدها وهي تصيح "كلا يا أبي.. أرجوك لا تفعل"

نظر إلى وجهها المرتعب وعينيها الدامعتين وقد صدمه ما فعلته، فقال من بين أسنانه "كيف استطاع أن يغسل عقلك بهذه الصورة في هذه الفترة القصيرة؟ ما الذي فعله بك؟"

سارعت لتقول بتوسل "هل ستقتل عدوك حتى لو كان أعزلاً وجريحاً ومريضاً؟ أهذه هي أخلاقنا؟"

ساد الصمت الغرفة لحظات طويلة، ثم وجدت أباها يدفعها جانباً وهو يتقدم من الجندي قائلاً بشدة "اخرج من منزلي الآن.. ولو رأيتك بعدها حتى لو كنت مع فرقة جنود فسأقتلك على الفور"

فقال الجندي بهدوء "لا تخف.. أعدك أنك لن تراني في هذا المكان أبداً"

قال الأب بجفاء ساخر "ومن يصدق وعودك؟ هو تحذير لك ولغيرك من الجنود.. لن أسامح من يدنس منزلي أبداً.. والآن اغرب عن وجهي"

حمل الجندي خوذته وسار محاولاً ألا يظهر ضعفه بسبب المرض والجراح.. فقالت ميا لأبيها راجية "أرجوك يا أبي.. إنه مريض، والليل قد اقترب.. إن عاصفة توشك أن تهبّ على الجبال.. دعه في المنزل حتى الصباح"

قال الأب بغضب دون أن ينظر إليها "يكفي ما اقترفتِهِ لأجل عدوي.. لا داعي لأن تتذللي من أجله وتذرفي الدموع"

وابتعد عنها إلى غرفته وهو يزفر غضباً بعد أن تأكد أن الجندي قد غادر المنزل.. فتسللت ميا بسرعة إلى الخارج واقتربت من الجندي قائلة بتوتر "أحقاً لن تعود لهذا المكان مرة أخرى؟ ألن تحاول الانتقال مما فعله لك....."

قاطعها الجندي قائلاً "لا داعي للقلق.. إن موقفه طبيعي تماماً، ولن أسعى للانتقام أبداً.. أنتِ الشيء الوحيد غير الطبيعي الذي رأيته في هذه البقاع"

وجدت نفسها تقول "لا تضغط على نفسك في السير.. جرح ركبتك لم يلتئم بعد"

غمغم زافراً "لم يعد هذا مهماً.. لقد انتهيتُ في كل الأحوال.."

ونظر إليها بابتسامة جانبية مضيفاً "عزائي الوحيد أنني عرفت اسم منقذتي.. ميا"

ثم قال وهو يتركها ليتابع طريقه "امسحي دموعك.. أنا لست أهلاً لها"

مسحت ميا عينيها قائلة بشيء من الحدة "إنها ليست من أجلك"

وأدارت له ظهرها مضيفة "ستهب عاصفة عنيفة هذه الليلة.. يحسن أن تجد لك مأوىً الليلة"

وأسرعت إلى المنزل والجندي يراقبها، ثم عاد إلى سيره وهو يعرج متمتماً "يا لميا البريئة.. خيالية ومثالية أكثر من اللازم.."

أما ميا، فلم تكد تدلف إلى المنزل حتى سمعت أباها يقول بسخرية حيث جلس وسط المنزل "هل استمتعت بوداعه؟"

قالت بضيق "لا يهمني وداعه.. بل نبهته إلى أن جراحه لا تحتمل سيراً مرهقاً"

ضحك الأب وسخريته تزداد وهو يقول "لا تقلقي، سيلقى حتفه قبل طلوع نهار الغد.."

احتدت ميا رغماً عنها وهي تقول "لماذا أنت مسرور هكذا لتعذيب رجل جريح؟ إنه إنسان مهما فعل.. لم أعهدك قاسياً بهذه الصورة يا أبي"

قال بهزء "ولم أعهدك حمقاء بهذه الصورة"

قالت بضيق "ما فعلته ليس حمقاً.. لقد عالجت الكثيرين.. ولم يكن من حقي أن أسلب أحداً حياته"

نهض الأب واقفاً واتجه إلى النافذة قائلاً بجدية "ليس من حقك أن تمنحي الحياة لمن سلبها من شعبك.. من أناس أبرياء لم يسعوا إلى هذه الحرب ولم يكونوا سبباً فيها.. ما ذنبهم أنك أشفقت على عدوهم ومنحته الفرصة ليعيش عمراً أطول فيقضيه في قتل المزيد من الأبرياء؟ ألم تفكري للحظة في ما قد يفعله هذا الجندي بعد عودته إلى جيشه شاكراً رعايتك الكريمة له؟ لن يعتزل الحرب هذا شيء مؤكد.."

أطرقت ميا برأسها وهي تغمغم "منذ وجدته وعقلي مشتعل بحرب بين ضميري الذي يملي عليّ علاج أي جريح، وواجبي تجاه شعبي ألا أعين عدوه عليه.. لكن ضميري انتصر في النهاية رغماً عني"

زفر الأب يائساً من هذا الحوار ولاذ إلى غرفته تاركاً ميا تنظر من النافذة بذهن فارغ.. فارغ تماماً..

****

الفصـــل الثاني

مرت عدة ساعات على ميا وهي منزوية في غرفتها غير قادرة على مواجهة أبيها بعدما حدث، وقد لاحظت من نافذة غرفتها أنه قد شغل نفسه بإصلاح المولد المعطل، وقد أفلح بذلك بعد وقت قصير دون الحاجة لإبدال أي قطع فيه.. فعادت الكهرباء للمنزل وعاد النور ليضيء جنابته بعد أن عجزت الشمس التي غابت وراء الغيوم الكثيفة عن ذلك..

بعد تلك الساعات الطويلة، سمعت ميا جلبة في المنزل دفعتها لتفتح باب غرفتها، فرأت أباها يقف وسط المنزل متوتراً، وبجواره رجل غريب لم يسبق لها رؤيته، وكان يهمس لأبيها بانفعال أثار اهتمامها.. فأصاخت السمع دون أن تبدي نفسها لهما.. كان الغريب يقول بشيء من الحدة "هذه هي فرصتنا الأخيرة.. إما أن ننالـه الآن أو لا نفعل أبداً.. جميع الظروف في صالحنا، فلا تخذلنا الآن.."

قال الأب بتوتر "هذه مخاطرة شديدة.. قد يخسر رفاقنا حياتهم فيها.. لست أدري لم أنتم مستعجلون لإنهاء هذا في هذه الليلة"

قال الغريب بانزعاج "أتسألني لماذا؟ هذا الرجل هو الشيطان بعينه في الجنوب.. لقد أذاقنا الجحيم منذ قدومه.. لست بحاجة لتذكيرك بهذا الآن.."

زفر الأب مفكراً للحظة، ثم غمغم "هل جهزتم كل ما نحتاجه؟"

أجاب الغريب بلهفة "أجل.. سأشرح لك كل التفاصيل في الطريق.."

رأت ميا أباها يترك الغريب، فأغلقت باب غرفتها بسرعة وجلست قرب النافذة تتأمل الظلام الذي بدأ يحل باكراً متسائلة عن معنى كل ما سمعته.. وبعد عدة دقائق من الصمت دلف الأب إلى غرفتها قائلاً "هناك صديق يحتاجني لأمر ضروري في مزرعته.. الأمر مستعجل ويجب أن أذهب الآن.. آمل أن أستطيع العودة خلال يوم أو يومين"

بدا قوله غير مترابط مع ما سمعته من حديثه مع الرجل الغريب مما حيّرها، فنظرت له دون أن تعلق.. تنهد الأب وتناول يدها قائلاً "يا ابنتي.. أعرف أنني تعاملت معك بقسوة شديدة اليوم.. لكن ثقي أن كل الأمور ستعود لطبيعتها بعد أن أعود"

ومسح على رأسها كطفلة صغيرة قائلاً "أعرف أنك قادرة على العناية بنفسك هذه المرة أيضاً"

فقالت بعد صمت "انتبه لنفسك أبي.. لا تدع غضبك يقحمك في مشاكل مع الغزاة، فلا أريد أن أفقدك.. أرجوك"

ابتسم الأب ابتسامة حارت في تفسيرها.. ثم قال وهو يمد يده بسلاحه "خذي هذا في حال احتجت إليه.. وإن عاد ذلك الجندي، فجّري رأسه على الفور"

نظرت إلى السلاح دون أن تمد يدها معلقة "أنت تعلم أنني لن أفعل ذلك أبداً"

زفر الأب قائلاً "لن أجادلك الآن.."

ووضع السلاح على الطاولة.. وبعد فترة قصيرة كان يغادر المنزل مع الغريب وميا تراقبهما من نافذة غرفتها التي بدأت تتبلل بزخات الأمطار.. كان تفكيرها منشغلاً بما سمعته من حوارهما.. هل حاول أباها خداعها بادعاء ذهابه إلى صديق؟ ما سر ذلك الحوار الغامض الذي لم تفلح في التقاط معانيه جيداً؟ ومن هو ذلك الرجل الذي تحدثا عنه؟ وما الذي ينويان فعله هذه الليلة؟..

نفضت تلك الأفكار من عقلها وهي تنهض بعد أن تأكدت من ابتعاد أبيها عن المنزل بمسافة كافية.. فحملت معها معطفين مضادين للبلل، وخرجت من المنزل بعد أن ارتدت أحدهما لتسير في الطريق الذي سقطت فيه الطائرة.. كانت تأمل أن تجد الجندي الجريح قريباً من الحطام، وقد وجدته هناك بالفعل.. كان جالساً على الأرض يسند ظهره إلى جذع ذات الشجرة التي أنزلته ميا منها.. بدا الإعياء واضحاً عليه حتى بدا غير مبالٍ بالمطر الذي بلل رأسه.. ولما اقتربت ميا منه نظر إليها وابتسم ابتسامة شاحبة قائلاً "ما الأمر يا فتاة.. هل هربت من أبيك؟"

لم تجبه وهي تضع معطف المطر عليه لتقيه البلل ملاحظة أن الحمى قد عادت إليه أقوى من السابق.. جراحه قد تلوثت بالدماء مجدداً، أما ركبته فقد كانت في حال يرثى لها والدماء تغطي الضماد الملوث بالطين.. تأكد لها أنه قد تعثر في سيره على هذه الأرض غير المستوية والزلقة، وربما آذى ركبته أكثر من السابق بسقوطه عليها.. فسألته "هل تستطيع السير؟"

قال نافياً "ليس الآن.. جسدي منهك والحمى تكاد تقتلني.. سأرتاح هنا الليلة وأتابع سيري غداً صباحاً"

قالت باعتراض "مستحيل.. يجب أن تعالج من هذه الحمى الآن، وجراحك بأسوأ حال.. العاصفة قد بدأت طلائعها إن لم تلاحظ هذا.."

فقال دون أن يتحرك "لا مكان آخر لي لألجأ إليه.."

قالت بإصرار "سنعود إلى منزلي.. هيا"

فقال بهزء "وماذا عن أبيك الغاضب؟"

أجابته "ليس موجوداً.. رحل من جديد ولن يعود هذه الليلة.."

فقال "عودي للمنزل ولا تبقي في هذه العاصفة.. سأرتاح قليلاً ثم أتبعك إلى هناك.. أعرف طريقي جيداً الآن.."

لم تعلق ميا بكلمة وهي تعود أدراجها بسرعة فيما أغمض هو عينيه غير عابئ بآلامه ولا بالبرودة من حوله.. وبعد عشر دقائق تقريباً، سمع صوتاً دفعه لأن يفتح عينيه وينظر بدهشة.. فرأى ميا تقترب على ظهر حصان أسود اللون، ولما وصلت إلى مكانه ترجلت قائلة "هذا الحصان سيعيدك بشكل أسرع إلى المنزل"

غمغم الجندي "لا خبرة لي بالأحصنة.."

قالت وهي تقرب الحصان منه "عليك فقط أن تتشبث به.."

تحامل الجندي على نفسه ليقف ويمتطي الحصان بعسر شديد، ولما استقر على سرجه تشبث به بيديه محاولاً الحفاظ على توازنه، فجذبت ميا لجامه وسارت جواره حاملة الخوذة التي كانت ملقاة جانباً عائدة إلى المنزل بأسرع ما تستطيع قبل أن تزداد حدة العاصفة التي كانت منذرة بالسوء.. ورغم صراعها مع عقلها سابقاً، ورغم

ثورة أبيها وتعنيفه لها.. إلا أن ميا لم تكن تحمل أي بذرة تردد وهي تعود لإنقاذ الجندي للمرة الثانية، وهذا شيء أدهشها هي نفسها أكثر من أي شخص آخر..

****

عندما استيقظ الجندي صباح اليوم التالي، كان المنزل هادئاً هدوءاً شديداً جعله يشك بوجود أحد فيه.. حاول الاعتدال جالساً وهو يشعر بأن الحمى كانت أخف مما عاناه في الليلة السابقة، ونظر إلى ركبته ليجد أنه تم الاعتناء بها بشكل جيد.. لكن عندما حاول تحريكها سببت له ألماً شديداً اقتنع معه بضرورة عدم فعل ذلك في الآونة..

فتح الباب في تلك اللحظة، فتوجس للحظة متوقعاً رؤية الوجه الأشيب الغاضب، لكنه رأى وجه ميا المتعب وهي تحمل فطوره صامتة، فقال "هذه هي المرة الثانية التي تنقذين فيها حياتي.. أم أقول المرة الثالثة إذا اعتبرنا أن أباك كان عازماً فعلاً على قتلي؟"

قالت ميا وهي تضع الفطور قريباً منه "لا أريد شكراً منك لو كان هذا ما تنوي فعله.."

ابتسم معلقاً "ظننتك قد انتهيت من هذه المشاعر العدائية المفتعلة.."

نظرت إليه بحدة قائلة "مفتعلة؟ هل تسخر مني؟"

هز رأسه مجيباً "طبعاً لا أقصد سخرية منك.. لكنني عندما فكرت في الأمر، وجدت تناقضاً بين جهودك التي ترمي إلى مساعدتي، وتصرفاتك التي تظهر كرهاً لي.. لو كنت تكرهينني حقاً لتخليت عن مساعدتي وتركتني أواجه مصيري.. لكن التفسير الوحيد الذي وجدته هو أنك تظهرين كراهيتي لتُرضي عقلك.. كي لا يتناهبك التشتت بين ما تفعلينه وبين ما يجب أن تفعليه.."

غمغمت مقطبة "لست بحاجة لمن يفسر لي تصرفاتي.."

أكمل دون أن يعبأ بضيقها "الشيء الوحيد الذي لم أجد له تفسيراً مقنعاً، هو لم انهمرت دموعك في تلك الليلة..؟"

سارعت لتقول "ليس من أجلك بالتأكيد.."

قال مبتسماً "لقد أوضحتِ ذلك سابقاً.."

أشاحت بوجهها صامتة للحظات، ثم قالت وهي تقترب من النافذة "لا أستطيع تفسير ما اعتراني في تلك اللحظة.. لقد كنت أتأهب لمواجهة غضب أبي منذ جئت بك إلى هنا.. لكنني عندما رأيت مقدار غضبه، شعرت بالخوف حقاً.. لم يسبق له أن عاملني بقسوة أبداً.. شعرت أنه لم يكن الأب الذي عرفته طوال حياتي.. ثم إنني أحسست أنني خذلته بتصرفي هذا.. خنت حبه لوطنه وشعبه، وأنا واثقة أنه لن يغفر لي هذا أبداً"

قال الجندي مهوّناً عليها "أنا واثق أنه سيغفر لك ذلك، عندما يتأكد أنك لم تفعلي هذا إلا بنوايا حسنة"

هزت رأسها قائلة "هناك شرخ في جدار علاقتي بأبي، ولن يمكنني إصلاحه أبداً.."

ثم استدارت مغادرة الغرفة دون أن تنظر إليه قائلة "تناول فطورك قبل أن يبرد"

سمعته يقول لها قبل أن تخرج "يحسن أن تنالي قسطاً من الراحة.. فالإعياء ينضح من وجهك"

لم تعلق وهي تتجه إلى غرفتها.. كانت متعبة حقاً، فقد قضت الليل بطوله مستيقظة تعتني بجراحه وبمرضه غير عابئة بإجهاد جسدها.. لكن النوم والراحة كانا أبعد منها مع عقلها المشحون بهواجس عديدة..

انقضى يومان قبل أن يشفى الجندي تماماً من الحمى، وميا تعتني به بصمت كعادتها، دون أن يعود الأشيب من عمله لحسن حظ الجندي.. أصبحت جراحه في حال أفضل، إذا استثنينا ركبته التي ما برحت تسبب له آلاماً شديدة.. وفي صباح ذلك اليوم، خرج من المنزل يعرج قليلاً وهو يحمل خوذته بيده متجهاً إلى ميا التي جلست على كرسي قرب باب المنزل تتأمل الطريق الذي يقود إلى القرية صامتة.. فقال لها "أقلقة أنت على أبيك؟"

التفتت إليه بشيء من الدهشة قائلة "ما الذي دفعك للخروج الآن؟"

أجاب بابتسامة "حان وقت رحيلي.. فبقائي أكثر من هذا يعتبر استغلالاً لكرمك.."

وإزاء نظرتها المتشككة إلى ركبته سارع ليقول "لا تخشي شيئاً.. لن أؤذي ركبتي.. فور أن أبتعد عن هذا المكان سأتصل بالقيادة وأطلب من صديق لي ملاقاتي بعيداً عن هنا"

فعادت تنظر إلى الطريق صامتة عازفة عن الرد.. لم يتحرك الجندي من مكانه وهو يتأملها للحظات، ثم قال "أما زلت مصرة على إبقائي نكرة بالنسبة إليك؟"

أجابت دون أن تنظر إليه "بقاؤك نكرة سيساعدني على نسيانك بسرعة.. لا يمكن للمرء أن ينسى شخصاً عرف اسمه بشكل نهائي"

فقال "لكنني لا أريدك أن تنسيني.. كما أنني لن أنساك أبداً.."

التفتت إليه محدقة في وجهه للحظة، ثم قالت "ما الذي ترمي إليه؟ لقد أديت واجبي في إنقاذ حياتك.. فأي شيء يمكن أن يبقى بين جندي من الغزاة وفتاة عادية؟"

تنهد مغمغماً "لست أدري حقاً.."

فأشاحت بوجهها قائلة "إذن ارحل.. لم يعد هناك ما يربطك بهذا المنزل منذ الآن.. يمكنك أن تعود إلى رفاقك الذين يحيلون عالمنا إلى جحيم"

لكنه عوضاً عن ذلك جلس على كرسي قريب وهو يقول "اسمعي.. قد لا تصدقين ما أقوله.. لكنني أؤكد لك أنني لم أقتل إنساناً على كوكبكم أبداً.. أنا لم أكن أبداً راغباً بالمجيء إلى هذه الحرب المقيتة، ولم أكن راضياً عما يحدث"

فقالت "إذن لم جئت؟"

أجاب زافراً "لأنهم سيحيلون حياتي أنا إلى جحيم لو رفضت.. الرفض ممنوع، وقد يكون عقابه القتل.. لذلك عندما أجبروني على القدوم، حرصت على الانضمام إلى فرق الاستطلاع والتي مهامها جمع المعلومات فقط ولا تشترك في المعارك أبداً.."

قالت هازة رأسها "حديثك هذا غير مقنع.. كل ما سمعناه منكم غير مقنع في الواقع.. رفضك للحرب وأنت مشارك فيها.. ادعاؤكم أنكم تريدون الخير لنا وأنتم تقتلوننا.. إعلانكم أن الغرض من قدومكم هو إحلال السلام على كوكبنا وفك حروبه ونزاعاته بينما أنتم تنشرون حرباً أكبر منها وتفرضون سيطرتكم علينا.. لمَ الكذب؟"

قال باعتراض "أنا لم أكذب فيما قلته.. أما بالنسبة لادعاءات جيشنا، فهذه ادعاءات الاستعمار في كل وقت.. المغزى الحقيقي للحرب هو الحصول على ثروات معينة يملكها كوكبكم ونضبت من كوكبنا"

نظرت إليه باستنكار، فأضاف "أجل.. ما يسعون إليه حقاً هو اليورانيوم.."

تساءلت ميا بحيرة "وما هو هذا الشيء؟"

أجابها "إنها مادة مهمة لإنتاج الطاقة النووية التي تعتمد عليها حياتنا في كوكبنا.. لقد نضبت مصادر الطاقة الأخرى، والبديل لا يكفي احتياجاتنا واستهلاكنا.. الطاقة النووية سخية وطويلة الأمد، وهي تفيدنا على كوكبنا وعلى الكواكب الأخرى القريبة التي استعمرناها.. لكن بعد عقود طويلة من الاستهلاك، بدأ اليورانيوم ينضب، مما حتم البحث عن مصادر بديلة له في أماكن أخرى.. وهكذا قادتنا بحوثنا إلى كوكبكم الذي لم يعرف هذه المادة ولم يستهلك شيئاً منها.. بدا الكوكب كأنما يسبح فوق بحر من اليورانيوم، مما شجع قادة كوكبنا على اتخاذ الخطوة اللازمة للحصول على هذه الطاقة، وهي احتلال هذا الكوكب.."

كانت ميا تنظر إليه باستنكار، ثم تساءلت مقطبة "وهل تنوون حقاً تحويل هذا الكوكب موطناً لشعوبكم؟"

ابتسم مجيباً "لا.. تلك إشاعة.."

فقالت وقد تزايد حنقها "أهذا سبب كل تلك الجرائم التي ترتكبونها حقاً؟ أي طمع أعشى عيونكم؟"

تنهد معلقاً "أفهم الاستنكار والغضب الذي تشعرين به.. في الواقع كوكبنا يتألف من شعوب وأجناس عديدة، عانى نصفها من احتلال مشابه لهذا بأسباب مشابهة.. شعبي أيضاً عانى الاحتلال والقمع والقتل بسبب ثروات أرضه من شعوب كانت تفرض الوصاية عليه بادعاء إصلاح حاله ونقله من الظلام الذي يعيشه.."

ثم نظر إليها مبتسماً وقال "تجري في عروقي دماء الثوار الذين رفضوا الاستعمار بكل أشكاله ودفعوا دماءهم ثمناً لرفضهم.."

عندها قالت "إذن كان حرياً بك ألا تخونهم بانضمامك إلى من كانوا أعداءهم يوماً ما، وممارستك لذات العمل الذي كانوا يرفضونه.. لو علموا أنك ستأتي إلى كوكبنا هذا مذيقاً شعبه ما ذاقوه هم لما سرّهم انتماؤك لهم.."

صمت عن التعليق وجملتها تدوي في رأسه بشكل متعاظم، ثم قال مغيراً الموضوع في هرب واضح من هذه الفكرة "حان وقت رحيلي.. لا يجب أن أتأخر أكثر من هذا.."

وسار مبتعداً وهي تنظر إليه بصمت، عندما سمعته يقول "خالد.."

تساءلت بدهشة "ماذا؟"

التفت إليها مبتسماً وقال "هذا هو اسمي.. وأنا عربي.. لا تنسي هذا أبداً.. حتى نلتقي.."

وأشار لها بيده وهو يغادر فيما لم تستطع منع شبح بسمة من الارتسام على شفتيها وهي تغمغم "حسناً أيها العربي.. سنرى إن كنا سنلتقي حقاً.."

****

حالما هبطت الطائرة بشكل عمودي في بقعة خالية من الأشجار، حتى أسرع خالد إليها رغم عرجه، فرأى قائدها يخرج وهو يرمي إليه بشيء قائلاً "أين كنت أيها الأحمق؟ حالتك يرثى لها.. لقد خلّفت وراءك قلوباً ثكلى يا رجل.."

التقط خالد ملابس الجنود الجديدة التي ألقيت له وشرع يرتديها على الفور قائلاً "سأخبرك بكل ما حدث لاحقاً يا أيمن.."

وقف أيمن قربه وهو يقول "هل أنت متأكد أنك لازلت حياً؟ تبدو كمن تم تقطيعه إلى عدة أجزاء.. نسخة حديثة من فرانكنشتاين.. ربما أوسم قليلاً"

قال خالد بابتسامة "وأنت كنت تود التخلص مني دون شك"

قال أيمن هازاً رأسه "لقد حسبناك مت فعلاً.. لم نستطع إيجاد إشارة طائرتك ولا حطامها.. وخوذتك لم تستجب لمحاولاتنا الاتصال بها.. وأنت لم تظهر منذ ما يزيد على الأربعة أيام.. لقد جهزنا لك سرادق العزاء ولم يبق إلا أن نعلن افتتاحه"

قال خالد ضاحكاً "يا للرقة والتعاطف.."

فقال أيمن بجدية "لقد كاد أنطونيو يجنّ.. أولاً لأنك خالفت أوامره بشكل صريح عندما غيّرت مسارك.. ثانياً لأنك اختفيت وهذا كان من أسوأ كوابيسه"

غمغم خالد "لا تبالغ.."

صعدا إلى الطائرة وأيمن يرتفع بها من جديد قائلاً "بل الحق أقول.. أنت طيّاره المفضل، وهو يعدّك كي تحل محله في يوم من الأيام.. لذلك غاظه أن تتجرأ على إنهاء حياتك قبله"

انشغل خالد بتثبيت بطاقة هويته التي استرجعها من حطام طائرته على صدره لئلا يفقدها ثانية.. فسمع أيمن يقول "إذن.. أي متخلف عقلي رضي بأن يعالج جراحك رغم كونك من الجنود؟"

ارتسمت ابتسامة على شفتي خالد دون أن يجيب، فقال أيمن على الفور "أم هل أقول متخلفة عقلية؟"

قطب خالد قائلاً "لا تصفها هكذا.. إنها أنبل فتاة رأيتها.. لقد أنقذت حياتي ثلاث مرات.."

صفّر أيمن بدهشة معلقاً "كانت أيامك حافلة هناك إذن.. أي نوع من الفتيات كانت؟"

غمغم خالد وهو ينظر إلى الغابة تحتهما وقد بدأت تنحسر "زهرة برية هي.. تجاوزت كل الخلاف الذي يفرق بيننا، وتحدّت أباها الذي كاد يقتلني من أجل إنقاذ حياتي.. سَمَت بأخلاقها عالياً فيما لم يستطع الرجل العاقل أن يفعل ذلك.."

ثم ابتسم معلقاً "لا أعرف عمرها الحقيقي.. لكن لو كانت أقصر قليلاً لبدت في الثالثة عشرة من عمرها.. فعيناها السوداوان الواسعتان وملامحها الصغيرة لا توحي بعمرها الحقيقي.. ويزيدها شعرها الأسود القصير حتى كتفيها براءة غير طبيعية.."

قاطعه أيمن ضاحكاً "سَحَرَك الجمال المحلي إذن.. كما سحر العديد من رفاقنا.."

قال خالد بازدراء "أجل.. سحرهم الجمال المحلي وهم يعتقلون النساء ويذيقونهن أصناف التعذيب والمهانة.."

قال أيمن "لا تغير الموضوع.. أأحببتها بهذه السرعة؟"

غمغم خالد بخفوت "أهو حب؟ أم امتنان؟ حقاً لست أدري بعد.."

فقال أيمن "ستكشف الأيام لك الحقيقة يا صديقي.. هذا لو قدّر لك رؤيتها من جديد.."

غاب نظر خالد في السحاب الذي يغطي السماء وابتسامة ترتسم على شفتيه.. ربما.. ربما في الأيام القادمة يراها أكثر، ويتعرف عليها أكثر، وربما يزول كرهها له أكثر..

تبدّت لعينيه المدينة القريبة (سِن) في الأفق بمبانيها المتراصّة وأبراجها العالية والتي تشغل مساحة كبيرة من تلك البقعة.. وللمرة الأولى منذ قدومه لهذا الكوكب الذي يسميه أهله (كوميت)، لم يشعر بالكآبة لرؤية تلك المدينة التعيسة.. للمرة الأولى شعر أنه ينتظر أيامه القادمة بشيء من اللهفة.. أهو حب؟ أم امتنان؟.. ستكشف له الأيام ذلك بالتأكيد..

****

في تلك الليلة التي غاب قمرها، استيقظت ميا متحفزة وهي تتلفت حولها في الظلام.. لقد سمعت صوتاً غريباً.. رغم خفوته لكنه بدا واضحاً في الصمت الجبلي الموحش.. خرجت من غرفتها مستطلعة بخفة لتتأكد من إغلاقها جميع أبواب ونوافذ المنزل بإحكام، ثم نظرت من إحدى النوافذ الأمامية بحثاً عن مصدر الصوت.. ورغم أن الظلام كان حالكاً في الخارج، والغيوم تغطي وجه القمر مضفية وحشة على الغابة من حولهم، إلا أن ميا ارتاعت لرؤيتها طائرتين من طائرات الغزاة تهبط على مبعدة من منزلها في المساحة المنبسطة حول المنزل والحظيرة ويترجل منها عدد كبير من الجنود.. ويبدو أنهم حرصوا على المباغتة إذ كانت أضواء الطائرتين مطفأة، وهي لا تصدر أي صوت عالٍ كالعادة، والجنود يهبطون من الطائرتين لينتشروا في الموقع ويحيطوا بالمبنى بصمت تام.. هرعت ميا إلى غرفتها حيث ترك أباها السلاح لها ودقات قلبها تتعالى في صدرها.. إنها المواجهة الأولى لها بهم وحيدة، وهي تخشى عواقب مثل هذه المواجهة.. سمعت صوت بابي المنزل الأمامي والخلفي يفتحان بعنف إثر ضربات الجنود، فظلت مختبئة في غرفتها خلف الباب وهي تحاول تمالك أعصابها المرتجفة.. سمعت الخطوات تدك الأرض دكاً والأبواب تفتح بعنف، فزادت من ضغط يدها على سلاحها وهي تزدرد ريقها بصعوبة.. وبعد ثوانٍ، دلف اثنان من الجنود إلى غرفتها مشهرين أسلحتهما، فعاجلتهما ميا بطلقات من سلاحها وهي تحاول إجادة التصويب رغم عدم مهارتها.. لكن الجنديين تفاديا الطلقات بسهولة وأحدهما يجردها من سلاحها بضربة من يده..

حاولت ميا الهرب لكن الجندي الثاني قبض على ذراعيها وأدارهما خلف ظهرها بقسوة ودفعها أمامه خارجاً من الغرفة وهي تصيح محاولة جهدها الإفلات.. تبادل الجندي مع آخر كلمات مقتضبة بلغتهما التي لم تفهمها، ثم قال لها بصرامة "أين البقية؟"

قالت بحدة "لا أحد هنا غيري.."

فقال وهو يهزها "لا تكذبي.. أين الآخرون؟ لابد أن مخبؤهم في مكان ما هنا.. أين هو؟ أجيبي.."

صاحت بغضب "لست أكذب.. راجع معلوماتك جيداً.."

فوجئت به يلطمها حتى ألقاها أرضاً وهو يصيح "ستعترفين.. ستدلينا على المخبأ وأنت صاغرة.."

أوقفه رفيقه وهو يقول "اهدأ.. لا يبدو أنها تكذب.. ربما لم يكن هذا مركزهم هنا.."

واتجه إليها ليوقفها ويقيد يديها خلف ظهرها، ثم ألقى بأوامره إلى الجنود في المنزل، فرأتهم ميا يتراجعون إلى الطائرتين بعد أن أنهوا تفتيشهم، وقادها الجندي إلى إحداهما وهي تقاومه صائحة "اتركني.. إلى أين تأخذني؟"

لم يجبها وهو يجبرها على صعود الطائرة.. ولهلعها رأت ميا الجنود يضرمون النار في المنزل والحظيرة قبل أن يتراجعوا عائدين إلى الطائرة، فصاحت بفزع "لماذا تحرقون كل شيء؟ الحيوانات في الحظيرة.. لماذا تفعلون هذا؟"

دفعها أحد الجنود بسلاحه لتجلس قائلاً بحدة "اصمتي.."

ابتلعت ميا غضبها وهي تنظر بهلع لما يجري، للنار التي سرعان ما بدأت تأكل المنزل الخشبي بشراهة، وتصغي لأصوات الحيوانات التي أطلقت صيحات فزع يائسة وهي محاصرة بين النيران.. سالت دموعها على خدها وهي تراقب بشاعة ما يجري، وحاولت تهدئة مخاوفها وفكرة واحدة تتردد في ذهنها عن سبب كل ما جرى لها.. ذلك الجندي العربي..... خالد...

****

استلقى خالد على سريره في مبنى المستشفى التابع للجيش، والمقام وسط مدينة سِن، بعد أن قام الطبيب المختص بالعناية بجروحه، وبشكل خاص ركبته التي وصفها بأنها بالغة السوء.. لكن خالد لم يهتم وهو يسترخي قائلاً لأيمن الجالس إلى جواره "كف عن الحسد أيها الحاقد.. وما الضير في أن أحصل على يومين إضافيين للراحة؟"

قال أيمن باستنكار "إضافة للأربعة أيام السابقة؟ في أي نعيم تعيش أنت؟ هذه تفرقة عنصرية.."

فقال خالد ضاحكاً "إذن احرص على أن تسقط بطائرتك في أقرب فرصة، لكن انتبه كيلا تدق عنقك"

سمعا نحنحة خلفهما، فالتفتا ليريا رجلاً أكبر سناً ورتبة منهما، فهبّ أيمن واقفاً يؤدي التحية بينما اعتدل خالد في جلسته والرجل يقول بالإنجليزية "بودي لو أفهم ما تقولانه.. يبدو أنكما كنتما تتسليان بالحديث عن أحدهم، وأرجو ألا أكون هو"

ابتسم خالد قائلاً بنفس اللغة "قطعاً ليس أنت سيدي القائد.. كنت أسدي لأيمن بعض النصائح ليس إلا.."

علق القائد أنطونيو "أنت آخر من يمكنه إسداء النصائح هنا بعد كل ما فعلته.."

والتفت إلى أيمن متسائلاً "متى تبدأ مناوبتك يا فتى؟"

أجاب أيمن "بعد عشر دقائق سيدي.."

فقال أنطونيو "إذن حريّ بك أن تسرع.. أنت تعرف قانوني بالنسبة للنسور.. التواجد قبل المناوبة بعشر دقائق يعتبر تأخيراً.."

احمرت أذنا أيمن وهو يؤدي التحية ويغادر ملقياً نظرة غيظ على خالد الذي اتسعت ابتسامته.. فيما جلس أنطونيو قرب السرير قائلاً "لقد طمأنني الطبيب عليك.. لكنه يبدي قلقاً من جرح ركبتك.."

قال خالد "لقد وصفها بأنها أسوأ ركبة رآها.."

قال أنطونيو "يبدو أنك أجهدتها وهي مصابة.. وهذا خطر عليك كطيار.. أنت تعرف أن هذه المهنة بالغة الحساسية.. إن فقدان كفاءة أحد أعضائك ولو بدرجة ضئيلة يعني إحالتك للتقاعد كطيار فوراً"

غمغم خالد دون أن يبدي قلقاً "لا تخف سيدي.. لن أفقد كفاءتي.. هذا جسدي وأنا أعرف إمكانياته.."

فقال أنطونيو بشيء من الحدة "كفاك استهانة بما أصابك.. إن إهمالك لأوامري هو السبب الرئيسي في فقداننا لطائرة من أفضل ما نملك، وتهديدنا بفقدان أفضل طيارينا.."

قال خالد بثبات "لم أهمل أوامرك سيدي.. لكن العاصفة فاجأتني وأنا في قلبها، لذلك رأيت أن من الأسلم لي الابتعاد عن مركزها والاتجاه إلى جزء أخف وطأة.. لكن العاصفة لم تمهلني لإكمال ما خططت له.."

فقال أنطونيو "سيتم استجوابك ضمن لجنة خاصة لمعرفة صحة ما تقوله، قبل تقرير العقوبة المناسبة.. لذلك كن مستعداً لها.. لن أكون موجوداً لأنقذ عنقك هذه المرة"

ابتسم خالد معلقاً "سأكون راضياً بأي عقوبة تنزلونها عليّ.. آن الأوان لكسر إشاعة أنني أنال حظوة لدى القيادة.. لقد سئمت حسد الآخرين"

ضحك أنطونيو قائلاً "ربما كنت تملك حظوة فعلاً، ولكن هذا راجع لطموحك ومثابرتك واجتهادك.. لا أظن أحداً يشك في قرابتك لي كي تنال هذه الحظوة وأنت لا تستحقها.."

ثم نهض مضيفاً "استمتع بإجازتك هذه.. فبعد أن تشفى سأحرص أن تحرم من أي إجازة لثلاث شهور على الأقل"

وغادر الغرفة تاركاً خالد يبتسم وهو يسترخي في سريره.. وعلى الفور عادت ملامح ميا تتشكل أمامه في فراغ الغرفة وهو يتذكر وجهها المنير بابتسامة عذبة وهي تنظر إلى أبيها.. أهو حب حقاً؟.. ربما لم يكن ذلك الحادث الذي كاد يودي بحياته سيئاً فعلاً.. قد يصحّ له أن يعتبره حادثاً سعيداً، والذي لولا حدوثه لما قدر له أن يلتقي بهذه الفتاة التي لا تكاد تغيب عن عقله.. ورغم أن ساعات قلائل مضت منذ تركها، إلا أنه شعر بندم على تسرعه في المغادرة.. ماذا لو أنه بقي يوماً آخر؟ قد يتمكن من معرفتها أكثر، وقد تلين مقاومتها التي تجعلها تراه كعدوها..

تذكر في تلك اللحظة الوعد الذي قطعه أمامها وأمام أبيها بألا يعود إلى المنزل، فزفر وهو يقطب والضيق يكتنفه.. فكيف السبيل الآن لرؤيتها ثانية؟...

****

تردد صوت الصفعة في الغرفة الضيقة العارية من الأثاث إلا من طاولة جانبية، وكرسي في الوسط قيدت عليه ميا بإحكام ودويّ الصفحة يتردد في أذنيها وهي تشعر بالدماء تحتشد في خدها الذي توهج احمراراً.. لكنها لم ترفع بصرها إلى الضابط الذي صرخ فيها بغلظة "كاذبة.. والدك قد تم القبض عليه متلبساً مع جمع من الثوار.. لذلك فأنت ولاشك لك انتماء للثوار أيضاً.. والآن أجيبيني.. أين يقع مخبؤكم؟"

بهتت ميا وهي تسمع المعلومة للمرة الأولى.. إذن والدها قبض عليه أيضاً؟ اعتراها ذعر شديد وهي تفكر في الأمر.. لكن الضابط لم يتركها لأفكارها وهو يصرخ بحدة أكثر "أجيبي.."

قالت ببرود ظاهري "لست أدري عن هذا شيئاً.."

قال الضابط بغيظ "حتى متى ستقاومين؟ حياتك وحياة أبيك رهن بتجاوبك.. وأحذرك أنني لست صبوراً أبداً.."

لم تجبه بكلمة وهو يتطلع إليها نافذ الصبر، ثم جذبها من شعرها فجأة وهو يصيح "تكلمي.. أريد أن أعرف أسماء الثوار، مخابئهم، مخططاتهم.. أريد تفصيلاً لكل ما تعرفينه بدون مداراة أو كذب"

أجابت دون أي انفعال مخفية ألمها "لا أعرف شيئاً.."

أصابتها لطمة على خدها الآخر أسقطتها أرضاً مع الكرسي، ولم تفلح في الاعتدال بسبب الحبل الذي يقيدها بالكرسي.. لكنه أنهضها بعنف وهو يصيح "لقد بلغ صبري مداه.. من تظنين سيحميك من التعذيب؟ من سينقذك؟ رفاقك الثوار الذين تحاولين التستر عليهم؟ هذا محال.. في الواقع أنا أتمنى أن يحاولوا، فهذا سيسهل علينا القبض عليهم.."

لم تجب ميا وهي تشيح جانباً، فرماها أرضاً وقال لجندي قريب "خذها إلى الحبس الانفرادي وقم بحراستها جيداً.. سأكمل غداً بعد أن أفرغ مما لديّ"

أنهضها الجندي بعد أن فك قيدها عن الكرسي والضابط يغادر مضيفاً "ولا تضع يدك عليها.. أتفهم؟"

وخرج دون أن ينتظر الإجابة، فاقتادها الجندي خارج الغرفة، واقتادها عبر ممرات عدة إلى طابق تحت الأرض يحوي عدة سجون فيها جمع من شعبها بدا البؤس على وجوههم.. تلفتت ميا حولها بلهفة عسى أن ترى والدها أو صاحبه الذي رأته ذلك اليوم، لكنها لم تلمحه والجندي لا يمهلها فرصة كافية مقتاداً إياها حتى آخر المكان إلى غرفة بغير نوافذ إلا واحدة صغيرة في أعلى حائطها وبابها حديدي مصمت بعكس الأبواب الأخرى.. وحالما فتح الباب رماها بالداخل وأغلق الباب خلفها تاركاً إياها في ظلام دامس لم تعتده عيناها..

تلفتت ميا حولها حتى اعتادت عيناها الظلام.. كانت غرفة بسيطة جداً لا تحوي إلا سريراً واحداً فقط.. زفرت بضيق وهي تجلس على السرير قائلة لنفسها "ما الذي فعلته لأبقى هنا؟ لابد أنهم يهذون.. لا يمكن أن يكون أبي من الثوار فسنّه لا تسمح بذلك.."

ثم قالت بغضب "هل هذا جزاء الاحسان؟ حقاً ما قاله أبي، فور أن غادر ذلك الوغد منزلنا حتى أرسل رفاقه إلينا.. ربما أراد الانتقام من أبي على محاولة قتله.. لا أمان لجندي من الغزاة بالفعل"

مرت عدة ساعات وهي منطوية فوق السرير دافنة وجهها في ركبتيها وأفكارها كدوامة تدور بلا توقف، وعندما سمعت صوت الباب يفتح بهدوء رفعت رأسها متوقعة أن الضابط قد استدعاها للتحقيق من جديد..

رأت الجندي يدخل من الباب، وبدلاً من اقتيادها للخارج وجدته يغلق الباب بعد أن تأكد أن أحداً لا يراه في الخارج.. فقطبت متسائلة "ما الأمر؟"

لم ترَ ابتسامة الجندي في الظلام وهو يغمغم رامياً سلاحه وخوذته جانباً مقترباً منها "لا أضع يدي عليها؟ ذلك الضابط الأحمق.. وما يدريه لو أنني وضعت يدي عليها أم لا؟ بل ما الذي يهمه من هذا؟"

رغم أنها لم تفهم كلمة مما قاله، إلا أنها توجست خيفة وهي تقف مبتعدة عنه مستغلة تعودها على الظلام، لكنه أسرع يقبض على يدها ويرميها على السرير وقال "لا تحاولي.. وإلا عاقبتك عقاباً شديداً"

استبدّ بها الذعر وهي تحاول ركله وضربه صائحة "اتركني.. لا تلمسني بيدك القذرة"

صفعها على وجهها وقال بابتسامة متسعة "قلت لك لا تحاولي.."

وألقى بجسده عليها وهي تقاوم بشده، ثم عضّت أذنه اليسرى لما وجدتها قريبة منها بقوة صرخ لها الجندي وهو ينهض ويلكمها على وجهها بقوة دار لها رأسها وكادت تفقدها الوعي.. حاولت الحفاظ على وعيها ومقاومته من جديد لكن عقلها خانها حتى لم تعد بقادرة على رفع يدها وهي تشعر بالجندي يمزق ملابسها بعنف.. فرّت دمعة من عينها وغشاوة تعميها وتكاد تسقط في غيبوبة عندما سمعت ضربة قوية جعلت الباب يفتح بعنف تتبعه خطوات تدلف عبره مسرعة.. التفت الجندي خلفه لكن ضربة قوية تردد صداها في المكان أفقدته وعيه على الفور وأسقطته أرضاً بصمت..

حاولت ميا تمالك نفسها والنهوض، عندما شعرت بمن يحيطها بغطاء لتغطية ما ظهر من جسدها ثم يعاونها على النهوض.. رفعت بصرها للأعلى محاولة النظر إلى صاحب تلك اليد مقاومة الغشاوة التي غطّت عينيها.. لم تتمكن من معرفة هويته تمام المعرفة لكن تأكدت أنه من مواطنيها، ولم ترَ إلا نظرة عينيه التي أفزعتها بغضبها الهائل، ثم سمعته يقول بصوت خشن "أهذا ما يفلح الغزاة بفعله؟ سحقاً لهم.."

قادها للخارج، لكن قدماها لم تقويا على حملها، فسارع لحملها بخفة وهي تسمع من ينادي بصوت خافت.. ثم ما لبثت أن غابت في غيبوبة عميقة دون أن تدري ما يحدث حولها أو ما الذي سيجري لها..

****

الفصـــل الثالث

في غرفة هادئة في الطابق العلوي لمنزل متوسط الحجم في حيّ من أحياء المدينة، وفوق سرير بسيط في جانب الغرفة الصغيرة، رقدت ميا بسكون وهدوء رغم مرور عدة ساعات على تهريبها من السجن.. فتح الباب في تلك اللحظة ودلف منه شاب لا يتجاوزها بالعمر كثيراً حاملاً لها بعض الطعام وضعه على طاولة قريبة، ثم اقترب منها وناداها هامساً وكأنه يخشى كسر سكون المكان..

ورغم همسه، فإن ميا نهضت مذعورة وجلست مرتدة إلى الوراء تتطلع إليه بعينين متسعتين وقد عادت لها ذكرى الأحداث التي جرت لها قبل أن تفقد الوعي.. ابتسم الشاب بإشفاق وقال "لا تخافي.. لا أبغي لك شراً.. أنت بخير الآن فاسترخي.."

تلفتت ميا حولها متسائلة بشيء من القلق "أين أنا؟ وما هذا المكان؟"

ثم وضعت يدها على رأسها والصداع يغشاها وتشعر أن فكها الذي تلقى لكمة الجندي ينبض بألم، ثم سمعت الشاب يقول "أنت في منزل آمن، فلا تقلقي.. هل ترغبين ببعض الطعام؟ لست أدري متى كانت آخر مرة تناولت فيها شيئاً، لكن لابد أنك جائعة"

نظرت له ميا بشيء من الحذر والتوجس.. كان يحمل ملامح هادئة لطيفة بشعر بني وعينان بذات اللون دون أن تميّزه ملامحه عن أي شاب عادي عدا ابتسامته التي بثت في نفسها شيئاً من الراحة وأعادت إليها الهدوء وهي تشعر أن شخصاً مثله لن ينوي لها سوءاً.. سألته ميا بصوت خافت بعد صمت "من أنت؟"

ابتسم قائلاً "اسمي دانتين.. أنت لا تعرفينني لكني أعرفك جيداً.."

سألته بشيء من التوجس "كيف تعرفني؟"

قال وهو يجلس قريباً "ليس هذا وقت الشرح.. ستعرفين كل شيء متى ما أنهيت طعامك واستردت قواك.."

عادت تسأله دون أن يهدأ قلقها "من أنتم بالضبط؟ وكيف اقتحمتم مبنى الجنود وأخرجتموني منه بهذه السهولة؟"

قال دانتين ببساطة "نحن ثوار.."

صمتت وهي تنظر له بصدمة.. لطالما سمعت أنباء عن الثوار في سِن الذين نفضوا عنهم غبار التخاذل ووقفوا في وجه الجنود بعزم منذ بداية الغزو، لكنها المرة الأولى التي تحتك فيها بهم بشكل مباشر.. سمعته يسألها "هل تخشين الثوار؟"

هزت رأسها نفياً، فابتسم وهو يقول "إذن.. تناولي الطعام قبل أن يبرد.."

تطلعت إلى الملابس التي ترتديها فرأت أنه قد تم استبدال ملابسها الممزقة بأخرى جديدة، ولما ألقت بنظرات الاستفهام تجاه دانتين سارع ليقول "استبدلت ملابسك صاحبة المنزل الذي نحن فيه الآن.. ورعتك طوال غيبوبتك"

صمتت ميا وهي غارقة في أفكارها، وعندما نهض دانتين عادت تسأله "كيف علمتم بوجودي في السجن؟ ولماذا أنا؟"

قال دانتين "لقد كان هدفنا إنقاذ جميع الأسرى من ذلك السجن، ولحسن حظنا وحظك أن جئنا في الوقت المناسب.."

فقالت بلهفة "أبي.. هل وجدتم شيخاً كبيراً في زنزانة أخرى؟"

قال دانتين بأسف "لا.. لم يكن ضمن السجناء.. لابد أنه مع البقية في موقع آخر محميّ بحراسة أشد.."

أطرقت بحزن والقلق يعتريها، فقرّب منها طعامها مشجعاً.. فعادت تسأله من جديد "من الذي أذاق ذلك الجندي تلك اللكمة القوية؟"

ضحك دانتين وقال "لابد أنك تعنين روباك.. قبضة يده قوية بالفعل.."

فقالت خافضة بصرها "هل أستطيع رؤيته؟"

تطلع إليها بتعجب، ثم قال "بالتأكيد.. تريدين رؤيته الآن؟"

أجابت بالإيجاب، فخرج وتركها تنظر للطعام قبل أن تزيحه جانباً وخبر عدم العثور على والدها يجعلها بغير شهية.. بعد دقائق سمعت طرقات على الباب قبل أن يفتح بهدوء.. فتطلعت إلى القادم لترى رجلاً أطول من دانتين وأكبر عمراً.. يبدو في الأربعين من عمره، أو ربما أوحت لها ملامحه الخشنة نوعاً ما بذلك.. عيناه سوداوان حادتان وآثار جروح عديدة على وجهه أحدها يقطع حاجبه الأيسر جزأين والآخر في جانب ذقنه لا يكاد شعر لحيته يخفيها.. شعره فاحم قصير، ولحيته الخفيفة تعطيه عمراً أكبر من عمره..

لم تنبس ميا ببنت شفة وهو يقترب منها متنحنحاً، ولما طال الصمت بينهما سألها بصوت خشن "هل أنت بخير؟"

مشيراً إلى الكدمة الواضحة على فكها.. فغطت ميا الكدمة بيدها مطرقة لثوانٍ قبل أن تقول بهمس "شكراً.. لولا قدومك في تلك اللحظة لانتهى أمري"

شعرت بنظراته الحارقة على وجهها قبل أن يقول بغيظ "سحقاً للجنود.. لا يكفي ما يفعلونه ببلادنا لتصل دناءتهم إلى هذا المستوى.. لو رأى كيرام ما كان يحدث لقتله على الفور.."

رفعت بصرها لما سمعته يذكر أباها قائلة "هل تعرف أبي؟"

أجاب "طبعاً.. وأدين له بالكثير.."

سألته برجاء "هل تعرف أين يحتفظون به؟ قال دانتين إنه لم يكن في نفس المكان الذي سُجِنْت فيه"

قال روباك مطمئناً "لا تقلقي.. لن يرتاح أحدنا قبل أن ننقذه ومن معه.. إن لهم مكانة عندنا ولن نتنازل عنهم بسهولة"

خفضت ميا بصرها إلى يديها قائلة "أرجوك.. عندما تقابل أبي، وأتمنى أن يحدث هذا سريعاً، لا تخبره بما حدث لي في السجن.. ليس بحاجة لخبر يزيده أسىً.. أرجوك"

قال روباك على الفور "لا تقلقي.. ليس من حقي أن أخبره بذلك وأنا أعلم أنه يسوؤك ولابد سيسيء لأبيك"

ثم همّ بالمغادرة قائلاً "تناولي طعامك.. فالرئيس هان يود مقابلتك.."

هتفت قبل أن يخرج "روباك.."

نظر إليها متسائلاً، فقالت "أشكرك من جديد.. قد يكون ما فعلته لي لا يعني لك شيئاً، لكنه يعني لي أكثر مما تتخيل.. وسيظل هذا ديناً في رقبتي حتى أوفيه"

فقال وهو يخرج "أنا لا أترك ديناً لي عند أحد.. انسي ما حدث تماماً"

ابتسمت ميا بعد خروجه، عندما رأت دانتين يطلّ من الباب متسائلاً "هل أرعبك؟ إنه يهوى إثارة رعب الآخرين"

غمغمت ميا مبتسمة "منظره مرعب فعلاً، لكنه بدا لي لطيفاً"

نظر إليها دانتين بشيء من الذهول هاتفاً "لطيف؟ روباك؟؟!!"

ثم غمغم وهو يغادر بدوره "سيصاب بالهلع لو سمعك تصفينه بهذا.."

****

رغم أن خالد لم يكن يستغرب زيارة أنطونيو له في المستشفى، إلا أنه لا يعلم لم توجس لزيارته هذا اليوم وتقطيبة غريبة تحتل جبينه.. فلم يعلق خالد وهو يرى أنطونيو يجلس قريباً بعد أن حياه ويصمت تماماً.. احترم خالد صمته وظل يراقبه حتى اعتدل أنطونيو فجأة وقال "لست أدري إن كان يفترض بي أن أؤجل إعلامك بمثل هذه الأخبار.. لكني أرى ألا داعي لإخفاء الأمر عنك أكثر من هذا"

نظر له خالد بصمت مشوب بالقلق، فقال أنطونيو "لقد تحدثت مع الطبيب قبل قليل، وهو قد أيّد رأيه السابق وأكد لي أن النتيجة لن تتغير مهما فعلنا"

ازداد قلق خالد وهو يتساءل "عم تتحدث يا سيدي؟.. لست أفهم شيئاً"

قال أنطونيو زافراً "إنه يتحدث عن ركبتك.. لقد أبقاك هنا طوال هذا الوقت للعناية بها ولئلا تجهدها بناء على طلبي حتى تتحسن وتستعيد قدرتك على قيادة الطائرات.. لكنه اليوم أخبرني أن هذا بغير فائدة"

ظل خالد ينظر له بصمت، فأضاف أنطونيو "حال ركبتك سيء بالفعل.. وبدون الدخول في التفاصيل التي لا تهمنا، ما يهمني هو أن تحكمك بركبتك وساقك عموماً يقلّ كثيراً عما كان في السابق.. وهذا شيء خطير بالنسبة لقائد طائرة.. حتى لو كانت الطائرة تعتمد في أغلب أوقاتها على الطيران الآلي، إلا أنني لا يمكن أن أخاطر بأحد نسوري وأنا أعلم أن حالته الصحية ليست على أتم ما يرام"

غمغم خالد وهو يشعر بقبضة في صدره "وما الحلّ إذا؟"

قال أنطونيو بحزم "عليك أن تبذل جهدك لاستعادة لياقتك السابقة.. ستخرج من هذا المستشفى في غضون أيام، وعندها ستنقل للعمل الإداري كحل مؤقت.. وستخضع في الآن ذاته لعلاج طبيعي لكي تتمكن من العودة لوضعك السابق"

بدت ملامح الصدمة على وجه خالد وهو يغمغم "معنى هذا أنني لن أعود لقيادة الطائرات؟"

قال أنطونيو بسرعة "لم نقل ذلك.. ابذل جهدك لاستعادة صحتك وسلامة ركبتك وبعدها ستعود لقيادة الطائرة بأفضل مما كنت"

بدا لخالد أن قائده يحاول تهدئة مخاوفه وإن كان بغير نجاح يذكر، فزفر خالد والقبضة تشتد في صدره.. فربت أنطونيو على كتفه قائلاً "لا تقلق يا فتى.. لن أتخلى عنك بسهولة.. لن تأخذ يوم راحة أبداً من الآن.. عليك بعلاج هذه الإصابة السخيفة والعودة للنسر الذي كنته في السابق.. لن تخذلني، أليس كذلك؟"

ابتسم خالد وقال "طبعاً يا سيدي.. سأبذل جهدي.."

بدأ أنطونيو يحدثه بشكل عادي عن الأحداث التي جرت في الأيام السابقة وخالد ينصت له بغير وعي.. ورغماً عنه ظل يتأمل السماء من نافذته بقلق.. أحقاً لن يحلق في هذه السماء مرة أخرى؟..

****

خرجت ميا من غرفتها خلف دانتين الذي قال وهو يقودها عبر المنزل "الرئيس هان شخص طيب جداً.. لن تصدقي أنه يقود الثوار جميعاً في مدينة سِن.. لذلك لا تخافي منه"

غمغمت ميا "وهل تراني خائفة؟"

ابتسم معلقاً "لا.. لكن رغم أننا نفعل ما نفعله لأجل وطننا، إلا أن بعض الأهالي أظهروا خوفاً منا بشكل غير متوقع.. ربما ظنوا أننا متعطشون للدماء ونهوى القتل والتفجير.."

وصلا إلى غرفة في جانب آخر من المنزل، فطرق دانتين الباب ودخل تتبعه ميا.. فرأت عدداً من الرجال متحلقين حول أحدهم، وقربهم سيدة في منتصف عمرها لما رأت ميا اقتربت منها قائلة بلطف "كيف أنت يا ابنتي؟ أرجو أن تكوني قد أخذت قسطاً وافياً من الراحة"

هزت ميا رأسها بالإيجاب متطلعة حولها، فرأت روباك يقف قرب رجل يقارب أباها في السن مطرق يستمع لحديثه بصمت.. كانت ملامحه تبدو بطيبة ظاهرة تعطيه مظهر الأب أكثر من أن يكون رئيساً للثوار.. لا تحمل عيناه أي حدة أو صرامة، ويجعله شعره الذي خالط سواده بياضاً بشكل طاغٍ يبدو أكثر أبوية لمن حوله.. ولما انتبه الرجل لقدومها رفع بصره قائلاً "اقتربي يا ابنتي.."

تقدمت ميا بصمت وجلست حيث أشار فيما روباك يقول "صدقني يا هان تلك العملية فاشلة تماماً.. ما الذي نستفيده من تفجير المبنى القديم؟ حتى لو استطعنا قتل بعض الجنود فهذا لا يفيد قضيتنا في شيء.."

قال هان "سنناقش هذا فيما بعد يا روباك.. اتركونا الآن فلدي حديث صغير مع ميا.."

خرج الجميع دون اعتراض وميا تراقبهم عندما سمعت هان يقول "كيف حالك اليوم؟ عندما أتى بك روباك الليلة الماضية بدوت في حالة مزرية.. هل أجرى معك أحد الضباط تحقيقاً؟"

هزت رأسها بالإيجاب، فقال "هذا يفسّر الكدمات على وجهك.."

سألته "لكن لماذا قبضوا عليّ؟ ما الذي يريدونه حقاً مني ومن أبي؟"

أجاب هان "إنهم يريدون معرفة مخبؤنا وأسماؤنا.. يريدون القضاء على الثورة تماماً.. للأسف والدك ومن معه تم القبض عليهم أثناء إحدى العمليات، ونحن نشك أن هذا تم بوشاية من خائن.. وعادة ما يقبض الجنود على عائلة الثوار جميعهم.. لكنهم لم يستطيعوا استخلاص أي شيء من رفاقنا ولا شك.. لذلك لجؤوا لتعذيبك كونك الأضعف وقد تستسلمين بسهولة"

قالت مقطبة "لكنني لم أعلم بأي شيء.."

وأطرقت مضيفة "لم أعلم حتى بانضمام أبي إلى الثوار ولم أشك بهذا قط.."

قال هان "والدك لم يرغب بجرّك في الخطر بأي شكل من الأشكال.. أراد أن يجنبك العيش في قلق وخوف وأنت لازلت صغيرة على الانضمام للثوار.. أو هذا ما كان يراه"

تساءلت "وما الذي سيحدث الآن؟"

أجاب "جواسيسنا يجوبون المدينة بحثاً عن الموقع الذي سجن فيه والدك وخمسة من رفاقنا.. لكن الغزاة حرصوا هذه المرة على تضييعنا.. فهجومنا البارحة على المقر الذي استخدم كسجن كان لتحرير أبيك، لكننا فوجئنا بعدم وجوده أو أي شخص من الثوار، بل حوى السجن عدداً من أهالي المدينة بتهم مختلفة.. ووجدناك أنت لحسن الحظ.."

تساءلت ميا "وكيف عرفتم هويتي؟"

ابتسم هان مجيباً "في الواقع رجالي لم يتعرفوا عليك بل أحضروك لهذا المنزل بعد أن فقدتِ الوعي كحل مؤقت.. لكني عرفتك على الفور.. فكيرام يحمل صورتك معه دائماً"

غاص قلب ميا لذكر أبيها، فقالت محاولة إبعاد فكرها عن هواجسها "وما الذي سأفعله حتى عثوركم على أبي؟ لقد أحرق الجنود منزلنا، وليس لي أقارب في المدينة بتاتاً"

قال هان "يمكنك البقاء هنا فأصحاب المنزل قد عرضوا استضافتك حتى نتمكن من إنقاذ كيرام ومن ثم توفير مسكن ملائم لكما.. في الواقع نحن جميعاً ضيوف هنا بشكل مؤقت كما تقتضيه منا إحدى عملياتنا.. وبعدها سنعود إلى مقرنا الدائم.."

تساءلت "ألا يشكل وجودنا هنا خطراً على أصحاب المنزل؟ ماذا لو هاجمنا الجنود على حين غرّة؟"

قال هان "لا تقلقي.. نحن متحذرون لهذا.."

صمتت ميا وهان يتطلع إليها، ثم قالت "هل هناك ما أستطيع فعله لمساعدتكم؟"

تساءل هان "هل تريدين الانضمام إلى الثوار؟"

هزت رأسها نفياً وقالت "كلا.. إنما هو بشكل مؤقت حتى تعثروا على أبي.. فلا أستطيع الجلوس بلا عمل والأفكار تتناهبني بهذه الطريقة.."

ربت هان على كتفها قائلاً "ما دمت قد عرضت مد يد العون بنفسك، فسنلجأ إليك متى احتجناك.. كوني متأهبة.."

ابتسمت ميا ابتسامة باهتة.. كان العمل هو الحل الوحيد لها لكي تبعد الأفكار السوداوية من عقلها.. عن حال أبيها، ومصيره.. عن حالها لو لم يعد في وقت قريب.. أو لو لم يعد أبداً.. غلبتها نفضة لذلك الخاطر فقالت لتقطع تلك الأفكار "إذن.. متى أبدأ؟"

ابتسم هان معلقاً "ليس اليوم.. أنت لازلت متعبة.. منذ الغد سآخذك إلى رستين.. هو الطبيب الوحيد الذي نملكه حالياً.. وبما أنك تملكين خبرة طبية مناسبة فأنت ستكونين ذات عون كبير لنا ولاشك"

نظرت له بشيء من الدهشة متسائلة "كيف عرفت ذلك وأنا لم أقله؟"

اتسعت ابتسامته أكثر وهو يقول "إن كيرام لا يفتأ يتحدث عنك في كل مناسبة.. إنه فخور بك كثيراً، وفي الآن ذاته قلق من بقائك وحيدة بدونه.. لطالما أخبرني أنه يتمنى لو يزوّجك قبل أن يلقى حتفه كي يطمئن لوجودك في كنف رجل سيحميك في ظل ظروفنا غير المستقرة هذه"

اتسعت عيناها وقالت بقلق "لِمَ عليه التفكير بهذه الطريقة؟ لن يصاب بمكروه.. أليس كذلك؟"

قال هان دون أن يختلج وجهه "بالطبع لن يصاب بمكروه.. سنعمل على إنقاذه فلا تقلقي.."

غلبها الهدوء بعد مقولته تلك، فنهضت مستأذنة وعادت لغرفتها لتحصل على بعض الراحة.. لكن أنّى لها الراحة وقد زادها حديث هان عن أبيها قلقها عليه؟..

****

ارتمى خالد على سريره مرهقاً وهو يزفر بقوة، فيما قال الممرض الذي ساعده على العودة لغرفته "المعالج يقول إنه غير راضٍ عن أدائك.. إنك لم تُمضِ المدة المحددة لليوم في العلاج الطبيعي، وهذا لن يأتي بالنتائج المرجوة في النهاية"

قال خالد بحنق "لكنه آلمني بشدة.. لازلت أعاني من ركبتي وإصابتها، لكنه عاملني كما يتعامل مع أي آلة صدئة.. شعرت أن ركبتي ستنكسر بالتأكيد مع عنفه"

ابتسم الممرض وهو يعلق "لا داعي للمبالغة.. هذا أفضل معالج نملكه، والقائد أنطونيو قد طلب منه الاهتمام بك وطلب منه الحصول على نتائج إيجابية خلال وقت قصير.."

عاد خالد يزفر قبل أن يغمغم "سحقاً لكل هذا.."

قال الممرض قبل أن يغادر "الطبيب قال إنك لو لم تعالج جراحك قبل أن تتفاقم بعد سقوطك، فلم تكن لتحصل على أقل من بتر الساق.. عليك أن تكون ممتناً أن حالتك ليست بهذه السوء"

ابتسم خالد رغماً عنه وهو ينظر من النافذة.. لقد فعلت له ميا أكثر من مجرد إنقاذ حياته.. وهذا يزيده رغبة في رؤيتها أكثر من السابق.. لكن لا سبيل لذلك قبل أن يغادر هذا المستشفى الكئيب..

قطع أفكاره صوت أيمن الذي قال "مرحباً.. كيف حالك أيها الكسول؟"

اتسعت ابتسامة خالد وهو يجيب "أزداد كسلاً كل يوم.. ما الذي يمكنني فعله مع كل هذه الراحة التي أجبروني عليها؟"

عقد أيمن حاجبيه بغيظ مما سرّ خالد الذي ضحك وهو يعلق "ما بالك تكثر من زياراتي هذه الأيام؟ تصرفاتك تثير الريبة حقاً"

لكمه أيمن على كتفه قائلاً "فلتحمد الله أن هناك من يفكر بك.. أشعر ببؤسك وأنت وحيد في هذا المكان، لذلك أقتنص بعضاً من جدولي المزدحم لأزورك شفقة بك"

وجلس على كرسي قريب وخالد يعلق "الآن بدأت أحسدك فعلاً يا أيمن.. الملل هنا يكاد يصيبني بالجنون.."

سأله أيمن باهتمام "متى سيخرجونك من هنا؟"

هز خالد كتفيه قائلاً "ليس قبل بضعة أيام.."

فقال أيمن مشجعاً "لا مناص من الصبر إذاً.. أعدك أن أعطيك مناوباتي كلها لكي لا تجد فرصة تطأ الأرض بها بعد...."

قاطعه خالد بهدوء "لقد تم تحويلي للعمل الإداري.."

بهت أيمن قليلاً قبل أن يصيح "ماذا؟ من هو المجنون الذي...."

قاطعه خالد بابتسامة باهتة "أنطونيو فعل.."

صاح أيمن "مستحيل.. هذا ما لا أصدقه.. لماذا فعل ذلك؟ إصابتك ليست بهذا السوء، وستغدو بخير مع بعض الراحة"

قال خالد زافراً "لقد فعل الطبيب كل ما يستطيعه، والآن أخضع لعلاج طبيعي لأتمكن من استرداد لياقة ركبتي السابقة.. وحتى ذلك الوقت، ستتم إحالتي للعمل الإداري كي لا أجهد ركبتي أكثر، ولكي لا أعرض نفسي وطائرتي للخطر مع اقتناعهم أنني لن أستطيع الطيران بحالتي هذه"

صمت أيمن وهو يشعر بإشفاق على صديقه الوحيد في هذا الكوكب، ولم يفت هذا خالداً الذي قال بابتسامة "لا أريد أن أرى نظرات الشفقة في عينيك يا صديقي.. هذا آخر ما أرغب به وأنا هنا"

قال أيمن بجدية "أشفق عليك لأنني أعلم المشاعر التي تنتابك الآن، ولا أشك بأنها ستنتابني أنا أيضاً لو كنت مكانك.. أنت نسر، وهذا الاسم ليس رمزياً.. نحن لا نصبر عن التحليق في السماء، ولا يمكننا الركون لحياة على الأرض.. السماء هي عالمنا، ويوم يمر دون أن نذرع فيه السماء هو يوم لا يُعدّ من أعمارنا.. أتظنني لا أدرك أي حنق وحسرة تملأ صدرك الآن؟"

قال خالد متطلعاً إلى السماء "عليّ من الآن أن أوطن نفسي على القناعة بنظرات ألقيها لتلك السماء وأنا عاجز عن الوصول إليها.. من يدري ما ستحمله لي الأيام القادمة؟"

صمت أيمن وهو يشاركه نظراته عبر النافذة الضيقة نحو تلك السماء الزرقاء الرحبة..

****

في صباح اليوم التالي، وقبل أن تخرج ميا لتناول فطورها، سمعت طرقات خفيفة على باب الغرفة.. فسمحت للطارق بالدخول لترى زوجة سيميان صاحب المنزل تدلف من الباب حاملة في يدها شيئاً ما وهي تبتسم قائلة "أتمنى أن تكوني قد نمت جيداً ليلة أمس.."

ابتسمت ميا مجيبة "أجل.. شكراً لك.."

فتقدمت منها المرأة حاملة ثوباً قائلة "لم أكن أملك ملابس مناسبة لك، لذلك اضطررت لإعارتك أحد ملابسي عندما أحضروك، وهي كما ترين لا تناسبك بتاتاً.. لذلك اشتريت لك هذا اليوم"

نظرت ميا لما تحمله المرأة وقالت بشيء من الحرج "لم يكن هناك أي داعٍ لذلك.. لا يهمني ما أرتديه الآن.."

قالت المرأة مبتسمة وهي تناولها إياه "مهما يكن.. يجب أن ترتدي ما يناسب عمرك.. ما رأيك بهذا؟"

نظرت ميا للثوب.. كان طويلاً، يتجاوز ركبتيها، وبسيطاً.. بلون سماوي جميل وورود متناثرة فيه.. غمغمت ميا "شكراً لك يا سيدتي.. أعجبني كثيراً"

فقالت المرأة بحماس "ارتديه الآن.. أريد أن أرى كيف يبدو عليك.."

لم تكن ميا متحمسة كثيراً لارتدائه.. لكنها فعلت لكي لا تخيّب أمل المرأة الطيبة.. ولما فعلت، وقفت أمامها مغمغمة "أيبدو جيداً عليّ؟"

هتفت المرأة "يبدو جميلاً.."

وأضافت وهي تدور حول ميا "عليك أن تعترفي أن ذوقي رائع جداً.."

سمعتا صوتاً قرب الباب، ولما نظرتا نحوه رأتا هان يدلف قائلاً "صباح الخير.. رأيت الباب مفتوحاً فتأكدت أنك مستيقظة.. هل أنت مستعدة؟"

نظرت له ميا بغير فهم، فقال "سآخذك اليوم لتنضمي لرستين.. أنت أخبرتني برغبتك في مساعدتنا، أليس كذلك؟"

أجابت ميا "طبعاً أريد ذلك.. وأتمنى أن أكون ذات نفع لكم.."

والتفتت للمرأة قربها قائلة "شكراً لك يا سيدتي.. لقد قدمت لي الكثير ولا أظنني سأستطيع رد كل هذا في يوم من الأيام"

ربتت المرأة على كتفها بتعبير صامت، فاستدارت ميا لهان الذي غمغم بابتسامة "يبدو الثوب جميلاً عليك.."

ابتسمت ميا بشيء من الحرج، ثم رأته يخرج من الغرفة فأسرعت تتبعه وهما ينزلان للطابق الأرضي من المنزل.. وفي غرفة جانبية، وقفت ميا تراقب الغرفة التي تم تحويلها لعيادة مصغرة.. وصدمت برؤية عدد من الثوار بإصابات متفاوتة جلسوا في الغرفة بانتظار أن يتم علاجهم.. بدا أنهم عائدين للتو من إحدى مهماتهم، وقد خاضوا معركة محدودة مع الجنود تسببت في إصابة العديد منهم.. وبينهم، رأت رجلاً ينحني على أحد الثوار ويعالج إصابة في رأسه بصمت.. فاقترب هان منه قائلاً "رستين.. لقد أحضرت لك ميا لتبدأ عملها معك، كما أخبرتك سابقاً.."

ألقى رستين عليها نظرة سريعة قبل أن يعود لعمله وهو يقول "جيد.. إذن لتباشر عملها بسرعة"

وقفت ميا قليلاً بغير فهم وهي تلاحظ أنه لم يعبأ حتى بالترحيب بها، حتى أنهى رستين علاج الإصابة بين يديه، ثم التفت إليها وأخبرها بكلمات مقتضبة عن محتويات عيادتهم، وأنهى حديثه قائلاً "عدد الثوار يزيد ولا ينقص في كل لحظة تمضينها واقفة بدون سبب.. لذلك عليك أن تعملي بسرعة ومهارة للانتهاء ممن عندك من الثوار"

صدمت ميا بتعليقه، لكنها أسرعت تطيعه بصمت وقد أدركت أنها لن تسلم من لسانه لو تأخرت قليلاً، بينما قال هان "أتمنى ألا تترددي في القدوم إليّ كلما احتجت أمراً يا ميا.."

هزت ميا رأسها موافقة وهي تنهمك بعلاج إصابة في كتف أحد الثوار.. كانت الموارد التي يملكونها ضعيفة، حتى اضطرت لخياطة جرحه بدون استخدام أي مخدر وهي قلقة من الألم الذي تسببه له بذلك.. لكن الثوار قد اعتادوا على هذا الأمر فلم يتذمر أحدهم أو يفصح عن ألمه بأي شكل من الأشكال.. مما جعل تعجب ميا يزداد مختلطاً بإعجابها بما تراه.. حياتهم قاسية، لكن أحداً لا يتذمر من ذلك البتة..

****

وقف خالد أمام أنطونيو صامتاً والأخير يتشاغل بما في يديه من أوراق، ولما انتهى منها قال رافعاً بصره إلى خالد "مرحباً بعودتك يا خالد.. ظننتك لن تخرج من المستشفى أبداً"

ابتسم خالد مغمغماً "لم أظن بقائي سيطول هناك أسبوعاً كاملاً.."

عاد أنطونيو لأوراقه قائلاً "للأسف لا تستطيع العودة لعملك في الوقت الحالي.. الطبيب قال إن ركبتك لا تزال بحال سيئة وقد تعيق عملك كطيار"

لم يعلق خالد بكلمة وهو يلاحظ نبرة الضيق في صوت أنطونيو، ثم سمعه يقول بعد لحظة صمت "أخبرني يا خالد.. ما الذي يدعو نسراً لأخذ إذن لمغادرة المدينة على قدميه؟"

قال خالد "منذ أن سقطت طائرتي في الغابة لم يتسنَّ لي العودة إليها.. وهناك ما فقدته في الحطام ولم أستطع استعادته.. وبما أنني لا أستطيع العودة حالياً للعمل كطيار بسبب إصابة ركبتي، فأرجو السماح لي بالعودة لموقع الطائرة، ولن يستغرق هذا مني إلا نصف نهار"

قال أنطونيو مقطباً "أنت متساهل.. هل من عادة جنودنا التجوال في البلاد بحرية منفردين؟ ألا تعلم ما قد يتهددك وأنت بمفردك؟.. لو كان الذي أضعته مهماً جداً فسأرسلك مع إحدى الدوريات لاستعادته"

قال خالد بسرعة "رجاء لا داعي لتكليفهم بهذا الأمر.. هو شيء يخصني وحدي ولا أجد داعياً لمثل هذا القلق.. سأكون حريصاً على نفسي ولن أتعرض للخطر"

قال أنطونيو محتجاً "أنت متفائل جداً.. جنودنا يتم قتلهم كل يوم وسط رفاقهم، وأنت تضمن بقاءك حياً بمفردك؟"

أجاب خالد "هذا ما أتمناه.. الغابة خالية حيث سقطت طائرتي.. وليس فيها إلا بيوت متفرقة يسكنها مزارعون وأصحاب الماشية.. لقد رأيت هذا بنفسي لذلك أنا مطمئن لذهابي"

عاد أنطونيو إلى أوراقه قائلاً بحزم "مرفوض.."

فقال خالد بضيق "أرجوك يا سيدي.. هذا القلق لا معنى له فأنا أعدك بالحرص على نفسي والعودة سالماً.."

قال أنطونيو مقطباً "خالد.. ما تطلبه مني مستحيل.. بل هو الطلب الأول من نوعه منذ الغزو.. أين تظننا؟ نحن في بيئة معادية تماماً.. حتى أضعف طفل يعتبر خطراً علينا.. كونك قد تلقيت العلاج من أحدهم فهذا من النوادر التي لن تتكرر.. ما الذي أقوله لرؤسائي عندما يرد تقرير بخروجك؟ هذا شيء لا يمكن أن يمر مرور الكرام"

ظل خالد صامتاً بضيق، ثم استأذن للانصراف، وغادر بعد أن منحه أنطونيو الإذن.. كان مصمماً على المغادرة، على العودة لذلك المنزل الذي غادره، على رؤية تلك الفتاة التي لا يفتأ يفكر بها.. لا يدري ما الدافع الملحّ لهذا، لكنه شعر أنه لا يستطيع الاستقرار في مكان وهذه الفكرة تلحّ عليه بقوة..

في تلك الأثناء، انشغلت ميا في عملها بعلاج أحد الثوار الذي أتى إليها بذراع جريحة والدماء تتصبب منها، وهي تشعر بنظرات رستين تحدق بها وبعملها بشكل مستمر.. رغم مضيّ عدة أيام منذ بدأت تعمل معه في علاج المصابين من الثوار، إلا أنها لم تحصل على ثقته بعد وهو يدقق في عملها كل مرة كي يتجنب أي أخطاء قد تقع فيها.. كان رستين رجلاً في الثلاثين من عمره، هادئ الطبع وإن كان غير ودود بتصرفاته بل يعاملها برسمية تخلو من الجفاف.. هو يعتبرها زميلة مؤقتة ولا يتعب نفسه بالتبسط معها ولكن لا يعاملها بغير الاحترام الواجب بينهما..

علمت أنه الوحيد الذي تطوع للعمل مع الثوار بشكل دائم بسبب احتياجهم المستمر لطبيب ليعالجهم بدل الذهاب للمستشفيات أو العيادات في المدينة مع خطر انكشاف أمرهم.. بعد أن أنهت عملها نظرت إليه بصمت بانتظار ملاحظاته، فغمغم وهو يعود لعمله "جيد.."

شكرها الرجل الذي عالجته قبل أن يغادر، فقالت لرستين "ألا زلت متشككاً في عملي؟ صحيح أنني لست طبيبة بخبرتك، لكني واثقة أنه يمكنك الاطمئنان لمهارتي وعدم مراقبتي طوال الوقت.."

لم يعلق رستين بكلمة على قولها، فصمتت بدورها وهي تتنهد وتنشغل بترتيب بعض الأدوية التي جلبها لهم بعض الرجال في وقت سابق.. لقد طال بقاؤها هنا دون أي خبر عن أبيها بأي شكل كان.. أتعبت هان بكثرة سؤاله عن أبيها دون إجابة ترضيها، فتعود عندها للغرفة التي يستخدمونها كعيادة مصغرة وتنشغل في عملها ما استطاعت لتنسى هواجسها الدائمة..

سمعت صوتاً عالياً تعرفه، فاستدارت لترى روباك يدلف الغرفة وهو يقول لرستين "يبدو أن رفاقنا أحالوا حياتك لجحيم اليوم.. فهناك الكثير من الجرحى بين صفوفنا بعد هذه المهمة"

غمغم رستين وهو يقترب منه "ميا قد حملت نصف العبء عني.."

كانت هذه هي المرة الأولى التي يذكرها فيها رستين بمديح، لكنها لم تعلق وهي تقترب من روباك وتتأمل يده التي لفها بخرقة مؤقتاً وإن لم تمنع الدماء من أن تسيل من ثناياها، وبعد لحظة صمت سألته "هل علمتم أي شيء عن أبي يا روباك؟"

زفر روباك مجيباً وهو يتأمل رستين الذي فك الخرقة وشرع يطهر الجرح "كلا.. لقد اقتحمنا عدة سجون للغزاة في عدد من المواقع في المدينة وحررنا من فيها، لكن في كل مرة لا نجد إلا بعض المحليين الذين لا علاقة لهم بالثورة.. وأظن أن الغزاة يتوقعون هجومنا لذلك لا يحتفظون بأي من رفاقنا في سجونهم"

تساءلت ميا بقلق "إذن أين يحتفظون بهم؟ أأنت متأكد أنهم بخير؟"

قال وهو يواجه عينيها "نأمل ذلك.."

شعرت أنه يحاول إزالة قلقها، لكن هذا لم يأت بنتيجة وهي تعضّ شفتها السفلى وتبتعد لتجلس جانباً.. استطالت الأيام كثيراً دون أن يتقدموا خطوة في معرفة موقع أبيها أو إنقاذه.. ورغم أنها تعلم أنهم لا يدخرون وسعاً لذلك، إلا أن قلقها يتزايد مع مرور الأيام وهي تشعر أنهم لن يفلحوا بذلك أبداً..

رأت رجلاً آخر يدلف الغرفة، فوقفت وهي تشير له ليجلس جانباً وتشرع بعلاجه.. فلتترك كل هذه الأفكار جانباً ولتنتظر.. وهل تملك إلا الانتظار؟..

****

"بقي علينا القليل ونصل لموقع المركبة.. أنت متأكد من الإحداثيات؟"

سمع خالد سؤال قائد الدورية التي تنقله، فأجاب بسرعة "متأكد تماماً"

ثم لاذ بالصمت وهو يتأمل الغابة التي يسيرون بمحاذاتها.. بعد أن حاول مراراً الحصول على إذن بالخروج وحيداً، فإنه استسلم أخيراً ورضي بأن تنقله إحدى الدوريات لموقع طائرته المحطمة.. لم يكن النهار قد بدأ فعلياً عدا عن نور بسيط غزا الأفق عندما بدأت المركبة بالتوغل في الغابة بحثاً عن أيسر طريق للوصول لموقع الطائرة.. وعندما أفلحوا بالوصول إليها بعد جهد، هبط منها خالد بسرعة قائلاً "انتظروني هنا.. سأبحث عما فقدته دون إبطاء.."

لم يعلق أحد الجنود ممن هم معه وهم يهبطون من المركبة ويقفون قربها.. أشعل القائد سيجارته ونفخ دخانها باستمتاع وهو يتأمل الصبح الندي الذي بدأ يعلن عن نفسه في ثنايا الغابة.. ولم يعكر صفو ذلك المنظر إلا تلك الطائرة المحطمة شبه المتفحمة التي حطمت عدداً من الأشجار حولها.. غمغم القائد وهو يرى خالد يدور حول الطائرة "نجاته من هذا الركام معجزة حقاً.. أتساءل كيف نجا بجراح تعتبر بسيطة وغير خطيرة؟"

علق جندي جواره "الأعجب أنه بقي في ضيافة أحد الأهالي عدة أيام.. من هو المجنون الذي يقدم رعاية طبية لطيار من الجيش المعادي؟"

قال القائد "الأغلب أنه أراد الحصول على حظوة لدى قيادات الجيش بعمل كهذا.. ربما أراد أن يصبح من جواسيسنا لما لهم من حظوة وامتيازات كثيرة"

قال الجندي بحيرة "لكنه لم يفصح عن ذلك للطيار وإلا ذكره للقادة"

هز القائد كتفيه مجيباً "ربما ينتظر اللحظة المناسبة.. ربما شك أن الطيار لن يأخذه على محمل الجد"

قاطعهما الجندي الثالث برفقتهما قائلاً "بالحديث عن الطيار.. أين اختفى؟"

نظرا حولهما بدهشة، ثم هبّ الجنديان يبحثان عن خالد حول الطائرة والقائد يقطب مغمغماً "هذا الأحمق.. أين ذهب الآن؟"

كان خالد في تلك اللحظة يجدّ السير نحو منزل ميا بعد أن تغافل جنود الدورية وتسلل من موقع الطائرة.. لا يزال يذكر الطريق للمنزل بالضبط كأنه عبره البارحة، وشعر بانفعال غريب عليه وهو يتخيلها جالسة على ذات الكرسي الذي كانت عليه عندما غادرها لآخر مرة.. ما الذي ستقوله؟ هل ستبدو في عينيها سعادة لرؤيته؟ لنكف عن المبالغة.. على الأقل، هل سيبدو في عينيها راحة لرؤيته بخير؟ يتمنى ذلك، ويتمنى ألا يكون أباها الشرس متواجداً فيطرده قبل أن تسنح له الفرصة لرؤيتها..

عندما اجتاز المسافة الفاصلة وهو غارق في أفكاره، وقد تخيل عشرات الحوارات التي قد تدور بينه وبين ميا لحظة لقائهما في ذلك الموقع، صدم برؤية المنظر الوحيد الذي لم يتوقعه.. وقف مبهوتاً وهو يرى المنزل المتفحم الذي تهدم بشكل كامل حتى لم تعد به لمحة مما كان عليه.. والحظيرة قربه وقد نالها نصيبها من الحرق والتدمير، بالإضافة للمزرعة التي غدت رماداً لا حياة فيه..

ظل واقفاً للحظات طالت وهو يحاول استيعاب الأمر، والتأكد من أنه لم يخطئ طريقه أبداً.. ثم قال بذعر وهو يتقدم من الحطام "لا.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً.. لا يمكن أن تكون....."

ألجم لسانه عن ذكر ما قد يفزعه أكثر، وأسرع للحطام يقلّب أخشابه وصخوره بحثاً عن جواب للسؤال الذي لم يطرحه.. هل حدث الحريق بسبب إحدى العواصف التي لا ترحم في الجبال؟ أم بسبب آخر؟.. كان عمله غير مجدٍ والحطام يستعصي عليه، وبعد جهد بذله في البحث ووقت قضاه في الهلع والرجاء، سمع صيحة تناديه من جانب الموقع، فرفع وجهاً غارقاً في العرق وتعابير الفزع ليجد قائد الدورية وجنوده يقتربون منه والقائد يقول بحدة "ما معنى هذا الذي تفعله؟ كيف تبتعد عن موقع الطائرة دون أن تبلغنا مع مخاطر ذلك؟"

نظر خالد للحطام من حوله بيأس والقائد يضيف "لو بلغ ما فعلته القيادة فستلقى عقاباً على هذا.. لنرحل ما دمت قد فرغت من تفحص حطام الطائرة"

هبّ خالد إليه يسأله "ما الذي حدث هنا؟ هل تعلم بأمر هذا المنزل؟ لابد أن حريقاً كهذا قد جذب أنظار الجنود ولاشك"

قال القائد بصرامة "لا علم لي.. انطلق معنا بسرعة وإلا رفعت تقريراً عن تصرفاتك المريبة"

وابتعد مع الجنود، فلم يكن من خالد إلا أن تبعهم بخطوات ذاهلة.. أيمكن أن تكون قد ماتت؟ أحقاً قضت نحبها في هذا الحريق؟.. متى؟ وكيف؟.. بل لماذا؟....

قطع تساؤله اقتراب أحد الجنود منه ليقول هامساً "سمعت أن إحدى الفرق قد داهمت منزلاً لأحد الثوار في هذه البقعة.. أنت تعلم أن جنودنا معتادون على حرق منزل الثوار بعد القبض عليه وعلى عائلته لكي لا يجد بقعة يعود إليها.. وكإنذار لبقية المحليين من عواقب الثورة.. ربما يكون هذا هو المنزل المنشود"

التفت إليه خالد متسائلاً بلهفة "أتظن أن أصحاب المنزل أحياء؟ هل قبض عليهم الجنود حقاً؟"

غمغم الجندي "مسألة بقائهم على قيد الحياة في قبضة رفاقنا لا تبشر بخير أبداً.. لكن لم هذا الإلحاح في معرفة مصيرهم؟"

لكن خالد لم يجبه وهو يغرق في دوامة أفكاره.. لقد تحول ذعره لقلق على مصير ميا لو كانت بقبضة الجنود.. قد لا يكون مصيرها أكثر راحة بالنسبة له من موتها في هذا الحطام.. فهل حقاً قبضوا عليها؟ هل هي من الثوار؟ مستحيل، وإلا لقتلته بدل علاجه، أو أسَرَته وسلمته للثوار بدل تركه يرحل.. ماذا عن أبيها؟ يبدو أنه يكنّ كرهاً عميقاً للجنود، فلا يستغرب لو كان من الثوار.. ثم إنه لمح شيئاً مبهماً على جانب عنقه وسبب هذا ارتباك الأشيب بشكل ملحوظ دفعه لإخفاء عنقه.. وماذا عن ميا؟ ما الذي سيفعلونه بها الآن؟ وأين يمكنه أن يعثر عليها أو يطمئن على حالها؟ قد تثير تساؤلاته الشبهات وقد تجلب على رأسه الويل.. لكن هل يتراجع؟.. تذكر عيناها اللامعتان فور رؤيتها لأبيها، فزفر وهو يتمتم بحنق "تباً.. أتمنى ألا يلمس أحد أولئك الأوغاد شعرة من رأسها.. أتمنى ذلك حقاً.."

****

الفصـــل الرابع

رغم مضيّ عدة أيام على خروج خالد من المستشفى، وعمله في المكتب التابع لأنطونيو، مع حرصه على الالتزام بمواعيد العلاج الطبيعي دون وجود تحسن كبير في أداء ركبته.. فإن خالد لم ييأس من العثور على ميا.. كان يستغل أي فرصة تتاح له للبحث عنها في السجون المختلفة التابعة لجيشهم، ويسأل من يستطيع من جنود الدوريات أملاً في العثور على خيط يدلّ عليها..

وفي صباح أحد الأيام، وبينما كان يتجه لمبنى الدوريات القريب من مبنى النسور، متعللاً بحاجته لنقل بعض الأوراق المهمة في محاولة منه للبحث عن ميا من جديد، لاحظ ازدحاماً من الجنود قرب جانب المبنى وسمع صياحاً غاضباً.. فاقترب بفضول كبير ليرى جانباً من حائط المبنى قد تهدم كاشفاً فجوة تسمح بمرور شخص بحجم متوسط، وقربها وقف ستيفان، قائد الدوريات، يصرخ حانقاً "كيف حدث هذا؟ أين كنتم وقتها؟ هذا إهمال لا يمكن السكوت عنه"

أجابه أحد الجنود قربه قائلاً بتوتر "لقد حدث هذا منتصف ليلة البارحة.. لقد تعرضنا لعدة هجمات متفرقة في الساحة التابعة للمبنى، وعندما انشغل أغلب المناوبين من جنودنا مع الثوار في قتال محدود، فوجئنا بحدوث هذا الانفجار الصغير الذي سبب هذه الفجوة.. ولما عدنا للموقع وجدنا أن أغلب السجناء قد تم تحريرهم وقد هربوا من المبنى والساحة كلها قبل وصولنا"

قال ستيفان بغيظ "أنت تتحدث عن أقل من دقيقة ما بين الانفجار ووصولكم.. كيف يمكن لمرتكب هذه الجريمة أن يتمكن من الدخول وتحرير السجناء من سجونهم واحداً واحداً ثم الهرب بهم من الفجوة في هذه الدقيقة؟ مستحيل؟"

قال الجندي بتوتر "هذا مستحيل بالفعل.. لذلك المنطق يقول إنهم استخدموا الفجوة للخروج فقط من المبنى وليس الدخول إليه"

قال ستيفان بحدة "إذن كيف دخلوا؟ لا تقل لي إن السجناء هم من قاموا بتفجير المبنى؟"

قال الجندي "لا.. لكني لا أعلم حقاً كيف تمكنوا من فعل ذلك.."

نظر ستيفان حوله بغيظ وغمغم "أتظن هذا يعفيكم من المساءلة؟ كيف يتسلل رجل لمبنى الدوريات نفسه؟ تهريب السجناء من مباني الجنود في أنحاء المدينة شيء وتحريرهم من مبنى الدوريات شيء آخر.. هذا إهمال واضح، وله عواقب وخيمة.."

اقترب خالد من أحد الجنود في الموقع وسأله "هل كانت هناك فتاة في هذا السجن؟"

نظر له الجندي بشيء من الدهشة لتساؤله وقال "لا.. المساجين هنا كانوا رجالاً فقط.. لم السؤال؟"

صمت خالد دون أن يجيبه وهو يتأمل المكان.. لا يزال بحثه دون جدوىً حتى الآن، ولا يدري ما الذي يجري للفتاة في هذا الوقت..

سمع صوت ستيفان الصارم يسأل بحدة "ما الذي تفعله هنا أيها النسر؟"

التفت خالد ليرى ستيفان يرمقه بحدة بعد أن لمحه أثناء مغادرته الموقع، وقد لمح علامة النسور التي تزين ملابسه، فقال خالد وهو يرفع الأوراق في يده "أتيت لأخذ هذه الأوراق لنائب القائد، بطلب من قائد النسور"

فقال ستيفان دون أن ينظر للأوراق "وما الذي أتى بك بعيداً عن مكتب النائب لهذا الموقع؟ ليس من المفترض بالنسور أن يتطفلوا على ما يحدث في مبنى الدوريات.. أليس كذلك؟"

لم تسنح الفرصة لخالد لاختلاق أي عذر والجندي جواره يقول لقائده "إنه يبحث عن فتاة بين السجناء"

قطب خالد بحنق، بينما ارتفع حاجبا ستيفان بدهشة قبل أن يقول بحدة "فتاة؟ وما شأنك أنت بالسجناء يا هذا؟ ما الذي تطمح إليه ببحثك عن فتاة في سجن مبنى الدوريات؟.."

قال خالد دون أن يبدي ارتباكاً "إنما هو سؤال عابر.. هناك فتاة قد...."

قاطعه ستيفان بحدة "ليس من شأني، ولا من شأنك.. ارحل لعملك بسرعة ولا تتدخل فيما لا يعنيك.. سأرفع ملاحظة بما تفعله لأنطونيو وأطلب منه لجم نسوره.. يكفينا الفوضى التي تدور هنا.."

وابتعد وهو يدمدم بغيظ "هؤلاء الثوار.. لا يفتر بحثهم عن رفاقهم السجناء منذ مدة.. لكن أنا سأذيقهم الويل.. وسيرون.."

زفر خالد وهو يتجه لمكتب نائب القائد بصمت.. يبدو أنه سيتلقى تأنيباً من أنطونيو بعد كل ما جرى.. وهو واثق أن ستيفان المعروف بصرامته وشراسته في التعامل مع الآخرين لن يتوانى عن تضخيم ما قام به خالد بحيث يدفع أنطونيو لاتخاذ إجراء حاسم في الأمر..

****

انهمكت ميا بعملها تماماً في الغرفة المخصصة كعيادة صغيرة في المنزل، حتى اختفى جسدها الصغير خلف أثاث الغرفة وهي تفتش في أحد صناديق المعدات الطبية الذي يملكونه، ولم ترفع رأسها حتى سمعت حركة خافتة في الموقع مما جعلها تنظر اعتقاداً منها أن رستين قد عاد بعد مغادرته للقاء هان.. لكنها رأت دانتين الذي قال عند رؤيتها "ظننت المكان خالٍ فالصمت يخيم عليه.. أين رستين؟"

أجابته وهي تنهض "عند هان.. أتشكو من شيء؟"

ابتسم دانتين معلقاً "ألا يفترض أن نقترب من هذا المكان إلا جرحى؟ لقد بدأت أشعر بالملل، فروباك يستأثر بمعظم العمليات، وهان أصبح يفضل استبعادي لسبب ما.."

قالت بتعجب "أنت تبالغ.. لابد أنه يخشى عليك نظراً لتزايد خطورة عملكم.."

ضحك دانتين بهزء قائلاً "أنت من يبالغ.. عملنا خطر منذ البدء.. ولا معنى لخشيته على أحد من الثوار"

رأت روباك يدخل الغرفة صامتاً في تلك اللحظة.. ولما رأى دانتين، التمعت في عينه نظرة لم تفت ميا وإن لم تفهم معناها، لكنه قال بهدوئه المعتاد "دانتين.. هان يطلبك الآن.. سيسند إليك إحدى المهام هذه الليلة، فلا تخيب ظنه بك"

وقف دانتين بحماس قائلاً "أخيراً.. كدت أيأس حقاً"

واندفع خارجاً من الغرفة وميا تراقبه بابتسامة، لكن روباك لم يغادر وهو ينتظر بصمت، فسألته ميا بابتسامة "كيف حالك يا روباك؟ لم أرك منذ عدة أيام.. بتّ أخشى أن تنسى وجودي معكم"

لم يجب روباك أسئلتها وهو يسألها "ما الذي كان يحدثك عنه دانتين؟"

تعجبت من اهتمامه بهذا الأمر، فأجابته "لا شيء مهم.. كان يتذمر من بقائه في المخبأ دون أن يسند له هان أي مهام مؤخراً"

صمت روباك وهو غارق في أفكاره، فتساءلت ميا "أيضايقك حديثه لي بأي شكل؟"

امتنع عن جوابها للمرة الثانية وهو يزفر، ثم نظر لها وغمغم "كوني حذرة.."

وغادر بصمت كما جاء تاركاً ميا وتعجبها يزداد مرات ومرات.. ما الذي يعنيه روباك من تحذيرها؟ أهو يحذرها من الاختلاط ببقية الثوار؟ أهو يحذرها من الحديث بحرية مع أحدهم؟ أم هو يحذرها من دانتين بالذات؟..

****

وقف خالد وقفة صارمة في تلك الغرفة التي لا تحوي إلا طاولة طويلة وكراسي جلس عليها أربع رجال بوجوه صارمة وهم يتشاغلون بالأوراق في أيديهم.. بينما لم يُسمح لخالد بالجلوس وهو يراقبهم بصمت دون أن يأتي بحركة.. بعد لقائه بستيفان أمام مبنى الدوريات، لم يكن مستغرباً أن يتم استدعاؤه للتحقيق بعدها بوقت قصير..

بعد لحظة طويلة بالنسبة له، رفع أحد الرجال رأسه قائلاً "خالد.. أنت تعلم السبب الذي من أجله أُحلت للجنة التحقيق اليوم.. أليس كذلك؟"

قال خالد بصوت واضح "ليس بالضبط يا سيدي.."

قال آخر بشيء من الحدة "كف عن التغابي.. أنت تعلم تمام العلم أن تصرفاتك المريبة مؤخراً هي السبب.."

أشار له الرجل الأول والذي يبدو أنه رئيس اللجنة ليهدأ وهو يقول "وردتنا عدة تقارير بشأنك في الأسبوع الماضي أثارت تساؤلات أحد قاداتنا، لذلك أمر بتشكيل هذه اللجنة والتحقيق في أمرك لإزالة الشبهة في تصرفاتك.."

لم يعقب خالد وهو يدرك أن ذلك القائد لن يكون إلا ستيفان، فيما أضاف رئيس اللجنة "من هذه التصرفات طلبك الخروج من المدينة بحجة البحث في الطائرة المحطمة، ثم تهربك من الدورية التي رافقتك والتي وجدتك بعدها في منزل محترق بعيداً عن موقع الطائرة.. العديد من جنودنا قد رأوك تبحث في سجوننا الموزعة في أنحاء المدينة، وقد سألتهم بإلحاح عن فتاة من المحليين.. فما معنى كل هذا؟ ما الذي يهدف إليه أحد النسور من التجوال في المدينة بهذه الطريقة المثيرة للشبهات؟"

قال خالد "ليس شيئاً مهماً يا سيدي.. أملك شيئاً يخصّ تلك الفتاة وأنا راغب بإعادته لها"

كان هذا هو العذر الوحيد الذي تفتق في ذهنه، فلاحظ نظرات الاستنكار في عيون اللجنة قبل أن يقول أحدهم بحنق "ماذا؟ أهذا ما يشغل أحد جنودنا في هذه الأوقات العصيبة؟ تترك عملك وواجباتك وتلاحق فتاة؟ وما هذا الشيء المهم الذي ترغب بإعادتها لها؟"

قال خالد متجاهلاً السؤال "لم يعلمني قادتي أن الجندي يجب أن يكون خائناً للأمانة.. ولا شأن ببحثي وعملي، فأنا أؤدي عملي على أكمل وجه"

قال رئيس اللجنة "ليس مسموحاً لك أن تسعى خلف أحد المحليين أو تخالطهم بغير ما تقتضيه مهامك منك.. لقد أوضحنا لكم هذا سابقاً قبل أن تحملكم السفن الفضائية من الأرض.. ما تفعله له عواقب وخيمة، وأنا أنصحك بأن تتوقف عنه وتعود لإخلاصك للجيش كما كنت من قبل"

قال خالد بضيق "وهل ما فعلته دليل على عدم إخلاصي للجيش؟"

قال الرئيس بحزم "أجل.. نحن نراه كذلك"

بعد تحقيق مطوّل، خرج خالد من عند اللجنة والضيق يكتنفه، عندما رأى أنطونيو يجلس خارج الغرفة بانتظاره.. فتقدم منه خالد قائلاً "ما الأمر سيدي؟.. أنت خارج مكتبك على غير العادة"

قال أنطونيو بحدة "أحد أفضل نسوري يتعرض للتحقيق وتريدني أن أبقى جالساً في المكتب؟ ما الذي فعلته يا خالد لتقع في هذا؟"

خفض خالد بصره قائلاً "أرجو منك العفو يا سيدي.. لقد حدث هذا دون قصد مني.. لم أكن أريد إثارة بلبلة ولفت الأنظار إليّ"

نهض أنطونيو عائداً إلى مكتبه وأشار لخالد أن يتبعه، وما إن ضمهما المكتب معاً وأغلق الباب خلفهما حتى قال أنطونيو "خالد.. أريدك أن تصارحني بما تفعله.. أنا رئيسك وصدقني لست ممن يتصيدون الأخطاء للآخرين.. أخبرني بما قلب حالك بهذا الشكل وسأحاول مساعدتك كي تعود كما عهدناك من قبل"

زفر خالد مطرقاً، فقال أنطونيو واضعاً يده على كتف خالد "اسمعني.. مهما كانت الحماقة التي سعيت إليها، فبصفتي رئيسك سأتقبلها ولن ألومك عليها أو أحاول اعتراض طريقك.. أرجوك ساعدني كي أتمكن من مساعدتك.."

غمغم خالد "هي بالفعل حماقة.. لكني لا أرى لها حلاً.."

قال أنطونيو "أريد الحقيقة الآن.."

زفر خالد بضيق، ثم بتردد أخبر قائده عن بحثه عن ميا دون الدخول في تفاصيل كثيرة.. وما إن انتهى حتى ضحك أنطونيو معلقاً "يا لحماقتك يا خالد.. هناك المئات غيرها في المدينة فلا تشغل نفسك بها.."

قال خالد مقطباً "بهذه البساطة؟ لو كان الأمر هيناً لما دار عقلي وأنا أبحث عنها.."

فقال أنطونيو "ما الذي تريد قوله؟ هل تحبها يا فتى؟"

أجاب خالد بحيرة "لست أدري حقاً.. منذ مغادرتي منزلها وعقلي لا يكفّ عن التفكير بها.. وعند رؤيتي للمنزل المحترق جنّ جنوني وظللت أبحث عنها دون توقف.."

غمغم أنطونيو "ربما هذا نابع من امتنانك لإنقاذها حياتك.. ستنساها ولابد بعد فترة"

قال خالد مطرقاً "قد لا تصدقني يا سيدي فيما أقوله.. لكن تلك الفتاة شغلت عقلي بشكل لم أكن لأتصوره.. بتّ أراها أمامي في كل وقت.."

رفع أنطونيو حاجبيه بدهشة وخالد يضيف "أريد فقط الاطمئنان عليها.. لذلك بحثت عنها في كل مكان.. أريد فقط أن أتأكد أنها على قيد الحياة.."

علّق أنطونيو "لكنك بهذا التصرف لا تؤدي واجبك على أكمل وجه، وهذا يعرضك للمسائلة.. كما أنه يلفت الانظار إليك وقد تتم معاقبتك لتدخلك في شيء لا يخصك، وقد يتم إبعادك إلى أحد المناطق النائية من الكوكب.. فهل هذا ما تريده؟"

هز خالد رأسه نفياً وقال "قطعاً لا.. لكني ما إن أفكر فيها حتى أجد نفسي مدفوعاً للبحث عنها.."

قال أنطونيو "إنها ابنة أحد الثوار.. لابد سيقبضون عليها عاجلاً أو آجلاً إن لم تكن في قبضة الجيش بالفعل.."

نظر إليه خالد بضيق فربت أنطونيو على كتفه بقوة ضاحكاً وقال "لا تقلق.. أستطيع استخدام نفوذي لأمنحك بعض الوقت معها.. ربما لو حصلت عليها لمرة واحدة ستفقد اهتمامك بها نهائياً، وهذا ما يحدث مع بقية الجنود.. هذا ليس حباً وأنت أكثر مني معرفة بهذا.."

"أنا لست مثلك.. لست مثلهم.. لست مثل بقية الجنود.. ليس هدفي فقط إرضاء نزوة أو التمتع بوقتي.. لم أفرح بمقتل أحد المحليين، ولا أستمتع بتدنيس نسائهم.. لست راضياً عن كل ما يحدث هنا، ولو خُيّرتُ لغادرت الكوكب كله بلا رجعة لئلا أشهد المزيد من المآسي وأثقل ضميري بما أراه"

كان بودّ خالد لو يصرخ بهذه الكلمات.. بوده لو يفصح عما يكنّه من بغض لأفعال الجيش.. لكنه يعلم أن التحقيق سيكون أقل ما سيحصل عليه.. فالاعتراض، ولو بكلمة، ليس مما يسمح به في الجيش.. والعقاب يكون من نصيب صاحب هذه الكلمة لكيلا يدفع هذا غيره لرفع أصواتهم بالاعتراض وإحداث بلبلة ليست من صالح الجيش البعيد عن موطنه وعن مصدر قوته..

وعوضاً عن ذلك، نهض خالد قائلاً لأنطونيو "شكراً سيدي.. سأقدر لك هذا"

فقال أنطونيو "دع عنك التفكير والانشغال بالأمور الجانبية.. أنا أهيئك لما هو أكبر من هذا.. فكن مستعداً.."

قال خالد "لا تقلق يا سيدي، سأكون عند حسن ظنك بي.."

وغادر الغرفة وهو منشغل بأفكاره.. لو سقطت ميا في يد الجنود، فسيفيده حتماً أن يجمعه أنطونيو بها.. عندها قد يتمكن من مساعدتها على الهرب بأي طريقة كانت.. حتى لو عرضه هذا للخطر أو للعقاب..

****

سمعت ميا جلبة في المنزل بعد انتصاف الليل، عندها أدركت أن روباك ودانتين والآخرون قد عادوا من إحدى عملياتهم الليلية.. غادرت غرفتها بعد أن جافاها النوم واتجهت إلى وسط المنزل لتراهم مجتمعين يتحدثون بصوت

خافت.. كان الوجوم يعلو الوجوه بشكل لم تخطئه مما جعلها تظن أن عمليتهم لم تكن ناجحة تماماً.. ولما انتبهوا إليها التقت الأعين عندها بشكل جعلها تتساءل "هل كل شيء على ما يرام؟"

لم يجبها أحد والصمت يعمّ المكان ثوانٍ.. ثم سمعت روباك يقول ساخطاً "تباً للغزاة.."

لم تفهم ما يجري بينهم، لكنها انتبهت إلى أن دانتين يمسك يده اليسرى باليمنى والدماء تسيل من تحت يده.. فاقتربت قائلة بقلق "هل أصبت يا دانتين؟ دعني أعالجك؟"

قال دانتين بشيء من الحرج "لا داعي.. ليست إصابة سيئة"

قال سيميان صاحب المنزل وهو يشير لزوجته "لا يفضّل أن تترك جراحك دون علاج.."

أحضرت الزوجة بعض الأدوية والأدوات الطبية، فانهمكت ميا بمعالجة ذراع دانتين التي كانت تحمل جرحاً سطحياً.. وأثناء ذلك لزم الجميع الصمت بشكل استغربته ميا، مما دفعها لأن تتساءل وهي تربط جرح دانتين برباط طبي "هل حدث شيء ما؟ أنتم صامتون على غير العادة"

فقال روباك موجهاً حديثه لهان "ألا يجب أن نـُشْرِكها في هذا؟"

صاح دانتين "لا تفعل.. لا تزد الأمور سوءاً يا روباك.."

قال روباك مقطباً "وهل معرفة الحقيقة تزيد الأمور سوءاً على ما هي عليه بالفعل؟"

قال دانتين بغيظ "ألا تهمك مشاعر الآخرين أبداً؟"

أجاب روباك "بل تهمني مشاعر الجميع.. لذلك لا أحب أن أخدع أحداً.."

فقالت ميا بشيء من الحدة "ألن يتكلم أحدكم عن الأمر؟ إن كان الأمر يخصني فيجب أن أعرفه دون الحاجة لأخذ إذن من أحد.."

ألقى روباك نظرة إلى هان، ولما شعر بموافقته الصامتة قال لها "الغزاة قد أعلنوا اليوم عن قرار إعدام جميع الثوار الموجودين في مساجنهم"

اتسعت عينا ميا بارتياع وصاحت "أبي معهم؟"

هز روباك رأسه إيجاباً بأسف وقال "لقد نشروا أسماءهم، وحددوا موعد الإعدام.."

ظلت ميا تتطلع إليهم مذعورة، فيما قال دانتين بحنق "لقد أخبرتكم أنه مجرد تهديد.. لن يتخلصوا من مصدر معلومات مهم أبداً"

قال هان "بل هو تهديد لنا لحملنا على التخلي عن فكرة المقاومة.. مقتلهم على أيدي الجنود هو لِبَثّ الرعب في قلوبنا.."

قال روباك بحدة "ونحن لن نسمح لهم بهذا.."

قالت ميا بذعر "هل عرفتم موقعهم؟ هل ستنقذونهم؟"

أجاب هان "للأسف لم نستدل على موقع سجنهم.. لكننا سننقذهم في اليوم المقرر لإعدامهم.."

صاحت "كيف وأنتم لا تعرفون أين تجدونهم؟"

قال هان "لأن إعدامهم سيتم بشكل علني في وسط المدينة.."

فقال روباك "هذه وقاحة منهم.. كأنها دعوة لنا لمحاولة إنقاذهم مستهزئين بنا"

علق هان قائلاً "هذا ما يعنيه الإعلان بالفعل.. إنهم يتحدوننا، وفي الوقت نفسه يخططون للقضاء علينا بضربة واحدة.."

قالت ميا بصوت مرتجف "متى سيكون هذا؟"

تنهد هان مجيباً "غداً عند شروق الشمس.."

ظلت ميا تتطلع في وجوههم التي علاها الحنق الممزوج بقلق، ثم تحاملت على نفسها وغادرت عائدة إلى غرفتها حيث تهاوت هناك جالسة أرضاً وهي ترتجف.. تذكرت ملامح أبيها الذي مرت أيام طويلة منذ آخر مرة رأته فيها.. فهمست ضامة يديها إلى صدرها "أبي.. أرجوك كن بخير.."

****

في غرفته، ظل خالد مستلقياً على سريره قبل بدء عمله في هذا النهار، محاولاً تناسي آلام ركبته التي ازدادت في الآونة الأخيرة، وهو يفكر في ميا التي لم تغب عن باله قط.. رغم أن فرصة رؤيته لها تزداد إن أمسك بها الجنود، لكنه لا يخشى إلا حدوث هذا.. لابد أنها ستتعرض للتعذيب والإذلال على يد الضباط.. لن يردعهم صغر سنها وهي التي تبدو لم تكمل العشرين عاماً بعد، ولن تردعهم براءة عينيها.. زفر بقلق عندما سمع صوتاً يقول "يا لحظ بعض من أعرفهم.. لديهم إجازة مفتوحة ووساطة تبيح لهم التجول في أرجاء الكوكب بحرية.. وحتى المساءلة التي تفرض علينا قد ألغيت عنهم"

نظر خالد فرأى أيمن يدلف من باب الغرفة حاملاً خوذته ويرتدي لباسه الرسمي، فابتسم معلقاً "حتى متى تظل بهذا الحقد؟ لو أنك تريد المبادلة سأتنازل عن آلام ركبتي المتزايدة بكل سرور.. أهو وقت مناوبتك؟"

أجاب بالإيجاب وهو يجلس قريباً وتساءل "ما الذي فعلوه بك في اللجنة؟ لقد دعوت الله ألا يأكل القادة لحمك نيئاً.. لذلك يجب أن تكون ممتناً لي.."

ضحك خالد قائلاً "لقد كانوا على وشك فعل هذا.."

سمعوا صوت أحد الرجال من خلفهم يقول "هيا يا أيمن.. سنتأخر عن المناوبة.."

دلف أحد النسور بلباسه الرسمي وهو يضيف موجهاً حديثه لخالد "أمازلت تعاني من إصابة ركبتك؟يبدو أنها أسوأ مما اعتقدنا جميعاً مادام أنطونيو لم يسمح لك حتى الآن بقيادة طائرتك"

قال خالد "ستتعافى تماماً بإذن الله.. لست قلقاً منها بل أنا مستمتع بإجازتي.."

سمعوا لغطاً يدور في الخارج، ولما نظر خالد من غرفته في الطابق الثاني من المبنى السكني التابع للجيش، رأى جماعة من الجنود ينطلقون من مبنى الدوريات القريب بخمس من سيارات الدوريات وعربة مصفحة باتجاه وسط المدينة.. فتساءل خالد "ما الأمر؟ الدوريات المعتادة قد انطلقت قبل طلوع الشمس، فما الذي استجدّ لإرسال المزيد منها للمدينة في هذا الصباح؟"

أجاب الرجل وهو ينظر من النافذة "إنه لأجل الإعدام.."

تطلع إليه خالد وأيمن بعدم فهم، فأوضح قائلاً "لقد أعلنوا البارحة عن قرار إعدام عدد من الثوار الذين تم القبض عليهم الأسبوع الماضي.. وسيتم هذا الآن في ساحة المدينة أملاً في القبض على بقية الثوار الذين سيهبّون بالتأكيد لتحرير رفاقهم"

قال أيمن وهو يغادر "تباً.. المزيد من الدم يراق.."

فقال الرجل وهو يتبعه "رغم كل الوقت الذي قضيته هنا لم تتعود على هذا الأمر بعد؟ لن يستسلم هؤلاء الكومتيين حتى يروا الدم.. هذا هو الحلّ الوحيد"

غادرا الغرفة دون أن ينتبها لنظرة الاهتمام الكبيرة التي علت عينا خالد وهو يتأمل سيارات الدورية التي توارت بين المنازل، ثم هبّ فجأة بكل نشاط وارتدى ملابس الجنود مغادراً الغرفة.. هناك خيط ما.. خيط سيقوده لميا بالتأكيد.. لقد هاجموا منزلها بتهمة تورطهم مع الثوار، فلابد أن يكون الثوار هم الخيط الذي سيقوده إليها، ولا يمكنه أن يفوّت هذه الفرصة أبداً..

****

في تلك الأثناء، ومع شروق الشمس، كانت ميا تندس مع دانتين بين جموع من السكان المحليين الذين احتشدوا في ساحة من ساحات المدينة، تتوسطها منصة أقيمت على عجل يقف فوقها بضع جنود مشهرين أسلحتهم في وجوه الجميع.. تعلق بصر ميا بالمنصة وهي تهمس لدانتين "أين هم؟"

أجابها دانتين بهمس بدوره "سيحضرونهم بعد قليل.."

فقالت بشيء من العصبية "ألا يجب أن نحاول تحريرهم قبل وصولهم لمنصة الإعدام؟ سيكون الأمر أقل خطراً عندها ولن نتسبب بأذىً للأهالي"

علق دانتين "لنصبر ولنرَ ما سيحدث"

دام انتظارهم وقتاً رأته ميا طويلاً وتوترها يتصاعد حتى لتشعر بقلبها يدق في حلقها، وازدردت لعابها وهي تتلفت حولها بحثاً عن المركبة التي ستقل الثوار للساحة.. وفي تلك الأثناء، كان القتال محتدماً بين عدد من الثوار الذين تصدوا لمركبتين من مركبات الجنود تتوسطها عربة مصفحة بغير نوافذ خلاف التي تجاور سائقها.. فما إن مرت تلك المركبات عبر الشارع المعتاد للدوريات القادمة من مبناهم، حتى اعترض الثوار طريقها وقاموا بتفجير أولى المركبات لإيقاف تقدم القافلة، فانقلبت المركبة بجنودها وسقطت جانباً وهي تحترق، مما اضطر المركبتين التاليتين للتوقف اضطرارياً.. ومع غزارة الطلقات التي انهمرت على رؤوس الجنود في المركبتين، سرعان ما انفجر خزان المركبة الثالثة بعد أن اخترقتها رصاصة من أحد الثوار، لتقضي على الجنود فيها بين جريح وقتيل.. وعلى الفور، هبط الثوار من تمركزهم فوق المنازل القريبة وتقدموا من الأزقة التي أخفتهم عن الجنود نحو المركبة الثانية المصفحة والتي حاول الجنديان اللذان يقبعان فيها على الرد على هجوم الثوار بعد أن انحصروا في

ذلك الشارع الضيق بين المركبتين المحترقتين.. وبينما تولى روباك وثلاثة من الثوار معه أمر الجنديين، فإن الثوار الآخرين أسرعوا لمؤخرة المركبة المصفحة وحطموا قفلها ليفتحوها وأحدهم يصيح فيمن يقبع داخلها "هل أنتم بخير؟"

وما إن فتحوا بابيها على مصراعيه، حتى وجدوا الأشعة تتناثر من الداخل بأسلحة بضع جنود كانوا يقبعون في العربة، لتطيح بعدد من الثوار القريبين بينما تراجع البقية وأحدهم يصرخ في رفاقه "إنه كمين.."

أسرع الثوار يحتمون بأقرب موقع يحميهم من الأشعة وهم يتبادلون إطلاق النار مع الجنود الذين كانوا يختبئون في المركبة لمداهمة الثوار.. بينما انتبه روباك لصياح الثوار ولإطلاق النار مما دفعه ليقول لمن حوله بغضب "كانت تلك مكيدة بالفعل.. يجب أن نسرع لساحة الإعدام.."

تراجع الرجال من حوله بينما صاح روباك في البقية "تراجعوا.. يجب أن نذهب لساحة الإعدام قبل أن ينتهي كل شيء.."

تخلى الرجال عن تلك المعركة المحدودة وهم يتفرقون في الأزقة القريبة ووجهتهم واحدة.. ساحة الإعدام التي على وشك أن تشهد أحداثاً حاسمة..

وفي الساحة، وبعد انتظار طويل قضته ميا بتوتر وقلق هائلين، رأت ثلاث مركبات تتقدم من الساحة عبر أحد الشوارع الجانبية للمدينة وفي قلبها عدد من مواطنيها برفقة مجموعة من الجنود المتحفزين.. حبست ميا أنفاسها وهي تبحث ببصرها عن لمحة من أبيها، بينما غمغم دانتين "لقد سلكوا طريقاً غير الذي يأتون به عادة.. علموا أننا سننتظرهم، ولابد أنهم أرسلوا مركبات أخرى للطريق المعتاد كتمويه"

لم تعلق ميا وقلقها يتزايد بشكل كبير، ولما توقفت المركبات وجنودها يهبطون ليحيطوا بها وبالمنصة بإحكام، وبدأ السجناء بالنزول بدورهم وارتقاء المنصة واحداً تلو الآخر، تزايد اللغط بين الجموع والتوتر مشحوناً بقلق يعتري الوجوه لمرآهم.. شهقت ميا وهي تغطي فمها بيدها بذعر.. فمن بين السجناء الذين اصطفوا على المنصة باستسلام، رأت أبيها بجسده المنحني تعباً ولحيته البيضاء ووجهه الذي لم يخلُ من عدة كدمات يقف بينهم بصمت.. لم يرفع بصره للجموع أمامه، وحتى لو فعل لما استطاع رؤية ميا بين العشرات المحتشدين في الموقع..

قالت ميا وهي تتشبث بذراع دانتين "إنه أبي.. أرجوكم أنقذوه.. سيقتلونه لو تأخرنا أكثر من هذا"

همس دانتين وهو يهدؤها "لا تقلقي.. هان لن يسمح بهذا.."

تزايد الذعر في قلب ميا وهي تراقب ما يجري، بينما تقدم أحد الضباط من وسط المنصة وهو يهتف "بأمر من قادة مدينة سِن، سيتم تطبيق حكم الإعدام بهؤلاء الشرذمة الذين يطلقون على أنفسهم ثوار.. يظنون أنهم بإعلان رفضهم واعتراضهم صراحة، وبمحاولات تدمير بعض المركبات وإصابة بعض الجنود سيدفعوننا للرحيل.. وهذه عاقبة غرورهم ذاك.. وليكن هذا تحذير لكل من تسوّل لهم أنفسهم مد يد العون لهم أو مساندتهم بأي شكل من الأشكال.. لن نتردد في اتخاذ الإجراءات الصارمة لعقاب هؤلاء"

نظرت ميا حولها بحثاً عن أي أثر للثوار بين الجموع.. أين هم؟ لماذا لم يتحركوا حتى الآن؟.. رأت الضابط يلقي أمره لبعض الجنود الذين اصطفوا أمام السجناء، فشهروا أسلحتهم في وجوه السجناء الذين أجبروا على الركوع

أرضاً بالقيود التي تقيّد أيديهم وأرجلهم.. بينما ساد صمت مذهول بين الحشود التي لم تتحرك أو تتذمر خشية الأسلحة المشهرة في وجوههم.. ولما رفع الضابط يده بإشارة الاستعداد، صاحت ميا بصوت مذعور "أبي.. لاااااا"

علا صياحها في الساحة الصامتة، فرفع كيرام عيناه بدهشة ليلمحها وسط الحشود وهي تدفع من حولها محاولة الاقتراب من المنصة، ثم لانت نظراته والمرارة تغزوها وهو يراقب ذعرها وصياحها.. ولما هوت يد الضابط بقوة، أغمضت ميا عينيها بفزع شديد ويأس وهي تسمع الطلقات التي شقّ صوتها سكون المكان.. تبعتها شهقات استنكار وصيحات ألم..

نظرت ميا لما أمامها والدموع تسيل من عينيها لتفاجأ بأبيها ينظر بذهول للجندي أمامه والذي سقط ميتاً ودماؤه تغمر المنصة، كما حدث لأغلب الجنود قربه.. اتسعت عينا ميا بدهشة وهي ترى أن الرصاص الذي سمعته كان من نصيب الجنود، بينما السجناء لم يصابوا بأدنى ضرر، والضابط يبحث بعينيه حوله حانقاً وهو يصرخ على بقية الجنود الذين رفعوا أسلحتهم بحثاً عن المهاجمين..

ولما استوعب الحشد من حولها الأمر، تعالت صيحات الفرح والتشجيع من الحناجر وهم يتدافعون محاولين الوصول للمنصة وقد مدّهم ما جرى بجرأة كبيرة، بينما ارتقى بعض الجنود المنصة من جديد مشهرين أسلحتهم والضابط يصيح "اقتلوهم.. ابحثوا عن هؤلاء الشرذمة.. لابد أنهم....."

قطع صياحه بطلقة أصابت كتفه وأخرى في ساقه أجبرته على الركوع أرضاً بألم شديد.. نظرت ميا حولها بحثاً عن مصدر الطلقات، فلمحت بعد جهد بعض الرجال الملثمين ممن ظهروا على أسطح المنازل القريبة، وسرعان ما لمحهم الجنود أيضاً فبدأوا يبادلونهم الإطلاق وهم يحتمون بالمنصة وبالمركبات القريبة، فتطايرت الطلقات والأشعة بين الجانبين مما ولّد ذعراً لدى السكان الذين ارتدّوا على أعقابهم وهم يصرخون ويدفعون من يقف في طريق فرارهم من ساحة المعركة..

كادت ميا تسقط أرضاً وهي عاجزة عن الوقوف في وجه هذه الحشود، وقبل أن تسقط بالفعل شعرت بدانتين الذي أمسك ذراعها بقوة وجذبها جانباً وهو يصيح "احتمي بأي شيء.. قد يحاول الجنود الانتقام من السكان"

قالت وهي تقاومه "لكن.. يجب أن ننقذ أبي.. لا يزال في قبضة الجنود"

قال دانتين بحدة "رفاقنا سيفعلون ذلك.. هان شدّد علي ألا أسمح لك بالتعرض لأي خطر.."

واندفع معها متجاوزيْن السكان الهاربين حتى احتموا بصناديق مصطفة في جانب الساحة، بينما دويّ الرصاصات وهسيس الأشعة يعلو في المكان.. في تلك الأثناء، حاول الضابط التغلب على آلامه وهو يركع وسط المنصة والرصاصات تتناثر من حوله، ونظر حوله للجنود القتلى والسجناء الذين سقط بعضهم مفترشين المنصة ومغرقينها بدمائهم.. فأسرع الضابط يرفع جهاز الاتصال ويصيح فيه محاولاً تجاوز الإزعاج الدائر في المكان "إلى القيادة العامة.. نريد إمدادات.. فشلت العملية والثوار يحاصرون الساحة، ويبدو أن الكمين قد فشل.. نريد المزيد من الجنود بأقصى سرعة.."

فوجيء بقدم تركل يده الممسكة بالجهاز ليسقط بعيداً عن متناول يده بينما قال صاحب القدم "استسلم يا هذا.. لن يغادر أحد الجنود هذه الساحة حياً"

نظر الضابط بغلّ لكيرام الذي بادله النظرات الصارمة، وقبل أن يتفوه كيرام بكلمة كان الضابط يركل ساقه بقوة وهو يصيح "سنرى أيها الحقير.."

سقط كيرام على وجهه بقوة فيما تحامل الضابط على نفسه ليقف.. ولما رفع كيرام رأسه، وقبل أن يحاول الوقوف، رأى السلاح موجهاً لرأسه والضابط يقول بابتسامة مستحقرة "مت أيها التافه.."

نظر كيرام بعينين متسعتين لفوهة السلاح، وفي ذلك الجزء من الثانية لاح وجه ميا المذعور أمامه.. وفي اللحظة ذاتها التي تعالى فيها هسيس سلاح الضابط، دوّى صوت رصاصة من سلاح قريب أصابت عنق الضابط الذي لم يجد الفرصة ليشهق وهو يرتمي بثقله على كيرام جثة هامدة..

قفز أحد الرجال الملثمين للمنصة وسارع بإبعاد الضابط عن كيرام وهو يهتف "هل أنت بخير؟"

صدم وهو ينظر لكيرام الذي شَخَصَ بصره للسماء وثقب ذو حواف سوداء يتوسط جبهته، وهي علامة على الإصابة بأشعة الغزاة المجهولة بالنسبة لهم.. عندها التمع الغضب والأسى في عيني الرجل وهو يتلفت حوله قائلاً بمرارة "تباً.."

كان الإطلاق قد توقف في الساحة وبدأ الهدوء يعمّها بعد أن اختفى السكان المحليون تماماً في منازلهم القريبة.. ومن بقي في الساحة لا يتعدى جثث الجنود التي تساقطت في كل مكان حول المنصة، وبعض الرجال من الثوار الذي هبطوا من أسطح المنازل واقتربوا من الساحة بسرعة.. وبالإضافة لذلك، كانت جثث السجناء بإصابات متفرقة في أجسادهم تفترش المنصة جوار أجساد الجنود..

بدون أن يضيف أي كلمة، أسرع الرجل يقفز من المنصة ويقترب من رفاقه قائلاً بمرارة "العملية فشلت تماماً.. لقد قُتل رفاقنا كلهم"

صاح رجل آخر بغضب "تباً لهم.. كان يجب أن ننقذهم قبل وصولهم للساحة، لكنهم خدعونا منذ البداية بتمويه مركباتهم"

قال الرجل الأول بسرعة "المهم الآن أن نبتعد قبل أن يحضر المزيد منهم.. لقد أجرى الضابط اتصالاً بالقيادة وطلب إمدادات، ولن تمضي دقائق حتى تمتليء الساحة بهم"

أسرع الثوار بالانسحاب بصمت دون اعتراض، بينما خرجت ميا من مخبئها قائلة بصوت مرتجف "أبي.. أين هو؟"

جذبها دانتين قائلاً "يجب أن نرحل يا ميا.. الجنود قادمون"

دفعت يده بعيداً وهي تجري نحو المنصة لا ترى إلا أجساداً ملقاة في كل مكان.. كان أقل ما يوصف به ما حدث هنا هو مذبحة، نال منها الثوار والجنود نصيباً متساوياً ولم يكن فيها أي رابح.. تراءت لميا الأجساد على المنصة دون أن تستطيع تمييزها وقلبها يضرب صدرها بقوة شديدة، وقبل أن تصل إليها رأت جندياً لم يصبه سوء مما

حدث يصعد للمنصة ثم يركع قرب أحد الأجساد يتفحصها، ولم يكن ذلك الجسد إلا لأبيها.. عرفته من ثيابه، من شعره الأبيض، من ملامحه رغم بعدها.. فصاحت بارتياع "أبي.."

رأت الجندي يلتفت إليها، قبل أن يرفع وجه خوذته وهو يهتف بدهشة "ميا؟"

لم تنظر ميا تجاه خالد الذي وقف ينظر لها بدهشة وقلق وهي تندفع للمنصة صائحة ودموعها تسيل على خديها "أبي.. لاااا.. أبي لم يمت.. لا يمكن أن يموت.. لا يمكن أن يقتلوه.."

تقدم خالد خطوتين تجاهها، لكنه وجد دانتين يجذب ميا بقوة ليوقف تقدمها وهو يرفع سلاحه في وجه خالد بتحذير، ورغم مقاومة ميا المستميتة إلا أنه أحكم قبضته عليها وهو يجذبها بعيداً عن الساحة دون أن يبعد بصره عن خالد الذي نظر إليهما بصمت دون أن يبدي حراكاً..

وبعد مقاومة مستميتة وصياح شديد، شعر دانتين بميا تسقط أرضاً وقد أغمي عليها من الصدمة التي لطمت وجهها، فأسرع يحملها بعد أن تأكد أن خالد لا ينوي أذيتهما، وركض في الاتجاه الذي سلكه رفاقه الثوار من قبل وهو يغمغم بأنفاس لاهثة "اللعنة.. سألقى تأنيباً على كل ما جرى هنا.."

أما خالد، فرغم سعادته برؤية ميا بخير بعد أن يئس من العثور عليها، إلا أن منظر حزنها وبكائها قد كان كالقبضة التي عصرت صدره بقوة، فزفر وهو يتأمل الأجساد حوله وقال "أتمنى أن تكون بخير.. يا إلهي، ماذا سأفعل الآن؟"

نظر لجسد الأشيب وهو يستشعر صدمة ميا بمقتل أبيها أمام عينيها.. ثم عاد يزفر وهو يرى بضع دوريات محملة بالجنود قادمة للموقع بسرعة كبيرة.. لقد خسر الطرفان أرواحاً كثيرة.. ولن يصمت أي طرف قبل أن ينتقم.. ولشدّ ما يخشى خالد عواقب هذا..

****

عندما وصل دانتين قريباً من منزل سيميان بعد أن تفادى الطرق التي ستسلكها الدوريات في قدومها للساحة، التقى بروباك الذي كان يقف وسط الطريق ومن خلفه المنزل، فوقف دانتين بدوره وقال لاهثاً "لقد أغمي على ميا بعدما....."

صمت وهو يرى ملامح روباك.. كان روباك غاضباً وبشدة.. بدا مستعداً لفعل أي شيء في غضبته تلك، وقد توجس دانتين لذلك لسبب لا يدركه.. اقترب روباك منه وحمل ميا وهو يقول "اذهب الى هان فهو يريدك الآن مع بقية الثوار.. وسأتولى أنا أمر ميا"

تساءل دانتين بقلق "هل هناك خطب ما؟"

قال روباك بغضب "وهل هناك خطب أكبر مما حدث؟ لقد خسرنا وفقدنا خيرة رجالنا بوشاية خائن، فكيف لا تريدنا أن نغضب؟"

شعر دانتين أن روباك يتهمه ضمنياً، فقال بشيء من الحدة "هل تتهمني بهذا؟"

حدجه روباك بنظرة استفزت دانتين، لكنه قال بعدها "لست أتهم أحداً.. أنا غاضب وحسب، فلا تأخذ قولي على محمل شخصي"

فقال دانتين بتوتر "حسناً.. سأذهب إلى هان"

ابتعد دانتين بسرعة، فعاد روباك بدوره للمنزل الذي بدا خالياً والثوار مجتمعون في جانب منه مع هان بعد العملية الفاشلة، واتجه لغرفة ميا في الطابق العلوي بصمت.. ولما وضعها على سريرها فوجئ بها تنهض فجأة وهي تشهق بقوة، قبل أن تصيح "أبي...."

بدا أنها لم تنتبه لعودتها للمنزل وانتهاء كل شيء وهي تصيح وتحاول النهوض "أبي لن يموت.. لا يمكن أن يتركني.."

أمسك روباك كتفيها وهو يقول "اهدئي يا ميا.. لقد انتهى كل شيء.. لا تنفعلي هكذا"

نظرت له بذعر وهي تتمتم "انتهى.... كل شيء؟ انتهى....؟"

نظر لدموعها التي سالت بغزارة تغرق وجهها، ثم وجدها تشهق قبل أن تنتحب باكية بصوت عالٍ وهي تغطي وجهها بيديها، فأحاطها روباك بذراعيه وضمها لصدره بقوة وهو يقول بأسى "لا تبكِ يا فتاتي.. يكفيك هذا"

لكن بكاءها لم يخفت وهي تردد بحرقة "أبي مات.. لقد قتلوه.. الأوغاد قتلوه أمام عيني"

شدّ روباك ذراعيه حولها وهو يقول بعزم "سننتقم.. أقسم بتراب بلادي سأنتقم له يا ميا.. فقط لا تجعليني أرى دموعك هذه.. أرجوك"

لكن ميا لم تتوقف عن البكاء.. لا يمكنها تجاهل الحرقة في صدرها والصدمة التي أصابتها.. لا يمكنها نسيان منظر ذلك الجسد الملقى بغير حراك.. كيف تنسى؟ وقد كان عائلتها الوحيدة لسنين طويلة، وهو كل ما تملك وما تحب في هذه الحياة.. والآن.. ماذا بقي لها؟.. ماذا....؟

****

الفصـــل الخامس

عندما فتح باب تلك الزنزانة، رفع خالد رأسه بشيء من الدهشة وتطلع للجندي الذي تقدم منه.. ثم وجده يجذبه من عنق ملابسه ويجبره على الوقوف قائلاً "هيا معي.. أنت مطلوب للتحقيق.."

زفر خالد وهو يمضي مع الجندي عبر ممرات السجن الذي قبع فيه منذ وجدوه في الساحة بعد الإعدام.. لم يكن لديه سبب مقنع لتواجده هناك وهو لا ينتمي لجنود الدوريات، لذلك سُجن مؤقتاً حتى يتم التحقيق في أمره في وقت لا حق، وقد دام سجنه يومان حتى الآن دون أن يخلوا سبيله أو يسمحوا لأحد بزيارته.. يبدو أن الإفلات من التحقيق هذه المرة سيكون صعباً..

نظر حوله للسجناء الذين حدجوه بنظرات تحمل الكره والبغض.. كان من النادر أن يتم سجن أحد الجنود، لذلك كانت دهشة السجناء عظيمة عندما اقتيد خالد لسجنه قبل يومين، وقد تعرض لكل أنواع الإزعاج منذ قدومه وكأنهم ينتقمون منه بما يقدرون عليه.. ولولا الزنزانة التي كان فيها بمفرده، لفتكوا به دون تردد..

بعد مروره بعدد من الطوابق، دلف الجندي إحدى الغرف جاذباً خالد خلفه.. رأى خالد كالعادة لجنة مكونة من عدة قادة للحكم في قضيته، والجديد في الأمر هو وجود ستيفان في اللجنة، مما أكّد لخالد أن قضيته لن تحسم لصالحه أبداً.. كان ستيفان معروفاً بين المحليين وبين الجنود على السواء بشراسته وصرامته التي تأخذ منحى القسوة كثيراً.. كانت قراراته تعذيب حقيقي ليس للمحليين فقط بل للجنود أيضاً، لكن آراء الجنود لم يكن مما يعتد به، لذلك لم يستمع أي أحد لشكواهم وتذمرهم بخصوصه..

لاحظ خالد وجود أنطونيو في جانب المكان، لكنه كان عاقداً ذراعيه على صدره ومطرقاً بصمت دون أن ينظر تجاهه لمرة واحدة.. أدرك خالد من فكه المشدود مدى غضبه، ورغم أن هذا قد سبب له الضيق مع الاحترام الذي يكنّه لقائده، إلا أنه لم ينبس بكلمة وهو يقف وسط الغرفة بانتباه عسكري دون أن يُسمح له بالجلوس كالعادة.. سمع تنحنح رئيس اللجنة، وببطء بدأ يذكر لخالد أخطاءه من وجه نظر الجيش والمخالفات التي قام بها بتواجده في ساحة الإعدام، ولم يملك خالد إلا أن يستمع له بصمت دون اعتراض، حتى سمع الرئيس يسأله "هل تملك تفسيراً لهذا التصرف الذي قمت به ومخالفة الأوامر الصريحة بعدم التدخل في شؤون أقسام أخرى من الجيش؟"

ظل خالد على صمته دون أن يجيب، فقال ستيفان بحدة "تكلم أيها الجندي.. ما الذي ساقك لساحة المدينة وأنت تعلم بأمر الإعدام؟ هل كنت تنوي التدخل في عمل جنود الدويات؟"

قال خالد بهدوء "قطعاً لا.."

فقال ستيفان بصرامة "ما الذي يقنعنا بذلك؟ أنت كنت تبحث عن بعض المحليين منذ فترة، ربما كان من تبحث عنه ينتمي للثوار.. أليس كذلك؟ هل كان ذلك الشخص من ضمن الثوار الذين نُفّذ فيهم حكم الإعدام ذلك اليوم؟"

قال خالد باعتراض "ليس كذلك.. من أبحث عنه هي فتاة.. أملك شيئاً يخصها وأريد إعادته لها.. ظننت أنني قد أجدها في جموع المحليين الذين سيشهدون الإعدام"

قال ستيفان بحدة "عدنا لهذه الأعذار غير المقنعة.. تحاول خداع من يا فتى؟ أمرك مريب، وأعذارك مريبة أكثر.. قل الحقيقة ولا داعي لكل هذه المناورات العقيمة"

التزم خالد الصمت التام.. ما الذي يستطيع قوله لهم؟ أنه يبحث عن فتاة لأنه يريد الاطمئنان أنها بخير؟ أنهم لم يؤذوها؟ يريد الالتقاء بها ليقرّ قلبه برؤيتها؟ لا يشك أن عقابه لو علموا بكل ذلك سيكون أفدح مما سيفعلونه به لو صمت.. وبعد برهة، قال ستيفان زافراً "أنت تريد أن توقع نفسك في هذه الورطة.."

واعتدل ناظراً لبقية أعضاء اللجنة قائلاً "أقترح أن تُسحب رتبة هذا الجندي كطيار منه.."

رفع أنطونيو رأسه بصدمة وستيفان يضيف "يبدو أنه لا يجد الانضباط اللازم في لواء النسور.. ربما لو تم نقله للواء الدوريات سيستقيم كما نريد له أن يكون.."

قال أنطونيو بغضب "هذا قرار مجحف.. لا يمكنك أن تنقله من إمرتي بهذه السهولة.."

قاطعه ستيفان بصرامة "لا يحق لك التدخل في أمور اللجنة يا أنطونيو.. وافقنا على حضورك هذه المحاكمة بعد وعدك بأنك لن تتدخل.."

والتفت لرئيس اللجنة مضيفاً "أرجو أن تصدر حكمك على هذا الجندي.. أنا أرى أن وجوده في لواء الدوريات هو أفضل حل لإعادة الانضباط إليه.."

ظل خالد ينظر للّجنة ولأنطونيو بصدمة.. بدا أن ستيفان عازم على عقابه بشدة، ولا يعلم السبب الذي يجعله صارماً لهذه الدرجة في مسألة جندي لا ينتمي للواء الدوريات..

تنحنح رئيس اللجنة لهنيهة قبل أن يقول "سيجتمع أعضاء اللجنة، وستصدر اللجنة قرارها بشأن النسر خالد بعد الاجتماع"

سمع خالد أنطونيو يزفر بحنق، لكنه لم يتحرك من موقعه وهو يرى أعضاء اللجنة يغادرون الغرفة لموقع آخر ليبتوا في أمره..

****

رغم أن الشمس كانت قد قاربت على المغيب، والظلال بدأت تستطيل في المدينة وتتسلل من النوافذ مغلّفة الغرف والموجودات، إلا أن ميا لم تعبأ بهذا وهي تجلس منطوية قرب النافذة في غرفتها المظلمة دافنة رأسها بين ذراعيها ولا يُسمع إلا أنينها وبكاؤها بشكل خفيف..

فتح الباب فدلف منه هان بهدوء مقترباً منها دون أن تشعر به حتى وضع يده على رأسها قائلاً "كفى يا صغيرتي.. مرّ يومان منذ تلك الحادثة ودمعك لم يجفّ بعد.."

قالت من بين نشيجها "وكيف لا أبكي وقد فقدت أبي؟.. كيف لا أجن وهو قد تركني آخر مرة غاضباً مني؟ لو كنت أدري أن ذلك الجندي الحقير سيكون سبباً في مقتل أبي لقتلته تلك الليلة وقطعت عنقه بيدي.. لكنني حمقاء.. ساذجة وحمقاء.."

قال هان مربتاً على كتفها "ليس ذنبك أنك طيبة ونبيلة يا ميا.. نبلك هو الذي دفعك للتغاضي عن ماضي ذلك الجندي المظلم ومعالجته كأي بشري آخر.. وقد أخطأ والدك بلومك وهو قد غرز فيك هذا النبل منذ صغرك.."

عادت تبكي بحرارة وهي تقول "ليتني أطعته.. ليتني رجوته ألا يغادر المنزل تلك الليلة.. ليتني لم أصمت وأراقبه وهو يبتعد.."

تنهد هان وهو ينظر إليها بعطف، ثم نظر إلى غدائها الموضوع جانباً وقال "أهملت طعامك من جديد؟ يجب أن تأكلي وتستعيدي قوتك.."

أشاحت مجيبة "لا رغبة لي بالطعام.."

حاول هان إقناعها بشتى الطرق لتتناول شيئاً من الطعام وتشدّ عودها، ولما يئس منها غادر الغرفة بصمت كما دخلها مغلقاً الباب خلفه.. غرقت ميا في أفكارها مرة أخرى وهي تتذكر والدها فتدمع عيناها من جديد.. لا تدري حتى متى ستبكي.. لا تدري حتى متى ستستمر دموعها بالانحدار.. لا تدري حتى متى سيغرق قلبها في هذا الحزن المرير.. كيف لها أن تكفّر عن خطئها الذي تسبب بموت أبيها بهذه الصورة البشعة؟ كيف تعيد عقارب الزمن للوراء؟ كيف تنتزع ضميرها الذي سمح لعدوها وعدو أبيها أن يعيش ويتسبب بمزيد من الفساد ويرتكب جرائمه مبتدئاً بأبيها؟..

لم تنتبه ميا لما حولها وهي غارقة في حزنها حتى فوجئت بلكمة خفيفة على رأسها فاجأتها أكثر من إيلامها، فرفعت رأسها بدهشة لترى من بين دموعها روباك قريباً منها ينظر إليها بغضب، وإن لمحت التعاطف متوارياً في عينيه.. لم تستطع التفوه بكلمة وهو يقول بحدة "ألم تتناولي غداءك بعد؟ ألا تعلمين أن إهدار الطعام ممنوع بين الثوار؟ لسنا جمعية خيرية لنوفر لك الإفطار والغداء والعشاء فتتمنعين من تناوله.."

همست ميا مطرقة "آسفة.. لا أستطيع تناول شيء الآن.. أشعر أنني قد أتقيأه في الحال.."

قال بغضب "ألا تستطيعين السيطرة على جسدك؟ أي فتاة أنت؟ لست في الخامسة من العمر بالتأكيد.."

ثم تناول الغداء وقربه منها قائلاً "هيا.. أريد أن أراك تأكلينه الآن.. وبشهية"

أشاحت بوجهها قائلة "لا تجبرني على هذا.. لا أحد يعرف مقدار الحزن الذي أنا فيه.."

فاجأتها لكمة أخرى جعلتها تحيط رأسها بيديها وتتطلع إليه مندهشة.. كانت هذه هي المرة الأولى التي تجد أحداً لا يتورع عن عقابها رغم عدم وجود صلة بينها وبينه، وهي قد تجاوزت العمر الذي قد يفكر أحد بعقابها فيه.. بينما قال روباك "إن كنت تريدين تمضية المزيد من الوقت في الحزن ورثاء النفس، فتناولي طعامك كله لتجد عيناك القدرة على ذرف المزيد من الدموع.."

لم تدرِ بمَ تعلق على استهزاءه وهو يجلس على مقربة، ثم غمغمت متحججة "لكنه بارد الآن.."

قال روباك وهو يرفع قبضة يده "هل تريدين لكمة أخرى؟ أنت المخطئة بتركه منذ الظهيرة حتى الآن.. كنت ستوفرين الكثير لو أنك أبلغت صاحبة المنزل بعدم رغبتك الحصول على الطعام مسبقاً.."

كفّت عن مجادلته وهي تتناول بعضاً من الطعام وتحاول أكله رغم عدم شهيتها، وكلما حاولت التوقف ملقية بنظرة على روباك هددها بالعقاب فتعود مجبرة لتناول المزيد..

لا تعلم السبب الذي جعلها تطيعه، ولم يكن هذا بسبب تهديداته بالتأكيد فهي تعلم أنه ليس جاداً.. لكنه رغم ما أظهره من عصبية وغضب سريع تشعر به يحنو عليها حنواً كبيراً.. هذا الغضب الذي أبداه اليوم ليس إلا لإجبارها على تناول الطعام خوفاً عليها.. كانت تراه كنوع من إظهار التعاطف وهو كما يبدو لا يعرف كيف يعبّر عن نفسه أو يظهر لطفاً زائداً..

بعد أن أنهت طعامها نهض قائلاً "الآن يمكنني أن أتجاوز عن إهمالك الطعام منذ يومين.. استعدي فبعد ساعة سيحين وقت العشاء.."

قالت باعتراض "لكنني تناولت الغداء للتو كما رأيت.. ولا أستطيع...."

قال بحزم مقاطعاً إياها "ستتناولين عشاءك كله.. وليس هنا بل مع البقية في الخارج.."

أطرقت مستسلمة وهي تدرك أن الجدال مستحيل معه.. فاقترب منها مربتاً على رأسها كطفلة صغيرة وقال "كفاك بكاءً.. لا يليق البكاء بابنة عميد الثوار في سِن.. كيرام هو أول من أظهر الثورة في المدينة وبتصميمه وعزمه استطاع أن يجرّ الآخرين معه حتى غدا ثلث سكان المدينة إما ثواراً أو معاونين لهم.. لك الفخر بأنك ابنته، وأمامك طريق طويل ولا وقت لتضييعه بالبكاء.."

نظرت إليه بابتسامة مرتجفة، ثم همست "سأحاول.."

فتركها واتجه للباب قائلاً "اغسلي وجهك من هذه الدموع المريرة واستعيدي ابتسامتك.. لقد أقلقْتِنا بما فيه الكفاية.."

فقالت بصوت خافت "شكراً يا روباك.."

توقعت أنه لم يسمعها، لكنه قال "تشكرينني بعودة الابتسامة إلى وجهك يا فتاة"

وغادر مغلقاً الباب خلفه، فعمّ الظلام المكان بعد أن غربت الشمس تماماً وحلّ حظر التجول في المدينة فاختفى ساكنوها من شوارعها.. تنهدت ميا وهي تحاول تمالك دموعها من الانحدار من جديد.. عزاؤها الوحيد هو في التقدير والاحترام الذي تراه في أعين الثوار عند ذكر أبيها.. وبالفعل، البكاء لن يفيده في شيء، بل ما يجب أن تسعى إليه هو الثأر..

التمع الغضب في عينيها وهي تتذكر منظر خالد الجريح، فهمست بكره "ليتني دفنت ضميري في عمق الأرض وأنا أراك بهذا الشكل المزري.. لكن الوقت لم يفت بعد، وموتك الذي لم يحن وقتها، لن يطول تأخيره.."

ملأها عزمها هذا بنشاط وهي تشعر أن حياتها ما عادت مظلمة وبلا هدف، وعليها أن تنفض الحزن جانباً حتى تثأر لأبيها..

****

تنهد خالد وهو يستلقي على سريره.. بعد يومان قضاهما نائماً على أسرة السجن القاسية، بدا له هذا السرير نعيماً لا مثيل له.. بينما جلس أيمن قريباً منه وتقطيبة ظاهرة على وجهه وهو يراقبه بصمت.. فعلق خالد عليها قائلاً "لا داعي لهذا العبوس يا صاحبي.. الأمور ليست سيئة لهذا الحد"

قال أيمن "ليست سيئة؟ لقد تم سحب رتبتك منك وجردت من كل حقوقك.. لن تعود لقيادة أي طائرة بعد الآن وستعود جندياً عادياً، والأسوأ أنك ستكون تحت إمرة ستيفان.. فهل يسعدك هذا؟"

ابتسم خالد قائلاً "الأمور كانت سيئة منذ البداية.. لم يكن وارداً أن أقود أي طائرة بتاتاً.. أدركت هذا منذ بدأت أخضع للعلاج الطبيعي.."

تساءل أيمن "لماذا؟ ألم تخبرني أن ركبتك قد تحسنت بالفعل؟"

زفر خالد مجيباً "ليس كالسابق.. لا تزال تؤلمني، ولا تزال ضعيفة جداً.. لقد انتهيت تماماً.. لذلك لا فرق عندي بين بقائي في لواء النسور أو انتقالي للواء الدوريات.."

صمت أيمن وهو مدرك مقدار ضيق خالد.. ولم تكن الكلمات بكافية لإزالة ضيقه ويأسه.. ثم قال مغيراً الموضوع "ماذا فعلت بشأن الفتاة التي كنت تبحث عنها؟ هل توصلت لأي خبر عنها؟"

قال خالد بابتسامة "بل رأيتها.."

نظر له أيمن بدهشة، فأضاف خالد "رأيتها في ساحة الإعدام، فقد كنت شبه واثق أن الثوار سيقودونني إليها.. لقد كان أباها أحد الثوار الذين أعدموهم ذلك اليوم، وهي كانت موجودة هناك.."

وخفض عينيه قائلاً بضيق "لو رأيتَ حزنها على أبيها.. شعرت في تلك اللحظة أنني أكره هذا الجيش بكل ما يحتويه.. تمنيت لو لم أكن من أفراده.. بل تمنيت لو كنت من سكان كوميت، كي لا أشعر بكل هذا الحرج من كوني جندياً من الغزاة"

قال أيمن متعجباً "لهذه الدرجة؟ كنت أظن ما تمر به مجرد هوس مؤقت بالفتاة التي أنقذت حياتك.. لكن أتحبها لهذه الدرجة حقاً؟"

قال خالد "يبدو ألا مناص من الاعتراف بذلك.. رغم أنني كنت سابقاً أتمنى أن يتم إعفائي من الخدمة على كوكب كوميت وإعادتي للأرض، إلا أنني الآن أرتعب لمجرد التفكير في ذلك.. لا أريد الرحيل، ولا أريد التفكير بأنني لن أراها مرة أخرى"

زفر أيمن معلقاً "حالتك ميؤوس منها.. صدقني هي لا يمكن أن تبادلك مشاعرك هذه.. وبعد مقتل أبيها أنا متأكد أنها تكرهك بشدة كونك من الغزاة.. أبعدها عن ذهنك وستنساها مع مرور الأيام"

غمغم خالد "أخشى ألا يحدث ذلك.. وأخشى أن أتهور بفعل أندم عليه فيما بعد"

سأل أيمن بتوجس "ماذا تعني؟"

هز خالد رأسه دون أن يجيب، فقال أيمن "إياك أن تتهور بأي شيء يا خالد.. يكفي كل ما جرى لك.."

قال خالد بابتسامة "لا تقلق يا صديقي.."

لكن كانت ابتسامته هي أكثر ما يقلق أيمن في تلك اللحظة..

****

بعد العشاء الذي ضمّ أصحاب المنزل الذي يبقون فيه بشكل مؤقت وعدد من الثوار منهم هان، اتجهت ميا إلى زاوية المنزل حيث رأت روباك يجلس قرب إحدى النوافذ ساهماً.. فجلست قريباً قائلة "هل تستمتع برؤية هذا الظلام الحالك؟"

أجاب بعد فترة صمت قصيرة دون أن يحوّل بصره عن النافذة القريبة "استمتع برؤية أي جزء من بلادي في أي وقت وأي حال.. لا يمكنني ألا أحب التطلع إليها وهي تسكن قلبي منذ الأزل.."

ابتسمت ميا معلقة "تبدو شاعرياً جداً في هذه اللحظة"

انتبه لنفسه مستعيداً جديته وقال "هل ترين أنك أفضل حالاً الآن؟"

هزت رأسها بالإيجاب قائلة "الفضل لك.. لقد نبهتني إلى ما كنت غافلة عنه.. ومنذ الآن لن أذرف دمعة على أبي بل سأبدأ طريقي بإصرار.."

تساءل روباك بدهشة "أي طريق تعنين؟"

قالت بعزم "الثأر له بالطبع.."

قال بحدة "أي ثأر؟ هل تنوين مهاجمة الغزاة؟"

أجابت "ليس الغزاة إجمالاً.. بل جندي واحد فقط أعرف أنه السبب في القبض على أبي وعليّ وبالتالي مقتله.."

ظل روباك ينظر إليها حانقاً، ثم قال "أنت حمقاء.. ما الذي تعرفينه عن الغزاة وعن الحرب؟ لا تستطيعين حماية نفسك من جندي واحد.. فكيف بقتل آخر؟.. لقد ثارت ثائرة الغزاة بعد مقتل جنودهم في الساحة ذلك اليوم، وهم يصبّون غضبهم على السكان في عدد من أحياء المدينة.. فهل تعتقدين أنك قادرة على اقتناص أحد جنودهم وسط غضبهم العارم ذلك؟"

صمتت ميا والغضب يتنامى في صدرها، بينما أضاف روباك "نحن لم ولن نصمت على ما يحدث.. لكننا سنقتنص الرأس الكبيرة لهؤلاء الجنود، وسننتقم بهذا من كل من قضى نحبه من رجالنا في ذلك اليوم.. أما أنت، فالأفضل لك البقاء بعيداً عن الحرب، وإن أردت مساعدة الثوار يمكنك تقديم العناية الطبية لهم كما فعلت سابقاً.."

قالت بحدة "لكنني لن أرتاح وهو على قيد الحياة.. لا أستطيع أن أهنأ بنوم وهو يتنفس هواءنا ويستمتع بأيامه بعد أن حرم أبي من هواء كوميت.."

قال روباك بحدة "حتى لو لم تحاولي قتله فهو ميت لا محالة.. كل الغزاة سيقضون نحبهم بأيدينا.. إن عاجلاً أو آجلاً.. ولا معنى لرمي نفسك في أتون الحرب لأجل هدف لن يمكنك تحقيقه أبداً"

فقالت ميا بصوت مرتجف "إذن ما الذي تتوقع مني أن أفعله؟ ما المفترض بي أن أفعله إزاء المرارة التي تملأ قلبي والغصة التي تعترض حلقي؟ لا يمكنني الارتياح لوعدك هذا والتسليم بالأمر.."

جاءها صوت هان من خلفها يقول "يمكنك مساعدة الثوار على الأخذ بثأرك.. كما قال لك روباك"

التفتا إليه وهو يقترب منهما مضيفاً "نحن بحاجة لكل يد تعاوننا.. لدينا ما يكفي من الرجال للانتقام لكل من فقدناهم من أعزائنا.. لكن تواجهنا مشكلة حقيقية في العناية بجراحنا.. القليل ممن يملكون الخبرة الطبية قد وافقوا أو تطوعوا للانضمام إلينا، ونحن نخسرهم باستمرار.. أما البقية فيخشون على أنفسهم من غضبة الغزاة.. ولا يمكنني لومهم أبداً.. كما لن ألومك لو فضّلت الابتعاد عن الحرب.."

هتفت ميا "أنا لا أخشى الحرب.. لكنني لن أقنع بالاختباء في مكان آمن وأنتم تعرضون أنفسكم للخطر.."

نهض روباك محنقاً واقترب منها قائلاً بحدة "ما الذي تستطيعين فعله عندما يوجه لك أحد الجنود سلاحه؟ هل تجيدين التصويب؟ هل لديك الجرأة للمضي للأمام وأنت ترين رفاقك يتساقطون حولك مضرجين بدمائهم؟ هل تستطيعين أن تقتحمي مكاناً وأنت تعلمين أن طلقة من جندي قد تصيبك في أي جزء من جسدك في أي وقت؟ هل تستطيعين إنجاز مهمة موكلة إليك وأنت تعلمين أنها قد تتسبب في مقتل عدد من رفاقك؟"

أطرقت قابضة على يديها بشدة، ثم غمغمت "لا أعلم.."

عندما رأت قبضته مشدودة توقعت أن يضربها على رأسها، فحَمَت رأسها بيديها بسرعة.. لكنه وضع يده على رأسها برفق قائلاً "لا تنسي أبداً أنك فتاة.. لا يطالبك أحد أن تكوني كبقية الرجال، ولن تكوني أقل منهم في شيء.. افتخري بما تستطيعين تقديمه وأنت تعلمين أن حياة من ستعالجينه ستكون بين يديك.."

ثم ابتعد عنهما وميا مطرقة تفكر في قوله.. فقال هان "روباك عنيف في التعبير عن أفكاره ومشاعره.. لكن لا تلوميه فهذا حاله منذ انضمامه إلينا.. ورغم أن الجميع يرونه منعدم المشاعر، لكنه من النوع الذي يكتم مشاعره بيد من حديد كي لا يبدو عليه أي ضعف.."

تساءلت ميا "أتظن أنني سأكون ذات فائدة لكم حقاً؟"

قال هان بابتسامة "طبعاً.. لا أريد أن أفزعك، لكن أطباؤنا يتعرضون للقتل عقاباً لهم على مساعدتنا، وحرماناً لنا من العناية الطبية، رغم الحماية التي نحاول توفيرها لهم وتكتمنا على هوياتهم.. ولا نعلم أذلك بوشاية من خائن بيننا أم أن الغزاة يتابعون تحركات معاونينا بالفعل.. لا أريد تعريضك للخطر، لذلك بما أنك منقطعة من الجميع وليس لك أقرباء، فالأفضل بقاؤك في مخبئنا حتى نستطيع تقديم الحماية لك.. هذا لو وافقت على الانضمام إلينا والانزواء في المخبأ مع الخوف الدائم من هجوم الجنود المتوقع"

نظرت إليه بتصميم قائلة "طبعاً أوافق.. لا أريد العودة لحياة تبدو طبيعية ظاهرياً لكنها ممزقة في الواقع.. سأنضمّ لكم، وأرجو ألا يخيب ظنكم بي.."

ابتسم هان قائلاً "يسعدني قرارك هذا.. هناك شيء بسيط علينا فعله غداً قبل إعلان انضمامك رسمياً.. وأرجو ألا يخيفك هذا.."

تطلعت إليه ميا بحيرة.. لكنها أبدت موافقتها دون تراجع..

****

في صباح اليوم التالي، وقبل أن تشرق الشمس من الأفق، قضى خالد وقتاً قصيراً في جمع ما يملكه من غرفته بمبنى النسور.. ولا يتعدى ذلك ملابسه وكل ما يخص عمله، وبعض الكتب القليلة التي أحضرها معه من الأرض، والتي حفظها لكثرة ما قرأها مراراً وتكراراً، بالإضافة لأغراض بسيطة تخصه.. وعندما جمع كل هذا في حقيبة صغيرة وغادر غرفته رأى أيمن يقف عند باب الغرفة، وقد قال عندما رآه "أتعتقد أنك لن تعود للواء النسور مرة أخرى؟"

غمغم خالد وهو يتأمل الغرفة الصغيرة التي أوته منذ قدومه لكوميت "لا أظن ذلك.. ليس في الوقت الحالي على الأقل.. ستيفان مصرّ على تأديبي على ما يراه من تجاوزات لا يحق لي ارتكابها.."

قال أيمن بحنق "تباً لذلك الوغد.. حقاً أتمنى أن ينال منه الثوار بأسرع وقت"

غمغم خالد وهو يتطلع خلفه "من حسن حظك أن ما تقوله بالعربية.."

التفت أيمن خلفه ليرى أنطونيو يتقدم منهما، وقد قال فور أن رآهما يتطلعان إليه "مرحباً.. هل جئت لتوديع خالد أيضاً يا أيمن؟"

أجاب أيمن وهو يعتدل في وقفته "أجل سيدي.."

ربت أنطونيو على ذراعه قائلاً "استرخ.. لا داعي لهذه الرسمية"

ثم تطلع لخالد مضيفاً "أحزين أنت لمغادرتك لواء النسور يا خالد؟"

قال خالد "طبعاً يا سيدي.. فلا يمكن مقارنة القائد ستيفان بك أبداً"

ضحك أنطونيو معلقاً "لو سمعك ستيفان لأحرقك حياً في ساحة المدينة.."

تجرأ خالد على طرح السؤال الذي يدور بذهنه منذ زمن "ما سر العداوة بينك وبين القائد ستيفان؟ يبدو لي أنه يكره الأرض التي تمشي عليها؟"

ابتسم أنطونيو بصمت للحظات شعر خالد معها أنه لن يتفوه بحرف، ثم قال ببساطة "أحد قادة ألوية مدينة سِن مرشح ليصبح من القادة الست لجيشنا في وقت قريب.. وستيفان يشعر أنني أنافسه على هذا المنصب، لذلك هو يحاول أن يتغلب عليّ بكل وسيلة ممكنة"

تساءل أيمن بشيء من القلق "وهل تنوي أن تصبح من القادة الست حقاً يا سيدي؟"

ضحك أنطونيو بقوة معلقاً "وأترك لواء النسور لتعيثوا فيه فساداً؟ أنتم بالكاد تنضبطون في مهماتكم رغم صرامتي، فما الذي ستفعلونه لو تغيّبت عنكم؟ محال.."

بدت الراحة واضحة على وجه أيمن، بينما توجه أنطونيو لخالد وربت على كتفه بقوة قائلاً "مهما كان استياؤك من نقلك، فالتزم بعملك وقم به على أكمل وجه.. لا تدعني أشعر بالأسف لأنك كنت تحت إمرتي يوماً.. لن أدعك هناك طويلاً، لكن قد يستغرق هذا وقتاً، فكن صبوراً.."

ابتسم خالد مجيباً "كن مطمئناً يا سيدي.. ليس من طبعي التهاون في عملي مهما كان كريهاً.. وستفخر بي هناك كما كنت تفخر بي هنا"

مد أنطونيو يده، فصافحه خالد بقوة وهو يرى ابتسامة أب حنون ترتسم على شفتي أنطونيو، قبل أن يستعيد صرامته وهو يقول "إذهب ولا تتأخر في يومك الأول.. برهن لستيفان أن نسوري لا يفتقرون للانضباط اللازم"

أدى خالد له التحية، ربما للمرة الأخيرة، ثم حمل أغراضه وغادر وأيمن يتبعه بخطوات حثيثة معلقاً "لماذا شعرت أن ما دار بينكما كان كوداع أخير؟"

غمغم خالد "أنت واهم.."

لكنه بالفعل شعر أنه يغادر هذا المبنى للمرة الأخيرة.. شعر أن ستيفان يطبق على روحه، ولن يفلته حتى يلفظ آخر أنفاسه، مهما طال ذلك..

لم يستغرق انتقاله لغرفته في مبنى الدوريات القريب وقتاً طويلاً.. وبعد أن أتمّ نقل أغراضه وترتيبها في غرفته في الطابق الثالث من المبنى، نظر من النافذة لمبنى النسور وأسىً يعتمر قلبه.. حياته هناك كانت كنسر طليق حقاً.. لم يكن يشعر بالقيود تقيده ولا بالتعاسة لوجوده بين رفاقه ولطيبة قلب رئيسه الذي غمره بالاهتمام والرعاية منذ قدومه.. أما مبنى الدوريات، فقد بدا له كئيباً منذ تخطى بوابته، ولا يدري كيف سيتحمل إمرة ستيفان لمدة طويلة.. تنهد وهو يغادر بسرعة ليتجه لمكتب ستيفان، ولم يكد يصل إليه حتى وجد ستيفان يخرج من مكتبه وخلفه أحد نوابه، ولما رأى خالداً ابتسم ابتسامة غير مريحة وهو يقول "مرحباً بالجندي الجديد.. نحن سعداء حقاً بوجودك معنا.. أتمنى أن تشعر بالراحة ولا تستثقل بقاءك على الأرض، فلا نملك ما تستطيع التحليق به"

لم يعلق خالد وهو يشعر باستهزاء ستيفان الواضح، ورآه ينظر لساعته قبل أن يقول ببرود "أنت متأخر عشر دقائق.. ستعمل ساعتين إضافيتين بعد انتهاء عملك اليوم"

بدت الصدمة واضحة على وجه خالد وإن لم يعترض بكلمة، بينما غادر ستيفان وابتسامة سخرية واضحة على وجهه.. يبدو أن أيامه هنا ستكون كئيبة حقاً.. ناداه نائب ستيفان ليدخل المكتب، فتبعه خالد بصمت ووقف وسط الغرفة والنائب يعدد عليه قوانين لواء الدوريات وواجبات جنودها.. بينما غمغم خالد في سره "حياة كئيبة حقاً.."

****

جلست ميا في غرفتها بانتظار استدعاء هان لها.. كان النهار يوشك على الانتهاء، وهو دلالة على بدء يوم الثوار ونشاطهم الليلي، فيما هم يخلدون للراحة نهاراً ويكتفون بالبقاء بعيداً عن أعين الجنود.. زفرت وهي تتساءل عن الشيء الذي عليها فعله قبل إعلان انضمامها للثوار، وهل قرارها بالانضمام هو القرار الأفضل لها أم أنها قد تسرعت مع صدمتها بموت أبيها؟..

سمعت طرقات خافتة على الباب، فاعتدلت في جلستها وهي تسمح للطارق بالدخول بتوتر.. ظنت أن هان قد استدعاها أخيراً، لكنها رأت زوجة صاحب المنزل التي دخلت إليها بابتسامة وهي تحمل كوباً من الشراب الدافئ قائلة "كيف حالك يا ابنتي؟ كنت أصنع بعض الشراب للرجال في غرفة هان، فقلت لنفسي إنك قد تستمتعين بواحد أيضاً.. إنه لذيذ"

تناولته ميا منها شاكرة وأحاطت الكوب بيديها مستشعرة دفئه وهي صامتة، فقالت لها المرأة برفق "أأنت أفضل الآن يا عزيزتي؟"

ابتسمت لها ميا قائلة "شكراً لكم.. أنا أفضل بكثير وهذا بفضل رعايتكم الكريمة لي.."

قالت المرأة بابتسامة متسعة "أنا سعيدة لذلك.. لقد أقلقتني حقاً في الأيام الماضية"

خفضت ميا بصرها مغمغمة "آسفة لذلك.."

وتناولت بعض الشراب الذي كان لذيذاً بحق، ثم قالت لتقطع صمت المكان "أستغرب بقاء الثوار في هذا المنزل كل هذه المدة.. ألا تخشون أن يكشف الجنود هذا المكان وعواقبه الوخيمة عليكم؟"

قالت المرأة "يلجأ الثوار أحياناً لسكنى منزلنا بدواعي بعض العمليات التي تستدعي قربهم من الموقع.. فالمخبأ الرئيسي يقع في أطراف المدينة، والمسافة بعيدة من المواقع الحيوية لجيش الغزاة"

وأضافت مبتسمة "ولا تقلقي.. لا يمكن أن يسعى الثوار لتعريضنا للخطر.. هناك الكثير من العيون في الحيّ الذي نحن فيه، وهم يحذرون هان فور اقتراب أحد الجنود من الحيّ، لذلك اطمئني"

تساءلت ميا بشيء من الفضول "ولماذا هذا المنزل بالذات؟"

أجابت المرأة "لأننا نحن عرضنا عليهم ذلك.."

ارتفع حاجبا ميا بدهشة لذلك، عندها قالت المرأة "ابني كان أحد الثوار النشطين في سِن.. ما إن بلغ مبلغ الرجال حتى وجدناه يعلمنا بقراره الانضمام للثوار، ولم يعلمنا بذلك صراحة إلا ليحصل على مباركتنا لاختياره.. كان شاباً طيباً ومتحمساً لقضيتنا.. لكن لم يمهله الوقت ليبذل ما يستطيعه لخدمة هذه القضية.. قتله الغزاة غدراً وغيلة في إحدى العمليات.. وفجعنا به أيما فجيعة"

بهتت ميا لذلك وهي تشعر بالأسى لما سمعته، لكن المرأة نظرت إليها مضيفة بابتسامة واسعة "ولأجل ذكراه، فإن زوجي قد عرض على الثوار أن يقدم لهم أي مساعدة يطلبونها.. ورغم أن الثوار ليسوا بحاجتنا حقاً، إلا أن هان لا يتوانى عن قبول دعوة زوجي في كل مرة وفاء منه لذكرى من فقدناه"

خفضت ميا بصرها مغمغمة بحزن "أنا آسفة لسماع ذلك.. لابد أن الأمر كان مفجعاً لكما"

قالت المرأة وهي تربت على كتف ميا "لا تحزني يا عزيزتي.. لو لم يكن موته في سبيل حرية كوميت، لكان حزننا مضاعفاً ولما جفّ دمعنا يوماً.."

سمعا في تلك اللحظة صوت دانتين قرب غرفتهم يجادل بعصبية، نظرت ميا للمرأة بدهشة والمرأة تبادلها الدهشة والتعجب.. فنهضت ميا لتنظر من باب غرفتها، لترى دانتين يقول لروباك الواقف أمامه بهدوء "لماذا؟ المفترض أن أكون معكم في التخطيط لعملياتكم.. لماذا تم استثنائي هذه المرة؟"

قال روباك "هذه العملية مهمة جداً وهي سرية.. قرر هان أن الوحيدين الذين سيعلمون بأمرها هم المشاركين فيها.. لا نريد أي تسريب لخطتنا هذه المرة"

قال دانتين بحدة "وأنا لن أشارك معكم هذه المرة؟ لماذا؟"

قال روباك مقطباً "هذا قرار هان.."

قال دانتين بغيظ "قرار هان أم قرارك؟ أنا أشعر أنك تحاول استبعادي بأي طريقة كانت من العمليات.. إن كانت لديك أي شكوك فواجهني بها دون ألاعيبك هذه"

قال روباك بحدة "منذ متى كان هان يخضع لقرار مني؟ إن كان لديك اعتراض فارفعه إليه ولا داعي للصراخ في وجهي أنا.."

صاح دانتين "سأفعل بالتأكيد.."

وغادر بحنق تاركاً روباك يزفر محتداً، فعلقت ميا "ما الأمر؟ يبدو دانتين حانقاً بشدة.."

هز روباك كتفيه بدون تعليق، فعادت تسأله "هل أنتم ذاهبون في مهمة جديدة؟"

أجابها "أجل.. ولا تسأليني عن التفاصيل فأنا غير مخوّل بذكر شيء.. يكفيني غضب دانتين.."

فقالت "لا تقلق.. لن أسألك عن شيء.. لكني دهشت من صوت دانتين العالي، وهي المرة الأولى منذ قدمت هنا.."

لم يعلق روباك وهو يبتعد، فهتفت ميا "روباك.. كن حذراً أرجوك"

لوح بيده دون أن يتوقف، فسمعت ميا المرأة خلفها تقول "يا له من رجل.. لطالما سمعت هان يتذمر من اندفاعه في العمليات التي يقوم بها.. نادراً ما يعود دون إصابات مختلفة في جسده.. وكأنه لا يعبأ بأن يصاب بقدر ما يهمه أن يسبب الخسارة للغزاة"

علقت ميا "لابد أن عائلته قلقة عليه جداً"

غمغمت المرأة "هو وحيد هنا.."

نظرت لها ميا بدهشة، فأضافت "يبدو أن عائلته تسكن في منطقة بعيدة نوعاً ما، لكنه تركها منذ بدء الثورة وسعى للانضمام للثوار بعزم لا يفتر أبداً.. لم أسمع يوماً أنه غادر لرؤيتهم والاطمئنان عليهم منذ قدومه.."

وتنهدت قائلة "إنه رجل صموت كثيراً.. ومخلص لهذه القضية أشد ما يكون"

تطلعت ميا حيث اختفى روباك وهي تفكر في أمره.. إنه بالفعل صموت وينأى بنفسه عن الآخرين كثيراً.. لذلك فهم لا يخالطونه إلا بقدر ما تستدعي منهم مهامهم، وبخلاف ذلك تجده دائماً وحيداً.. لكن لماذا؟ احتارت في أمره كثيراً وهي تشعر بمشاعر مختلطة تجاهه.. هي تشفق عليه، وتتمنى لو تراه يبتسم بسعادة لمرة واحدة.. هي تطمئن لوجوده قريباً، ويغمرها قلق مجهول كلما رأته متجهاً لإحدى عملياته..

رأت أحد الثوار يستدعيها لمقابلة هان، فتبعته صامتة وهي تفكر فيما ينتظرها ما إن تصبح رسمياً من الثوار..

****

لم يغمض جفنا ميا تلك الليلة رغم توغل الليل ومرور وقت طويل على نوم البقية في المنزل.. بل ظلت جالسة قرب نافذتها تتطلع للخارج وهي تتلمس جانب عنقها بين فترة وأخرى.. حاولت التنبه لعودة الثوار من عمليتهم الليلية، لكن الهدوء كان يعم المنزل تماماً، فتنهدت وهي تغرق في أفكارها دون أن تغيّر جلستها.. لكن عندما سمعت صوت روباك في الممر، هبّت من جلستها وخرجت من الغرفة بحثاً عنه، لكنها وجدته قد دخل إحدى

الغرف واندمج في حديث مع هان.. فوقفت عند نافذة قريبة من غرفتهم تتطلع إلى السماء التي بدأ النور يشقها.. لم تدرِ لمَ تبحث عنه هو بالذات، ربما لأنه من شجعها لنبذ حزنها والتحلي بالإرادة، أو ربما لأنها شعرت بأنها خيّبت أمله مع إصرارها على القيام بما لا تستطيعه.. بعد فترة من الوقت لا تعلم مدتها، فتح الباب وخرج روباك من الغرفة.. ففوجئ برؤيتها تقف أمامه مما دفعه لأن يتساءل "ما الذي أبقاك مستيقظة حتى هذه الساعة؟"

ابتسمت قائلة "لا أدري.. جافاني النوم تماماً"

تعلقت عينا روباك بعنقها الذي زيّن جانبه وشم لدائرة متصلة بجناحين، وهي كما أخبرها هان تعبر عن كوكب كوميت ورغبتهم بإعادة الحرية له من جديد كما يرمز الجناحان.. فقالت "ما رأيك؟ هل يناسبني هذا الوشم؟"

قال وقد انفرجت أساريره شيئاً ما "مرحباً بك بيننا يا ميا.. وأخيراً أنت تنتمين للثوار رسمياً.."

تساءلت وهي تضع يدها على الوشم الذي لم يبرح يؤلمها "ما الداعي لهذا الوشم وهو يجعل الجنود لا يشكّون في هويتنا كثوار؟ إنه يبدو كإعلان واضح لا يمكن للعين إغفاله"

قال مقطباً "نحن لا نخشى الغزاة.. لكن للوشم أهمية على عدة أوجه.. فهو إثبات لرفاقنا عن هويتنا.. وهو رباط مدى الحياة لا يمكن التنصل منه.. كما أن موتانا لهم معاملة خاصة وهذا الشعار يثبت هويتهم.."

أطرقت بصمت، فقال "هل أنت نادمة على حمله؟"

قالت على الفور "بالعكس.. يشرفني أن أنتمي لكم.."

وأطرقت من جديد مضيفة "وأتمنى أن تفخر بي.."

ربت على كتفها قائلاً "كيرام كان سيفخر بك لو رآك تحملين هذا الشرف.. وأريدك أن ترفعي رأسك عالياً وأنت تحملين هذا الشعار كعلامة على شجاعتك"

رغماً عنها احتشدت الدموع في عينيها، فغمغمت بصوت متهدج "من يدري..؟"

صمت روباك وهو يرى حزنها على موت أبيها يعود جليّاً في ملامحها رغم محاولتها التجلد وتمالك نفسها، ثم قال بابتسامة جانبية محاولاً كسر حزنها ذاك "كوني مستعدة.. فلن تخلدي للراحة مادمتُ على قيد الحياة.. نادراً ما أعود من أية مهمة أقوم بها دون إصابات شتى.."

ابتسمت بدورها متجاوزة حزنها وعلقت "سأقترح على هان فرض ضريبة على كل من يصاب أثناء العمليات.."

ضحك روباك قائلاً "يا للجشع.."

وتركها متعللاً بحاجته للراحة بعد ليلة شاقة.. فعادت ميا إلى غرفتها واستلقت على سريرها وهي تشعر بأنها بحاجة لنوم عميق.. لقد استقر عزمها على الطريق الذي ستتخذه، وليست نادمة على ذلك أبداً.. أخيراً شعرت أن حزنها على أبيها قد خفت قليلاً، على الأقل حتى تثأر له ممن تسبب في موته.. وأخيراً بعد أن هدأ عقلها من دوامة أفكاره استسلم للتعب وصرخ طلباً للراحة..

****

الفصـــل السادس

في صباح اليوم التالي، بدأ خالد عمله في إحدى الدوريات للمرة الأولى.. لقد قضى اليوم السابق في مبنى الدوريات يخضع لكل الإعدادات التي يرى ستيفان أنه يفتقر إليها، واليوم، تم تعيينه في دورية تقطع أحد أحياء المدينة المكتضة بسوقها الشعبي المميز..

سارت المركبة ببطء مجتازة عدة طرقات حاملة خالد مع ثلاث جنود غيره.. وعندما وصلت للسوق المحلي بطرقاته الضيقة، أوقف قائد الدورية المركبة جانباً وقال لمن معه "هيا بنا.."

ترجلوا جميعاً وخالد يتبعهم بغير فهم.. وبدؤوا في السير عبر طرقات السوق حاملين أسلحتهم المشهرة وهم يسيرون بثقة وصرامة والمحليين يتجنبونهم بشكل واضح.. سار خالد خلف البقية دون أن يوجه سلاحه لمن حوله من سكان المدينة كما يفعل رفاقه، مغالباً آلام ركبته التي تزايدت شيئاً ما مع سيره لهذه المسافة بعد راحة طويلة قضاها منذ إصابته.. وتأمل جوانب السوق الذي يراه لأول مرة منذ قدومه لكوميت.. كان السوق يتخذ طابعاً غجرياً محبباً، بكثير من الألوان والأقمشة التي رفعت لتظلل ما تحتها من بضائع معروضة بطريقة جذابة.. لم تكن هناك محلات إنما طاولات عرض مصفوفة بجانب بعضها البعض.. وبين هذه الطاولات العديد من السكان الذين ملؤوا المكان بحيث كان من العسير السير دون الاصطدام بأحدهم، وإن حاول السكان جهدهم الابتعاد عن طريق جنود الدورية رغم الزحام..

بعد سير قصير رأى قائد الدورية يتقدم من إحدى الطاولات التي تحمل فواكه متعددة غريبة الشكل شهية برائحتها الفواحة، وتناول بعضها ليوزعه على البقية وسط صمت صاحب البضاعة الذي نظر لهم باستنكار.. نظر خالد للفاكهة في يده بضيق وغضب يتنامى في صدره من فعل جنود الدورية.. ورغم صمت صاحب البضاعة إلا أن قائد الدورية صاح بحدة "ألديك اعتراض؟"

هز الرجل رأسه نفياً بسرعة والقائد ينظر له بحدة، ثم قال له "لقد قيل لنا أنك تعاون الثوار وتمدهم بالطعام.. أهذا صحيح؟"

أسرع الرجل يقول بشحوب "تهمة باطلة.. ما أملكه لا يكفي لإطعام عائلتي وحدها، فكيف يكفي الثوار جميعهم؟ وأنا لا يمكن أن....."

قاطعه القائد قائلاً ببرود "أنت تعرف أننا لا يمكن أن نتهاون فيمن يعاون العدو.."

وبإشارة من يده بدأ جنوده في ضرب الطاولة وركل ما تطاله أقدامهم من فاكهته والرجل يقف في جانب المكان مرتعباً مما يراه، بينما وقف خالد على مبعدة والصدمة جلية على وجهه.. ثم قال القائد وهو ينظر لمن حوله من المارة الذين تجمدوا لهذا المنظر والذهول يغمرهم "لتكن هذه عبرة لمن تسوّل له نفسه معاونة أولئك الأوغاد.. إنهم أعداء.. ومن يعاون الأعداء يصبح عدواً أيضاً"

سمعوا صاحب البضاعة يقول بصوت يرتجف غضباً "هم ليسوا أعداءنا.. بل أنتم العدو البغيض"

كانت تلك شجاعة كبيرة منه أن يفصح عن أفكاره بهذه الطريقة الواضحة.. ولم يعجب هذا قائد الدورية الذي هجم على الرجل بسلاحه وضربه على فكه بقوة فأسقطه للوراء ليرتطم بصناديق قريبة وهو يصيح بألم.. فاقترب منه القائد ناوياً ضربه من جديد وهو يقول بغضب "أتجرأت علينا يا هذا؟"

وجد يداً تقبض على يده بقوة، ولما التفت لصاحبها باستنكار وجد خالد يقول بتوتر بالإنجليزية "لا داعي لمزيد من العنف.. لقد نال ما يكفيه"

دفع القائد يد خالد قائلاً بحنق "أتجرؤ على التدخل أيها الجندي؟"

سارع خالد ليقول بصوت منخفض "لو أثرنا غضب هذه الجموع فلن نستطيع الإفلات من بين أيديهم، مهما كان تطور الأسلحة التي نملكها.. نحن قلة هنا، وقد وصلت رسالتك كاملة للآخرين.."

نظر القائد حوله للجموع التي لم تفهم كلمة مما قالها خالد، وإن لاحظ القائد الغضب في العديد من الوجوه من حوله.. ثم استدار وهو يصيح بمن حوله "لا تجعلونا نتخذ إجراءات صارمة ضدكم.. أطيعوا الأوامر، ولن نتدخل عندها"

وسار في طريقه وجنوده خلفه، بينما أعاد خالد الفاكهة التي معه للرجل قبل أن يتبع قائد الدورية الذي قال له بجمود "سنرى ما سيفعله القائد ستيفان بك بعد أن يصله خبر ما فعلته"

وركل طاولة قريبة لتسقط البضاعة من فوقها وتتلوث على الأرض دون أن تجرؤ صاحبتها على الاعتراض وهي تلتصق بالحائط خلفها بذعر.. بينما زفر خالد بضيق شديد وهو يود لو يقف ويساعد المرأة على جمع بضاعتها ويعتذر لها.. لكن قائد الدورية لن يسمح له بذلك، وربما ينال عقاباً أقسى مما ينتظره الآن.. ورغم أن العقاب لا يهمه حقاً، لكن المرأة قد تتأذى أكثر بتصرفه ذاك..

كانت تلك التصرفات من أكثر ما يكره في عمله هذا، وهو قد تعوّد على العمل منفرداً على متن طائرته، لا يحتك بالجنود الآخرين ولا بالسكان المحليين كثيراً.. تنهد وهو يرفع بصره لما ظهر من السماء من بين الأقمشة وهو يشعر باشتياق إليها أكثر فأكثر، ولا يعلم حتى متى سيطول صبره..

****

أنهت ميا عملها في وقت متأخر جداً في إحدى الليالي.. بعد عملية مهمة قام بها الثوار ونجحوا فيها بتدمير أحد مخازن المركبات وتحطيم ما لا يقل عن ست مركبات، كان عدد الثوار المحتاجين لعنايتها الطبية كبيراً نوعاً ما بعد حدوث عدة مناوشات بينهم وبين جنود الغزاة، فانشغلت بهم لوقت طويل بمعاونة رستين الذي بعد أن أتم علاج أغلب الثوار واطمأن لوجودها غادر لأداء عمل مهم خاص به..

كان الفجر قد لاح في الأفق وميا تتنهد بعد أن غادرها الثوار وبقيت وحيدة في الغرفة، فلملمت عدتها ورتبت أغراضها قبل أن تغادر نحو غرفتها الكائنة في الطابق العلوي.. رغم التعب الذي تشعر به، إلا أنها كانت سعيدة بما يشغل فكرها عن تلك الحادثة التي أفقدتها أعز شخص لديها.. تلك الحادثة التي أورثتها كوابيس مريعة تجعلها

تنهض مفزوعة كل ليلة، ولا يهدأ بالها إلا بعد أن تتذكر أن كل شيء قد انتهى بالفعل، فتعود لها الغصة والمرارة بقوة كما كانت أول مرة..

تنهدت وهي تدلف الغرفة محاولة إقصاء هذه الأفكار من عقلها، لتفاجأ بشخص متشح بالسواد يقف وسطها ويوليها ظهره.. نظرت له بدهشة، إنما لم يخايلها أي خوف.. لابد أن يكون من الثوار، وهم الوحيدون الذين يلجون هذا المنزل، لكن لم هو هنا؟.. تساءلت "من أنت؟"

التفت إليها بحدة وهي تضيف "أتريد مني شيئاً؟"

لم تستطع رؤية وجهه في الغرفة المظلمة، لكنها وجدته يتقدم نحوها فيقبض ذراعها بقوة آلمتها وهو يقول بحدة "بل من أنت؟ وما الذي تفعلينه هنا؟"

شهقت بألم قبل أن تقول "اتركني.. أنا ميا"

ظل قابضاً على ذراعها بقوة للحظات قبل أن يطلقها قائلاً بدهشة "ميا؟ ما الذي تفعلينه هنا؟"

لم تستغرب ميا تعرفه عليها فأغلب الثوار يعرفونها ويعرفون أبيها.. مدت يدها وأضاءت الغرفة لتكشف ملامح الغريب.. كان طويلاً نوعاً ما، رغم أنه أقصر من روباك بقليل، وربما يكون بالعمر ذاته.. ملامحه عادية وإن كانت حادة، مع حرق ظاهر في جانب وجهه ترك علامة لا تمحى.. لم يسبق لها رؤيته من قبل، ومن معطفه الرث وملامحه المتعبة بدا أنه قادم من مسافة بعيدة..

سألته ميا "من أنت؟"

قال حاكاً رأسه "أنا سيث.. ما الذي جاء بك من منزلك الجبلي؟ وأين أباك؟"

ثم اتسعت عيناه وهو يرى الوشم في جانب عنقها وقال "متى انضممت للثوار؟"

رفعت حاجبيها بدهشة قبل أن تقول "يبدو أن أحداً لم يخبرك عن شيء"

نظر لها بدهشة، عندما سمعت من خلفها صوت دانتين يقول "سيث؟ متى عدت؟"

نظرا لدانتين الذي وقف عند باب الغرفة المفتوح ينظر لسيث بدهشة، ثم اقترب منه وصافحه بقوة مضيفاً "غيابك طال كثيراً أيها العجوز.. هل أتعبك الطريق لهذا الحد؟"

ربت سيث على كتف دانتين بقوة آلمته وهو يقول "من هو العجوز أيها الغر الساذج؟ أين هان؟ ولماذا بدّل غرفته؟"

أشار لموقع ما خلفه مجيباً "في غرفة قريبة.. اذهب إليه فهو ينتظرك منذ أيام"

والتفت لميا مضيفاً "سامحيه على إزعاجك يا ميا.. إنه لم يعلم بوجودك هنا"

تمتمت ميا بأي كلمات دون معنى، بينما غمغم سيث بفضول وهو يخرج "ما الذي استجد واستدعى بقاؤها هنا في غيابي وانضمامها للثوار أيضاً؟"

لم تسمع ميا إجابة دانتين بعد أن أغلقا الباب عليها، فاستلقت على سريرها متنهدة.. هناك الكثير من الثوار ممن لا تعرفهم، ولم تدرك من قبل أن الثورة أخذت هذا الحجم الكبير حتى اجتمعت بهم، كما أنها لم تتوقع أن يمتلك أصحابها هذه العزيمة المدهشة والإرادة الصلبة.. فهل ستغدو مثلهم يوماً ما؟..

وفي غرفة هان، استمع سيث لحادثة مقتل كيرام بتأثر كبير، ثم قال وهو يمسح عيناه قبل أن يرى أحد دموعه التي تغرقهما "اللعنة على الغزاة.. رجل عظيم يقضي نحبه دون سبب.. لا بد أن صدمة ميا كبيرة لرؤيتها ذلك بعينيها.."

قال روباك الجالس قريباً منه "لكنها تجاوزت ذلك بعزيمة رائعة.. حقاً إنها ابنة أبيها"

زفر سيث بقوة وهو يحاول طرد صدمته، ثم قال لهان "آسف لتأخري كثيراً في العودة.. لقد واجهت الكثير من الحواجز الخاصة بالجنود وخضعت للتفتيش مئات المرات في دخولي وخروجي من سِن.."

قال هان بابتسامة "المهم أنك عدت قطعة واحدة"

ثم التفت لدانتين مضيفاً "هلا سمحت لنا بحديث خاص يا دانتين؟ عليك أيضاً أن تنال قسطاً من الراحة لتكون مستعداً للغد"

قال دانتين بغير تصديق "لماذا تطردني أنا؟ ما الذي تعنيه بذلك؟"

والتفت لروباك مضيفاً بحدة "ولماذا تسمح لروباك بالبقاء بينما لا تسمح لي بذلك؟"

قال هان دون أن يفقد هدوءه "روباك.. غادر أنت أيضاً.. لا داعي لمثل هذه البلبلة يا دانتين"

نهض روباك دون اعتراض وغادر الغرفة، بينما تردد دانتين للحظات قبل أن يغادر بدوره بصمت.. وما إن أغلق باب الغرفة خلفه حتى فوجيء بروباك يديره ويلصقه في الجدار بقوة قائلاً بصوت خافت اكتسب صرامة مرعبة "اسمع يا فتى.. في الثورة هناك قواعد مهمة عليك ألا تنساها.. إطاعة الأوامر حتمي دون نقاش.. لا داعي للاعتراض كلما طلب منك هان المغادرة.. من تكون أنت لتجبره على إعلامك بكل صغيرة وكبيرة في عملنا؟"

قال دانتين بتوتر "لست أعني شيئاً بهذا حقاً.. تسوؤني معاملتكم لي كطفل صغير.. لماذا يجب أن تُخفوا مخططاتكم بهذه الصورة؟"

قال روباك بغضب شديد "أنسيت من خسرناه في الساحة ذلك اليوم؟ هناك خائن بيننا، هذا شيء مؤكد.. ولن يطول الوقت قبل أن يقع في أيدينا، وحتى ذلك الوقت الحيطة واجبة.. قم بعملك وأطع الأوامر بصمت، فلا أستبعد أن يقوم هان بطردك من الثورة إن أثرت المزيد من البلبلة في صفوفنا"

وغادر تاركاً دانتين مزعزع الفكر وهو يضمّ قبضته بقوة.. ثم غادر بدوره متنهداً.. أما في الغرفة التي غادروها، ففور إغلاق الباب قال سيث "ألم تكشفوا شيئاً بعد؟"

قال هان "لا.. لكن لن يطول الأمر قبل أن نكشف كل شيء ويقع الخائن في أيدينا.. ماذا فعلت أنت في العاصمة الشمالية؟"

أجاب سيث "لقد التقيت بقادة الثورة هناك، ودار حديث طويل بيننا.. إنهم يحققون نجاحات ملحوظة هناك، لكنهم بحاجة للمزيد من الرجال لتحقيق أهدافهم.."

تساءل هان "كم يبلغ عدد الثوار هناك؟"

قال سيث "ضعفي عددنا تقريباً، يقودهم رجل صارم يدعى برتيك، بالإضافة لقادة تحته يقودون الثوار في جماعات منظمة.. وقد رحبوا كثيراً بالتعاون معنا.."

وأضاف إزاء نظرات التساؤل من هان "أنت تعلم أن أكبر المناجم الخاصة بالغزاة موجود قرب العاصمة الشمالية مايار، وهم ينوون تدميره بشكل نهائي.. كما أن أمراً مهماً سيجري في العاصمة بعد شهر من الآن، وهم يريدون مساندتنا لتحقيق أهم وأكبر أهدافهم"

قال هان "تدمير المنجم مكسب كبير لنا لكنه خطر كثيراً.. وما الأمر الآخر؟"

تلفت سيث حوله وكأنه يخشى أي متنصت عليهم، ثم مال تجاه هان مجيباً "سيجتمع القادة الست لجيش الغزاة في مايار بعد شهر تقريباً.. وكما تعلم، أولئك القادة هم أعلى رتبة في هذا الجيش وهم من يتولى تسييره في كوكبنا.. لذلك، فثوار الشمال ينوون النيل منهم عندها"

نظر له هان بغير تصديق، ثم غمغم "هذا انتحار.."

هز سيث رأسه موافقاً وهو يعلق "بالفعل.. لكن أتعلم ما سيحدث لو تم القضاء على القادة الست أو بعضاً منهم؟ ستحدث بلبلة كبيرة في جيش الغزاة وسنتمكن من الحصول على نصر كبير عليهم.. لذلك ثوار الشمال يطلبون عوننا بشكل ملحّ.."

غرق هان بالتفكير للحظات وسيث صامت احتراماً له، ثم رآه يرفع رأسه قائلاً "هذه خطوة كبيرة يجب أن ندرسها جيداً.. لكن قبل ذلك، لن نتخذ أي خطوة قبل الانتهاء من أمر ستيفان.."

غمغم سيث "الشيطان؟"

هز هان رأسه إيجاباً وعلق "أجل.. الشيطان كما يدعوه أهالي المدينة.. لن نغادر قبل أن نخلص المدينة من شره.. هذه مهمة كبيرة وأنا أخطط لها بالتعاون مع رجالي.. لكن إياك من تسريب هذا الخبر لأي شخص.. لازلنا نجهل هوية الخائن، ولا نريد خبر هذه العملية أن يصل لستيفان فيقوم باتخاذ احتياطاته"

هز سيث رأسه موافقاً، ثم عاد يحدث هان عن الثورة في الشمال.. مخططاتهم، رجالهم، نجاحاتهم، وكل ما يعرفه عنهم.. كان هان يسعد بمعرفة ما حققته الثورة في الشمال، فهذا يطمئنه أن الثورة في أرجاء الكوكب مشتعلة ضد الغزاة، مهما تغير رجالها واختلفت هوياتهم.. المهم أن الثورة باقية، ومشتعلة..

****

بعد يومين، ولم يكد النهار قد بلغ منتصفه، كانت إحدى الدوريات في المدينة تقطع شوارعها بسرعة متفادية بعض المحليين الذين قفزوا من طريقها خوفاً وقائدها يصيح بجنوده "هل ترونهم؟"

قال أحد الجنود مشيراً لما أمامه "إنهم هناك.. أرى اثنان منهما اختفيا خلف ذلك المنزل القريب.."

فأوقف القائد مركبته بحدة وصاح بجنوده "اقبضوا على من تجدونه.. لابد أن لهم صلة بالثوار.."

قفز الجنود بأسلحتهم بينما بقي قائد الدورية في المركبة وهو يرفع تقريراً لقيادته قائلاً "من الدورية الرابعة إلى مركز المراقبة.. لقد حدث اشتباك صغير بيننا وبين بعض الرجال في الحيّ الشمالي للمدينة.. وقد لاحقناهم لمسافة قصيرة بالمركبة قبل أن ينزل الجنود لإكمال المطاردة على الأقدام.."

أتاه صوت عبر جهاز الاتصال يقول "كونوا حذرين ولا تفلتوهم.. ارفع لي تقريراً بكل ما يجري عندك"

أبلغه القائد بموافقته قبل أن ينهي الاتصال ويفتح قناة الاتصال مع جنوده قائلاً "ما الذي جرى عندكم؟ هل تمكنتم منهم؟"

قال له أحد الجنود "لقد غافلانا وذابا في زحام بين المحليين في سوق قريب.. ونحن نحاول أن نتتبع أثرهم.."

قطب القائد ساخطاً، عندما علا صوت جندي آخر وهو يقول "أظنني عثرت على أحدهم.."

فقال القائد بسرعة "إياك أن تفلته.. وليساعدك البقية.."

فقال الجندي وهو يركض عبر ممر جانبي بين منزلين "لا داعي لذلك.."

كان الرجل الذي يركض أمامه يبدو متوتراً وهو يحاول تضييع الجندي، لكن الجندي الذي كان الأسرع تدارك الأمر قبل أن يهرب الرجل وقفز عليه ليسقطا معاً أرضاً بعنف والرجل يطلق صيحة ألم.. نهض الجندي واقفاً وركل السلاح الذي يملكه الرجل ليسقط بعيداً وهو يرفع سلاحه في وجهه، فرفع الرجل ذراعيه وصاح لاهثاً "مهلاً.. لا تطلق النار.."

فقال الجندي عاقداً حاجبيه "انهض ولا تأت بأي حركة مريبة.."

لم يعترض الرجل وهو يقف ولم تزل ذراعاه مرفوعتان فوق رأسه.. فقال له الجندي "استدر وضع يداك على الحائط.."

أطاعه الرجل على الفور وهو يقول بتوتر "لا تؤذني أرجوك.. أنا لا دخل لي بأي شيء.."

قيد الجندي يداه خلف ظهره وقال "إذاً لمن هذا السلاح؟"

قال الرجل بسرعة وصوت قلق "ليس لي صدقني.. لقد وجدته ملقىً في أحد الأزقة فأخذته وفي نيتي بيعه والاستفادة من المال.."

فقال الجندي مقطباً "إذن لم كنت تركض بهذه السرعة لو كنت بريئاً حقاً؟"

أجاب الرجل "لأني عندما رأيتكم تلاحقونني لم أظن أنكم قد تصدقونني.. لكني بريء.. صدقني"

أداره الجندي ليواجهه ومد يده ليزيل لثاماً يحيط الرجل عنقه به.. وللدهشة، رأى عنقه خالياً من أي وشم.. ظل الجندي يحدق بعنقه لفترة والرجل يغمغم "أرأيت؟ لست أحمل أي وشم من أي نوع.."

قطب الجندي وجذبه قائلاً "نحن من سيقرر صدقك من كذبك.."

بدا توتر كبير على وجه الرجل وهو يجد الجندي يقوده للدورية القريبة ويحدث قائدها بلغة الغزاة التي لا يفهمها.. وبينما استمع القائد للجندي بصمت فإنه راقب ملامح الرجل التي كانت تفضح قلقه وذعره الشديدين.. لكنه لم يأمر بإطلاقه وهو يقول للجندي "فتشه جيداً.."

أسرع الجندي يفتش الرجل بشكل كامل من رأسه حتى قدميه دون أن يغفل معطفه وهو يفتش في ثناياه.. ثم قال لقائده "إنه خالٍ.."

فأمسكه القائد ودفعه ليصعد المركبة قائلاً "إذن لنعد.. لابد بعد استجوابه من أن نحصل على بعض المعلومات التي ينكرها الآن.."

لم يعلق الرجل على الحديث الذي لم يفهمه وهو يدور ببصره فيمن حوله بقلق ظاهر والجنود يصعدون جواره لتتحرك المركبة عائدة لمبنى الدوريات بعد أن أخفقوا في القبض على البقية.. ولم تكد الدورية تغادر، حتى تحرك رجل يقبع في زقاق قريب يراقب ما يجري بصمت وأسرع باتجاه مبنى الدوريات مختفياً بين الأزقة وظلال المنازل بخفة وسرعة..

وبعد فترة وجيزة، عاد الرجل لسيث الذي كان يقف في أحد الأزقة، فبادره سيث متسائلاً "هل ألقوا القبض عليه؟"

أجابه الرجل متلفتاً خلفه "أجل.. لقد أخذته الدورية لمبنى الدوريات وسيق للسجن فيها منذ قليل.. لقد راقبته حتى دخوله ومن ثم أتيت إليك"

فشدّ سيث على سلاحه وهو يقول "رائع جداً.. إذن سننفذ العملية هذه الليلة"

فقال الرجل بقلق "لابد أنه سيتعرض للتعذيب على أيدي الجنود"

علق سيث بحزم "لا بأس.. لقد خاض هذه المهمة وهو مدرك عواقبها.. من الجيد أنه من جواسيسنا لذلك لا يحمل أي شعار على عنقه وإلا كان استجوابه أسوأ بمراحل.."

واستدار مضيفاً "وهذه ليست المرة الأولى التي ننفذ فيها خطة مشابهة، وهو ليس الأول الذي يؤدي هذه المهمة.. لكن الجنود الأغبياء لا يفطنون للحقيقة في كل مرة.."

وأسرع لمغادرة الموقع والرجل يتبعه بصمت تام.. لقد بدأت العجلة تدور، وكل ما يتمنونه هو أن تطبق على عنق ستيفان بإحكام هذه الليلة..

****

في تلك الليلة، ومع غروب الشمس، كان الرجل الذي ينتمي للثوار يسير بخطوات متعبة مع الجندي الذي جذبه بعنف حتى وصل به للطابق تحت الأرضي حيث يقبع السجن بمن فيه من المحليين.. وهناك، فتح إحدى الزنزانات ورماه فيها بعنف ليسقط أرضاً قبل أن يغلق الجندي باب الزنزانة بقضبانها الحديدية تاركاً الرجل يعتدل بشيء من الألم وهو يغمغم "سحقاً لكم.."

لمس فكه حيث بدت كدمة ظاهرة مسببة له آلاماً جمة، بالإضافة لإصابات مختلفة في جسده بسبب لكمات الجنود وركلاتهم أثناء التحقيق الذي أجري له.. رغم أنه يبدو ظاهرياً من سكان المدينة ولا صلة له بالثوار، إلا أنهم لم يتوانوا عن استجوابه بشدة أملاً في الحصول على بعض المعلومات.. فلم يملك وهو يشعر بالآلام في جسده إلا أن يقول "تباً للغزاة.. أما آن لكل هذا أن ينتهي؟"

سمع صوتاً قريباً يسأله "أأنت بخير؟"

نظر قربه فرأى رجلاً من المحليين يكبره بقليل يرمقه بشيء من القلق، فابتسم وقال له "لا تقلق.. أنا بخير.."

غمغم المحلّي متأملاً ملامحه المنهكة "لا يبدو هذا هو الحال.."

نهض الرجل بعسر وتلفت حوله باهتمام حتى حصر أجهزة المراقبة في هذا السجن، ومن ثم اقترب من المحلي قائلاً بخفوت "ليس هذا هو المهم.. الليلة ستحدث أمور كثيرة، وأريد معاونتك فيها.."

نظر له الرجل بحيرة وتعجب.. فما الذي يمكن أن يحدث في هذا السجن الواقع في قلب مبنى الدوريات؟..

تلك الليلة، قضى خالد وقته في مناوبته الليلية الأولى وهو يرافق إحدى الدوريات التي تقطع الشوارع بشكل رتيب.. ومع الصمت الذي يسود المكان والظلام الحالك، بدأ تفكير خالد يدور في عوالمه الخاصة.. ظل يفكر بحاله منذ تلك الليلة التي سقطت فيها طائرته.. ليلتها تغيرت حياته بالكامل، فما عاد قادراً على قيادة الطائرات، والآن سحبت منه رتبته مع كل امتيازاته، وأصبح من جنود الدوريات، مع إنذار بأن يتم إيقاع العقاب عليه لو ارتكب حماقة أخرى.. وكل هذا بسبب ميا.. لكنه ليس حزيناً على ما ضاع منه، بقدر حزنه على عدم قدرته الالتقاء بها من جديد.. يحنقه أن يكون متعلقاً بها لهذه الدرجة لكن لا يجد إليها سبيلاً.. يحنقه أن ينظر للمدينة التي تضمّها في ثناياها دون أن يجد القدرة على البحث عنها..

زفر وهو يتأمل الطرقات المظلمة إلا من أنوار مركبات الدوريات التي تمر بهم بين وقت وآخر، ثم قال قائد الدورية التي يرافقها خالد "سنقف في آخر هذا الشارع وعليكم أن تتفحصوا طرقات ذلك الحي بحرص.. ولا تنسوا أن تُبقوا قناة الاتصال مفتوحة لكي نعلم بأي شيء يحدث لأحدكم"

توقفت المركبة في آخر الشارع المطروق، والذي يتفرع عنه عدة أزقة ضيقة تتشعب بين المنازل المظلمة.. فهبط الجنود الستة مع خالد بينما بقي قائد الدورية في المركبة وهو يوزع الجنود على الأزقة القريبة ليتفحصوها ويقبضوا على من تسوّل له نفسه كسر حظر التجول..

سار خالد في الطريق المحدد له بعد أن افترق عن البقية وهو يستمع عبر جهاز الاتصال لرفاقه الذين بدأوا يرسلون تقاريرهم الأولية لقائد الدورية.. وبعد أن تجاوز خالد مسافة محدودة من الزقاق الضيق وغيبه الظلام المخيم فيه، قال عبر جهاز الاتصال "الأمور كلها مستتبة هنا.. سأستمر في طريقي وأبلغك بكل ما يستجد"

جاوبه صوت قائد الدورية الذي قال "كن حذراً.. ولا تبتعد كثيراً عن البقية.."

لم يعقب خالد بكلمة وهو يتقدم وسلاحه في وضع الاستعداد.. كان الزقاق ضيقاً وفيه رائحة نتنة، لكن خالد لم يعبأ بهذا وهو يتقدم متأملاً الأبواب والنوافذ القريبة والتي غمرها الظلام المعتاد.. كان السكان المحليون يخشون حتى من أن تبدو الأنوار من نوافذ منازلهم لئلا يتعرض لهم الجنود بأي أذى.. تنهد خالد وهو يتسدير ناوياً العودة بعد أن وصل لنهاية الزقاق، عندما لاحظ ظلاً عبر في جانب من الزقاق مختفياً بين منزلين قريبين.. توتر خالد وهو يعود لذلك الموقع دون أن يضيء المصباح الذي يملكه لئلا يهرب صاحب الظل ذاك متنبهاً للنور..

تلفت خالد حوله بصمت في ذلك الجانب من الزقاق دون أن يعثر على أثر لما رآه سابقاً، ثم سلك طريقاً فرعياً ثم آخر ثم آخر بحثاً عنه.. كان كالرذاذ الذي تبخر في الهواء دون أثر، وهو ما زاد شكوك خالد أكثر.. كاد يرفع تقريراً بهذا لقائد الدورية، لكنه فضّل التريث لئلا يتهم بأنه واهم دون أن يسند أي دليل قوله.. استدار وهو يسلك طريقاً آخر عندما رأى رجلاً يخرج من منزل قريب، وقد توقف عندما رأى خالد وقد صادته المفاجأة هو أيضاً..

كان الرجل ملثم الوجه لا يبدو منه إلا عيناه الحادتان، مما جعل خالد يقول وهو يرفع سلاحه بيده "توقف.. من أنت؟ وما الذي تفعله هنا متجاهلاً حظر التجول؟"

وقف الرجل بتوتر شديد دون أن يطيعه، فقال خالد بصرامة "سأطلق النار لو تحركت حركة واحدة..ارفع لثامك"

رفع الرجل يديه باستسلام وهو يحدج خالد بنظرة حادة، فقرب خالد فوهة سلاحه من وجه الرجل ونزع بها لثامه محافظاً على مسافة بينهما.. كان وجه الرجل عادياً، لم يسبق لخالد رؤيته في قائمة المطلوبين التي يحفظها كل جنود الدوريات.. لكن قبل أن ينتبه خالد تصرف الرجل بسرعة وهو يمسك سلاح خالد بقوة ويسدد لكمة لوجهه..

تفادى خالد لكمة الرجل بصعوبة، عندما لاحظ مع حركته تلك ذلك الوشم الذي يزين جانب عنقه.. تذكر وشماً مشابهاً كان يحتل جانب عنق الأشيب في منزل ميا، مما دفعه ليقبض على ذراع الرجل بقوة وهو يغلق قناة الاتصال بقائد الدورية قبل أن يقول للرجل "أنت من الثوار؟"

في تلك الأثناء، كان قائد الدورية يقطب بحنق وهو يحاول إعادة الاتصال بخالد، قبل أن يقول لبقية جنوده "استمعوا إليّ.. لقد أغلق خالد قناة الاتصال، ولا يستجيب لي..لقد عثر على رجل خالف حظر التجول، وربما تعرض جهازه للتحطم لسبب ما.. ابحثوا عنه بسرعة.. وأخبروني بما تجدونه فور العثور عليه"

أطاعه الجنود وهم يتجهون للزقاق الذي اختفى فيه خالد.. أما الأخير، فقد لاحظ توتر الرجل الذي اشتعل عندما ألقى جملته تلك، فعاد خالد يقول "أين ميا؟ أهي معكم؟ أين هي؟"

دفعه الرجل بقوة ليفلت ذراعه وهو يقول مقطباً "من أنت؟ وكيف تعرف ميا؟"

تقدم خالد منه خطوة وهو يسأل بلهفة "هي معكم، أليس كذلك؟"

ظل الرجل عاقداً حاجبيه وهو ينظر لخالد بحذر، ثم قال "لا.. لا أعرف أين هي.. لكن من أنت؟"

عاد خالد يقبض ذراع الرجل بقوة وهو يقول "بل لابد أن تكون معكم.. أخبرها أنني أبحث عنها.. قل لها خالد يريد لقاءك.. ولن أسبب لها أي مكروه"

كان الرجل ينظر له بصمت تام دون أن يعلق، فقال خالد بإلحاح "أخبر ميا بذلك.. أرجو....."

فوجئ بالضربة العنيفة التي أصابت مؤخرة رأسه دار لها عقله بقوة وخوذته تسقط مع عنف الضربة، وقبل أن يستعيد توازنه تلقى ضربة أقوى وأعنف من السابق جعلته يغيب عن الوعي على الفور ويسقط بصمت أرضاً على وجهه.. نظر الرجل لروباك الذي وقف خلف جسد خالد وقال بتوتر "جيد أنك جئت في الوقت المناسب.. لقد أدرك ذلك الجندي أنني من الثوار"

نظر روباك للدماء التي بدأت تسيل من موضع الجرح الذي أصاب مؤخرة رأس خالد لتغرق ملابسه والأرض تحته، ثم رفع بصره للرجل متسائلاً "هل كان يسألك عن ميا؟"

قال الرجل بحيرة "أجل.. قال إن اسمه خالد.. لا أعلم من هو وما الذي يريده منها، بل كيف عرفها؟"

غمغم روباك "لابد أن يكون هو ذلك الجندي الذي ذكرته ميا.."

ثم قال للرجل بصرامة "لا تخبر ميا عن أي من هذا.. ولا تذكر لها ذلك الاسم أبداً.."

هز الرجل رأسه موافقاً، فاستدار روباك مغادراً والرجل يتبعه بشكل حثيث تاركاً خالد فاقد الوعي ينزف بلا انقطاع في تلك البقعة البعيدة عن أنظار بقية الجنود..

****

في وقت متأخر من تلك الليلة، كان الجنود كعادتهم يقومون بجولات حراسة حول مبنى الدوريات، بالإضافة لأجهزة المراقبة الموزعة في المكان والتي تكشف مساحة واسعة حول المبنى.. كان الصمت يعمّ الحيّ المحيط بمبنى النسور ومبنى الدوريات، مما جعل أحد الجنود يركع أرضاً وهو يتثائب بملل، فلكزه جندي آخر قائلاً "انتبه لعملك ولا تغفل عنه.. قد يفاجئنا ستيفان في أي لحظة"

غمغم الآخر دون أن ينهض "لن يأتي الليلة"

قطب الأول متسائلاً "وما أدراك؟ سمعت أنه سيأتي الليلة في عمل مهم، فلا تعرضنا للعقاب أرجوك"

قال الآخر "لقد فات موعده منذ زمن.. لا تقلق ولا داعي لكل هذا التحفز"

غمغم الأول وهو يدير بصره فيما حولهما "لا يمكنني ذلك.."

لاحظ في تلك اللحظة شبحاً يمر في موقع قريب منهما لوهلة قصيرة.. فضيّق الجندي عينيه وهو ينظر لتلك البقعة محاولاً تبيّن صحة ما رآه، عندما مر الشبح ذاته في بقعة أخرى بسرعة.. فقال الجندي وهو يتشبث بسلاحه "يا للشيطان.. هناك متسلل"

نهض الجندي الآخر باهتمام متسائلاً "أنت متأكد؟ أين؟"

أشار الأول للبقعة مجيباً "هناك.. إنه يظهر بين فترة وأخرى.. لابد أن أستدعي إحدى الدوريات لملاحقته"

أوقفه الجندي قائلاً بحماس "لا تفعل.. الدوريات بعيدة عن هنا.. وستستغرق وقتاً للوصول.. لم لا نحاول القبض عليه بأنفسنا؟ لقد مللت الوقوف بلا عمل"

وتقدم من ذلك الموقع رافعاً سلاحه بحذر، فقال الجندي الأول بقلق وهو يتبعه "لست مطمئناً أبداً.."

أجرى الجندي الآخر اتصالاً بغرفة المراقبة بالمبنى قائلاً "هناك متسلل بين المنازل القريبة من المبنى.. سنحاول القبض عليه قبل أن يبتعد.. سلطوا أجهزة المراقبة على هذا الجزء من المبنى حتى عودتنا"

أجابه المسؤول عن المراقبة "كونا حذرين.. سأتصل بأقرب دورية وأطلب منها معاونتكما"

أنهى الجندي الاتصال وتقدم من آخر موقع ظهر الشبح عنده.. تأملا البقعة الخالية قبل أن يشير الجندي لرفيقه ليفترقا ويبحثا في المواقع القريبة.. سار الجندي الأول بخطوات حذرة في الطريق الذي يسلكه وهو يدقق في الزوايا المظلمة والأزقة الضيقة.. ظل يلوّح سلاحه مع كل حركة وقد انتابه قلق من بقائه وحيداً بعيداً عن رفيقه..

ففتح الاتصال مع الجندي الآخر قائلاً بصوت خفيض "هل عثرت على شيء؟"

أجاب الآخر "لاشيء بتاتاً.. يبدو أنك كنت واهماً.. ربما كان حيواناً ضالاً أو....."

قطع حديثه بحشرجة مفاجئة قبل أن يسمع الجندي صوت ارتطام وشوشرة انقطع الاتصال بعدها، فقال بتوتر

وقلق "ما الذي حدث عندك؟ روبرت.. ماذا أصابك؟"

لم يستجب الجندي لندائه، فاشتعل قلق الجندي وهو يتلفت حوله بتوتر مغمغماً "كانت تلك فكرة سيئة.. قد يكونون من الثوار.."

عالج جهاز اتصاله ليتصل بغرفة المراقبة، عندما شعر بشيء رفيع وحاد يحيط عنقه ويضغط عليه بقوة مسبباً له الاختناق.. أسقط الجندي سلاحه وهو يجاهد لتحرير نفسه من ذاك الشيء وصوته يتحول لحشرجة غير مسموعة.. دام صراعه لبرهة قصيرة قبل أن يسقط رأسه على صدره ويتهاوى جسده أرضاً.. عندها، أفلته الرجل الملثم وهو يزيح السلك الحديدي الذي استخدمه لخنقه واستولى على سلاحه عندما سمع صوتاً خلفه يهمس "أين روباك؟"

التفت الرجل لسيث الذي اقترب منه مجيباً "لقد ذهب ليتولى أمر الجندي الآخر"

فقال سيث "راقب الموقع.."

وأسرع يجرد الجندي من ملابسه وسلاحه وخوذته، ثم ارتداها على عجل والرجل يراقب المنازل القريبة بحذر خشية وجود متلصص عليهما.. ولما انتهى سيث قام بإخفاء جثة الجندي في زقاق ضيق قريب، ثم قال وهو يشير للرجل ليتبعه "هيا بنا.."

تسللا بين المنازل بخفة وحذر حتى اقتربا من أقرب موقع يمكنهما الوصول إليه دون أن تكشفهما أجهزة المراقبة.. وسرعان ما وجدا روباك ورجلين آخرين ينضمان إليهما.. فتساءل سيث "أين الباقون؟"

أجاب روباك "في مواقعهم المحددة.. هيا بنا.. لا يجب أن نتأخر كثيراً.."

كان روباك قد استبدل ملابسه بدوره بملابس الجندي الذي تخلص منه آنفاً.. فلبث الرجال الأربعة في موقعهم يراقبون المبنى القريب للحظات طالت، وقد كان الجانب المواجه لهم خالياً بعد أن غادر الجنديان الوحيدان فيه موقعهما..

تساءل سيث "هل نبدأ؟"

لم يكد يتمّ قوله حتى تعالى صوت إطلاق رصاص من جانب آخر من المبنى بعيد عن موقعهم، عندها همس روباك "الآن.."

أسرع روباك يعبر الساحة التي تفصلهم عن مبنى الدوريات وخلفه سيث يحمل حقيبة ثقيلة على كتفه ويتبعه بحرص شديد، بينما بقي الرجال الثلاثة في مخابئهم متحفزون بأسلحتهم.. كان الإطلاق يتزايد في الجانب الآخر من المبنى مثيراً انتباه الجنود والقيادة بحيث يصرف النظر عن روباك ورفيقه، فاستغل روباك وسيث هذه الفرصة ليقتربا من المبنى ويقفزا فوق السور الحديدي القصير ليهبطا وسط الشجيرات التي تزيّن الحديقة الصغيرة..

وفي قلب المبنى، في نفس اللحظة التي اندلع فيها القتال في جانب مبنى الدوريات، نظر الرجل المحليّ لرفيقه من الثوار بتوتر، فرآه يجلس بعيداً عن النور الذي يلقي بضوئه على جزء من الزنزانة، ويده تعالج أسفل حذائه بسرعة، وسرعان ما انتزع أسفل الحذاء ليستخرج من موقع مجهز فيه سكيناً صغيرة الحجم حادة النصل.. فأمسكها بيده بعزم وهو يعطي الإشارة لرفيقه المحلي، عندها، نهض الأخير واقفاً بتردد، ثم اقترب من القضبان

ونظر عبرها للجندي الذي كان يجلس في جانب من السجن وسلاحه لا يغادره وقد أشعره ما يحدث خارجاً بتوتر شديد.. فصاح المحليّ محاولاً أن يكسب صوته بعض الأهمية "أيها الجندي.. أرجوك اسمعني قليلاً"

قال الجندي بجفاء "صمتاً.. لست بمزاج لسماع صوتك المزعج.."

فقال المحلي بسرعة "أرجوك.. لديّ شيء مهم أريد منك إيصاله للقادة.. استمع إليّ.."

نظر له الجندي بتشكك وهو يقول "وما الذي قد يحمله رجل بدائي مثلك للقادة؟"

تلفت المحلي حوله قبل أن يقول بصوت خافت "إنه عن الثوار.."

قفز الجندي واقفاً رغم أنه لم يسمعه بشكل جيد، واقترب منه قائلاً "ماذا قلت؟ أأنت تتحدث عن الثوار؟"

عاد الرجل للتلفت مجيباً بهمس "أجل.. أملك معلومات مهمة عنهم.. أنا....."

كان الجندي قد وصل إليه وقد تخلى عن حذره وهو يخفض سلاحه، عندها مد المحليّ يداه عبر القضبان الحديدية وتشبث بثياب الجندي بقوة، وقبل أن يبعده الجندي وهو يصيح "ماذا تفعل أيها الـ....."

فوجئ في تلك اللحظة بيد أخرى تمسك عنقه قبل أن يشعر بشيء حاد يخترق عنقه بقوة وسرعة بحيث لم يجد وقتاً ليشهق قبل أن يسقط جثة هامدة وخوذته تسقط جانباً.. وقبل أن يسقط، كان الرجل قد تشبث به وبحث في جيبه ليستخرج مفتاحاً للأقفال الإلكترونية التي تقفل أبواب السجون على من فيها.. ثم ترك الجثة لتسقط وهو يقول لرفيقه "لنسرع.."

خبأ السكين الصغيرة في جيبه وقام بفتح باب الزنزانة التي هم فيها والمحلي يقول بتوتر لا مثيل له "وماذا عن أجهزة المراقبة؟"

قال الرجل "لنأمل أن يكون الجنود منشغلون بذلك القتال ولا ينتبهوا لما يجري هنا.."

وناول المفتاح للمحلي مضيفاً "أخرج جميع السجناء ولا تصدروا صوتاً يجذب الانتباه.. سأرى ما يمكنني فعله بالباب المؤدي لهذا السجن.."

لم يجادله المحليّ وهو يسرع لإخراج بقية السجناء وهو يتساءل في سره عن الكيفية التي سيغادرون بها من مبنى الدوريات ذاته..

أما روباك وسيث، فقد اقتربا من جانب حائط مبنى الدوريات في بقعة عمياء لا تصلها أجهزة المراقبة بعد أن انشغل الجنود بتلك المعركة الدائرة في الجانب الآخر من المبنى.. كانت تلك البقعة هي ذاتها التي نفذوا فيها عملية سابقة وهرّبوا السجناء مخلفين فتحة في جدار المبنى، وقد تم ترميمه بشكل متعجل بعدها..

انحنى روباك قرب الحائط حيث تقع نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية يعرف أنها تخص السجن الذي يقع تحت الأرض وتؤمن له التهوية المناسبة.. فأمسك روباك مصباحاً بيده وأضاءه في النافذة بشكل متقطع ثم ربض في موقعه بصمت.. وخلال لحظات سمع صوت رفيقهم من الثوار الذي سجن صباحاً يقول "أهذا أنت يا روباك؟"

قال روباك بسرعة "ما الأخبار؟"

أجاب الرجل "كل شيء تمّ كما خططنا.. لقد حررت السجناء، وقمنا بتأمين باب السجن بحيث لا يفاجئنا أحد الجنود رغم أنني متأكد أنهم مشغولون بالقتال خارجاً.."

فأشار روباك لسيث الذي قبع قريباً، فأسرع يفتح حقيبته ليتناول منها بضع قنابل سوداء اللون، فناولها للرجل عبر النافذة بحرص وهو يقول "كن حذراً كي لا تفجر نفسك.."

لم يعلق الرجل وهو يتناول القنابل فيما قال له روباك "فور أن تقوم بتفجير هذا الجدار اخرجوا دون إبطاء.. سيجذب الانفجار انتباه الجنود ولن يكون هروبكم سهلاً ومأموناً إن رأوكم أثناء هروبكم.."

وأسرع يبتعد مع سيث ليقبع في جانب بعيد من الساحة المحيطة بالمبنى وسيث يقول "لن تكون مهمتهم هم هي الأسوأ هذه الليلة.."

تساءل روباك "أنادم أنت على مجيئك؟"

ابتسم سيث بسخرية وهو يقول "نادم؟ بل لا أكاد أتمالك سعادتي عندما أفكر فيما قد يواجهه ستيفان هذه الليلة.."

فزفر روباك معلقاً "لنأمل أن تسير الأمور كما خططنا لها.."

لم يكد يتم قوله حتى رأوا الانفجار المحدود الذي أصاب الجدار الذي كانوا يقفون قربه قبل قليل.. فانتشرت سحابة من الغبار غطت كل شيء والحجارة تتناثر لمسافة بعيدة، بينما وقف روباك وسيث ينظران بقلق بانتظار انجلاء الأمر.. وفور أن خفت كل شيء، رأوا رفيقهم بالإضافة لمن معه من السجناء يتسلقون ذلك الحائط بسرعة ويغادرون المبنى للحديقة حوله.. فاقترب روباك من رفيقهم وقال "أسرعوا بالهرب، وساعد السجناء على ذلك" هز الرجل رأسه وقال "بالتوفيق.."

وساعد بقية السجناء على مغادرة الحديقة عبر السور وقطعوا الساحة بشكل حثيث قبل قدوم الجنود.. وفي نفس اللحظة، كان روباك وسيث يعودان للمبنى من ذات الفتحة وسيث يحمل حقيبته مغمغماً "الآن بدأ الحفل.."

قال روباك وهو يتشبث بالسلاح في يده "لا تتحدث لكي لا يدركوا هويتك.."

واتخذا خطوتهما الأولى في مبنى الدوريات.. في معقل غريمهم الأكثر شراً في المدينة.. الشيطان..

****

الفصـــل السابع

مع بدء تلك الليلة التي لا يعرف أحد نهايتها، جلست ميا قرب نافذة غرفتها وقد عمّ المنزل هدوء ساكن بعد مغادرة عدد كبير من الثوار ولجوء هان لغرفته كالعادة.. كانت ميا تتأمل الظلام الصامت خارج المنزل وهي تلمح بين فترة وأخرى مركبة إحدى دوريات الغزاة تقطع الشارع القريب بجنودها المسلحين بعد بدء حظر التجول.. تنهدت ميا وهي تنظر لإحدى الدوريات ببغض متذكرة كل ما جرى لها منذ أيام قليلة.. لا يمكنها تصديق كيف تغيرت حياتها بهذا الشكل الكبير منذ تلك الليلة التي فكرت فيه بإنقاذ أحد أولئك الجنود بغباء منقطع النظير.. زفرت وهي تحاول تجاوز الغصة التي شعرت بها تتزايد في حلقها، عندما شعرت بيد حانية تلمس كتفها.. التفتت لترى زوجة سيميان تقف قربها وهي تسألها بقلق "ما بك يا صغيرتي؟ أهناك ما يؤلمك؟"

غمغمت ميا وهي تعود ببصرها للخارج "حياتي كلها تؤلمني.."

غمغمت المرأة بإشفاق "لا تقولي ذلك يا صغيرتي.. نحن لا نعلم إلى أين تقودنا الحياة، ولا يمكننا إلا أن ننقاد لها بصمت ونتفكر في كل ما يجري لنا.. ليس في كل ما حدث لك أي ذنب منك.. عيشي أيامك دون هذه المرارة والندم البادیین في عينيك"

قالت ميا بشيء من الأسى "أتظنين ذلك ممكناً؟"

قالت المرأة بتأكيد "بالطبع.. ضعي هدفاً نصب عينيك، وانسي ما يسبب لك المرارة.. إنك لا تملكين إعادة الماضي، ولا تملكين تفادي أخطاء قد حدثت بالفعل"

زفرت ميا محاولة تجاوز ضيقها، ثم التفتت للمرأة متسائلة "أتعلمين ما ينتويه الثوار هذه الليلة؟"

هزت المرأة رأسها نفياً مجيبة "هان يحرص على إبقائنا في الظلام أنا وسيميان في كل مرة.. إنه يخشى أن يصيبنا مكروه لو انجرفنا مع الثوار وكنا طرفاً في مخططاتهم.."

نظرت ميا من النافذة من جديد تتأمل الصمت الساكن بشدة.. وهي غير مدركة ما الذي يجري خارج حدود ذلك المنزل الذي هي فيه.. ولم يكن يخطر ببالها ما يخاطر به روباك وسيث وهما يخطوان داخل مبنى الدوريات من الفتحة التي سببها الانفجار قبل هروب السجناء.. وقد حرصا على أن يغيبا في المبنى قبل قدوم الجنود الذين ولابد سيجذبهما انفجار كهذا..

وفي قلب السجن، تجاوزا السجون ذات البوابات بقضبانها الحديدية، وجثة الجندي الملقاة أرضاً، واتجها إلى الباب الذي يقودهما لقلب المبنى ليجدا أن رفيقهم قد وضع أمامه طاولة صغيرة ليغلق الباب ويمنع الجنود من فتحه.. فأزاح روباك الطاولة وفتح الباب وخرج منه متشبثاً بسلاحه والخوذة تخفي ملامحه متظاهراً بأنه جندي عادي.. كان الموقع خارج السجن في معمعة كبيرة وبعض الجنود يتراكضون هنا وهناك متجهين للخارج للمشاركة في تلك المعركة التي تزايدت حدتها مع الثوار.. لكن روباك وسيث حاولا ألا يلفتا الأنظار وهما يسيران في جانب

المكان وسيث يقف ليُخفي بعض القنابل التي يحملها تحت أي قطعة أثاث أو صندوق قريب بحيث تتوزع القنابل في أماكن متقاربة من المبنى..

بعد أن انتهيا من القاعة التي كانوا فيها، خرجا منها بحذر إلى ممر جانبي وسارا فيه بصمت وروباك في المقدمة.. وقرب أحد الأبواب، أطل روباك برأسه لينظر عبره إلى الغرفة الخالية والتي تحوي عدداً من الأجهزة لاحظ أنها خاصة بالمراقبة بعد أن تخلى عنها أصحابها.. وبإشارة من يده، تسلل سيث للغرفة ليضع فيها ثلاث قنابل على الأقل وروباك يقف عند الباب بتوتر.. وسرعان ما انتقلا لغرفة أخرى كانت تحوي العديد من الصناديق وبدا أنها تستخدم كمخزن، فعاد سيث لينفذ عمله بصمت وروباك ينتظره كالعادة.. لكن قبل أن يفرغ سيث، سمع روباك صيحة صارمة خلفه وصوت خطوات تقترب منه.. ولما استدار رأى أحد الضباط يقترب منه ويحدثه بلغة الجنود بصرامة وسرعة.. وقف روباك ساداً الباب بجسده لئلا يلاحظ الضابط ما يفعله سيث وهو صامت دون أن يقدر على الرد أو فهم ما يقوله الضابط وقد اشتعل توتره، ويبدو أن سكوته قد أحنق الضابط الذي صرخ في وجهه بحدة وهو يقف قريباً منه.. عندها لم يكن من روباك إلا أن يضرب الضابط بسلاحه بقوة في بطنه انثنى لها بدهشة وألم، ثم عاجله بدفقة أشعة من السلاح في رأسه ألقته للوراء متكوماً جثة هامدة..

رغم أن المواجهة لم تكن بعيدة عن توقعاتهم، إلا أن روباك توتر خشية أن يكتشف الجنود هويتهم بعد ما حدث، فسارع لجذب الجثة محاولاً إخفاءها في المخزن عن الأعين عندما سمع صيحة مستنكرة عند نهاية الممر.. توتر روباك وهو مدرك أن الجنود ولابد قد رأوا ما حدث، ولم يكد يرفع رأسه حتى وجد الأشعة تصيب ذراعه ويده الممسكة بالسلاح، ولولا الخوذة العاكسة لأصابته في رأسه على الفور.. لكن روباك لم يتخلّ عن سلاحه رغم الألم في ذراعه وقد أدرك أن الجنديان اللذان يواجهانه عند طرف الممر قد عرفا هويته بالتأكيد.. فرفع سلاحه محاولاً إصابتهما وهما يواجهانه بسلاحيهما.. وقبل أن يطلق أي طرف أشعته، وجدوا طلقات من الأشعة تنطلق من المخزن فتصيب يدي الجنديين بغزارة.. فأسرع روباك يطلق بدوره بعد أن استغل انشغال الجنديين لإحكام تصويبه وأشعته تصيب أحدهما في عنقه وترديه قتيلاً.. ثم تصيب الآخر بدوره فيسقط جوار رفيقه بصمت..

أسرع روباك ومن خلفه سيث إلى الجنديين وسيث يهمس "لننقلهما قبل أن يأتي آخرون.."

تعاونا على نقل الجنديين والضابط لإخفاء جثثهم في المخزن بين الصناديق بحيث لا تبدو للناظر من بعيد.. ثم تسللا عبر الممر وسيث يهمس "بقي نصف القنابل.. علينا أن نسرع فلن يصمد رفاقنا أكثر من ذلك في ذاك القتال.."

لم يعلق روباك وهما يوزعان بعض القنابل في الغرف القريبة والتي كانت خالية، ثم يدلفان قاعة صغيرة خالية في آخر الممر، عندها عاون روباك سيث على توزيع القنابل وتوترهما يزداد مع كل صوت يصدر من الممر أو من أي جهة قريبة من موقعهما.. وفي النهاية رمى سيث حقيبته جانباً وهو يقول "انتهينا.. فلنغادر.."

واتجه نحو مخرج القاعة، لكن روباك استوقفه قائلاً "مهلاً.. من الخطر العودة لقلب المبنى.. لقد خفّت حدة القتال كما أسمع.. وهذا يعني أن العديد من الجنود سيعودون للمبنى ولا نريد مواجهتهم.."

واتجه لأقرب نافذة فنظر خارجاً ليتأكد من عدم وجود جنود قريبين، ثم بمؤخرة سلاحه ضرب الزجاج بقوة ليهشمه قطعاً وسيث يقف جانباً.. ثم أسرع روباك يقفز عبر النافذة المهشمة وسيث يستعد ليتبعه، لكن في تلك اللحظة تعالى صياح من مدخل القاعة وعدد من الجنود يدلفون القاعة وأسلحتهم موجهة لسيث.. فمد روباك يده وأمسك ذراع سيث وجذبه بقوة ليخرج من النافذة والأشعة المتطايرة تصيب ساق سيث عدة إصابات..

ركض الإثنان دون إبطاء مبتعدين عن موقع المعركة التي خفتت كثيراً، لكن لم يكد روباك وسيث يصلان لزاوية المبنى، حتى فوجئ روباك بضربة بمؤخرة سلاح تصيب وجهه بقوة فتلقيه جانباً، بينما تفادى سيث الضربة التالية وهو يرفع سلاحه في وجه الجندي الذي وقف أمامهما ومعه ثلاثة جنود.. وقف روباك بدوره والجندي يصيح فيهما بصرامة بلغتهما "اخلعا الخوذة.. لاداعي للتنكر فقد عرفنا هويتكما.."

لم يطعه أي منهما وهما متحفزان بانتظار أي حركة تصدر منهم، بينما قال الجندي بحدة "اخلعاها.. أنتما من الثوار.. أليس كذلك؟"

همس سيث لروباك القريب منه "فلنشق طريقنا بالقوة.."

لم يجادله روباك وهما يرفعان سلاحيهما في توقيت واحد.. ورغم تحفز الجنود، إلا أن الإثنان استطاعا الإطاحة بجنديين قبل أن يبادلهما الآخران الإطلاق.. ورغم تطاير الأشعة والتي أصابتهما في أماكن متفرقة، فإن روباك وسيث ثبتا في موقعهما وهما يريان الجنديان الحريصان على حياتيهما يختبئان خلف زاوية المبنى بسرعة.. فتقدم سيث بتهور من زاوية المبنى فيما قال روباك بحدة "لا تفعل..."

لكن قاطعهما صوت طلقات رصاص والتي انطلقت بغزارة، نحو الجنديين المختبئين، والقادمة من سور المبنى.. نظر سيث ليرى الجنديين يسقطان جثة هامدة وقد أخذتهما المفاجأة، بينما علا هتاف قريب "أسرعا قبل أن يأتي آخرون.."

نظر الإثنان ليريا أحد رفاقهما ممن بقي بعيداً قد صعد فوق السور وهو متحفز بسلاحه وهو يضيف "سيجذب الصوت انتباههم بالتأكيد.."

لكن الإثنان لم يتمهلا وهما يقفزان فوق السور ويعبرا الساحة من خلفه مبتعدين عن المبنى وسيث يتساءل "كيف عرفت أننا في خطر؟"

أجاب الرجل "لما لاحظت تراكض الجنود الأربعة لهذه الجهة البعيدة عن الإطلاق، أدركت أنكما هدفهم بالتأكيد.."

غمغم سيث "لقد أنقذت أعناقنا ولاشك.."

تسلل الثلاثة بين المنازل القريبة وانضم الرجلان الآخران إليهما وأحدهما يقول "جيد أنكما عدتما سالمين.. لقد خشيت أن تفشل الخطة.."

تساءل روباك "هل أفلح السجناء كلهم بالهرب؟"

أجاب الرجل "أجل.. لقد تأكدنا من ذلك.."

فعاد يتساءل "وماذا عن رجالنا الذين خاضوا المعركة مع الجنود؟ هل أصيبوا بمكروه؟"

أجاب الرجل ‘‘إصابات متفرقة وخفيفة.. لا تقلق.."

فقال سيث "أأنتم واثقون من وجود ستيفان في المبنى حالياً؟"

أجابه أحد الرجال بسرعة "بالتأكيد.. نحن متأكدون من هذه المعلومة، أحد رجالنا يراقب المبنى منذ بدء الليلة، وسيبلغنا إن رآه يغادر المبنى لأي سبب.. إنه هناك ولاشك"

سأله روباك مقطباً "هل رآه وهو يدخل؟"

ارتبك الرجل قليلاً قبل أن يقول "إنه هناك ولابد.. معلوماتنا تؤكد هذا"

رغم ضيق روباك بهذه الإجابة غير المؤكدة، إلا أنه لم يعلق وهو يقترب من أحد المنازل ويطرق بابه بخفوت، ولما فتح صاحب المنزل الباب، أسرع روباك ورجاله يدلفون المنزل قبل أن يغلق صاحبه الباب ملقياً نظرة على المنازل القريبة.. فارتقى الثوار سلالم المنزل للطابق العلوي ليقفوا في إحدى الغرف المطلة على مبنى الدوريات ويراقبوا الوضع من النافذة دون أن يضيئوا نوراً يكشف وجودهم.. كان القتال الدائر في جانب المبنى قد توقف، وقد تراجعت فرق الثوار التي قامت بتلك البلبلة بين ثنايا المدينة مختبئين عن الجنود الذين أرسلوا عدة دوريات تجوب الأحياء بحثاً عنهم.. بينما عاد الصمت محيطاً بالمبنى وروباك يراقبه قائلاً "في أي لحظة الآن.."

سمع أحد الرجال يقول بصدمة "انظروا هناك.."

التفتوا للموقع الذي أشار إليه، فرأوا مركبة من مركبات الغزاة تقف على شيء من المبعدة من المبنى ليهبط منها جنديان وخلفهما هبط ستيفان وهو يهتف في جهاز الاتصال بغضب شديد.. فهمس سيث بحنق "يا للشيطان.. يبدو أننا خدعنا"

قطب روباك وهو ينظر لما يجري، بينما رفع أحد الرجال سلاحه قائلاً "يمكنني أن أصيبه من هنا بسهولة"

أوقفه روباك معلقاً "لا.. قد تخطئه.. وهذا سيكشف موقعنا ويوقع صاحب المنزل في ورطة مع الغزاة.."

ونظر للمبنى مضيفاً بحنق حاول مداراته "لا فائدة الآن.."

لم يسمع الرجال أغلب جملته بعد أن غطى صوته انفجارات قوية هزت الحيّ والمنازل القريبة وأضاء البقعة بنور مبهر..

****

"إنه هنا.."

هتف جندي بهذا وهو يركع قرب جسد خالد الذي ظل على ما كان عليه، مرمياً على الأرض على وجهه وحوله بقعة لا بأس بها من الدماء.. اقترب منه قائد الدورية ومعه جنديان متحفزان بسلاحيهما، بينما فحص الجندي الأول خالد بسرعة قبل أن يقول "لا يزال حياً رغم أن نبضه خافت كثيراً.. لقد نزف الكثير من الدماء من جرح رأسه.. يجب أن ننقله بسرعة للمستشفى"

أجرى القائد اتصالاً عبر جهازه ليبلغ بقية الجنود بخبر العثور على خالد، بينما قام الجندي بربط جرح خالد محاولاً إيقاف الدماء التي تسيل بلا انقطاع.. ثم تعاون مع جندي آخر لحمله لمركبة الدورية المتوقفة خارج الزقاق.. فقال لهما قائد الدورية "خذاه للمستشفى بأسرع ما تستطيعان.. ونحن سننتظر هنا"

وأشار لبقية جنوده مضيفاً "فتشوا هذه البقعة جيداً بحثاً عمن تسبب في هذا لجندي من جنودنا.. لا أشك بأن يكون من الثوار، وسيفيدنا القبض عليه حياً بالتأكيد"

انطلق جنوده للبحث في المناطق القريبة، بينما أسرع القائد لطلب دورية أخرى تعين جنوده على البحث.. لكن لم يعثروا على أي أثر للثوار كالعادة رغم مرور الوقت واستماتتهم في البحث.. بدت المدينة الكبيرة كلها كمخبأ للثوار، فكل زاوية وجحر كان يضمهم دون عسر كبير.. غمغم قائد الجنود بسخط "تباً لهؤلاء الفئران الذين يختبئون في الجحور دون أن تفلح أي مصيدة في القبض عليهم.. إن لم ينجح القائد في....."

قطع قوله مع ذلك الانفجار القوي الذي ارتجت له المنطقة والقادم من بقعة ما خلفه.. فاستدار قائد الدورية ومن حوله من الجند بذهول ليروا ما راعهم.. كان مبنى الدوريات الذي يبدو من خلف المنازل القريبة بسبب ضخامته النسبية هو مصدر ذلك الانفجار، وقد غطته سحابة كثيفة من الدخان بحيث يصعب معرفة تفاصيله.. أنار الحريق الذي اشتعل في المبنى بسبب الانفجار بقعة كبيرة من الموقع والجنود يتراكضون من كل المواقع القريبة للمبنى محاولين إنقاذ من يمكن إنقاذه من الجنود القريبين من المبنى والذي طالهم الانفجار بجراح متفاوتة الخطورة.. ومنهم من يحاول إطفاء الحريق الهائل الذي اندلع في المبنى..

وقف قائد الدورية بعد أن وصل للموقع يتأمل الدمار الذي جرى بذهول.. كان تجرؤ الثوار على تدمير مبنى الدوريات يعني أن شوكتهم قد صارت أقوى من السابق.. ولابد ستكون غضبة ستيفان على هذا مريعة.. همس قائد الدورية لنفسه بحنق "يا للشيطان.. ستغدو أيامنا عصيبة منذ الآن بسبب هؤلاء الشرذمة.."

****

عندما استيقظت ميا في اليوم التالي، لاحظت أن الثوار لم يخلدوا للنوم كعادتهم.. كان ستة من الثوار، وهم من يضمهم هذا المنزل، بالإضافة لرستين ودانتين وروباك وهان، يجلسون في إحدى الغرف يتناقشون بحدة.. فاقتربت ميا من صاحبة المنزل لتتساءل "ما الذي جرى؟ هل أخفقوا في العملية التي قاموا بها البارحة؟"

أجابت صاحبة المنزل "بل نجحوا فيها.. لقد قاموا بتدمير مبنى الدوريات تماماً.."

قالت ميا متعجبة "رائع.. إذن لم كل هذا الوجوم؟"

قالت المرأة هازة رأسها "لكن الشيطان لم يكن هناك للأسف.."

نظرت لها ميا باستفهام، فقالت المرأة "قائد الدوريات هو كالشيطان في هذه المدينة.. ولقد أذاق شعبنا أصناف العذاب منذ قدومه.. كان الثوار ينتوون القضاء عليه بعد أن علموا أنه سيتواجد في المبنى في تلك الليلة لأمر ضروري، لكن يبدو أنه غيّر خططه فجأة، أو أن المعلومة التي يملكها الثوار كانت مغلوطة"

نظرت ميا لـهان الذي كان مقطباً على غير العادة، بينما قال أحد الثوار بغضب "الآن ذلك الوغد يدرك أننا نستهدفه شخصياً.. سيغدو من الصعب النيل منه أو حتى الاقتراب منه في المرات القادمة"

قال هان "لا بأس.. سننجح في المرة القادمة.. الآن علينا العودة للمخبأ.."

قال سيميان الذي كان قريباً "ستغادرون؟ يمكنكم البقاء هنا قدر ما تشاؤون.."

أجاب هان "لقد أنجزنا المهمات التي خططنا لها ولم يعد لبقائنا هنا فائدة.. كما أن ثورة الجنود ستكون عارمة على التدمير الذي حدث.. وسيبدؤون بتفتيش المنازل بصرامة.. لا نريد أن يعثروا علينا هنا ونسبب لك المشاكل.."

لم يعلق سيميان وهو مدرك صحة ذلك، فوقف هان وهو يقول "سنرحل على دفعات لئلا نثير الشكوك.. سيخرج رجلان في كل مرة ويستخدموا مدخل المخبأ الموجود في هذا الحيّ.. كونوا متنبهين"

والتفت لروباك القريب منه مضيفاً "ابق هنا حتى رحيل الجميع وتأكد من إزالة آثارنا كلها.. ثم الحق بنا ولا تتأخر"

أسرع الرجال لتنفيذ أمره بينما تقدم هان من ميا قائلاً "هل تناولت فطورك يا فتاتي؟"

هزت ميا رأسها نفياً، فقال لها "إذن افعلي.. سنغادر بعد قليل وستأتين معي"

وانفرد بسيميان في جانب الغرفة يحدثه بحديث خاص، بينما مالت ميا على المرأة قائلة "أين مخبأ الثوار هذا؟"

قالت المرأة وهي تجذبها معها خارجتين من الغرفة "لا علم لي فلم يسبق لي رؤيته.. كل ما أعرفه أن مدخله يقع في جانب من هذا الحي في زقاق مهجور منه.. لكن إن لم ترغبي بالرحيل معهم فيمكنك البقاء هنا ما شئت"

غمغمت ميا وهي تتبعها "بل أريد الرحيل معهم.."

وأضافت بابتسامة "لا يمكنني التخلي عنهم بعد أن حملت هذا الشعار على عنقي"

نظرت المرأة للوشم الذي تحمله ميا في جانب عنقها، ثم تنهدت وهي تقول "الحياة لن تكون سهلة هناك.. لكن لا يمكنني الاعتراض مادام هذا اختيارك.. هيا لتتناولي بعض الفطور قبل رحيلك.."

في ذات الوقت، كان ستيفان يصرخ على نائبه ماركوس "كيف حدث هذا؟ ذات الخدعة، بذات الأسلوب، ولم ينتبه أي أحمق منكم لذلك؟"

كان ستيفان يجلس في إحدى العربات المصفحة في جانب من الساحة والدمار الذي حلّ بمبنى الدوريات لا تزال رائحته تخنق أنفاسهم.. وبينما كان أحد الأطباء قد قدم خصيصاً لمعالجة جرح في رأس ستيفان بعد أن طاله شيء من العنف الذي دمر المبنى، إلا أن ستيفان لم يعبأ به وهو يركل كرسياً جانبياً ويصرخ "أجبني أيها الغبي.."

غمغم الطبيب بصوت ضعيف "سيدي.. جرحك لا يزال ينزف.. وذراعك مكسورة.."

لكن ستيفان ظل ينظر بغضب نحو ماركوس الذي قال خافضاً بصره "لا أعلم حقاً يا سيدي.. لم أكن مناوباً الليلة الماضية، ولو كنت كذلك، لانتبهت للأمر بالتأكيد.."

زفر ستيفان بحنق شديد وهو يقف ويدور في الموقع تاركاً الطبيب ينظر له بضيق، ثم التفت إلى ماركوس قائلاً بصرامة "أنت تعلم أنهم كانوا يستهدفونني.. أليس كذلك؟"

قال ماركوس "شككت بذلك يا سيدي.. فمن النادر أن يستهدف الثوار مبنىً مهماً مثل مبنى الدوريات، وتقتصر محاولاتهم على إنقاذ السجناء.. لكن تدمير المبنى في هذا اليوم بالذات لا يعني إلا أنهم كانوا يعلمون بأمر تواجدك فيه.."

غمغم ستيفان بحنق "الحسن حظي ألغيت قدومي في اللحظة الأخيرة.. لكني سأريهم.."

ثم عاد للجلوس وهو يقول بصرامة "إن كانوا يسعون خلف حياتي، سيرون كم هي غالية، أغلى من أن يقدروا على دفع ثمنها.. أرسل أوامرك للسجون في المدينة كلها، فليقم الجنود بقتل جميع السجناء فيها.. ليقتلوهم في سجونهم، ثم ليرموا الجثث في هذه الساحة بالذات.. ولتبقَ هنا عشرة أيام على الأقل، ومن يلمسها، يقتل بدوره.."

غمغم ماركوس دون أن تبدو عليه أي لمحة استنكار "جميعهم يا سيدي؟ لكن كلهم من المدنيين الذين لا علاقة لهم بالثوار"

صرخ ستيفان "كلهم يا ماركوس.. وأريد الجثث أن تتكوم هنا خلال ساعة على الأكثر.. أفهمت؟"

هز ماركوس رأسه إيجاباً وأسرع لتنفيذ أمره، بينما عاد الطبيب لعلاج ستيفان الذي كان يزفر بكراهية مغمغماً "سيرى أولئك الجبناء.."

****

بعد أن أنهت ميا فطورها، جلست قريبة من باب المنزل بانتظار هان الذي تأخر وهو يجتمع بسيميان في إحدى الغرف.. بينما جلست زوجة سيميان قربها تحدثها بلا انقطاع.. بدا أن الزوجة ستفتقد وجود ميا في المنزل، لذلك فضّلت أن تبقى قربها حتى رحيلها وهي تربت على كتفها بين حين وآخر بحنان ظاهر..

تنهدت ميا وهي تفكر في ذلك المخبأ الذي سمعت عنه ولم تره من قبل.. كيف ستكون حياتها هناك؟ يبدو أنها لن تستطيع الخروج منه لئلا تتعرض لخطر من الجنود، فهل ستطيق أن تبقى في مكان مغلق لفترة طويلة وهي التي لم تعتد إلا على الفضاء الرحب والغابات الواسعة المحيطة بمنزلها القديم؟..

قطع تفكيرها دخول سيث المفاجئ للمنزل وهو ينظر حوله، قبل أن يتساءل بعجلة "أين هان؟"

دلته زوجة سيميان على موقعه، فأسرع للغرفة تاركاً المرأتين تنظران له بتعجب.. ولما وصل الغرفة اقتحمها بدون استئذان وهو يقول لهان بتوتر "هان.. فرق الجنود قادمة لهذا الحي.. لن تمضي دقائق حتى يتم تفتيشه عن بكرة أبيه.. يجب أن تغادروا الآن"

اشتعل توتر سيميان وهو ينظر لهان بقلق، فقال هان "الجميع قد غادر، وأنا سأفعل بعد قليل.. يجب أن تغادر أنت أيضاً.."

قال سيث رافضاً "سأذهب لمراقبة الجنود وأرى ما يفعلونه، ثم سأنسحب للمخبأ بعدها قبل أن يصلوا.. غادروا أنتم بسرعة قبل أن يصل الجنود ويكشفوا تعاون سيميان معنا"

قال روباك الذي كان جالساً بصمت في الغرفة "لا داعي لما تفعله.. انسحب بسرعة للمخبأ ولا تكشف نفسك"

قال سيث وهو يغادر "لا تقلق.. سأفعل ذلك قريباً"

وغادر بسرعة كما جاء، فالتفت هان لروباك قائلاً "سأبقى هنا للحظات قليلة.. خذ أنت ميا وعد بها للمخبأ قبل قدوم الجنود"

نهض روباك مطيعاً أمره بلا نقاش وهو يقول "كن حذراً.."

وغادر الغرفة ليرى ميا جالسة في موقعها والقلق يغزو وجهها بعد رؤية اندفاع سيث في دخوله وخروجه.. ولما اقترب منها سألته "هل كل شيء على ما يرام؟"

أجابها "الجنود قادمون.. لنرحل بسرعة"

سألته وهي تقف "وهان؟"

أجابها وهو يراقب الموقع خارجاً عبر نافذة قريبة "سيلحقنا قريباً.. لنذهب"

وفتح الباب ليخرج تتبعه ميا وقلقها يزداد.. رأته يسير متخفياً مستغلاً الظلال التي تلقيها المنازل عليهما، فتبعته بحذر شديد وقد أدركت أنه يخشى قدوم الجنود.. وبعد أن عبرا عدة طرق ودخلا زقاقاً ضيقاً، وقف روباك فجأة في آخره وهو يشير لها لتصمت.. رأى خلف ذلك الزقاق مركبة دورية بجنودها تقف في عرض الطريق، وقائدها يحدث جنوده وينبههم لأخذ الحيطة والحذر.. فغمغم روباك "علينا سلك طريق آخر"

ازداد قلق ميا عند رؤية الجنود يسدّون الشارع، فتبعت روباك وقلبها يدق بقوة والتوتر يثير رجفة في أطرافها.. لم تتوقع أن يثير مرأى الجنود في نفسها هذا الانفعال والخوف، لكن يبدو أن المواجهتين اللتين حظيت بهما مع الجنود تركا في نفسها آثاراً بليغة.. كيف لا؟ والأولى تسببت في سجنها وكادت تتسبب في الاعتداء عليها، والثانية تسببت بإعدام أبيها وكل من معه..

وصلوا لطريق آخر، لكن الجنود الذين انتشروا في أرجائه منعهما من التقدم عبره، فغمغم روباك ساخطاً "تباً لهم.. إنهم عازمون على الإيقاع بنا بأي طريقة.."

همست ميا "ما الذي سنفعله الآن؟ ألا يمكننا التظاهر بأننا مارة عاديون؟"

أشار روباك لما أمامه مجيباً "ألا ترينهم؟ إنهم يتفحصون المارة ليتأكدوا أنهم لا يحملون ذلك الوشم"

فغمغمت ميا بذعر "كنت أعلم أن ذلك الوشم فكرة سيئة.."

نظر لها روباك بإشفاق، ثم قال "هيا بنا.. لنسلك طريقاً آخر.."

سمعا في تلك اللحظة صوتاً صارماً يصيح من خلفهما، فاستدارا بسرعة ليريا جندياً يقترب مع آخر من خلفهما وقد رفع سلاحه في وجهيهما، فاتسعت عينا ميا وهي ترتجف برعب.. وسمعا الجندي يقول وهو يقترب "تقدما إلى تلك الدورية دون تأخير.. من يخالف الأوامر سيساق للسجن فوراً"

انكمشت ميا لذكر السجن، بينما وقف روباك أمامها وهو يقول للجندي "لم كل هذا التشديد؟ نحن لم نفعل شيئاً"

قال الجندي بصرامة "أطع الأوامر دون جدال.."

تحفز روباك في وقفته والجنديان يصلان قريباً منه، ثم تقدم من الجندي الأول قائلاً وهو يرفع يده لياقة قميصه "لم التأخير ؟ يمكنني أن أريك عنقي لتتأكد من خلوه من أي وشم لتتركنا بعدها نرحل"

لم يعلق الجندي بكلمة بينما توترت ميا أكثر وهي تفكر بالجنون الذي سيقدم عليه روباك وردة فعل الجندي عندما يرى الوشم الواضح على عنق روباك.. رأته يقترب من الجندي ويميل تجاهه وهو يهمّ بكشف عنقه، لكنه باغت الجندي بلكمة قوية في بطنه أتبعها بركلة ألقته للوراء ليرتطم بالجندي الآخر قبل أن يسقط أرضاً.. بينما هجم روباك على الجندي الثاني قبل أن يستعيد توازنه ولكمه في بطنه أتبعها بأخرى على رأسه أسقطت الخوذة من رأسه وقد ارتج رأس الجندي من قوة الضربة وسقط أرضاً..

عندما نهض الجندي الأول مشهراً سلاحه، استدار له روباك بركلة قوية في بطنه من جديد، ثم أمسك سلاحه بقوة ورفعه للأعلى بشدة منعت الجندي من جذب السلاح بعيداً.. وعندما دفع السلاح في أعلى عنق الجندي تحت الخوذة تماماً، رأى، رغم الخوذة المعتمة، عينا الجندي تتسعان بذعر.. لكنه لم يتوانَ عن ضغط الزناد ليخترق الشعاع عنق الجندي بشكل رأسي مخلفة جرحاً مسودّ الأطراف.. سمع في تلك اللحظة شهقة مذعورة من ميا الواقفة على مبعدة، فاستدار بسرعة للجندي الآخر الذي استعاد توازنه وأطلق على روباك لتصيبه الأشعة في ذراعه.. وعندما أطلق الجندي أشعته للمرة الثانية مستهدفاً رأس روباك، قام الأخير برفع الجندي القتيل أمامه ليتلقى الأشعة بجسده، ثم رمى الجثة بعيداً وانقض على الجندي بركلة تجاه ساق الجندي أجبرته على الركوع، ووجّه السلاح لرأسه مغمغماً "كان عليك استعادة خوذتك أولاً.."

رفع الجندي سلاحه بسرعة في وجه روباك، لكن الأخير عاجله بطلقة من سلاحه اخترقت جبهته وأسقطته خلفاً جثة هامدة.. كان من حسن حظهما أن أسلحة الجنود لا تصدر صوتاً يجذب الانتباه عدا عن هسيس خفيف.. لذلك عمد روباك لاستخدامها عوضاً عن أسلحة الثوار التي تصدر دوياً مسموعاً عند إطلاق النار..

ظلت ميا ترتجف وهي ملتصقة بالجدار تنظر للجثتين الملقاتين أرضاً بينما اقترب منها روباك مسرعاً وجذب يدها هامساً "لنهرب قبل أن يأتي المزيد.."

سألته ميا بصوت مرتجف وهي تتبعه "هل أنت بخير؟"

أجاب روباك "هذه إصابة سطحية، والجروح الناتجة عن أسلحة الغزاة لا تنزف كما تعلمين فلا تقلقي.."

لم تعلق ميا وهي تشعر بمشاعر متناقضة تعصف بعقلها.. لكنها لم تنبس بكلمة وهي تتبع روباك حيث ركضا عبر طرقات مختلفة، وفي كل مرة يواجهان دورية يتراجعا بسرعة ويغيرا الطريق.. حتى وصلا لزقاق مظلم وضيق، مليء بالصناديق وأكياس القمامة بحيث يغدو من الصعب المشي فيه.. وهناك، أسرع روباك يفتح باباً خشبياً جانبياً يؤدي لساحة صغيرة مهملة فيها الكثير من الصناديق الفارغة والمعدات القديمة.. وبعد أن تبعته ميا أغلق الباب خلفها وتقدمها عبر الساحة الصغيرة حتى اقترب من فتحة للمجاري في زاوية المكان تداريها صناديق ضخمة عن الأعين.. ففتح روباك غطاءها الثقيل بيسر وطلب من ميا أن تتقدمه.. وبيد مرتجفة، تشبثت ميا بالسلم الأفقي الذي ينزل من الفتحة حتى قاعها، وبدأت نزولها بشيء من التوتر.. وسرعان ما تبعها روباك منتظراً حتى وصولها للأسفل واستقرارها على الأرض، عندها قام بإعادة الغطاء ليعم الظلام في المكان.. لكنه لم يعبأ بذلك وهو ينزل بسرعة حتى استقر معها أرضاً، والتفت لها قائلاً "الآن نحن بأمان.. لنذهب، فالمخبأ ليس بعيداً عن هذا المكان"

ظلت ميا مطرقة في وقفتها وجسدها يرتجف بشكل واضح، فاقترب منها متسائلاً "ما بك يا ميا؟ هل أصبت بشيء؟"

غمغمت بارتجافة دون أن ترفع رأسها "ما فعلته كان فظيعاً.. لقد قتلتهما دون أن تعبأ بذلك.. إنهما....."

قاطعها قائلاً بصرامة "إنهما من أعدائنا.. هل نسيت؟"

رفعت بصرها إليه باضطراب قائلة "ولكن.. ألا يعذبك ضميرك لما تفعله أبداً؟"

قال بحزم "يعذبني عندما أترك أوغاداً مثلهما يعيثون في بلادي الفساد دون أن أمنعهم بكل ما أملك"

لم يزل اضطرابها وهي تخفض بصرها وارتجافة جسدها لا تخفت.. لا تدري أكل تلك الانفعالات البغيضة التي تغزوها بسبب الرعب الذي عاشته في تلك المواجهة القصيرة؟ أم بسبب كراهيتها الدائمة للقتل التي تناقض ما تفعله في عملها وما تسعى إليه دائماً..

اقترب روباك منها مدركاً الصراع المعتمل في أعماقها ووضع يده على كتفها قائلاً برفق "هل ضايقك ما رأيته؟"

هزت رأسها إيجاباً دون أن تنظر إليه.. شعرت أنها لا تقدر على مواجهة عينيه، فجزء من خوفها متعلق بما رأته منه وبعنفه في قتل الجنديين دون لحظة تردد.. لمس روباك الوشم في جانب عنقها متسائلاً "إذن لماذا قررت الانضمام للثوار؟ أظننت أننا نكتفي بالضرب على الأيدي والعتاب المتبادل؟"

خفضت رأسها أكثر وهو يضيف مازحاً "وأنت كنت تتحدثين عن قتل جندي والانتقام لأبيك!.. أنت أجبن من أن تفعلي ذلك إذاً"

قالت بصوت ينتفض "لم أظن الأمر كريه كما رأيته الآن.. لا أظنني أقدر في يوم من الأيام....."

أمسك وجهها بيديه وهو يجبرها على مواجهة عينيه قائلاً "لم يطلب أحد منك ذلك.. أنت أرقّ من أن تلطخي يديك بدماء أولئك الأوغاد.. دعي هذا العمل الكريه لنا، ونعدك ألا نبقي على أحد منهم في سِن.."

قالت بهمس "لا يمكنني أن أنسى كل ذلك.."

قال بحزم "لا يجب أن تنسيه بتاتاً.. مهما كان ذنب أولئك الجنود، وإن كانوا يستحقون الموت أم لا، فنحن يجب أن نقضي عليهم.. يجب أن نحرر كوميت، ونحرر شعبنا الذي لا ذنب له فيما يجري.. لكنني لن أنسى من قتلتهم أبداً.. لا تعتقدي أنني لو شهدت تحرير كوميت سأعيش بعدها سعيداً خالي البال.. لابد أنني لن أنسى كل من مات، منا ومنهم.. وقد يكون بقائي مثْـقل الضمير لآخر لحظة في عمري تكفير عن أي ذنب قد ارتكبته.."

قالت ميا وهي تنظر في عينيه "ذنب؟ أنت أنبل شخص عرفته في حياتي.. سخّرت حياتك كلها لأجل تحرير كوميت، فأي ذنب قد تكون ارتكبته؟"

ابتسم معلقاً "أكبر ذنوبي أنني أثرت هلعك اليوم.. هيا بنا قبل أن يقلق الآخرون.."

وتقدمها في الممر المظلم بثقة وكأنه يحفظ طريقه جيداً.. فاستجمعت ميا نفسها وتبعته بخطوات حثيثة وهي تنظر له بصمت.. راقبت خطواته الثابتة القوية، وظهره العريض، ورأسه المرفوع دوماً بثقة.. زال عنها الخوف الذي دهمها قبلاً، وأصبحت ترى روباك بنظرة جديدة تماماً.. لا تدري لماذا، لكنها أصبحت تراه أكبر من كونه مجرد شخص.. أصبح يبدو لها كرمز، يمثل الحرية، والعدالة، والقوة.. يمثل الثورة بكل أهدافها النبيلة وتضحياتها

الجسيمة.. بل يمثل كوميت نفسه بكل تفاصيله وكل ما يعنيه لها ولشعبها كله..

وعندما التفت يستحثها لتسرع في سيرها، خفضت بصرها بسرعة وهي تهز رأسها بصمت.. خشيت أن يرى الإعجاب واضحاً في عينيها، وربما يسيء فهمها.. حبست ذلك الإعجاب في صدرها وهي تتنهد محاولة إزالة ما انتابها من مشاعر سابقاً.. كلما ضاق عليها الحال وشعرت بنفسها مزعزعة وهاوية تكاد تبتلع روحها، جاءت كلمات روباك لتعيد روحها إليها وتضع قدميها على طريق الثقة والعزيمة.. لا تدري ما سيكون حالها لو لم تنضم للثوار، ربما ستكون قابعة في زاوية غرفة مظلمة تبكي لما آل إليه حالها بيأس وحسرة.. لكن الآن، فكل ما هي عليه بفضل هان ومن معه من الثوار.. بفضل روباك أولاً وأخيراً..

****

عندما علت تلك الطرقات القوية على الباب، التفتت زوجة سيميان لزوجها وقلقها يشتعل بشدة، فأشار لها لتهدأ وهو يتقدم نحو الباب ويفتحه دون تأخير ليجد فرقة من الجنود أمامه وقائدها يقول بصرامة "معنا أمر بتفتيش المنزل تفتيشاً كاملاً.. فإياك والمقاومة، وإلا كان السجن أقل عقاب على ذلك"

وأزاح سيميان الذي لم يعلق ليدخل الجنود للمنزل ويتفرقوا في أنحائه يفتشونه بدقة.. بينما تساءل سيميان بقلق "ما الداعي لمثل هذا التفتيش الآن؟ ولماذا هذا المنزل بالذات؟"

قال القائد الذي جلس في مكان قريب "التفتيش جارٍ في الحي كله.. ألم تعرف بما جرى فجر اليوم؟"

تظاهر سيميان بالجهل وهو ينظر للقائد بتساؤل، فمال القائد تجاهه وهو يقول بصرامة "لقد تجرأ أولئك الثوار على تفجير مبنى الدويات.. ونحن نشك بوجودهم في هذا الحي، لذلك كل من عليه شبهة أنه يعاونهم، سيسجن وربما يقوده ذلك للإعدام في ساحة المدينة كما حدث للسجناء من قبل"

قال سيميان بصدمة ظاهرية "مبنى الدوريات؟ كيف فعلوا ذلك؟"

اعتدل القائد وهو يحدجه بنظرة متفحصة، ثم قال بحزم "الخونة هم من سيخبروننا بالطريقة.. وصدقني لن يطول الوقت قبل أن نقبض على الثوار وعلى كل من عاونهم في المدينة"

بدت الارتجافة واضحة على جسد زوجة سيميان وهي تضم قبضتيها لصدرها وتنظر لزوجها بذعر لم تستطع إخفاءه، فضمها سيميان بذراعه وهو يقول للقائد "لا تخش شيئاً يا سيدي.. نحن لا يمكن أن نعاون أولئك الثوار بأي طريقة.. الكثير منا في المدينة يرونهم محبين للعنف والقتل، ولا نشجعهم على ذلك أبداً"

قال القائد بهزء "أتظنني سأصدق مثل تلك الكلمات؟"

توتر سيميان من رد القائد، في نفس اللحظة التي عاد فيها الجنود من تفتيشهم للمنزل.. فاتسعت عينا سيميان بذعر لدى عودتهم وأحدهم يقبض على هان الهادئ أبداً قائلاً "لقد وجدنا هذا الرجل يحاول الخروج من المخرج الخلفي للمنزل"

نظر سيميان لزوجته التي اشتعل ذعرها قبل أن يسمع قائد الدورية يقول "من هذا الرجل؟"

كان السؤال موجهاً لسيميان، فأجاب بعد أن ازدرد لعابه بتوتر "إنه عمي.. قدم لزيارتنا من منطقة بعيدة وقضى الليلة في منزلنا"

فقال القائد مقطباً "وما الذي يجعل عمك يخرج من باب المنزل الخلفي؟"

أجاب هان عنه بهدوء "لا يوجد قانون يمنع ذلك، أليس كذلك؟"

حدجه القائد بنظرة متفحصة، ثم تقدم منه وهو يحاول تذكر ملامح المطلوب القبض عليهم والتي وزعها ستيفان عليهم دون أن يجد تطابقاً مع وجه هان.. ولما وصل إليه، مد يده وجذب الوشاح الصوفي الذي يحيط به هان عنقه وسط نظرات زوجة سيميان المذعورة.. لكن عوضاً عن الوشم، وجد القائد آثار جرح قديم يحتل جانب عنق هان لمساحة غير صغيرة.. فسأله "ما هذا الجرح؟ ولماذا تغطيه بهذا الشكل؟"

ابتسم هان مجيباً "أنتم تكثرون من الشك دون داعٍ.. هذا جرح قديم تعرضت له من بعض اللصوص الذين تسللوا لمزرعتي بغية سرقتها.. ولم أتعمد تغطية الجرح لأي سبب، إنما أنا شيخ كبير وهذا البرد يؤذيني، لذلك لا غنى لي عما يدفئ رقبتي"

لم يجادل القائد وهو يلتفت لجنوده متسائلاً "هل وجدتم شيئاً؟"

أجابوه بالنفي، فأشار لهم ليخرجوا وهو يقول لسيميان "هذا تحذير لك ولكل سكان الحي.. إياكم ومساعدة الثوار.. لن نتهاون مع من يفعل أبداً"

غمغم سيميان بسرعة "لا يمكننا أن نعاون أولئك الهمج أبداً"

خرج القائد بعد رجاله بصمت، فسارع سيميان ليغلق الباب وزوجته تنهار على كرسي قريب تحاول تمالك الذعر الذي أصيبت به.. بينما قال هان مبتسماً "إذاً نحن همجيون؟"

قال سيميان زافراً "لا تبدأ يا هان.. كدت أصاب بسكتة قلبية عندما أحضروك.. ظننتك قد أفلحت بالخروج قبل قدومهم"

أجاب هان "كنت على وشك الخروج عندما قبض علي الجندي"

فغمغمت زوجة سيميان "لحسن حظنا أنك لم تعد تملك ذلك الوشم بعد أن أصبت بهذا الجرح"

فقال هان وهو يتلمس الجرح في عنقه "ربما.. لكن أن يكون رئيس الثوار لا يحمل الوشم الذي يفخر رجاله بحمله، ليس هذا مما يسعدني"

ونظر لسيميان مضيفاً "شكراً لرعايتك الكريمة لنا في منزلك يا سيميان.. لكن أظنها ستكون الأخيرة.. يكفيكما الذعر الذي أصابكما هذا اليوم.. اعتنيا بنفسيكما"

وغادر المنزل بهدوء من الباب الخلفي تاركاً سيميان يزفر بحدة بينما غمغمت زوجته "ترى ما الذي فعلته ميا؟ هل نجحت بالوصول للمخبأ بأمان؟"

غمغم سيميان "لنأمل ذلك.."

****

سارت ميا في طرقات المخبأ خلف دانتين الذي أخذ يعرفها على أجزائه المختلفة.. فور وصولها مع روباك للمخبأ فإنه تركها وعاد للمدينة ليطمئن على من بقي من الثوار وعلى هان، فتطوع دانتين لأخذها في جولة في أرجاء المخبأ..

كان المخبأ عبارة عن جزء كبير من الأنفاق التي كانت تتبع شبكة المجاري قديماً وقد أصبحت مهملة وغير مستخدمة.. فاستغلها الثوار في عزلها عن بقية المجاري وإعدادها لتكون صالحة لسكناهم، وقاموا بعمل غرف من مواد مؤقتة كالألواح الخشبية، والتي قد لا تعزل الصوت ممن في الغرفة عن خارجها كثيراً لكنها توفر الحد الأدنى من الخصوصية.. وفي الوسط بقي الموقع مفتوحاً كقاعة واسعة وكبيرة تحوي العديد من الكراسي والطاولات، وفي جانبها تم إعداد مطبخ صغير مرتجل.. وفي موقع آخر رأت الغرفة التي كانت أوسع من البقية بخزائن وصناديق مختلفة وأغراض كثيرة مبعثرة، بالإضافة لعدة أسرة لم تبد لها بحالة جيدة.. ورأت وسط الغرفة رستين يحاول ترتيب المكان بشيء من العسر.. وقبل أن تتساءل قال لها دانتين بابتسامة "وهذا سيكون مقرك شبه الدائم.. هذه هي العيادة التي تخص الثوار، ولم يكن يعمل فيها إلا رستين سابقاً بعد أن قتل آخر طبيب كان يعمل معنا.. الآن ستكون هذه محل عملك وعمل رستين، أما غرفتك، فسيقرر هان أين ستبقين عند قدومه"

تلفتت ميا في أرجاء المكان بصمت.. هذا الموقع لا يشبه مسكن سيميان النظيف والمرتب، ولا يشبه منزلها الجبلي الواسع بنوافذه المنيرة وما يحيط به من غابات ومساحات شاسعة.. لكنه الموقع الذي ستبذل فيه جهدها لتعاون الثوار على تحرير كوميت.. هنا وجودها له هدف وفائدة ومعنى.. وهي لا تنوي التذمر من بقائها هنا بل ستعمل بأقصى ما تملك لتستحق الانضمام للثورة..

التفتت لدانتين متسائلة "ألن يسمح لي بالخروج من المخبأ بين وقت وآخر؟"

قال دانتين "لا أعتقد ذلك.. هان لن يسمح لك بالخروج مع ما في ذلك من مخاطر كبيرة، لذلك بقاؤك هنا أأمن لك بالتأكيد"

لم تعلق ميا وهي تتلفت حولها من جديد، فتساءل دانتين وهو يتأمل ملامحها "هل يزعجك ذلك؟"

التفتت إليه مبتسمة وعلقت "لا.. لا يضرني البقاء هنا حتى لو لم أشهد نور الشمس لقرون عديدة.. المهم عندي أن أكون ذات نفع لكم"

ابتسم دانتين لقولها، ودفعها دفعة خفيفة لتدخل العيادة قائلاً "إذن باشري العمل فوراً.. أنا متأكد أن رستين لديه الكثير من الأعمال التي تنتظرك.. لن تجدي وقتاً للتنفس براحة هنا"

تقدمت ميا من الغرفة حيث رستين يعمل بهدوء كعادته، وأسرعت تعاونه وشيء من الثقة تتسلل لنفسها.. وجودها هنا هو الهدف الوحيد الذي تملكه الآن.. إنه قدرها، فكيف تتذمر من القدر؟..

في تلك الأثناء، في المستشفى التابع للجيش، وقف أنطونيو يحدث الطبيب المسؤول عن علاج خالد ويطمئن عليه.. كان خبر العثور عليه مصاباً قد وصله في الصباح، مع خبر التفجير الذي حدث في مبنى الدوريات والذي

لحسن الحظ لم يطل مبنى النسور القريب رغم عنف الانفجار.. وبعد أن أنهى أنطونيو أهم أعماله، قدم للمستشفى ليطمئن على أحد أفضل نسوره السابقين..

كان المستشفى في حالة سيئة لكثرة الجرحى من الجنود ممن كان قريباً من الانفجار، لذلك وجد أنطونيو صعوبة في الحديث مع الطبيب الذي حاول التهرب منه للعناية بالجرحى الآخرين.. ولم يكد يحدثه لبضع دقائق حتى سمع صوتاً صارماً خلفه يقول "ما الذي تفعله هنا؟"

استدار أنطونيو خلفه ليرى ستيفان ينظر له بحدة مقطباً وهو يقترب.. فلم يفته أن يرى الرباط الذي يحيط برأسه وذراعه المجبرة لعنقه من أثر انفجار المبنى.. فقال أنطونيو عاقداً حاجبيه دون أن يتعب نفسه بأي مجاملات "جئت أطمئن على خالد.. لماذا؟"

قال ستيفان بحدة "ألم تدرك بعد أن خالد أصبح ينتمي للواء الدوريات ولم يعد من نسورك؟"

قال أنطونيو بجفاء "طبعاً أدرك ذلك.. لكن ما الذي يمنع أن أطمئن على أحد نسوري القدماء؟"

فقال ستيفان بسخرية "يا لك من رقيق الحاشية.. تترك عملك ومهامك الكبرى لتطمئن على شخص المفترض ألا يعني لك شيئاً؟"

أشاح أنطونيو بوجهه متجاهلاً سخرية ستيفان الذي أضاف بصرامة "رقتك هذه في التعامل مع نسورك هي ما جعل لواء النسور بهذا الوهن والانفلات.. أنت لا تعاملهم بصرامة وشدة لتضمن انضباطهم.. إنهم ليسوا رفاقك.. تذكر هذا.."

فقال أنطونيو ببرود "وهم ليسوا أعداءنا.. حاول أن تتذكر أنت هذا.."

وغادر تاركاً ستيفان ينظر له بهزء، قبل أن ينظر للطبيب الذي كان يقف قريباً ويسأله بصرامة "ألم يستيقظ بعد؟"

هز الطبيب رأسه نفياً قائلاً "إنه في غيبوبة رغم أنني عالجته بكل ما أملك وجرح رأسه ليس بهذا السوء.. ولا أعلم متى سيستيقظ بالتحديد.. ربما يطول الأمر يوماً أو يومان.."

فقال ستيفان وهو يستدير "أبلغني فور استيقاظه.. يجب أن أستجوبه بنفسي لأعلم إن كان قد رأى أحد أولئك الأوغاد الذين دمروا مبناي وحاولوا قتلي.."

وغادر تاركاً الطبيب ينظر له بتعجب قبل أن يزفر ويهرع لعلاج مجموعة جديدة من الجرحى أحضرهم الجنود للمستشفى.. هذا يوم لن ينتهي بخير أبداً..

****

في تلك الليلة، ربض روباك فوق سطح أحد المنازل بصمت وهو يتأمل الساحة القريبة من مبنى الدوريات الذي احترق بالكامل ولم يبق منه إلا ركام مهمل.. ظل روباك في موقعه غير عابئ ببرودة الجو تلك الليلة وهو يتأمل وسط الساحة، حيث تكومت عشرات الجثث لمن كانوا سجناء في سجون الغزاة، وقد رماها الجنود في صباح هذا اليوم بعد عمليتهم التي لم يقدروا على تحقيق أهم هدف فيها..

تنهد روباك وهو يتأمل الجثث بأسى والمرارة تتصاعد في صدره أكواماً وأكواماً لا يقدر على تحملها.. همس ببغض وهو متشبث بسلاحه "تباً لك يا ستيفان.. تباً للغزاة جميعهم.. لا يستحق أيهم إلا الموت في كوميت.. تباً لكل هذا.."

وأسند رأسه لسلاحه وهو يهمس بألم "ما ذنب كل أولئك؟ لم عليهم أن يخسروا حياتهم بتلك الصورة الشنيعة؟"

سمع صوتاً خلفه يقول "أدركت أنك ولابد ستكون هنا.."

لم يلتفت روباك خلفه بينما تقدم منه سيث وقبع قريباً وهو يقول بأسى "من كان يصدق أن يقوم سفاح مثل ذلك الشيطان بهذا العمل؟"

غمغم روباك "إنه شيطان بلا قلب.. كلهم كذلك.."

فقال سيث بمرارة "لو أننا لم نفشل، لو أننا نلنا منه حقاً، لما حدث كل هذا.."

هز روباك رأسه معلقاً "فات أوان الندم.."

لكم سيث جداراً قريباً وهو يقول بغلّ "لو رأيت هذا الشيطان لما اكتفيت بقتله.. القتل رحمة بالنسبة له.. لو أمكنني لفجرته تفجيراً.."

ثم نظر لروباك مضيفاً بحزم "أسلوبنا بغير فائدة مع شخص مثله.. لا يمكننا النيل منه بطريقة ملتوية كما فعلنا الليلة الماضية.. علينا أن نواجهه مباشرة وجهاً لوجه.."

فقال روباك "أتظن أنه سيسمح لك بذلك؟"

اعتدل سيث معلقاً "لابد أن نجبره أن يفعل.. علينا أن نحكم خطتنا، ولا نتردد فما عاد لدينا ما نخسره.."

نظر روباك لسيث مقطباً، ثم عاد ببصره لكومة الجثث التي لم يجرؤ أي من السكان على تحريكها من موقعها وهو يغمغم بأسىً مرير "حقاً.. ماذا لدينا لنخسره فعلاً..؟"

****

الفصـــل الثامن

فتح خالد عيناه بتثاقل متطلعاً للسقف بدون تركيز، ثم التفت جانباً متأملاً الغرفة الهادئة التابعة للمستشفى الخاص بالجيش.. كانت الغرفة تحوي جهازاً يصدر صوتاً رتيباً وشاشته تعرض إحصائيات بحالته الصحية بشكل مستمر، يمتد منه عدد من التوصيلات التي تتوزع على ذراعه وصدره المكشوف.. سمع الباب يفتح في تلك اللحظة ويدخل منه أحد الممرضين قائلاً فور أن رآه "إذن فقد استيقظت بالفعل!.. لم أصدق الجهاز عندما أنبأني باستيقاظك.."

حاول خالد النهوض من على سريره، لكن الممرض منعه قائلاً "لا تجهد نفسك.. مازال جسدك ضعيفاً ولا يحتمل أية حركه.."

تساءل خالد بصوت مبحوح "كم من الوقت مرّ عليّ وأنا فاقد للوعي؟"

قال الممرض وهو يتابع شاشة الجهاز الموصل بجسد خالد "شهر كامل.. خمس وثلاثون يوماً بالتحديد.."

اتسعت عينا خالد بدهشة، فقال الممرض مفسراً "لقد تلقيت ضربة شديدة على الرأس سقطت على إثرها في غيبوبة.. لم نتوقع أن تستيقظ بعد أن طالت غيبوبتك كل هذه المدة.. ولو ظللت في الغيبوبة مدة أطول لنقلنا جسدك للأرض فلم تكن هناك فائدة من وجودك على هذا الكوكب.."

صمت خالد متحسساً مؤخرة رأسه حيث موضع الإصابة والتي تركت أثراً واضحاً، وقد نما شعر رأسه من جديد بعد أن حلق بالكامل بعد إصابته، ثم تساءل "كيف وجدوني؟"

قال الممرض قبل أن يغادر "لست أدري بالتفاصيل.. أحضرتك إحدى الدوريات إلى هنا بعد إصابتك بفترة وجيزة.. سيأتي الطبيب لرؤيتك حالاً فحاول ألا تسقط في الغيبوبة مرة أخرى"

صمت خالد محاولاً تذكر الذي حدث له تلك الليلة.. لقد رأى متسللاً يخرج من المنزل في تلك الليلة، وبعد أن تواجه معه فوجئ بضربة غادرة تأتيه من الخلف.. لقد كان المتسلل يحمل وشماً في جانب عنقه، وهم أخبروه عندما انضم للواء الدوريات أن هذا الوشم يعني أن صاحبه من الثوار.. فهل هذا يعني أن صاحب ذلك المنزل من الثوار أيضاً؟.. وميا، هل هي في ذلك المنزل؟.. ألمّ به صداع شديد منعه من التفكير أكثر من ذلك وهو يتنهد مغمغماً "رباه.. ما الذي جرى لي؟ شهر كامل مدة طويلة"

حاول الجلوس وهو يشعر بجسده مضعضعاً وذراعيه ترتجفان بضعف وهما غير قادرتان على إسناده، فارتمى على السرير مجدداً وهو يتنهد.. ترى، ما الذي جرى في تلك المدة الطويلة التي قضاها بغير وعي؟..

مرت ساعة على استيقاظه، خضع خالد خلالها لعدد من الفحوص وزاره عدة أطباء يفحصونه بشكل متكرر دون أن يشرح أحد له ما يجري.. ولم تكد تلك الساعة تمضي حتى وجد ستيفان يدلف غرفته دون استئذان وابتسامة بلا معنى ترتسم على شفتيه وهو يقول "صباح جميل أيتها الجميلة النائمة.. ما الذي دفعك للاستيقاظ الآن بعد كل تلك المدة؟"

قطب خالد بضيق وهو غير قادر على الرد على استهزاء قائده، بينما جلس ستيفان جانباً وهو يقول دون أن ينتظر رداً "لقد انتظرت استيقاظك طويلاً.. كيف تتجرأ على تركي أنتظر؟"

قال خالد بصوت جاف "لقد كنت في غيبوبة لو لم تلاحظ ذلك"

تأتأ ستيفان باعتراض قائلاً "كان عليك أن ترفع تقريرك ثم تسقط في غيبوبة كما يحلو لك"

نظر له خالد باستنكار وهو غير قادر على ابتلاع سخريته، بينما اعتدل ستيفان متسائلاً بجدية "إذن.. أخبرني ما الذي حدث تلك الليلة؟"

تساءل خالد بحذر "وما المهم فيما حدث لي؟"

قال ستيفان بابتسامة "أنت لم تعلم بما جرى بعد الضربة التي نالتك.. لقد استهدف الثوار مبنى الدوريات وفجروه تماماً"

اتسعت عينا خالد مصعوقاً للخبر وستيفان يضيف بصرامة "كانوا يستهدفونني.. فقد كان من المفترض أن أبقى في المبنى تلك الليلة لعمل مهم، لكني أرجأته في اللحظة الأخيرة.. ولا أشك أن الثوار علموا بذلك وعمدوا لتفجير المبنى لقتلي.. لكنهم فشلوا.."

غمغم خالد في سره "لسوء حظهم.."

فقال ستيفان "رغم محاولاتنا، لم نحصل على أي معلومات عن هؤلاء المخربين.. وبقي لدينا خيط واحد هو أنت.. فما الذي رأيته تلك الليلة؟"

تردد خالد للحظة وستيفان ينظر له بانتظار إجابته، ثم قال "بعد أن تفحصت المنطقة التي عينها لي قائد الدورية، التقيت في أحد الأزقة المظلمة برجل ملثم، وقد كدت أقبض عليه لولا أن غافلني آخر من خلفي وضربني تلك الضربة المؤلمة.."

قطب ستيفان وهو ينظر له للحظات قبل أن يتساءل "وماذا عن الخوذة؟ لماذا خلعتها؟"

أجاب خالد "لم أخلعها.. سقطت مع الضربة الأولى لكن الرجل عاجلني بضربة أخرى قبل أن أتفاداه"

مال ستيفان نحوه قائلاً باتهام "ولماذا أغلقت الاتصال مع قائد الدورية؟ ما الذي يدفعك لمثل ذلك الفعل؟"

أبدى خالد دهشة وهو يقول ببراءة "كان الاتصال مغلقاً؟ لم أدرك ذلك.. ربما أقفل الاتصال أثناء مواجهتي مع الرجلين وبعد أن تلقت خوذتي الضربة الأولى.."

نهض ستيفان يدور في الغرفة وهو يفكر بينما خالد ينظر له بحذر.. لم يكن ينوي أبداً أن يخبره بالحديث الذي دار بينهما، ولم يكن ينوي الإفصاح عن رؤيته للمنزل الذي خرج منه الملثم.. لو فعل، فلا يشك أن ستيفان سيقوم بمداهمة المنزل وقتل كل من فيه أو الزج بهم في السجن وتعذيبهم حتى يعترفوا بكل شيء.. وميا.. ألن تكون هناك؟.. لدى خالد أمل ضعيف أن تكون ميا في ذلك المنزل الآن.. لذلك، يريد الاحتفاظ بذلك الأمل حتى يتأكد منه بعد خروجه..

سمع ستيفان يقول وهو يلتفت إليه "أخبرني عن أوصاف ذلك الرجل.. هل صورته موجودة عندنا؟"

قال خالد بحيرة "لست متأكداً.. كان الزقاق مظلماً جداً ولم أكن قد أضأت النور في تلك اللحظة.. لذلك لا أذكر تفاصيله بشكل تام"

قال ستيفان بغضب "أأنت أحمق؟ لقد ارتكبت قائمة عريضة من الأفعال الحمقاء في تلك المدة الوجيزة، ولست أدري كيف تتحمل عقلك ذاك.."

قال خالد بشيء من الصرامة "كونك رئيسي لا يخوّل لك الاستهزاء بي بين كلمة وأخرى.."

مال ستيفان عليه فجأة قائلاً بابتسامة هزء "من قال ذلك؟ أود رؤيتك تشتكي لدى القادة من هذا الأمر.. سيكون رد فعلهم طريفاً حقاً.. افعل ذلك وأمتعني قليلاً.."

ثم اعتدل في وقفته وهو يقول بصرامة جافة "لديك هذا النهار لتحث عقلك النائم هذا على الاستيقاظ وتذكر ملامح ذلك الرجل.. وتذكر أي تفاصيل قد تقودنا للقبض على من تسبب بتدمير مبنى الدوريات"

وغادر الغرفة بخطوات تدك الأرض دكاً.. بينما استلقى خالد على سريره وهو يزفر بضيق.. ما الذي عليه فعله الآن؟ لو حاول الذهاب لذلك المنزل مباشرة بعد خروجه قد يتنبه بعض الجنود لذلك ويبلغوا ستيفان، ولن يفوت ستيفان تفسير ذلك التصرف.. عليه أن يصمت ولا يتحرك بخطوات غير مدروسة.. فليرجئ هذا الأمر حتى تخفّ مراقبة ستيفان له، وبالنسبة لملامح الرجل، سيصف له ملامح أي شخص يذكره، ولن يتمكن ستيفان من إثبات أنه يكذب أبداً..

****

في الاجتماع المعتاد للثوار، والذي كان أغلبه يدور حول خطة محكمة للتخلص من ستيفان، قال أحد الثوار مقطباً "لقد أمضينا أياماً وأسابيع نبحث عن الوسيلة الملائمة للتخلص من ذاك الشيطان.. لكن لماذا تبوء خططنا كلها بالفشل قبل أن تبدأ؟"

قال هان "هذه خطوة كبيرة لنا في سِن.. فلم يسبق لنا استهداف أحد القادة في المدينة.. خطتنا الأولى بقتله بشكل غير مباشر بتفجير مبنى الدوريات لم يكتب لها النجاح.. يجب أن نفكر في طريقة مباشرة، دون أن يكون فيها خطورة كبيرة على رجالنا"

انبرى سيث ليقول "لا يمكن قتله مباشرة دون أن يخاطر أحدنا لتحقيق ذلك.. نحن نضع أرواحنا على أكفنا عند القيام بأي عملية اعتيادية، فلماذا نتردد الآن والهدف هو تحقيق أمنية غالية على سكان سِن كلهم؟"

التفت هان إليه متسائلاً "ألديك خطة ملائمة؟"

أجاب سيث وهو يهز رأسه "أعتقد أنه سيكون من المناسب استخدام الطريقة التي كنا نهرّب بها السجناء من سجون الغزاة، بأن ندفع الجنود للقبض على أحد رجالنا وإيداعه السجن.."

علق هان "كيف سيفيدنا هذا في القضاء على ستيفان؟ ثم إننا استخدمنا هذه الخدعة عدة مرات، ومن الأفضل ألا نعتمد عليها أكثر من ذلك.. لابد أن الغزاة سيحبطونها في المرة القادمة.."

مال سيث تجاهه مجيباً "حسناً.. يمكننا إجراء بعض التعديل عليها.. لم لا نضع المسؤول عن المهمة في وضع يجعل للجنود يقبضون عليه ويحرصون على حياته في الآن ذاته؟.. لو بدت لهم أهميته وأهمية ما يملكه من معلومات، فلن يصيبوه بضرر.. وبعد القبض عليه، سيطلب رجلنا من الجنود أخذه لستيفان.. يمكن أن يتذرع برغبته الاعتراف بكل شيء وخيانة الثوار، وهذا ما سيفعله الجنود لأن الذي سيقوم بالتنفيذ سيكون حاملاً لشعار الثوار ولن يفوّت ستيفان فرصة لقاءه.. وعندما يصبح رجلنا قريباً من ستيفان، يقضي عليه بحركة بسيطة وغير متوقعة"

قطب هان مفكراً وروباك يعترض قائلاً "وكيف سيفعل ذلك دون أن يملك سلاحاً وقبل أن يقتله الجنود؟ وحتى لو نجح، لن يسمح له الجنود بأن يخطو خطوة بعدها وسيُردونه قتيلاً.."

قال سيث دون أن ينظر إليه "أخبرتكم أن المخاطرة واجبة في هذه المهمة.. أما عن الطريقة، فأفضل الإفصاح عنها لهان فقط.."

ونظر لروباك مضيفاً "لا نريد أن يصل خبرها لستيفان قبل أن نحكم الخطة"

قطب روباك وهو ينظر في عيني سيث الحادتين، عندما قال هان "عملية خطيرة حقاً.. وتقع على عاتق رجل واحد.. فلو فشل، سيغدو الوصول لستيفان بعدها مستحيلاً.."

قال سيث بثقة "لن تفشل أبداً، صدقني.."

صمت هان وهو يقلب الفكرة في عقله بينما قال روباك "لست موافقاً على فكرة متهورة كهذه.. فلنخطط للأمر بروية ونضع خطة أقل خطراً.."

لم يعلق سيث على اعتراضه وهو يراقب هان في تفكيره.. وبعد وقت قصير، رفع هان بصره قائلاً "سأفكر بالأمر من كل جوانبه هذه الليلة، وأخبركم بقراري غداً صباحاً.."

ونهض من مجلسه مضيفاً لسيث "تعال معي لتخبرني بكل تفاصيل الخطة، حتى أستطيع الحكم عليها بشكل صحيح.."

نهض سيث خلفه بحماس، وقبل أن يغادر سمع روباك يقول بضيق "أنت مجنون.."

لم يعلق سيث وهو يغادر خلف هان بسرعة، وبقية الثوار يتفرقون وهم يتجادلون بين متحمس لفكرة سيث ورافض لها.. بينما بقي روباك في موضعه وهو مطرق وضيق شديد يرتسم على ملامحه دون أن يعبأ بإخفائه..

****

انهمكت ميا في إحصاء الإمدادات الطبية التي يملكونها في العيادة المصغرة وتجهيز قائمة بما يجب تعويضه.. كانت الغرفة في فوضى عارمة لم تهتم لها وهي تحك رأسها قائلة لرستين "أأنت واثق أننا نستطيع تعويض كل هذا؟ لقد استهلكنا الكثير مما نملكه هذا الشهر.. والعمليات التي يقوم بها رفاقنا تزيد ولا تنقص.. ربما علينا جلب أكثر مما نفعل عادة"

قال رستين وهو يرتب بعض الأغراض جانباً "لا نستطيع.. كل هذا يتم تهريبه، والأعين مسلطة على موردينا الرئيسيين، لذلك كل ما نستطيعه هو استيراد عدد محدود من الإمدادات من كل مورّد حتى لا ينكشف أمرهم ونخسرهم"

سمعت ميا في تلك اللحظة صوتاً في الممر دفعها لتترك ما بيدها وتسرع خارجة من الغرفة دون أن تنتبه لنظرات رستين المتعجبة، قبل أن يتنهد ويعود لعمله.. وفي الممر، رأت ميا روباك يقول لسيث "أأنت بكامل وعيك حقاً؟ ماذا تنوي أن تفعل؟ ولماذا تحيط ذلك بكل هذه السرية؟"

قال سيث بحدة "وما شأنك أنت؟ ما شأنك بما أفعله وما لا أفعله؟"

قال روباك مقطباً "أيغضبك أني أخشى عليك؟ أعلم أنك لم تحتفظ بسرية الأمر إلا خشية اعتراضنا عليه.. ما تفكر به هو جنون ولاشك.."

قال سيث بصرامة "المهم أن يأتي هذا الجنون بالنتيجة المرجوة.. وهان لم يعارض اقتراحي، فلا تتدخل وتجعله يغيّر رأيه.."

قال روباك بضيق "أتظنني سأصمت وأنا أراك....."

قاطعه سيث بحنق "أخبرتك ألا شأن لك بي.. ألا تفهم هذا؟"

وابتعد غاضباً وروباك يراقبه بصمت، ولما التفت رأى ميا تراقبه قرب باب العيادة، فقال "ما الممتع في ما رأيته لتبتسمي هكذا؟"

حاولت ميا إخفاء ابتسامتها وهي تغمغم بحرج "لم أظن أنه شيء ممتع.. لكن من المدهش أن أرى من يستطيع رفع صوته أمامك.. فأنت لك هيبة مرعبة بين الثوار ولذلك الكل يتجنب الدخول في نقاشات معك"

قال وهو يتفحص تعبيراتها "وهل تخافينني أنت أيضاً؟"

هزت رأسها بالنفي مجيبة "قطعاً لا.. لست أدري ما الذي يخيفهم منك، لكنني أراك شخصاً طيباً جداً.."

نظر إليها روباك بشيء من الاستنكار وعلق "هذه أول مرة يتم اتهامي فيها بالطيبة.."

ضحكت لتعليقه وقالت "وهل يسوؤك هذا؟"

غمغم روباك "قطعاً لا.."

فأضافت ميا "هل كان سيث يجادلك بسبب مهمة جديدة؟"

قال روباك "لا يخوّل لي الحديث عن هذا الأمر.. وأنت تفهمين ذلك.."

هزت ميا رأسها إيجاباً، ثم قالت "لكنني أتمنى أن ترأف بحال جسدك قليلاً، فقد أصبحت كالمصفاة المليئة بالثقوب.. كفّ عن الاستعراض أمام الغزاة وأنْهِ مهمتك في صمت"

قال وهو يغادر "هذا ما لا أستطيع ضمانه لأحد.."

صمتت ميا وهي تراقبه يبتعد، ثم عادت إلى الغرفة دون أن تلاحظ أن رستين يراقب الابتسامة على وجهها، حتى سمعته يعلق "هل اهتمامك بما جرى خارجاً هو بسبب جدالهما أم بسبب روباك فقط؟"

تطلعت إليه بدهشة قائلة بشيء من الارتباك "بسبب ما يجري طبعاً.. لمَ اعتقدت غير هذا؟"

أجاب دون أن يتطلع إليها وهو يعود لعمله "رغم أنك تحاولين مداراة هذا، لكن الابتسامة تشيع على وجهك فور أن يصل لسمعك صوت روباك.. كما أنك تتولين معالجته بنفسك بعد عودته من مهامه حتى بدأت أشك أنك أصبحت طبيبته الخاصة.. فهل تعتقدين أن كل هذا يخفى عليّ؟"

قالت مشيحة بوجهها وهي تتشاغل بعملها "أنت تعطي الأمر أكبر من حجمه.. أنا أستلطف وجود روباك حقاً لكنني أراه كالبقية، كرفيق لنا من الثوار يسعى للانتقام ممن قتلوا أبي.. وهذا ما يسعدني"

ابتسم رستين لقولها الذي لم يكن مقنعاً كفاية وقال "اسمعيني يا فتاة.. اصرفي النظر عن روباك، فهو قد كرّس حياته وروحه لأجل وطنه، ومهما طال الزمن بك وأنت قربه لن يراك أبداً.. وهذا بعد فترة من الزمن سيسبب لك ألماً شديداً أنت بغنىً عنه.. كما أن فارق السن بينكما لن يسمح له برؤيتك أكثر من مجرد فتاة صغيرة"

قطبت بضيق وهي تقول "لم يدُرْ ما تعنيه بخلدي أبداً.. فلا تتخيل أشياء ليس لها وجود.. وقطعاً لا تقل هذا لروباك"

وعادت إلى عملها بصمت بينما سكت رستين دون أن يعلق وهو واثق أن الرسالة التي أراد أن تسمعها قد وصلت إليها.. ويتمنى ألا يراها تتألم لخيار خاطئ اتخذته دون التفكير بالعواقب..

في تلك الأثناء، كان روباك يجتمع بهان في غرفة الأخير وهو يقول له بضيق "ما الأمر هذه المرة؟ سيث يتصرف بغرابة تامة، وأنت تشجعه على ذلك.. ما الذي تنتويانه فعلاً؟"

قال هان بهدوء "ما انتويناه منذ مدة طويلة.. القضاء على الشيطان.. وهذا ما ستفعلونه في مهمتكم القادمة بالتأكيد"

قال روباك بإلحاح "كيف؟ لماذا لم تخبرنا إلا بتفاصيل عائمة من الخطة؟ لماذا سيث هو الوحيد الذي يعلم بالأمر؟"

قال هان "لأنها خطته بالأساس.. وهو طلب مني الاحتفاظ بها سرية عن البقية.. لا تنسَ أننا لم نتخلص من الخائن بعد، ولا نريد كشف الخطة فيهرب منها الشيطان هذه المرة أيضاً.. محاولاتنا تغدو أكثر صعوبة في كل مرة نفشل فيها لو لم تلاحظ هذا"

قطب روباك وهو يشعر بعدم ارتياح لما يجري، لكن هان ربت على كتفه وقال ببساطة "لا داعي لأن تشغل نفسك بهذا الأمر.. وكن واثقاً بسيث كما كنت تفعل دائماً.."

زفر روباك دون أن يعلق بكلمة.. إنه لم يفقد الثقة بسيث أبداً.. لكنه يعرفه ويعرف تهوره الذي لا يعرف أي تعقل.. فكيف له أن يصمت على ما سيجري من جنون وهو يتوقع ذلك تماماً؟..

****

لم يستطع خالد الخروج من المستشفى قبل مرور عدة أيام على استيقاظه، ورغم ذلك كان بالكاد قد استعاد شيئاً من نشاطه وهو يشعر بجسده مفككاً وكأنه لا ينتمي له حقاً.. وقد رضي بالاستعانة بأيمن، بعد إلحاح من الأخير، ليعينه على العودة لغرفته في مبنى الدوريات الجديد بشيء من العسر..

وفي الغرفة، استلقى خالد بإنهاك على سريره وهو ينظر للغرفة الخالية تماماً من أي شيء يخصه، ثم غمغم بابتسامة مريرة "لقد احترقت كتبي.."

قال أيمن بسرعة "أهذا كل ما يهمك؟.. سأعيرك بعضاً مما عندي.."

زفر خالد وهو يعلق "لقد حفظت كتبك عن ظهر قلب كذلك.."

علق أيمن مبتسماً "في السابق، لم تكن تفعل في أوقات فراغك إلا القراءة والقراءة والمزيد من القراءة.. أما الآن فقد تغيرت تماماً.."

قال خالد وهو يعتدل "الكثير من الأمور قد تغيرت.. لكن لم يكن أيها للأفضل أبداً.."

تساءل أيمن وهو ينظر من النافذة "ألم يكن من الأفضل بقاؤك في المستشفى لأيام قليلة بعد؟ لابد سيجبرونك على العودة للعمل غداً.. كما أنك لم تخضع لما يكفي من العلاج الطبيعي لتستعيد لياقة جسدك بشكل تام"

أجاب خالد هازاً رأسه "لم أستطع ذلك.. لقد أرسل ستيفان للطبيب ليأمر بإخراجي.. يمكنك القول أنني قد طردت طرداً من المستشفى.."

غمغم أيمن بحنق "ذلك الوغد.."

فتأتأ خالد محذراً "انتبه.. حتى لو كنا نتحدث بالعربية، فأنا واثق أن ما نقوله يصل بالحرف له.."

نظر أيمن بدهشة لتفاصيل الغرفة قائلاً "أتظن أن المكان مراقب؟"

هز خالد كتفيه بدون أن يجيب، عندها قال أيمن "يحسن بي أن أغادر إذاً.. أخشى أن أثير غضبه فيتسبب بطردي من لواء النسور أيضاً"

فابتسم خالد معلقاً "شكراً لتعليقاتك الخالية من أي لياقة يا صديق.."

لوح أيمن بيده مجيباً "في أي وقت يا صاحبي.. استمتع بالنعيم الذي أنت به الآن.."

وغادر تاركاً خالد يبتسم وهو يراقبه.. أجمل ما في أيمن أنه لا يغلف معاملته لخالد بالشفقة، سواء أكانت ظاهرية أم مبطنة.. لابد أنه كان سيكره ذلك بشدة.. ورغم أن تعارفهما لم يبدأ إلا بعد قدومهما لكوكب كوميت، إلا أن صداقة سريعة نشأت بينهما وتوثقت أكثر مع الأيام، حتى غدا بالنسبة له كأخ أكثر منه كصديق..

في صباح اليوم التالي، كان خالد يستقل إحدى الدوريات التي تجوب الشوارع رغم تعب جسده الواضح.. ورغم ذلك، لم يهتم ستيفان برؤية الإجهاد على وجهه وهو يعيّنه في إحدى الدوريات التي ستقطع الحي الشرقي للمدينة..

ظل خالد صامتاً طوال الوقت يحاول الحفاظ على ما بقي من طاقته وهو يرجو ألا يضطروا للوقوف والسير في أزقة الحي مع ما في ذلك من تعب شديد له..

لمح خالد في سيرهم ذلك الجزء من الحيّ الذي سقط فيه بعد المواجهة القصيرة مع ذلك الرجل والتي تسببت في إفقاده لوعيه شهراً كاملاً.. ظل خالد يرمق الزقاق الممتد بين المنازل بصمت وهو يتذكر موقع ذلك المنزل بوضوح تام.. خروج ذلك الرجل في جنح الظلام بعد بدء حظر التجول معناه الوحيد أن أصحاب ذلك المنزل ممن يعاونون الثوار، أو هو ملك للثوار أنفسهم.. فهل تكون ميا هناك معهم؟ لا يدري لم يشعر أنها لا تزال معهم.. لا يزال معلقاً بأمل أن يعثر عليها لو بحث في ذلك الموقع، أو تتبع آثار الثوار.. لو لم تكن معهم، ولو ذهبت لموقع

آخر، فقد لا يستدل عليها أبداً..... لا.. لا يمكن أن تختفي من حياته بهذه الصورة.. لابد من وجود خيط يقوده إليها.. وهذا الخيط يبدأ عند الثوار، وينتهي عند ميا..

تنهد خالد وهو يدير بصره بعيداً عن ذلك الحي والمركبة تبتعد في سيرها عنه أيضاً.. ربما ما يكنّه لميا حقاً ليس حباً كما يحاول أيمن إقناعه، وكما قرر أنطونيو من قبل.. لكن لماذا تشغل تفكيره بهذه الصورة؟ لماذا لا يشعر بالأسف لكل ما حدث له وفكره منحصر بها؟ لم لا ينساها بعد كل تلك المدة التي مضت؟ أهو مجرد امتنان؟ أهو مجرد افتتان؟.. لا.. إن لم يكن هذا حباً، فهو لا يعرف ما هو الحب حقاً..

ورغم أنه بشوق للبحث عنها ورؤيتها من جديد، إلا أنه، كما عقد العزم سابقاً، لن يتحرك بأي حركة تثير ريبة ستيفان في هذه الأوقات.. عليه أن يصبر.. عليه أن يتحسس خطواته جيداً، حتى يتأكد أن ذلك الشيطان قد غفل عنه، وعندها لن يتوانى عن بذل كل ما لديه من وقت وجهد للبحث عنها.. وليراها، ولو لمرة أخيرة..

****

عندما استيقظت ميا في الصباح، استغربت وجود عدد كبير من الثوار يتناولون إفطارهم بشيء من الصمت في القاعة التي تتوسط المخبأ، وهو أمر نادر الحدوث.. إذ غالباً ما يكون الثوار في ذلك الوقت في نوم عميق بعد ليلة قضوها في إحدى العمليات المهمة أو في التخطيط لعملية قادمة..

رأت روباك يجلس جانباً بصمت ولا يبدو عليه النية بتناول أي طعام.. فاقتربت منه ميا وجلست قريبة متسائلة "ما الأمر؟ ألا تود تناول شيء؟"

بدا ساهماً وكأنه لم ينتبه لوجودها، ثم اعتدل في جلوسه مجيباً "لا.. لا أملك شهية لذلك اليوم"

تزايد استغرابها مع إجابته تلك، فسألته بشيء من القلق "ما الأمر؟ نهوضكم في هذا الوقت المبكر أيضاً أمر عجيب.. فهل حدث شيء؟"

قال روباك هازاً رأسه نفياً "لا.. سنخرج بعد قليل لأداء مهمة محدودة.."

أصابتها دهشة شديدة، وإزاء نظراتها المتسائلة، أضاف "المهمة هذه المرة تستدعي منا القيام بها في النهار.. وأرجو أن تسير كما خططنا لها دون مفاجآت"

قالت ميا بإخلاص "أرجو ذلك أيضاً.. وأرجوك، انتبه لنفسك هذه المرة"

لم يجبها أو ينظر إليها مما جعلها تدرك أنه مشغول الفكر بشيء يسبب له الضيق، فصمتت وهي تتأمل الرجال من حولها.. لا يبدو من تعابيرهم ولا من أحاديثهم المتفرقة أنهم ينوون الذهاب في مهمة خطيرة قد لا يعود البعض منهم منها حياً.. عادت ببصرها لروباك تتأمله بصمت ملاحظة التقطيبة التي علت جبينه.. بدا مشغول الفكر بشكل كبير، ولم تجرؤ على قطع الصمت لفترة طويلة مكتفية بالبقاء قربه وهي تخشى اللحظة التي سيغادر فيها في مهماته المعتادة.. ينقبض قلبها كلما حدث ذلك دون أن تدري سبباً لهذا، ويغزوها التوتر الذي لا يزيله إلا أن تنشغل بعملها لئلا تطيل التفكير في ذلك..

بعد فترة من الوقت، تجمع الرجال حول هان الذي كان يحدثهم بصوته الخفيض كعادته، بينما لم ينضم إليهم روباك للعجب وهو يطرق ويزفر بضيق شديد.. فتساءلت ميا بصوت خافت "أهناك ما يزعجك فيما يخص العملية التي أنتم مقدمون عليها؟"

غمغم روباك "لا تشغلي نفسك بي.."

ضايقتها تلك الجملة بقدر الحزن الذي ملأها من معناها.. ألهذه الدرجة يسوؤه اهتمامها به؟ أم أنه يكره الاهتمام بكل أشكاله ومن أي شخص كان؟.. شعرت بالحزن تجاه العزلة التي يعيش فيها روباك.. ويبدو لها أن عزلته تلك اختيارية، وكأنه يصدّ أي محاولات للتقرب منه من أي شخص..

راودتها رغبة مفاجئة بمعرفته أكثر، فسألته دون تردد "ألك أهل يا روباك؟ أين هم؟ لا أسمعك تذكر أياً منهم في أي وقت ولم أرك مطلقاً تغادر لتعود إليهم كما يفعل البقية.."

نظر لها بشيء من الدهشة وقال "لم تسألين؟"

ابتسمت مجيبة "مجرد فضول.."

صمت للحظات وهو يراقب الجمع المتحلق حول هان، مما جعل ميا تشعر أنه ربما استاء من فضولها، فغمغمت "آسفة إن كان سؤالي قد أزعجك.."

لكنه قال فجأة "عائلتي تعيش في قرية صغيرة تبعد أميالاً عن سِن.. في الواقع ليس في عائلتي إلا أبي وأمي.. فأنا وحيدهما، وهما كبيران في السن ويعيشان من مدخول مزرعة صغيرة يملكانها.."

تساءلت بشيء من العجب "وما الذي جاء بك من ذلك المكان لتنضم للثوار في سِن؟ وكيف تركت والديك وحدهما مع كبر سنهما؟"

أجاب "كنت قادماً في عمل للمزرعة بعد حدوث الاحتلال بمدة، ولم نكن نشعر بآثار الاحتلال في تلك القرية بتاتاً عدا عن بضع أخبار متفرقة.. وهنا، شاهدت عدداً من الأعمال البغيضة التي يمارسها الغزاة ووجدت نفسي طرفاً في أحدها دون ذنب.. لكنني لم أطِق ما أراه ولم أتحمل غليان دمي لهذا الظلم البيّن.. لذلك وجدت نفسي مندفعاً في اشتباك مع دورية للجنود، كادت تنتهي بقتلي بعد أن نجحتُ بقتل اثنين منهم.. ولم ينقذني من الموت إلا بعض الثوار الذين صدف وجودهم في تلك المنطقة لحسن حظي.."

ونظر لميا مضيفاً "أحدهم كان أباك.."

اتسعت عيناها بدهشة وهو يكمل "وبعد إلحاحي، أخذوني لرئيس الثوار، هان.. ولم أتردد كثيراً في الانضمام للثوار منذ ذلك الوقت حتى الآن"

تساءلت بعد برهة صمت وتردد شديد "ألست متزوجاً؟"

هز روباك رأسه نفياً وقال "لا، لحسن حظي.. فما كنت لأستطيع الانغماس في الثورة لو كانت لدي عائلة عليّ الاهتمام بها.."

نظرت له ميا بصمت وهي بدهشة من الراحة التي اعترتها لهذا الجواب، ثم تساءلت محاولة إبعاد تفكيرها عن ذلك الشعور "ألم تعد لوالديك قط؟"

خفض رأسه مجيباً "لا.. لم أجرؤ على العودة بعدما فعلته، فقد طلب مني أبي مراراً ألا أقع في أي مشاكل مع الغزاة قبل قدومي إلى سِن.. وقد خالفت كل ذلك ببساطة تامة.."

غمغمت ميا مشفقة "لكن، لابد أنهما قلقان عليك جداً.. كم مرّ على غيابك؟ عدة سنوات؟.. ربما ظنّاك قد متّ.. ألا تشفق عليهما من هذا؟"

قال وهو ينظر إليها "لقد أرسلت لهما من يخبرهما بأني انضممت للثوار، وبأني لن أعود حتى يستعيد كوميت حريته.. هذا كل ما استطعت فعله"

ظلت ميا تفكر في أمر والديه وهي مشفقة.. ألم يحزنا لغيابه؟ ألن يفتقدا وجوده؟ ألن يخشيا اللحظة التي يفقداه فيها وهو كل ما يملكانه؟ لابد أنهما كذلك، ولابد أنه أيضاً بشوق لرؤيتهما.. فلماذا؟..

نقلت سؤالها إليه قائلة "لماذا لم تعد إليهما منذ مغادرتك؟ أنا متأكدة أنهما بشوق لرؤيتك وفي خوف شديد مما قد يحدث لك"

تنهد قائلاً "لم أستطع ذلك.. لقد آليت على نفسي ألا أنشغل بشيء عن القضية التي تملأ فكري.. تحرير كوميت هو هدفي الوحيد، وهو ما يشغل أيامي ليلاً نهاراً.. وبعد أن يتحقق ذلك، وأنا واثق منه، عندها يمكنني أن أعود إليهما ليفرحا بالنصر الذي حصلنا عليه"

قالت ميا مشفقة "لكنك تظلمهما بذلك"

غمغم معلقاً "ألا تظنين أنني أظلم نفسي بذلك أيضاً؟"

تطلعت في عينيه وهي ترى حزناً دفيناً فيهما، أبت ملامح وجهه أن تفصح عنه وهو يتحلى بهدوئه المعتاد.. ودت ميا لو تمد يدها وتمسح ملامح الحزن من عينيه.. لو تمسك بيديه وتمنحه دفء الصحبة ولو للحظات قليلة، لعلها تراه يبتسم بصدق ولو لمرة واحدة وهو الذي لا تراه إلا وهمّ جليّ على وجهه..

لكن روباك لم يدرك أياً من هذا وهو يستجيب لنداء سيث وينهض ليتركها تراقب ابتعاده بصمت.. لم تجد في نفسها القدرة على مناداته لتطلب منه أن ينتبه لنفسه كما تفعل عادة.. شعرت أن صوتها سيحمل انفعالاً ومشاعر لم تجرؤ على التصريح بهما لنفسها حتى.. لذلك فضلت الصمت وهي تراقبه ورفاقه وهم يغادرون المخبأ.. وابتلعت توترها وقلقها محاولة شغل نفسها بأي شيء عدا التفكير فيما هم مقدمون عليه..

****

الفصـــل التاسع

بعد منتصف النهار، عبرت تلك المجموعة من الرجال الملثمين، والذي لا يتجاوز عددهم العشر، الطرقات التي تقطع أحياء مدينة سِن بصمت تام وخطوات متسللة.. ورغم ازدحام الشوارع بالسكان المحليين، إلا أن أحداً منهم لم يعبأ بذلك وهم يعبرون الشوارع والأزقة بصمت..

وبعد أن عبروا عدة أحياء، وقد اقتربوا من جانب الحي الغربي للمدينة، وقد تبدّت لأعينهم على مبعدة منطقة وسط المدينة حيث يربض جيش الغزاة بمبانيه المتعددة، توقف اثنان منهما وهما يتلفتان حولهما للحظات، ثم قال أحدهما للآخر "هذا هو الموقع.. سنبدأ خلال لحظات"

قال الآخر بشيء من القلق "أأنت واثق أنك تريد المضيّ في هذه العملية الخطرة؟ يمكننا الانسحاب الآن قبل أن تتدلع الأحداث هنا"

قال الأول بشيء من العصبية "لم يعد هذا وارداً.. أخبرتك ألا فائدة مما تقوله.."

وانطلقا بصمت تام مخترقين أزقة ذلك الحي وقد تفرقا عن رفاقهم.. وفي تلك الأثناء، وقفت إحدى الدوريات قرب أحد أزقة ذلك الحيّ على مبعدة من الموقع السابق وقائدها يرفع تقريراً لقيادته بكل ما جرى في هذا النهار، بينما هبط جنود الدورية من المركبة وهم يقفون قريباً منها بأسلحتهم يراقبون المارة من المحليين والذين كانوا يحاولون الإسراع في خطوهم والابتعاد عن الدورية قدر الإمكان.. فقال قائد الدورية عبر جهاز الاتصال "من الدورية السابعة عشر إلى مركز المراقبة.. كل الأمور مستتبة ولا أثر لأي شغب أو مخالفة.. سنقوم بجولة أخرى بعد وقت قصير وسأرفع تقريري بعدها.."

ظل يستمع لجهاز المراقبة بصمت، بينما لكز أحد الجنود رفيقه وهو يشير لبداية الشارع الذي يقفون فيه، حيث بدا رجل من المحليين يركض تجاههم بشكل حثيث.. ولما اقترب من الدورية ارتفعت الأسلحة في وجهه وأحد الجنود يهتف به "قف مكانك.."

توقف الرجل على الفور وهو يهتف "مهلاً.. لا تطلقوا النار.."

اقترب منه أحد الجنود متحفزاً بسلاحه والرجل رافع يديه، ثم قال بصوت هامس عندما اقترب منه الجندي "أنا العميل ثلاثة.."

لم يعلق الجندي وهو يفتشه جيداً، ثم دفعه ليقترب من الدورية والقائد يهبط منها قائلاً بصرامة "من أنت؟ وما الذي تريده؟"

اقترب منه الرجل لاهثاً وقال محاولاً تمالك أنفاسه "أنا العميل ثلاثة.. هناك أمر أردت أن تعرفوه.."

وأشار لجهة ما خلفه قائلاً بعينين متسعتين "هناك منزل خالٍ في جانب هذا الحي.. وقبل قليل، رأيت خمسة رجال ملامحهم وتصرفاتهم مريبة يدلفون المنزل، فتبعتهم على الفور بعد أن لاحظت أنهم جميعاً يحرصون على إخفاء أعناقهم.."

ارتفع حاجبا القائد وقد أبدى اهتماماً، فأضاف الرجل "لقد تنصت عليهم.. كانوا يحيطون برجل بينهم، وسمعتهم يتهمونه بالخيانة.. ويبدوا أنهم ينوون إعدامه في المنزل جزاء خيانته.."

قال القائد مقطباً "ولماذا هنا؟"

قال الرجل بشيء من العصبية "لا أدري.. أسرعوا إن أردتم القبض عليهم قبل هربهم.. ولو استطعنا إنقاذ ذلك الرجل من أيديهم فلاشك أنه سيكون ذا فائدة عظيمة لكم بعد أن قرر رفاقه قتله.."

بإشارة من القائد، انطلق الجنود الأربعة خلف الرجل الذي ركض عائداً من حيث أتى، بينما رفع القائد تقريره بكلمات سريعة قبل أن يقبض على سلاحه وهو يتبع جنوده عبر ذلك الشارع، ثم اخترقوا الحي عبر زقاق ضيق قادهم لمنطقة مهملة من الحي وفي جانبها رأوا منزلاً قديماً يبدو مهجوراً مع علامات الإهمال الواضحة في بابه الخشبي المخلوع ونوافذه المحطمة.. فقال القائد لرجاله قبل أن يقتربوا من المنزل "سنحيط بالمنزل ونقتحمه مع إشارتي.. لا تدعوا أحداً منهم يفلت.. وحاولوا أن تحافظوا على حياة ذلك الرجل قبل أن يقتلونه.."

انطلق الجنود بصمت تام يحيطون بالمنزل الذي بدا خالياً تماماً من الخارج، بينما قال العميل لقائد الدورية "يحسن أن أبتعد لئلا يراني الثوار ويكشفوا تعاوني معكم"

لم يعترض القائد وهو يتقدم من المنزل بدوره بصمت مع الجنود.. ولما أعطاهم إشارة البدء، اقتحم الجنود المنزل من أبوابه الأمامية والخلفية ومن نوافذه الجانبية المحطمة وهم يفتشون غرفه بسرعة ومهارة.. ووسط المنزل، رأى الجنود عند اقتحامهم الرجال الأربعة يحيطون برجل آخر يركع وسطهم والرعب يبدو على وجهه من الأسلحة التي وجهها الآخرون إليه.. وما إن دخل الجنود، حتى ارتفعت الأسلحة في وجوه الرجال وتطايرت الأشعة بغزارة، لكن الرجال سارعوا للاحتماء بالأثاث المهمل القريب دون أن تصيبهم الأشعة إلا بإصابات متفرقة.. وسرعان ما دوّت الرصاصات والرجال يبادلون الجنود إطلاق النيران.. أما الرجل الذي كان راكعاً، فقد نهض بسرعة وركض محني الظهر بعيداً عن الإطلاق محاولاً الهرب من أقرب نافذة مستغلاً هذه الفرصة.. لكن قائد الدورية قبض عليه قبل أن يفلح في ذلك وجرّه بعيداً عن الإطلاق قائلاً "ليس بهذه السرعة يا هذا.."

رفع الرجل يديه برعب وهو يرمق سلاح القائد الموجه إليه، وقال بذعر "هل ستقتلني أنت أيضاً؟"

لم يعلق القائد وهو يقيد يديه خلف ظهره بينما الإطلاق مستمر في وسط المنزل.. ثم فوجئ الجنود بأحد الثوار يلقي عليهم قنبلة صغيرة انفجرت بقوة محدودة مثيرة سحابة من الغبار والشظايا تتناثر في مساحة محدودة من الموقع.. إنما كان تأثيرها محدوداً فلم يصب الجنود الذين احتموا من انفجارها بأي ضرر يذكر..

ظل الجنود متحفزون وهم يراقبون الموقع، ولما انقشعت سحابة الغبار من وسط المنزل، رأوا الموقع خالياً من أي رجل.. فركض الجنود بإشارة من قائدهم محاولين تتبع الثوار الذين استغلوا تلك المعمعة الصغيرة للهرب من المنزل من نوافذه القريبة.. بينما قال القائد عبر جهاز الاتصال "نريد مساندة من الدوريات القريبة في الحي الغربي.. عثرنا على أربع من الثوار تمكنوا من الإفلات من أيدينا.. أريد محاصرة الحي والبحث عنهم في أرجائه.."

جاءه الرد عبر الجهاز "سأرسل لك ثلاث دوريات هي الأقرب إليكم.. حاولوا ألا تدعوهم يفلتون.."

أنهى القائد الاتصال وهو ينهض الرجل الذي ركع أرضاً عند الانفجار، فقام بتفتيشه من فوق ملابسه بشكل سريع ليتأكد من أنه خالٍ من الأسلحة والرجل يغمغم بذعر "ما الذي ستفعلونه بي؟"

لم يجبه القائد وهو يكشف جانب عنقه ليرى ذلك الشعار مستقراً هناك.. فقطب القائد متسائلاً "لم حاول الثوار قتلك؟"

كان الخوف ممزوجاً بالتوتر يبدو جلياً على وجه الرجل، ثم قال بقلق "لقد اتهمونني بأنني خائن.. وكانوا ينوون إعدامي لولا قدومكم قبل لحظات"

فقال القائد وهو يقوده أمامه خارجاً من المبنى "ولماذا في هذا المنزل الخالي؟"

قال الرجل بعصبية "ليتخلصوا من جثتي بعيداً عن المخبأ، الأوغاد لم يهتموا بحياتي البتة"

قال القائد وهو يعود به نحو مركبة الدورية "إذن من حسن حظك أننا عثرنا عليك قبل ذلك.."

لم يعلق الرجل وهو يتلفت حوله بقلق شديد.. ولما وصل القائد للمركبة تلقى اتصالاً من أحد جنوده قائلاً "لقد أفلت الرجال من بين أيدينا.. لكن اثنان من الرفاق يلاحقان بعضهم وقد يتمكنون من القبض عليهم ببعض المعاونة"

فقال القائد "بعض الدوريات قادمة للمساعدة.. حاصروهم ولا تفلتوهم هذه المرة.."

ثم دفع الرجل ليصعد المركبة وقام بتقييده فيها لئلا يتمكن من الهرب، فقال الرجل بقلق "ماذا ستفعلون بي؟"

قال القائد وهو يميل نحوه "هذا مرهون بتعاونك معنا.. هل تريدنا أن نقتلك لأنك من الثوار؟ أم تريد أن نطلقك ليقوم الثوار بذلك؟"

اتسعت عينا الرجل برعب، فابتسم القائد وهو يقول "لو تعاونت معنا، فنحن نضمن حمايتك.. لن نمكّن الثوار من النيل منك، وأنا متأكد أن القائد ستيفان سيجازيك بأكثر مما تتوقع.."

بدت اللهفة واضحة على عيني الرجل دون أن يعلق.. عندها قال القائد بصرامة "أين مخبأ الثوار؟ أريدك أن تدلنا عليه، وعلى أي مواقع أخرى يستخدمونها.."

خفض الرجل رأسه بتوتر شديد، فقال القائد مقطباً "لو تمكنا من القضاء على الثوار، فسيعني هذا أنك ستكون بمأمن منهم.. أليس كذلك؟"

رفع الرجل رأسه بعد بعض التفكير وقال للقائد بلهفة "أريد رؤية القائد ستيفان.."

رفع القائد حاجبيه بدهشة قبل أن يقطب قائلاً "لن يحدث ذلك قبل أن تتعاون معنا.. أخبرنا ما نريد معرفته، وستحصل على كل ما تريده"

قال الرجل بإصرار "لن أتحدث إلا بوجوده.. خذني إليه وسأخبركم بكل ما تريدونه"

رفع القائد سلاحه ووضعه على عنق الرجل قائلاً بحدة "أتجرؤ على ما تقوله؟ يمكنني قتلك هنا والآن"

قال الرجل دون أن يتراجع "أنت الخاسر لو فعلت.. لكنني لن أربح شيئاً لو تحدثت هنا فما يدريني لعلك تقتلني بعدها.. أريد مقابلة القائد ستيفان، لن آخذ إلا وعده بحمايتي، وعندها سأتحدث بكل شيء.."

ظل القائد ينظر له بغيظ، ثم تناول جهاز الاتصال وتحدث عبره دون أن يفهم الرجل شيئاً وهو يتلفت حوله ملاحظاً بعض الرؤوس التي تبدت فوق أسطح المنازل القريبة.. لكنه لم يعلق والقائد يلتفت إليه قائلاً بصرامة "سآخذك لمبنى الدوريات، لكن لن تكون نهايتك سعيدة لو رفضت التعاون معنا بأي شكل من الأشكال"

لم يعلق الرجل وهو يرى جنديين من الجنود يعودان ليصعدا المركبة مع القائد، الذي قاد المركبة مبتعداً عن الحي الغربي ومتجهاً لمبنى الدوريات الذي كان على شيء من المبعدة، تاركاً لبقية جنوده أمر ملاحقة الثوار..

وفي موقع قريب، فوق سطح أحد المنازل المطلة على ذلك الشارع، اقترب أحد الثوار بسرعة وبرفقته رجل لم يكن إلا العميل ثلاثة من روباك الذي ربض فوق المنزل يراقب الدورية في ابتعادها، وقال العميل "لقد ابتلعوا الطعم بسهولة.."

فقال الرجل الآخر "لقد نجح رفاقنا في الإفلات دون إصابات خطيرة.. الآن علينا التراجع للمخبأ كما تقتضي الخطة.."

صمتا ملاحظين النظرات القلقة التي يلقيها روباك على مركبة الدورية، فتساءل الرجل "وأنت.. ما الذي ستفعله؟"

سمع روباك يغمغم بقلق "هذا خطأ.. ما نفعله خطأ.."

رفع الرجل حاجبيه وهو يبادل العميل تساؤلاً صامتاً، لكن روباك نهض فجأة شادّاً بيده على سلاحه وقال "أنا لن أتركه يذهب وحيداً.."

قبض الرجل على ذراعه قبل أن يذهب وقال بقلق "ما الذي ستفعله؟ التزم بالخطة لئلا نخسر كل شيء.."

قال روباك مقطباً "تراجعوا أنتم إلى المخبأ.. أنا سأذهب إلى هناك لأرى ما سيفعله ذلك المجنون.."

اعترض العميل "لكنك تعارض أوامر هان.. لن يكون سعيداً بهذا.."

قال روباك بحزم "لا يهمني.. تراجعوا أنتم ولا تتدخلوا في الأمر.."

قال الرجل الآخر بإصرار "مستحيل.. إن كنت ستفعل شيئاً، فنحن معك.. بدأنا هذه المهمة معاً وسننهيها معاً"

فغمغم العميل "بودي أن أكون معكم حقاً.. لكن هان أصرّ عليّ ألا أكشف نفسي أبداً.."

زفر روباك بحدة وقلق، لكنه لم يعلق وهو يستدير مغادراً الموقع والرجل في إثره بشكل حثيث..

****

في مبنى الدوريات، وفي القاعة الصغيرة التي يؤدي إليها مدخل المبنى، تأمل ستيفان ملامح الرجل الذي تم القبض عليه، وقد قدم للقائه فور أن أبلغوه بوصوله للمبنى.. لم يكن ذلك الرجل إلا سيث الذي وقف بصمت وستيفان يتأمل الوشم على عنقه وابتسامة ظفر تعلو شفتيه وهو يقول بلغة أهل كوميت "أخيراً، أمسكنا بأحد أولئك الأوغاد.."

قال سيث وقد زالت كل ملامح القلق والذعر من وجهه "ألم تعدني بالحماية؟"

قال ستيفان بهزء "حمايتك؟ لأجل ماذا؟"

ومال تجاهه وهو يقول بسخرية ‘‘أنت ستخبرني بكل ما أريد معرفته وأنت صاغر.. لا يهمني ما سيجري لك، قدر اهتمامي بما تحمله من معلومات..’’

بادله سيث النظرات الساخرة قبل أن يقول "ستظل وغداً لآخر لحظة في عمرك.."

اتسعت ابتسامة ستيفان وهو يعلق "قل ما يحلو لك.. سنرى ما ستقوله بعد الاستجواب الذي ستخضع له.."

لم تبدُ على ملامح سيث أي لمحة قلق أو توتر، بينما استدار ستيفان لمن خلفه من الجنود مضيفاً "ألم تقبضوا على البقية بعد؟"

أجاب قائد الدورية الذي وقف قريباً ‘‘لقد تمكن الجنود من القبض على بعضهم.. إنهم هنا.."

دار سيث ببصره حوله يدرس الموقع الذي هو فيه دون أن يفهم حديث ستيفان مع الجندي.. وعندما سمع أصواتاً من خلفه، استدار ليفاجأ ببضع جنود يجذبون بقية الثوار ومن بينهم روباك، وبدا له من ملامح روباك الهادئة رغم القلق فيها أنه قد تعمد الوقوع في أيديهم.. فقطب سيث بسخط وهو يفكر بوضعه الجديد.. كان من المفترض أن ينفذ الجزء الخاص به من الخطة وحيداً، ولم يكن من المفترض بالبقية أن يكونوا هنا في تلك الأثناء.. الخطة كلها تعتمد عليه بشكل جذري دون الحاجة لوجود آخرين، وقد كان حظه حسناً عندما وافق ستيفان على لقائه بهذه السرعة.. لكن الآن، غدت الأمور أصعب مع وجود البقية قريبين منه..

نظر روباك بتوتر لسيث الذي أدار بصره نحو ستيفان مجدداً ليسمعه يقول "إذن؟ ماذا لديك بعد لتخبرنا؟.. لا تنس أنني أملك غيرك الكثير، لذلك حياتك لا تهمني الآن حقاً.."

صمت سيث محدقاً في عيني ستيفان ببغض شديد، ثم قال وابتسامة ترتسم على شفتيه "أنت ستموت ككلب قذر الليلة"

ضحك ستيفان ضحكة مجلجلة تردد صداها في القاعة قبل أن يقول "ومن سيكون له شرف قتلي؟ أنت أيها الحقير؟ وستفعل ذلك بيديك العاريتين؟"

تسللت يد سيث لثيابه، فسارع أحد الجنود القريبين يشهر سلاحه في وجهه صائحاً ‘‘أبعد يدك ولا تأت بحركة"

تجمد سيث في مكانه للحظة، بينما رفع ستيفان يده للجندي قائلاً ‘‘ألم تفتشوه جيداً قبل إحضاره؟"

قال قائد الدورية ‘‘بلى سيدي.. تأكدنا أنه خالٍ من أي سلاح"

فقال ستيفان وابتسامة تتلاعب على شفتيه ‘‘إذن اتركوه.. فليبهرني بما ينوي فعله"

علق سيث وهو يفتح معطفه الغليظ ‘‘مشكلتك أنك أحمق، وتثق بحمقى مثلك"

نظر له ستيفان بنظرة هازئة وسيث يكشف ما تحت معطفه، ففوجئ ستيفان بأن سيث كان يحمل عدداً من القنابل يدوية الصنع حول جسده، قنابل تم صنعها مسطحة قدر الإمكان بحيث لا تبدو بارزة وقد لفها سيث بغطاء سميك من الأقمشة تحت معطفه بحيث لم تبدُ بوضوح للجندي الذي قام بتفتيشه من فوق الملابس، ولا يظهر منها إلا جزء بسيط من رأسها.. ولما رأى روباك من موقعه القنابل، اندفع متخلصاً من الجنود قربه هاتفاً "سيث.. لا تفعل"

سمع سيث يقول ‘‘سامحوني يا رفاق.."

رأى ستيفان يتراجع خطوة وقد اتسعت عيناه بهلع بعد أن رأى ما يحمله سيث حول جذعه، والجنود يتراجعون بدورهم وهم يرفعون الأسلحة في وجهه في محاولة لقتله قبل أن يفعل أي شيء، لكن سيث لم يمهلهم وهو يضغط في يده على جهاز صغير وابتسامة ظافرة تبدو على شفتيه.. وفي جزء من الثانية، دوّى ذلك الانفجار الكبير في موقع سيث والذي أطاح بستيفان وعدد كبير من الجنود القريبين منه، ودفع بالعديد ممن حوله للخلف أمتاراً، وتسبب بتحطيم الأثاث القريب وقطع منه تتطاير لتصيب من كان قريباً منها..

انتشرت بعدها سحابة من الدخان غطت القاعة كلها بحيث أصبحت الرؤية عسيرة، و ساد شيء من الهدوء إلا من بعض الأنين الصادر ممن أصابهم الانفجار بجراح مختلفة.. نهض روباك بعسر شديد بعد أن أوقعه الانفجار أرضاً، ومد يده لجانب وجهه الأيسر يمسكه بألم شديد منثنياً على نفسه بينما اقترب منه أحد الرجال هاتفاً "أنت بخير يا روباك؟ لنهرب قبل أن يمنعنا الجنود.."

سمعا هسيس الأشعة من خلفهما وصياحاً متألماً عندما أسرع الثوار بالاستيلاء على بعض الأسلحة للقضاء على من بقي من الجنود في تلك القاعة.. لكن روباك لم يعلق محاولاً تمالك ألمه، ولما دقق الرجل في إصابته التي أكلت جانباً من وجهه حول عينه اليسرى والدماء تغرق ذلك الجانب بسخاء، قال بصدمة "تباً.. ما الذي فعل بك ذلك؟"

غمغم روباك مقاوماً الألم العارم "شظية أصابت وجهي أثناء الانفجار.."

قال الرجل بقلق "وعينك؟ أهي بخير؟"

أجاب روباك بعد لحظة صمت "لا.. يبدو أنها انتهت تماماً"

علت الصدمة وجه الرجل فيما نظر روباك حوله بعينه السليمة للمعمعة التي حدثت.. للأجساد التي فقدت أرواحها.. للدماء.. للأشلاء المتناثرة.. وقال بمرارة وألم شديدين "اللعنة.. لماذا فعل هذا؟"

رأى جسد ستيفان الغارق في دمائه ووجهه الذي تغيّرت ملامحه بشدة ملقى بين الأشلاء، لكنه للعجب لم يسعد لهذا المنظر الذي كان يحلم به منذ زمن طويل.. كيف يسعد به مع من فقده في سبيل تحقيق ذلك؟..

أعانه الرجل على السير مبتعدين عن الموقع وهو يقول بتوتر "يجب أن نرحل بسرعة.. من الجيد أن إصابات بقية الرجال سطحية"

لكن عدداً من الجنود قد اقترب من القاعة بعد أن جذبه صوت الانفجار.. فسارع من بقي حياً وسليماً من الثوار بالإحتماء بالأثاث المحطم والمتناثر في المكان وهم يتبادلون إطلاق النيران مع الجنود قرب مدخل المبنى بعد أن استعادوا أسلحتهم التي استولى عليها الجنود سابقاً.. وفي الجهة الأخرى من القاعة المؤدية للطوابق العلوية من المبنى تجمع المزيد من الجنود مما أوقع الثوار الذين لا يتجاوز عددهم الستة في وسط المعركة والجنود من الجهتين يهددون بالقضاء عليهم مع اقتراب المزيد من الجنود بين لحظة وأخرى.. اختبأ روباك بدوره خلف طاولة حديدية كبيرة حمته من الأشعة وهو عاجز عن فعل شيء مع الدماء التي تغرق وجهه والألم الذي يعصف برأسه، بينما الرجل جواره يطلق النيران بعشوائية على الجنود البعيدين.. همس روباك بمرارة وغصة تسدّ حلقه "لماذا فعلت ذلك يا سيث؟ لماذا يجب أن تكون النهاية بهذه الطريقة؟"

سمع الرجل قربه يقول بتوتر شديد "إن لم نفلح بالهرب بسرعة فسيقضي علينا الجنود.. كل دقيقة تمضي تعني قدوم المزيد منهم"

زفر روباك محاولاً تمالك آلامه، ثم قال "استخدموا المتفجرات لتشقوا طريقكم بينهم.. هذا هو السبيل الوحيد"

تساءل الرجل بدهشة "ومن أين لنا بالمتفجرات؟"

قال روباك وهو يقطع جزءاً من ملابس جندي قريب "ألا تعلم أن أسلحة الجنود هي عبارة عن قنابل محدودة؟"

نظر له الرجل بدهشة وروباك يربط جرحه بشكل مؤقت مضيفاً "مخازن الطاقة التي يحملها السلاح تنفجر إذا تعرضت لطلقة دقيقة من رصاصاتنا.. يمكننا أن نعمل في هذا الاتجاه"

تساءل الرجل بدهشة "كيف عرفت بذلك؟"

أجاب روباك "لقد قمت سابقاً بتجربة على أسلحة بعض الجنود التي استوليت عليها بحثاً عن الطريقة المناسبة لتعطيلها.. وعندما أصبت خزانها انفجرت في وجهي، وأعطتني هذا الجرح في جبيني"

فقال الرجل وهو ينظر للجنود الذين يبادلون رفاقهم إطلاق النار "لكن كيف يمكننا تطبيق ذلك؟ الجنود مختبئون جيداً.. كيف سنصل لمخازن الطاقة بدقة من هذا الموقع؟"

قال روباك "لدينا ما يكفينا هنا"

وتسلل متخذاً الأثاث القريب كغطاء، والتقط أسلحة بعض الجنود ممن قضوا نحبهم في الانفجار.. وبعد عودته، قال لرفيقه ولرجل آخر من الثوار كان يقبع قريباً منهما "سأرمي هذين السلاحين أرضاً نحو الجنود، عند المدخل وفي الخلف.. أريدكما أن تصيبا مخزن الطاقة بدقة قبل أن ينتبه الجنود.. هل يمكنكما ذلك؟"

غمغم أحد الرجلين متردداً "أنت أمهر مني في ذلك.. قد أخطئ التصويب وأفوّت فرصة ثمينة"

قال روباك "يجب أن تكون واثقاً.. أنا لا أستطيع التصويب بدقة وأشعر بزغللة قوية في بصري مع هذه الإصابة.. ابذلا جهديكما"

استعد الرجلان بسلاحيهما، عندها رمى روباك أحد الأسلحة بقوة تجاه الجنود المتحفزين خلفهم، ثم رمى الآخر نحو المدخل وهو يهتف برفيقيه "الآن.."

لم يستوعب الجنود ما يفعله روباك برمي السلاحين اللذين تزحلقا حتى اقتربا من من أقدامهم، بينما أطلق الرجلين رصاصاتهما نحو خزان الطاقة في كل سلاح.. ومع الرصاصات المتناثرة، نجحت إحداها في إصابة الخزان في كل سلاح بدقة، فانفجر السلاحان بدوي محدود مطيحاً بالجنود القريبين بإصابات متفاوتة مع سحابة من الدخان غطت بقعة لا بأس بها من كل موقع.. ومع الانفجار، صاح روباك برجاله "الآن شقوا طريقكم بينهم.. وفور الخروج من المبنى تفرقوا في أحياء المدينة ولا تسلكوا طريقاً واحداً"

لم يتمهل الرجال في تنفيذ أمره وهم يستغلون البلبلة التي حدثت بسبب الانفجار المحدود.. فأسرعوا يتخطون المسافة القصيرة بين الجنود الجرحى وهم يطلقون النار على من يقف في طريقهم.. وأسرع الرجل القريب من روباك بمعاونته على الخروج من المبنى وهو شاهر سلاحه تحسباً لأي هجوم من الجنود..

وبعد معركة صغيرة بين الجنود ومن تقدم من الثوار، كان الثوار قد أفلحوا بالهرب من المبنى قبل وصول أي

إمدادات من الجنود قد يعيقون هربهم.. فتركوا ما خلفهم من دمار أحاق بالمبنى والجنود، وذابوا وسط أحياء المدينة التي أخفتهم ببراعة.. وقد بدأ الليل ينشر عباءته المظلمة على الموجودات، مسجلاً نصراً جديداً للثوار، رغم ما شاب ذلك النصر من تضحيات لا تعوّض..

****

شعر خالد في غرفته باهتزاز قوي رجّ المبنى بأكمله مما دفعه ليعتدل في سريره وهو ينظر حوله بصدمة.. لم يكن ذلك إلا نذيراً سيئاً.. فأسرع ينظر من النافذة ليرى تدافع الجنود نحو مدخل مبنى الدوريات حيث بدأوا إطلاق النيران، على أشخاص داخل المبنى لا خارجه، مما زاد من تعجب خالد أكثر.. أسرع يحمل سلاحه ويركض خارجاً من الغرفة لينزل درجات السلم المؤدية للأسفل ركضاً وهو يغمغم "يبدو أن كارثة قد حدثت في المبنى.. ولابد أن الثوار هم خلف ذلك"

نوعاً ما شعر بالحماس لمقابلة أحد من الثوار، متغافلاً عما قد ينتج من وراء مقابلة كهذه خاصة في هذه الأجواء.. ولما وصل للأسفل وتوجه لموضع الانفجار، راعه ما رآه من دمار طال تلك القاعة وجانباً من الجدار المؤدي للخارج.. كانت هناك الكثير من الأشلاء، من المحليين ومن الجنود على حد سواء، والدماء تغمر بقعاً كبيرة من الأرض ورائحة الموت تزكم الأنوف..

رأى أيضاً الجنود الذين أصيبوا في المعركة المحدودة مع الثوار الذين لم يبق لهم أثر، فأسرع لمعاونة الأحياء منهم وهو يسأل "ما الذي جرى هنا؟"

قال أحد الجنود محاولاً تمالك آلامه من جرح أصاب كتفه وجزءاً من ذراعه "الثوار الأوغاد.. لا أعلم كيف استطاعوا ذلك، لكنهم قاموا بتفجير عدد من القنابل وسط المبنى أطاحت بستيفان وعدد كبير من جنودنا.."

صعق خالد لما يسمعه، فتساءل بعدم فهم "ستيفان؟.."

قال الجندي بغضب وهو يحاول الوقوف "أجل.. تلك الشرذمة قد تمكنت من القضاء على القائد وعلى رفاقنا.. لكننا لن نسكت على هذا أبداً"

لم يعلق خالد وهو يعاونه على النهوض، ثم يسرع لجندي آخر ليساعد على تضميد جراحه بشكل مرتجل ونقله للمستشفى قبل أن تسوء حالته.. ورغم كرهه للدماء، إلا أن خالد لم يحزن لمثل هذا الخبر.. لا يمكن أن يقول إنه سعد به، لكنه نوعاً ما شعر بالعدالة في ما جرى.. لقد أذاق ستيفان سكان المدينة عذاباً كبيراً منذ قدومه، وقتل الكثيرين دون جريرة، فلا عجب أن ينال جزاءً مناسباً على ما فعله.. لا يمكن لشخص قضى أوقاته في ابتكار قوانين تحيل حياة السكان لجحيم، وفي التلذذ بعقاب من يخالف قوانينه، أن يتوقع نجاته من غضبة الثوار ولو بعد حين..

ورغم آرائه تلك، إلا أن خالد التزم الصمت ولم يصرح بها وهو يعاون الجنود مع آخرين قدموا بعد أن سمعوا الانفجار الذي اندلع في المبنى.. وقد استغرقهم التخلص من كل الفوضى التي عمّت المكان وقتاً غير قصير..

****

في المقر، كانت فرحة الثوار بالنصر لا مثيل لها.. ورغم حزنهم على من قضى نحبه، لكن تخليص المدينة من شيطان كستيفان كان أكبر من أن يغطيه أي حزن.. وبينما كان جمع الثوار متحلقاً حول هان يدلي بآخر أخبار العملية الناجحة ويحصون خسائرهم وموتاهم، كان روباك يجلس في العيادة التابعة للمقر يغمض عينه السليمة دون أن يظهر ألماً وميا تعالج الإصابة في وجهه محاولة ألا تزيد من ألمه، مع غياب رستين الذي رحل منذ الصباح لإحضار ما يلزمهم من معدات وأدوية جديدة.. لكن عندما أصدرت ميا بعض الضوضاء بإسقاطها زجاجة دواء أرضاً، فتح روباك عينه السليمة وتطلع إليها ملاحظاً ارتجاف يديها وتغيّر وجهها.. فتساءل بهدوء "هل يؤذيك منظر إصابتي؟"

قالت باضطراب "قطعاً لا.. لكنني لا أتحمل رؤيتك هكذا.. هذه إصابة شنيعة.. لقد فقدت عينك اليسرى ووجهك مصاب بجروح بليغة"

قال روباك "ليس هذا ما يطلق عليه بالشنيع.. أنت لم تري شيئاً بعد.. ولو كنت مرهفة الاحساس لهذه الدرجة فأنصحك بالاعتذار عن هذا العمل.."

احتجت وهي تقبض يديها بشدة محاولة منع ارتجافتهما "لا تهمني الدماء.. لست معتادة عليها بشكل كبير لكنني لن أهلع لرؤية أقل قدر منها.. لكن..... لكني لا أتحمل رؤيتك مصاباً بهذه الشدة.."

وجلست وهي تغطي وجهها بيديها "أتمنى لو لم تصرّ على الذهاب في هذه العملية بالذات.. فمع تهورك من المستحيل أن تعود بلا إصابات.. والآن، لا يمكنني فعل شيء لتخفيف آلامك مع الإمكانيات الضعيفة لدي.. فما الذي أستطيع فعله حقاً؟"

عاد روباك يقول "مازلت أراك لا تصلحين للعمل معنا.. كيف تتوقعين أن يكون عمل الثوار؟ طريقنا ليس آمناً ولا تفوح منه رائحة الورد بالتأكيد.. إن كنت تكرهين رائحة البارود وتشمئزين من رؤية الدماء، فمكانك ليس هنا.."

نظرت له ميا باضطراب، ثم نهضت وعادت إلى أدواتها قائلة بتصميم "لن أترككم أبداً.. أفضل البقاء هنا وسأدعمكم في عملكم دون تذمر في المرة القادمة.."

استمرت في علاجه ملاحظة ابتسامة جانبية على وجه روباك الذي قلّ ما يبتسم، ثم سمعته يقول "الآن يمكنني أن أقول إنك ابنة أبيك.. مواجهة ما يصيبك بالذعر بقوة وتحمّل هو ما يميز الشجاع من الجبان.. فكوني شجاعة ولا تجعلي شيئاً تافهاً يثنيك عن طريقك أبداً.."

نظرت إلى جرحه البليغ مغمغمة بألم "تافهاً؟ لا أظنك ستقول الأمر ذاته لو كان هذا الجرح فيّ أنا.. أليس كذلك؟"

قال بتصميم "أنا رجل.. هذه الجراح هي ما تميزني عن الجبناء الذين يملؤون الشوارع في النهار وينزوون في جحورهم كالفئران في الليل.."

علّق دانتين من خلفهما "أليست هناك طريقة لإثبات شجاعتك إلا بجرح كهذا؟ في هذه الحالة فأنا أتنازل عن وسام الشجاعة هذا لك"

نظرت إليه ميا قائلة "أليست هناك طريقة أخرى لمواساته؟"

لم يعلق روباك على قوله وهو يصمت بانتظار أن تنتهي ميا من عملها، بينما قال دانتين وهو يجلس قريباً "هان يريد رؤيتك يا روباك.. فلا تتأخر عليه بعد انتهاء ميا من عملها.."

لم يعلق روباك مستسلماً لميا التي حاولت قدر الإمكان تجنيبه المزيد من الآلام وهي تنظر إلى وجهه مشفقة.. جرحه بالغ السوء، ومع ذلك فهو يبدو متجلداً بشكل لم تتوقع أن تراه في أحد وكأنه مصاب بخدش بسيط.. ربما هذا ما زاد من حزنها، كونها تراه لا يشارك أحداً آلامه وانفعالاته.. رغم ما اشتهر به من عزم وكونه محط ثقة هان والآخرين، فهي تجده وحيداً منعزلاً عن البقية.. ولا تستطيع فهم السبب.. بودها لو تزيل وحدته كما استطاع إزالة وحدتها بعد موت أبيها.. من تعرفت إليهم من الثوار قد ساعدوها جميعاً لتخطي الأزمة التي كادت تفقدها صوابها، لكن روباك بالذات كان دافعاً لها للتقدم للأمام ونسيان أحزانها.. وهي تتمنى لو تستطيع مساعدته كما ساعدها..

بعد أن انتهت، وقد ربطت جانب وجهه بضماد غطى الجرح، جلست قريبة من روباك وأمسكت يده بيديها.. فنظر إليها بصمت ليراها تواجه عينه برجاء قائلة "روباك.. أرجوك انتبه لنفسك أكثر.. لا تقحم نفسك في المخاطر دون سبب، ولا تؤذِ جسدك أكثر مما آذيته.."

ابتسم روباك وهو يربت على يدها قائلاً "يا فتاتي.. ما تطلبينه مستحيل.. لكني أعدك أن أحاول"

علق دانتين الذي كان قريباً "الخطر هو كالهواء بالنسبة لروباك.. سيختنق لو لم يواجه أي مخاطر كل يوم"

نظرت له ميا بحنق، بينما لم يعلق روباك وهو ينهض مغادراً بصمت كعادته.. فقالت ميا بشيء من الغيظ لدانتين "لماذا تحب أن تلقي بمثل هذه التعليقات الهازئة كلما رأيت روباك؟"

قال دانتين ماطاً شفتيه "أحاول إخراجه من هذا البرود الذي يتصف به.. لكنه لا يستجيب لمحاولاتي البتة"

صمتت ميا وهي تنظر حيث اختفى روباك، ثم غمغمت "يبدو روباك حزيناً جداً.."

نظر لها دانتين بدهشة متسائلاً "هل أخبرك بشيء؟"

هزت رأسها نفياً وقالت "لا.. لكني شعرت بذلك رغم صمته.. بدا لي حزيناً بشدة وإن غلّف هذا ببرود تام كالعادة.."

تنهد دانتين معلقاً "لابد أنه بسبب مقتل سيث.."

نظرت ميا له بدهشة ودانتين يضيف "سيث شخص عزيز على روباك كثيراً.. منذ انضمامهما للثورة فهما قد عملا معاً في كثير من المهام.. وقد بدا أن صداقة قوية قد بدأت تجمعهما.. لكن سيث أصرّ على القيام بهذه العملية رغم خطورتها، وأصر أن يكون هو في وجه المدفع، رغم معارضة روباك لذلك بشدة.."

همست ميا بإشفاق "لابد أنه يتألم لما جرى.."

نهض دانتين معلقاً "لا عليك.. سيعود بأفضل مما كان قريباً.. هذا شيء طبيعي في عملنا كثوار.."

وخرج من الغرفة تاركاً ميا تلملم عدتها الغارقة في دماء روباك وحزن يتملكها.. من الصعب على المرء فقدان شخص عزيز عليه حتى لو كان معتاداً على هذا ويتوقعه في كل يوم.. والأسوأ أن روباك لا يشارك أحداً مشاعره تلك، بل ينعزل عن البقية ولا يبدو إلا بصمته المعتاد وكأنه لا يهتم.. لكنها متأكدة أن قلبه يحترق كمداً على من فقده.. ولا يمكن أن تزول تلك المرارة بسرعة أبداً..

وجدت ميا نفسها ترمي ما بيدها وتسرع خارجة بحثاً عنه.. لا تدري ما الذي تنوي فعله، لكنها شعرت أنها يجب أن تجده.. يجب أن تكون قريبة منه في هذه اللحظات بالذات.. دون أن تدري ما الذي يمكنها أن تفعله لتزيل حزنه ذلك..

في تلك الأثناء، كان روباك يقف في مواجهة هان الذي اجتمع مع بقية الثوار، وفور أن رآه قال "جيد أن أتيت يا روباك....."

قاطعه روباك بشيء من الحدة "لماذا وافقت على ما فعله سيث؟ أكنت حقاً تعلم أنه سيفجّر نفسه بهذه الطريقة؟"

صمت هان وهو يراقب ملامح روباك التي كانت تنضح بالغضب، وإزاء صمته قال روباك بحدة أكبر "لماذا؟ كيف تضحّي بأفضل رجالك بهذه الطريقة؟ لماذا رضيت بأن يفقد حياته لأجل رجل خسيس كستيفان؟ أترى حياتيهما متساويتان؟"

قال هان بحزم "قطعاً لا.. رجالنا يضحّون بحياتهم كل يوم لأجل قضيتنا، فما الذي يمنع أن يحقق سيث لنا مطلباً غالياً حتى لو أفقده ذلك حياته؟ ثم إنها كانت فكرته، وهو قد هددني أنه سينفذها بموافقتي أو بدونها"

قطب روباك وهو يقول بمرارة "لماذا لم تخبرني بعزمه ذلك؟ كنت أستطيع أن أقنعه بأن يكفّ عن ذلك الجنون.. لو أنك فقط أخبرتني....."

قال هان "ألا ترى في غضبك هذا بعد موته إساءة له؟ المفترض أن تفرح بأنه قد حقق هدفه ولم تضِعْ حياته سدىً"

أشاح روباك بوجهه وهو يستدير مغادراً على الفور.. فغمغم أحد الرجال حول هان "تلك كانت صدمة كبيرة لنا.."

قال هان "المهم أن سيث سعيد بما فعله.. هذا هو المهم في الأمر.."

أما ميا، فبعد أن بحثت عن روباك دون فائدة في المخبأ، خرجت من مخرج المخبأ الأقرب لموقعهم والمؤدي للغابة القريبة أملاً في أن تجده هناك.. وفور أن فعلت وجدته بالفعل يجلس تحت إحدى الأشجار بصمت وهو يسند رأسه لجذعها ويغلق عينه بسكون.. لم يهتم حتى بإبدال ملابسه التي غمرتها الدماء، ولم يعبأ بميا التي اقربت منه بصمت حتى جلست قريبة وهي تنظر له بإشفاق دون أن تتحدث.. شعرت أنه بحاجة لها قربه، بحاجة لمن يواسيه، ولم تستطع الكلمات أن تواسيه بشكل فاعل، لذلك فضلت الصمت في الوقت الحالي..

بعد صمت طال بينهما، فتح روباك عينه ونظر لها بشيء من التعجب قائلاً "ما الأمر يا ميا؟ أهناك خطب ما؟"

قالت ميا بابتسامة "لا.. لكن شعرت أنك بحاجتي، ولم أستطع ألا أكون بجانبك في هذا الوقت"

رفع حاجبيه بدهشة وتساؤل، فقالت وهي تمسك يده بيديها وتضغط عليها "أأنت حزين بسبب سيث؟"

نظر لها بصمت للحظات ومشاعر تعتمل في عينه بوضوح، ثم عاد يسند رأسه لجذع الشجرة ويغمض عينه مجيباً "هذا أمر قد اعتدته منذ عملت في الثورة.. لا تشغلي نفسك بي"

قالت ميا بإصرار "أنت غير صادق معي.. لماذا تحاول إخفاء حزنك هذا وتدّعي أنك لا تهتم؟"

علت شفتي روباك ابتسامة أدهشتها دون أن يعلق أو ينظر إليها.. فظلّت في موقعها تنظر له بصمت وهي تشدّ على يده بيديها.. احترمت حاجته للصمت والهدوء، وإن قررت أنها لن تبتعد عنه حتى تشعر أنه قد أصبح أفضل حالاً..

ظلت تتأمل ملامحه الهادئة التي كانت في البداية تراها خشنة مرعبة.. لكنها الآن كلما نظرت إليه تشعر بدقات قلبها تتزايد.. وشعرت بيديها الممسكتان بيده تشتعلان حرارة وكأنها تمسك بلهيب نار لا يخمد.. رغم إنكارها السابق، ولو بشكل ظاهري، إلا أنها تعترف في دخيلتها أنها مهتمة بروباك أكثر من غيره.. منذ عرفته، فإنه جذب اهتمامها وجعلها تلاحقه بعينيها في كل مرة يتواجد معها في موقع واحد.. مع الوقت، أصبحت تميّز صوته ولو بين عشرات الرجال، وتنصت لكل كلمة يقولها باهتمام تام.. لا يقلقها ما يصيب الآخرين من جراح من مهماتهم قدر الذعر الذي يصيبها لرؤية خدش في جسده..

في البدء عَزَت ذلك إلى امتنانها لإنقاذه لها، ولأنه أعانها على تجاوز كل المحن التي مرت بها والوقوف على قدميها بصلابة.. لكن بمرور الوقت، تجاوزت مشاعرها ذلك الامتنان بكثير..

أهو مجرد اهتمام؟.. عادت ترمقه بنظراتها قبل أن تبعد بصرها لتنظر لما حولهما وخداها يحمران بشدة.. لا يبدو أنه مجرد اهتمام عادي.. بل هو أكثر من ذلك.. وإن كانت تخجل من مجرد وصف تلك المشاعر، إلا أن قلبها في دقاته المتلاحقة قد صرّح بذلك بوضوح تام.. تمنت في تلك اللحظة ألا يكون روباك قد سمع هتاف قلبها وأدرك ما يعتمل في صدرها.. أم أن الأفضل لها لو أدرك ذلك؟.. لا تعلم حقاً.. كل ما تعلمه أنها سعيدة بوجودها قربه.. مهما كانت نظرته لها، إلا أنها ستبقى سعيدة أن سنحت لها الفرصة للالتقاء به والاقتراب منه لهذه الدرجة.. تتمنى فقط ألا يفرق بينهما أي شيء.. ألا يأتي اليوم الذي تكفّ فيه عن رؤيته.. عن تأمل ملامحه وسماع صوته الذي يجعل دقات قلبها تتسارع.. عن أن تملك الحق في البقاء قربه والاستمتاع بتلك السعادة الوجيزة...

****

الفصـــل العاشر

في اليوم التالي، وعندما نهضت ميا من نومها مع طلوع الشمس، وقفت وسط المخبأ مترددة وهي تدير بصرها فيمن حولها من الثوار ممن نهض مبكراً على غير العادة.. فشعرت بعدم راحة وهي تلاحظ اختفاء روباك.. كانت قد نهضت في هذا الصباح تتناهبها مشاعر متفاوتة بين اللهفة لرؤيته والقلق عليه بسبب جرحه وبسبب الحزن الشديد الذي رأته على وجهه بوضوح في الليلة السابقة..

وبعد تردد قصير، توجهت لموقع غرفته في جانب المخبأ فطرقتها بهدوء.. لم تجد استجابة سريعة، ولكن قبل أن تطرق الباب من جديد فتح فجأة ليبدو من خلفه وجه أحد الثوار الذي يشارك روباك سكنى الغرفة.. وقد نظر إليها مقطباً وهو يقول "ما الأمر؟ هل استدعاني هان؟"

تراجعت خطوة بمزيج الحرج وهي تتساءل بصوت خفيض "لا.. هل روباك هنا؟"

تثاءب الرجل وهو يغمغم "لا.. ابحثي عنه في موقع آخر"

وأغلق الباب لتسمعه من خلفه يقول بشيء من السخط "ما هذا الإزعاج؟"

غلبها الحرج وهي تغادر بارتباك.. وازداد قلقها مع غياب روباك من أنحاء المخبأ، فعزمت على التوجه لهان لتستفسر منه عن سر ذلك الغياب.. أيمكن أن يكون حزن روباك قد دفعه للمغادرة؟ نفضت تلك الفكرة وهي تطرق الباب لتسمع من خلفه صوت هان يقول "ادخل يا من تطرق الباب.."

ففتحت الباب لتجد هان يجلس في الغرفة وحيداً، وما إن رآها حتى ابتسم بلطف قائلاً "صباح جميل يا فتاتي.. كيف أنت هذا النهار؟"

قالت بابتسامة وهي تقترب وتجلس على أحد الكراسي الخشبية "بخير حال.. تبدو سعيداً هذا اليوم..!"

اتسعت ابتسامة هان وهو يجيب "وكيف لا أكون كذلك ونهاري يبدأ برؤية وجهك الصبوح؟.."

ضحكت ميا وهي تعلق "ما هذا؟.. لقد أغرقتني بالمديح اليوم.. فما السر؟"

قال هان "قد لا تصدقين ما أقوله، لكنني أشعر براحة كبيرة هذا اليوم.. وكأن ثقلاً مريعاً كان يربض على صدري وقد انزاح بمعجزة البارحة.. هو شعور لا مثيل له.."

غمغمت ميا "رغم من قضى نحبه من رجالك؟"

صمت هان للحظة وهي تلحظ على وجهه لمحة من الأسى، لكن سرعان ما أزاحها وابتسم مجيباً "نحن لا نبكي على من فقدناه.. هذا أحد قناعاتنا كثوار.. يكفي أنهم حققوا لنا ما تمنيناه منذ فترة طويلة"

لم تعلق ميا وهي التي سمعت اسم ستيفان مصحوباً باللعنات منذ انضمامها للثوار.. لذلك لا عجب أن يشعر الثوار بسعادة للقضاء عليه.. كل ما تتمناه أن لا تسوء الأحوال مع غضب الغزاة الذي سيكون مريعاً ولابد..

نظرت ميا لهان وهي تتساءل "هان.. أتعلم أين ذهب روباك؟"

غمغم هان رافعاً حاجبيه "آه.. أنت لم تأتي لرؤيتي بل للسؤال عن روباك...!"

غلبها الحرج من ذلك وهي تفرك يديها عاجزة عن الرد.. فابتسم هان مضيفاً "لا بأس.. لا بد أن رؤية رجل كروباك تثير راحة في النفس أكثر من رؤية عجوز مثلي.."

لم تنتبه ميا لنبرة المزاح في حديث هان وهي تندفع لتقول بحرج أكبر "لم أقصد ذلك.. أنا قلقة على جرحه البليغ.. من المفترض أن أتفحصه وأتأكد أنه بخير.. لكنه مختفٍ من المخبأ تماماً"

أجاب هان "لا تقلقي عليه.. هو بخير حال.."

تساءلت ميا بعد تردد "وأين هو؟ متى سيعود؟"

قال هان "لقد أرسلته في مهمة محدودة.."

قالت ميا بقلق "كيف ترسله مع جراحه تلك؟ لابد أنه متعب وبحاجة لراحة بضع أيام بعد.."

قال هان بهدوء "هو من أصرّ على الرحيل في تلك المهمة في هذا الوقت بالذات.. ولو لم أسمح له بذلك لغادر لموقع لا نعلم عنه شيئاً.."

غمغمت ميا "ومتى سيعود؟"

أجاب هان "ليس قبل بضعة أيام.."

بدا الإحباط واضحاً على وجه ميا، لكنها لم تعلق وهي تنهض وتستأذن مغادرة الغرفة بصمت.. عادت لغرفتها لتجلس على سريرها متنهدة.. غياب روباك في مهمات تخص الثوار أمر عادي وليس شيئاً مستغرباً.. فلماذا تشعر بهذا الضيق هذه المرة؟..

****

بعد يومين من ذلك الانفجار الذي دمر جانباً من مبنى الدوريات الجديد وقضى، بمساعدة الثوار، على سبعة عشر جندياً بالإضافة للقائد ستيفان، وأيضاً بعض الجنود الذين أصيبوا بجراح مختلفة.. اصطف جنود الدوريات في ساحة مبنى الدوريات الذي اسودّ مدخله بعد تدميره السابق، بينما وقف نائب القائد ستيفان السابق، والمدعو ماركوس، أمامهم في وقفة حازمة صارمة.. بعد مقتل ستيفان، كان من الطبيعي أن تتم ترقية ماركوس لمنصب قائد الدوريات نظراً لخبرته بعمل القائد السابق ومهارته في عمله..

قال ماركوس مواجهاً جنوده "الأحداث التي جرت في الآونة الأخيرة، من تفجير مبنى الدوريات السابق، واستهداف القائد السابق ستيفان، أثبتت لي أن جنود الدوريات يعانون ضعفاً حقيقياً يندى له الجبين.. إن رجالنا بكفاءتهم ومهاراتهم وأسلحتهم المتطورة، عاجزون عن القضاء، بل وصدّ، بضع رجال بدائيين لا يملكون إلا أسلحة قديمة وعدداً قليلاً من الأفراد.."

لم يعلق أحد الجنود ومنهم خالد الذي وقف بينهم صامتاً، فأضاف ماركوس بصوت أشدّ صرامة "يبدو أنني سأتخذ إجراءات أكثر حدة من الآن فصاعداً.. ليس مع الثوار فقط، بل مع الجنود الذين يسقطون في فخاخ الثوار البائسة.. سأسنّ قانوناً جديداً.. أي جندي يتهاون في عمله، أو يتخاذل في مقاومة الثوار، أو يعجز عن الدفاع عن موقعه

ضد هجومهم، سيلقى عقاباً على ذلك.. أنتم لستم هنا للهو.. ومادمتم عاجزين عن أداء مهامكم التي هي أقل من عادية، فنقلكم لتعملوا مع المحليين في المناجم هو أفضل للجميع.. أليس كذلك؟"

لم يجبه أحد بينما قطب خالد وهو يفكر في الأمر.. ما الذي يستفيده ماركوس من إرهاب الجنود؟ هل سيجعلهم العقاب أكثر قوة ومهارة في صدّ الثوار؟.. لو فكر ماركوس قليلاً، فإن هؤلاء البدائيين كما يطلق عليهم لديهم نقاط قوة تفوق الجنود بكثير.. المدينة كلها لهم، بمخابئها وأزقتها.. سكانها كلهم يتعاونون معهم.. وليس صعباً عليهم في أي وقت وفي أي مكان مغافلة الجنود الذين يجدون أنفسهم، مع كثرتهم، في بيئة معادية..

قطع تفكيره صوت ماركوس الذي أضاف "سيتم إعلامكم بالقانون فور أن يتم صياغته والتصديق عليه.. وصدقوني، لو كان ستيفان يتهاون معكم مقدار ذرة واحدة، فلن تجدوا هذه الذرة من التهاون معي.. باشروا أعمالكم بصرامة، وتذكروا أن نجاح الثوار في النيل منا معناه خسارة لكم أنتم.. ربما يكون هذا دافعاً لكم لأداء أعمالكم بشكل أفضل"

أدوا له التحية بصوت مدوي قبل أن يغادروا الموقع بإشارة من يده.. سمع خالد أحد الجنود يتذمر قائلاً "هذا ما كان ينقصنا.. لم نكد نتخلص من أحدهم حتى يأتينا من هو أسوأ منه"

لكزه أحد رفاقه ليصمت وهو يتلفت حوله.. فزفر خالد وهو مدرك أن الرقابة عليهم مشددة، ولا يسمح لهم بالاعتراض على القوانين حتى سراً..

في تلك الأثناء، كان ماركوس يعود لغرفته في المبنى وهو يقول لنائبه الجديد "هل من أخبار من العاصمة الشمالية؟"

سارع النائب ليقول "أجل.. لقد وصل الرد على الاقتراح الذي أرسلته فور توليك القيادة"

نظر له ماركوس باهتمام متسائلاً "وماذا كان الرد؟"

أجاب النائب "لقد أتت الموافقة الكاملة، من القادة الست للجيش"

التمعت عينا ماركوس باهتمام وهو يفكر في هذا، ثم التفت للنائب قائلاً "رتب لي موعداً مع أنطونيو اليوم.. أريد مقابلته في أمر مهم لا يحتمل التأجيل.."

هز النائب رأسه موافقاً، فأكمل ماركوس سيره وابتسامة ظفر تتبدى على شفتيه.. الأمور كلها تسير كما أراد، وهذا يعني أنه سيحصل على حظوة لدى القادة إن تمّ له ما أراد بالطريقة الصحيحة..

****

ذلك اليوم، عندما دلف دانتين العيادة حيث تعمل ميا وابتسامة متسعة ترتسم على شفتيه، شعرت بوجيب في صدرها وهي تنظر له متسائلة.. لا تدري لم شعرت أن ابتسامته تلك تحمل لها أخباراً هي بلهفة لسماعها..

جلس دانتين جانباً كعادته كلما جاء للحديث معها أو مع رستين عندما يصيبه الملل، وإن التزم الصمت تماماً في هذه المرة.. فقالت ميا بتعجب "ما بك؟ أنت صامت على غير العادة.. فما الذي تخفيه؟"

ضحك دانتين معلقاً "لا شيء.. أحاول تخيل ردة فعلك إزاء ما أحمله من أخبار"

صدق حدسها إذن.. ازداد وجيب قلبها وهي تتساءل محاولة إظهار عدم الاهتمام "عن أي أخبار تتحدث؟.."

قال مراقباً ملامحها "روباك.. إنه هنا.."

خفق قلبها بقوة للحظة والتمعت عيناها بشكل ظاهر وهي تقول "روباك عاد؟"

حاولت أن يبدو صوتها عادياً لكن لهفتها بدت واضحة فيه، فقال دانتين بضحكة "أجل.. عاد أخيراً.. إنه في الغرفة عند هان"

صمتت ميا وهي تتشاغل بما في يديها مغالبة لهفتها للبحث عنه.. لقد غاب روباك منذ يومين، ورغم سؤالها الدائم عنه إلا أن هان كان يكتفي بقول إنه أرسله في مهمة مستعجلة.. والآن، ها قد عاد أخيراً وهي تودّ رؤيته حقاً..

سمعت دانتين يقول وابتسامته تتسع "ألن تذهبي إليه؟ ظننتك بشوق لذلك"

نظرت له بمزيج الإحراج والحنق الذي لم يكن مقنعاً، ثم بعد تردد تركت ما بيديها وخرجت من العيادة مسرعة نحو غرفة هان.. يبدو أن مشاعرها قد أصبحت مكشوفة كثيراً، فبعد نصائح رستين وتلميحات دانتين، بدا أن الكل يعرف بأمرها.. فهل كان روباك يعرف بذلك أيضاً؟.. شعرت بالدماء تتدفق في خديها وهي تفكر بهذا الأمر..

عندما وصلت لغرفة هان، نظرت من الباب الموارب وهي مترددة في طرقه وقطع حديثهما، مع علمها أن هان لا يحبذ ذلك دون سبب.. رأت روباك يقف في منتصف الغرفة يحدث هان بصوت خفيض.. رغم التعب البادي على وجهه، إلا أنه كان يحدث هان بهدوئه المعتاد وصوته الجهوري المميز وهان يوليه اهتمامه.. شعرت ميا بدقات قلبها تتزايد وهي تنظر إليه.. ما الذي تقوله له؟ كيف تخبره أنها كانت بشوق لرؤيته دون أن تفضح مشاعرها بشكل مباشر؟.. حتى لو حاولت التحدث معه بطريقة عادية، إلا أن صوتها ولابد سيكتسي بشوقها بوضوح..

توقفت أفكار ميا فجأة وهي تنتبه لحديثهما.. كان روباك يقول لهان "كل شيء مهيأ لرحيلنا.. لقد فعلت ما طلبته مني، وجهزت كل ما نحتاج إليه في مزرعة متطرفة في الغابة لن تثير انتباه أحد.. صاحبها كان أحد معارفي في السابق، وقد أبدى استعداده لمساعدتنا بكل الطرق الممكنة، دون أن أوضح له هدفنا بشكل مباشر.. فور وصولنا إلى المزرعة، يمكننا بدء رحلتنا للعاصمة الشمالية بيسر ودون عقبات كما أرجو.."

شعرت ميا بقلبها يسقط عند قدميها.. سيرحلون للعاصمة الشمالية؟ هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها أمراً كهذا.. وهي.. ماذا عنها؟.. ما موقعها من خططهم تلك؟.. سمعت خطوات تقترب من خلفها، فاستدارت لترى رستين ينظر لها بدهشة، وقال "ما الذي تفعلينه هنا يا ميا؟"

رأى من باب الغرفة المفتوح هان يتناقش مع روباك، فنظر لميا باتهام قائلاً "هل كنت تتنصتين؟"

قالت ميا بارتباك "لا.. لقد سمعت حديثهما مصادفة.."

وأمسكت كمّ رستين قائلة بتوتر "أحق ما سمعته أن الثوار سيرحلون؟"

قال رستين بعد لحظة صمت "أجل.. سيرحلون للعاصمة الشمالية"

قالت ميا بقلق "لماذا؟ وماذا عن سِن؟ هل سيتخلون عنها الآن؟"

قال رستين زافراً "لم يقل أحد ذلك.. لقد قرر هان أن ينضمّ الثوار في سِن للثوار في العاصمة الشمالية مايار.. هناك أمور استجدت وهم بحاجة إلينا.."

نظرت ميا بقلق شديد من باب الغرفة ورستين يضيف "لقد خيّر هان الثوار بين الانضمام إليه في رحلته للشمال، وبين البقاء في سِن.. والكل هنا قد اختار الرحيل معه"

التفتت ميا إليه قائلة باعتراض "لم يخيّرني هان ولم يخبرني بالأمر من قبل.. لماذا؟"

أدار رستين عينيه بعيداً بصمت، مما جعل قلق ميا يتزايد بشكل دفعها لتفتح الباب بغير استئذان وتدلف الغرفة.. نظر لها هان وروباك وهي تتقدم من هان قائلة "لماذا لم تخبرني بعزمكم على الرحيل للعاصمة الشمالية؟ لماذا أخفيت الأمر عني بينما عرف به كل الثوار؟"

تبادل هان وروباك نظرات مبهمة وميا تنظر لهما بقلق أشد.. ثم نظر لها هان بهدوء وقال "لقد أخبرت من له علاقة بالأمر فقط"

صاحت ميا "وأنا؟"

ابتسم هان مجيباً "رحيلك معنا غير وارد.. لقد عرض سيميان ضمّك لمنزله وتعهد لنا أنه وزوجته سيحسنان معاملتك...."

قاطعته بحدة قائلة "لكنني سأرحل معكم.."

أسرع روباك يقول "مستحيل.."

نظرت له قائلة بضيق "لماذا؟ لماذا تقررون هذا الأمر دون استشارتي؟"

قال روباك "لأنه الأفضل لك.. رحيلنا فيه مخاطر كبيرة.. وما سنواجهه في مايار أكبر من قدراتك.. لذلك الأسلم لك البقاء هنا ويكفيك ما فعلته للثوار.."

ضربت الأرض بقدمها وهي تقول بعناد "مستحيل.. سأرحل معكم.. هذا قراري ولن أتراجع عنه"

قال روباك بحدة "لا تكوني عنيدة هكذا يا ميا.. أطيعي هان دون اعتراض"

صاحت باعتراض "لماذا؟ هل أخفقت في مساعدتكم يوماً؟ هل بدر مني أي تقصير؟ هل..."

قاطعها روباك قائلاً "كفى يا ميا.."

استمرت بالصياح غير عابئة به "لماذا تعاملونني وكأن لا رأي لي؟ لقد أقسمت على الولاء للثوار، وأريد أن أبرّ بقسمي للنهاية.. فلماذا....."

وجدت روباك يتقدم منها ويقبض على ذراعها بيده بشكل آلمها، فصمتت وهي تنظر له بدهشة ممزوجة بذهول، فقال لها بصوت صارم "أطيعي الأمر دون اعتراض.."

نظرت لعينه التي عكست حدة لم تعهدها منه، وشعرت بارتجافة في جسدها دفعتها لتجذب ذراعها من يده وتستدير لتغادر راكضة دون أن تعترض بحرف واحد.. فزفر روباك وهو يغمغم "تمنيت ألا تعلم بالأمر الآن"

قال هان بهدوء "ستعلم به الآن أو لاحقاً، وفي كل الأحوال ستكون ثورتها عارمة.. لم أتوقع منها الاستسلام والخضوع لقراري، لكن مع الوقت ستدرك أن هذا أفضل لها من خوض مخاطر مجهولة معنا"

صمت روباك وهان يضيف بجدية "والآن.. يجب أن نخطط لرحيلنا من المدينة على دفعات.. مع هذا العدد الكبير من الثوار سيغدو من السهل التنبه لنا عند مغادرتنا المدينة.. لذلك يجب أن نحتاط ونخطط للأمر جيداً.."

بعد انتهاء اجتماعه المصغر مع هان، اتجه روباك لغرفة ميا ليحدثها، لكنه وجد الباب مشرعاً والغرفة ساكنة.. عاد أدراجه للعيادة بحثاً عنها دون أن يجد لها أثراً مما جعله يقلق ويستمر في بحثه عنها متجاهلاً إلحاح رستين عليه بتفحص جرح وجهه.. وبعد بحث محدود سمع من بعض الثوار عن خروج ميا من المخبأ عبر المخرج المؤدي للغابة، فأسرع لذلك المخرج وهو يتساءل عن السبب الذي دعاها للخروج مع مخاطر ذلك..

وفي الغابة المظلمة بسبب كثافة أشجارها، رغم أن الشمس ساطعة في السماء، والمحيطة بالمخرج المخفي لمخبأ الثوار.. جلست ميا في جانب منها تحت ذات الشجرة التي جلس تحتها روباك في ذلك اليوم، وهي تدفن وجهها في ذراعيها المعقودتين على ركبتيها.. ظلت صامتة لفترة طويلة وهي تشعر بثقل في صدرها.. أحقاً سيرحلون ويتركوها وحيدة في سِن؟ أحقاً لا ينتوون أخذها ولا يهمهم غيابها؟ بعد فقدانها لعائلتها الوحيدة، فإن ميا قد أحست أن الثوار يعوّضونها عمن فقدته ولو قليلاً.. وجودها بينهم يسليها عن ذكرى من فقدته، ويشعرها أنها ليست وحيدة في هذا العالم..

وروباك؟.. بدا بصرامته وحدّته عندما انتهرها مخيفاً بحيث لم تقدر على مواجهة عينه وبادرت بالفرار.. لكن، أحقاً لن يهتم بغيابها؟ أحقاً لا يريدها معهم ولا يراها ذات فائدة لهم؟.. لكنها لا تريد الافتراق عنه.. هي تكاد تجزم أنه لو رحل فلن تراه مرة أخرى، وهذا يصيبها بذعر شديد تكاد تفقد صوابها منه..

سمعت خشخشة بعض الحشائش وهي تنثني تحت ثقل خطوات تقترب منها، لكنها لم ترفع رأسها ولم تلتفت تجاه صاحب تلك الخطوات.. حتى سمعت زفرة حطمت سكون المكان وروباك يقول "لقد أفزعتني يا فتاة.. أقلقني اختفاؤك التام من المخبأ.."

لم تعلق أو تأتِ بحركة، فعاد يتساءل "أأنت بخير؟"

أشاحت بوجهها دون أن تجيب.. بم ترد على سؤاله هذا؟ أحقاً لا يعلم ما بها؟.. أحقاً لا يدرك الفزع الذي يعتمر قلبها؟.. شعرت به يجلس قريباً ويضع يده على رأسها بصمت، كما كان يفعل منذ عرفته.. وتلقائياً، وجدت الدموع تتدافع من عينيها بصمت وهي تخفي وجهها بين ذراعيها، لكن دموعها لم تفته وهو يقول بخفوت "ما الأمر يا صغيرة؟ ما الذي أسال دموعك لهذه الدرجة؟"

غمغمت ميا بمرارة وهي تنظر إليه "أترونني صغيرة لدرجة أن تتجاهلوا وجودي ولا تهتموا برأيي؟.."

تنهد روباك مجيباً "لم نقل ذلك أبداً.. ألأننا نخشى عليك من المخاطر التي قد تواجهنا تظنين أننا نتجاهلك؟.."

صمتت ودموعها تهطل من جديد، فمسح روباك دموعها بإصبعه قائلاً "صدقيني إن هان يخشى عليك أكثر من أي شخص هنا.. لو كان يستطيع أن يضمن حمايتك وسلامتك في هذه الرحلة لأخذك معه بدون تردد.. لكنه يخشى عليك، ويخشى أن يُغضب روح أبيك إن تسبب لك بأذى.. هو لم يضمّك للثورة إلا ليبقيك تحت ناظريه وفاء لذكرى أبيك.."

بعد لحظة صمت، قالت ميا "لكن ألن يوافق على ذهابي معكم حتى لو أصررت أنا على هذا؟.."

علق روباك قائلاً "لا أعتقد.. أنت تعرفين قوانيننا، وتعرفين معنى عصيان الأوامر.."

نظرت ميا إليه دامعه وقالت "ألا تستطيع إقناعه أنت؟.."

تنهد روباك قائلاً "قطعاً لا.. بل أنا أؤيده في هذا تماماً.."

وابتسم مضيفاً "سترتاحين من همّ العناية بي في كل مرة أعود فيها جريحاً.. ألا يسرّك ذلك؟"

ارتجفت شفتا ميا وهي تنظر إليه، ثم قالت بصوت متهدج "أتظن ذلك حقاً؟.."

وأضافت بصوت باكٍ "أنا لا أريد الرحيل.. لا أريد مغادرة الجميع.... روباك.. أنا لا أريد الابتعاد عنكم.. أرجوك، افعل شيئاً.."

قال روباك بجدية "لو صدر هذا الأمر من هان فلا يمكنني الاعتراض عليه أبداً"

نظرت له بشيء من الصدمة، ثم عادت تبكي دافنة وجهها بين يديها وهمست "لمن أبقى؟ لم يعد لي أحد في سِن وفي البلاد كلها.. لم يعد لي أحد سواك.. فهل ستتخلى عني أنت أيضاً؟"

تأملها روباك بنظرة مشفقة، ثم أمسك يدها وضغط عليها برفق قائلاً "سكان سِن كلهم هم أهلك يا ميا.. الكل سيضمك إليه بسرور إن علموا ابنة من أنت.. سيميان وزوجته بالفعل يعتبرانك كابنة لهما.. فلا تستسلمي لهذا الحزن بغير مبرر"

رفعت بصرها إليه بحزن ظاهر حمل رجاءً وتوسلاً كبيرين، لكن روباك أبعد بصره عنها وهو يقول "مهما حاولت يا ميا، فلن نستطيع أخذك معنا.. فلا تجعلي هان يندم لأنه ضمّك للثوار"

أشاحت ميا بوجهها وهي تشعر بمزيج الحزن والغضب، ثم قالت بصوت مرتجف "افعلوا ما يحلوا لكم.. لكني سأرحل لمايار بالتأكيد.. إن لم يكن معكم فسأرحل وحيدة.. وسألحق بكم مهما حاولتم منعي"

قال روباك بضيق "لماذا تصرّين على الرحيل؟"

نظرت له بعينين مليئتين بالعزم "لأن هذا ما أريده.. ولن تثنوني عنه مهما حاولتم"

لم يستطع روباك وهو يطيل النظر في عينيها ويرى عزمها وعنادها إلا أن يستسلم ويقول متنهداً "حسناً، أعدك أن أحدث هان.. سأطلب منه إعادة التفكير في هذا الأمر.. لكنها ستكون المرة الأخيرة التي أتدخل فيها، فعديني ألا تعترضي على قرار هان مهما ساءك"

هزت رأسها إيجاباً وهي تهدأ قليلاً، فنظر لوجهها ومسح دموعها بيده مغمغماً "وعديني ألا تبكي مرة أخرى"

أنارت ملامحها ابتسامة سعيدة وهي تهمس "أعدك.."

تأمل ملامحها المتناقضة ما بين دموعها الحزينة وابتسامتها، ثم نهض فجأة وكأنه يهرب من ابتسامتها السعيدة وعينيها اللامعتين.. وقال "جيد جداً.. لنعد للمخبأ قبل أن يكشفنا أحد، وحذار من الخروج وحيدة مرة أخرى"

هزت ميا رأسها موافقة، وتبعته وهي تستعيد ابتسامتها وسرورها.. لو تدخل روباك في الأمر، فلا تشك أن يرضخ هان.. فهو يحمل احتراماً كبيراً لروباك وهذا يبدو من كثرة اجتماعهما معاً وأخذه لرأي روباك دون نقاش كبير.. ولو وافق هان، فهذا يعني أن بقاءها قرب روباك سيطول، وهذا يكفيها في الوقت الحالي..

****

في غرفة أنطونيو، جلس ماركوس في الكرسي المقابل لمكتب أنطونيو وهو يقول "أشكرك على استقبالي دون ترتيب مسبق.. أعلم أن مهامك كثيرة، لكن ما أحضرني إليك الآن أمر مهم جداً"

قال أنطونيو بهدوء "لا داعي لكل هذه الرسميات.. اختصر في حديثك"

ابتسم ماركوس قبل أن يميل تجاه أنطونيو قائلاً "حسناً.. أنا أطلب تعاوناً محدوداً بين لواء الدوريات والنسور.."

رفع أنطونيو حاجبيه معلقاً "هناك تعاون دائم بين النسور والدوريات.. فما الذي تريده أكثر من ذلك؟"

اتسعت ابتسامة ماركوس قائلاً "أريد من نسورك تنفيذ خطة محدودة لي.. لقد وافق القادة الست على طلبي وأعطوني ترخيصاً بتنفيذه.. لكني بحاجة لنسورك لمرحلة التنفيذ فلا يمكن لجنود الدوريات تحقيق ذلك الهدف.."

قال أنطونيو بحذر "وما هو المطلوب بالضبط؟ مادام القادة قد وافقوا فلا أستطيع الاعتراض، أليس كذلك؟"

تراجع ماركوس في كرسيه قائلاً "بالضبط.. هذا ما أرجوه"

ثم قال ولهجته تكتسب صرامة قاسية "أولئك الثوار قد تجرأوا علينا كثيراً.. لقد وصلت بهم الصفاقة أن يغتالوا القائد ستيفان دون أي اعتبار.. يجب أن نستعيد هيبتنا ونعلن لهم عن قوتنا.. يجب أن يدركوا فارق القوة بيننا والذي مكننا من احتلال كوكبهم بكل يسر كل هذه المدة.."

تساءل أنطونيو مقطباً "وما الذي تنوي فعله؟"

عاد ماركوس يميل عليه قائلاً بابتسامة "سأبيد أحد أحياء المدينة عن بكرة أبيه"

تراجع أنطونيو في كرسيه مصعوقاً وماركوس يضيف بجذل "لقد استطعنا تحديد أحد الأحياء الذي له صلة بالثوار بعد مراقبة حثيثة منا، وإن لم نتمكن من تحديد الموقع الذي يظهر منه الثوار ويختفون فيه بعد عملياتهم.. لذلك، فتدمير ذلك الحي له فائدتان، القضاء على موقع الثوار المحتمل.. إن لم نتسبب بضرر بين صفوفهم، فعلى الأقل سنحرمهم من استخدام ذلك الموقع.."

وأضاف غير عابئ بالاستنكار في عيني أنطونيو "الأمر الثاني هو إثارة الرعب في السكان.. من كان يساعد الثوار سيفكر ألف مرة قبل أن يقوم بذلك مجدداً.. ومن يفكر في الانضمام لهم سيلغي الفكرة من رأسه بتاتاً.."

هتف أنطونيو بحدة "أمجنون أنت..؟"

قال ماركوس بهدوء "القادة قد صرحوا لي بهذا الجنون.. فهل لديك اعتراض على ذلك؟"

صاح أنطونيو "كيف تعاقب أناساً أبرياء على ما فعله الثوار؟ أنت لا تتحدث عن بضع عشرات، بل عن مئات ومئات من سكان ذلك الحي الذين لا ذنب لهم في كل ما جرى.."

قال ماركوس بقسوة "أخبرتك أنني حصلت على موافقة القادة.. فلا يسمح لك بالاعتراض على ذلك أبداً.."

قال أنطونيو بحدة "احترم فارق المرتبة بيننا يا ماركوس.."

تبدت ابتسامة على شفتي ماركوس وهو يعلق "لا دخل للاحترام فيما أنوي تنفيذه يا سيدي.. لا تتسبب بإعاقة هذه المهمة، ولك كل الاحترام الذي تطلبه بعد أن ننتهي"

ونـهض قائلاً "سـأرسل لك تفـاصيل العملية بالكـامل مع نائبي.. وسنناقشها في وقت لا حق بـعد أن تـطـّلع على التفاصيل كاملة.."

وغادر تاركاً أنطونيو ينظر له بصدمة.. لقد تجاوز ذلك الماركوس كل الحدود.. حقاً إنه تربية ستيفان الذي زرع فيه تلك القسوة والشدة.. صاح أنطونيو بنائبه عبر جهاز الاتصال بعصبية "صلني بمكتب القائد رومانو، أو أي قائد من القادة الست.. وليكن هذا بأسرع ما يمكن.."

وأنهى الاتصال وهو يزفر بحنق.. ما الذي يرمي إليه القادة بالموافقة على قرار مجنون كهذا؟.. أيظنون أن عملاً كهذا سيخيف الثوار ويجعلهم يستسلمون؟ حقاً إنهم حمقى..

****

ظلت ميا تدور في غرفتها الصغيرة بقلق شديد وتوتر متزايد.. لقد وعدها روباك قبل أن يفترق عنها أنه سيحدث هان بشأن رحيلها معهم، وها قد مرت ساعة أو يزيد دون أن يعود لها بالنتيجة.. زفرت بقلق وهي تجلس على سريرها وتتأمل فراغ الغرفة، ثم غمغمت لنفسها وهي تقبض على الفراش بيديها بقوة "أتمنى أن يوافق هان.. أتمنى أن يفلح روباك في إقناعه.. لكن ماذا لو لم ينجح بذلك؟ ماذا سأفعل عندها؟ لقد وعدته أنني لن أعترض على قرار هان مهما كانت النتيجة.."

لم تكن تعلم بالسبب الذي لأجله سينتقل الثوار للعاصمة الشمالية، ولماذا الآن دون باقي الأيام؟.. لكنها تدرك أن أحداثاً كبيرة وخطيرة ستجري هناك، ولذلك يسعى هان لاستبعادها بأي شكل كان.. فكيف تثنيه عن ذلك؟.. بل كيف تراقب ابتعاد روباك وغيابه وهي لا تعلم إن كان سيعود لها أم لا؟..

سمعت طرقات خافتة على بابها، فقفزت واقفة بتوتر شديد وهي تسمح للطارق بالدخول.. ولما رأت وجه روباك اشتعل توترها أكثر وهي تتساءل بتوجس "إذن؟ ما الذي توصلتما إليه؟"

تنهد روباك مجيباً "لم يرضخ لرأيي.."

اتسعت عيناها بذعر، أيمكن أن يكون أسوأ كوابيسها قد تحقق؟.. فتحت فمها لتعترض، لكنه سارع ليقول "ليس بعد...."

نظرت له بدهشة، فأضاف بابتسامة صغيرة "لقد تهرب من الاستجابة لي، لكنه سيرضخ في النهاية.. أنا واثق من ذلك"

تنهدت وهي تجلس على سريرها وراحة تغمرها.. ما دام روباك يؤكد لها أن الأمور ستكون على ما يرام، فهي تثق به حقاً.. رفعت بصرها إليه فرأته يراقبها بتعجب، فقالت بابتسامة "شكراً لك يا روباك.. لن أنسى لك ذلك"

ابتسم معلقاً "تشكرينني لأنني أزجّ بك في أتون الحرب؟ ليس هذا مما يسعدني.."

غمغمت وهي تنظر له بنظرة متماوجة المشاعر "بل أشكرك لأنك حققت لي أمنية هامة.. ألا يكفي ذلك؟"

تساءل بتعجب "وما هو؟ أن ترحلي للعاصمة الشمالية؟"

خفضت رأسها وهي تغمغم "بل ألا أفترق عنك....."

انتبهت لزلة لسانها فأسرعت تقول والحمرة تغزو وجهها " أ..أ.. أعني عن الثوار.. أتمنى أن أبقى معكم للنهاية، مهما كانت تلك النهاية.."

شعرت بحرقة الدماء المتجمعة في خديها بسبب زلة لسانها التي كادت تفضح بها دخيلتها، بينما صمت روباك دون أن يعلق على قولها لبرهة طالت.. ولما تجرأت على رفع بصرها نحوه رأته يحدق في فراغ الغرفة ساهماً، قبل أن يلتفت إليها ويغمغم "أتمنى ألا أندم أني سقتك لمثل تلك النهاية.."

وانسحب من غرفتها بهدوء ليتركها مبلبلة المشاعر.. هل انتبه لزلة لسانها؟ يبدو ذلك من صمته الذي أعقب قولها.. فلو كان قد فعل، لم تجاهل ذلك تماماً؟.. لماذا تصرف وكأنها لم تقل تلك الكلمة؟.. إنها تخشى من معرفة السبب، وتشعر أنه شيء لن يسعدها بأي حال..

تنهدت وهي تستلقي في سريرها.. المهم أنها ستبقى معه.. هذا كل ما تريده في هذه اللحظة..

****

عندما صدر الأمر لمجموعة من النسور للاجتماع بأنطونيو في غرفة خاصة بالعمليات بعد يومان، لم يتوانى النسور الذين لا يتجاوز عددهم الست، من بينهم أيمن، من إطاعة الأمر الذي كان اعتيادياً عند بدء كل مهمة جديدة.. وفي غرفة الاجتماعات، شرح لهم أنطونيو بوجه عابس المهمة الجديدة بتفاصيلها الدقيقة.. ومع كل كلمة يقولها، كانت الصدمة تتبدى على وجه أيمن وإن لم يعترض بكلمة لئلا يواجه عقاباً على ذلك.. ظل جالساً في كرسيه بهدوء ظاهري وإن كان يشعر بغليان في صدره يجعله عاجزاً عن الاسترخاء والانتباه لكلمة مما يقال.. شعر بالعرق ينساب على صدغيه وبضيق في نفسه وكأنه سيقضي نحبه وهو جالس من الغمّ الذي يشعر به..

لم يعلق أي من النسور الآخرين على الخطة بكلمة عدا عن بضع أسئلة ألقوها على أنطونيو عن تفاصيلها، وغادروا بصمت فور انتهاء الاجتماع، بينما بقي أيمن في موقعه للحظات طالت وهو يستجمع شجاعته.. ثم وقف واتجه بخطوات ثابتة لأنطونيو الذي جلس في جانب الغرفة صامتاً.. رفع أنطونيو بصره لأيمن بتساؤل، فأدرك أيمن من تعابيره أنه يمر بأتعس لحظات حياته.. وبعد نحنحة قصيرة قال أيمن "إن سمحت لي يا سيدي.. أود الاعتذار عن أداء هذه المهمة"

لم تبدُ الدهشة على وجه أنطونيو وهو يسأل بلهجة حيادية "لماذا؟"

أجاب أيمن "لأن هذا يخالف كل مبادئي وأخلاقي.. أنا لم أنضم للجيش لأقتل أناساً أبرياء.. ولا نية لي لفعل ذلك في أي وقت من حياتي"

قال أنطونيو بعبوس "المفترض أن أعاقبك على تجرؤك رفض الأوامر.. لكني لن أفعل.. ولن أقبل انسحابك إلا لو وجدتَ متطوعاً آخر ليحل محلك من النسور"

أدى له أيمن التحية وهو يغمغم "شكراً سيدي"

صرفه أنطونيو بصمت، فغادر أيمن بسرعة وكأنه يهرب قبل أن يغير أنطونيو قراره.. بينما غمغم أنطونيو وهو يزفر "بودي لو كنت أملك الرفاهية للانسحاب من هذه المهمة أيضاً.. كم أنت محظوظ يا فتى.."

****

بعد يوم، توجه خالد لمبنى النسور للقاء أيمن.. رغم أن هذا الأمر غير مقبول به في الجيش، فهم لا يملكون أي رفاهية في الخروج من مساكنهم في أي وقت يشاؤون، إلا أنه للعجب لم يجابه أي اعتراض من نائب القائد عندما استأذنه.. يبدو من الفوضى التي كانت في مكتبه أنهم على وشك القيام بأمر كبير، لذلك شعر أن النائب لم يستمع لكلمة مما قالها خالد.. لكن ما المهم؟ ما يهمه الآن أن يخرج من مبنى الدوريات الخانق قليلاً..

لم يكن مبنى الدوريات الجديد يبعد الكثير عن مبنى النسور والمبنى القديم للدوريات.. فلم يستغرق خالد أكثر من عشر دقائق في السير حتى كان يصل لمبنى النسور.. وقبل أن يدلف إليه، انتبه لوجود أيمن على شيء من المبعدة من المدخل.. كان يلقي بجسده على كرسي هناك بغير حراك وهو يتأمل الشمس الغاربة والسماء الملتمعة بألوان زاهية.. اقترب منه خالد بتعجب وقال "مرحباً.. كيف علمت بقدومي لكي تخرج في استقبالي؟ كنت أعدها مفاجأة"

التفت أيمن إليه بصمت، فرفع خالد حاجبيه ملاحظاً آثار ضيق وكآبة شديدين على وجه أيمن.. بدا له بتعاسة تامة، ولم يستطع خالد إزاءها إلا أن يجلس قربه وهو يسأل بقلق "ما الأمر؟ هل أصابك شيء؟"

زفر أيمن وهو يعود ببصره للسماء بصمت، فهزه خالد قائلاً بقلق أشد "ما بالك يا أيمن؟ لا تثر فزعي هكذا"

قال أيمن وبسمة هزء ترتسم على جانب فمه "لم أكن أعلم أن السماء ستكون شديدة الحمرة هذا المساء.. وكأنها تبكي دماً على ما سيجري"

رفع خالد حاجبيه مغمغماً "ما هذه الإجابة الشاعرية؟ لم أعهدك هكذا يا صديقي.."

قال أيمن "ليست إجابة شاعرية البتة.. إنها بالفعل ستبكي الليلة وستغرق الأرض بدماء لا حصر لها.."

نظر له خالد وتعجبه يزداد وأيمن يقول بمرارة "اللعنة على ستيفان وعلى ماركوس وأمثالهما.. لو كنت قائداً من قادة الجيش الست، لأمرت بإعدامهما دون محاكمة"

هزه خالد من جديد قائلاً بإلحاح "ما الأمر يا أيمن؟ إن لم تخبرني فسأذهب لأنطونيو لأسأله مباشرة.."

التفت أيمن إليه معلقاً "لن يخبرك بشيء.. فأنت لم تعد من نسوره.. وهذا أمر بالغ السرية حالياً"

فقال خالد مقطباً "إذاً أخبرني ولا تدعني بحيرتي هذه.."

زفر أيمن من جديد قبل أن يجيب "الليلة.. سيخرج النسور بطائراتهم في عملية جديدة، بناء على أوامر أنطونيو وبطلب شخصي من ماركوس.."

والتفت لخالد مضيفاً "وسيتم قصف حيّ كامل من المدينة وتدميره عن بكرة أبيه.."

اتسعت عينا خالد بصدمة وهو يهتف "مستحيل.. لماذا؟ وما الهدف من فعل إجرامي كهذا؟"

أجاب أيمن "عقاب الثوار ومن عاونهم على قتل ستيفان والتعدي على الجيش.. هذا هو الهدف الذي يراه ماركوس كافياً لقتل المئات من سكان الحي"

قال خالد بحدة "وكيف يسمح أنطونيو بذلك؟ كيف رضي بأن يعاونه على فعل حقير كهذا؟"

قال أيمن هازاً رأسه "أنا متأكد أن أنطونيو لا يملك رأياً في الأمر.. لو تم هذا بموافقة القادة الست، فليس على أنطونيو إلا الخضوع بصمت أو ستتم إقالته على الفور وربما إحالته للمحاكمة.. كان من المفترض أن أكون مشاركاً في هذه المذبحة، لكني تنصّلت من ذلك بصعوبة"

غمغم خالد بغضب "اللعنة عليك يا ماركوس.. إنه بالفعل أسوأ من ستيفان بمراحل.."

سادهما الصمت وأيمن يعود لتأمل الشمس الغاربة وكأنه يتحسر على هذه الليلة المشؤومة.. بينما غصّ خالد بما سمعه وهو يحاول ابتلاعه.. أي صفاقة وأي عقل أباح لماركوس أن يرتكب جريمة كهذه بموافقة القيادات كلها وبتعاون الجنود دون اعتراض؟.. كان حرياً بهم عزله على الفور وتحويله للمحاكمة بدل الموافقة على فعله.. ولا يشك أنه قد يحصل على ترقية أكبر بعد عمله البطولي ذاك..

استدار خالد لأيمن متسائلاً بعبوس "أي حيّ ذاك الذي ينوي قصفه؟ ولم اختاره بالذات؟"

أجاب أيمن "إنه يستهدف الحي الشرقي من المدينة.. يبدو أن لستيفان شكوك بأن له صلة بالثوار، ومع مقتله، فإن شكوك ماركوس تعاظمت بالأمر.. وهو لا ينوي أن يهدر الوقت في تحريات قد لا تأتي بنتيجة، بل ينوي التحرك بسرعة لتلقينهم درساً على جرأتهم وصفاقتهم تلك.."

لاحظ أيمن أثناء حديثه الهلع الذي اعترى خالد وهو يستمع إليه.. فقال مقطباً "ما الأمر؟"

لم يجبه خالد وهو يفكر بذعر.. رباه.. أيعنون الحي الشرقي ذاك فعلاً؟ كيف أدركوا أن لأصحابه صلات مع الثوار؟.. وميا.. ألازالت هناك؟ تباً.. هل سيصمت مع تلك الفكرة التي تلح عليه؟..

قبض على ذراعي أيمن بقوة وهو يسأل بإلحاح "متى سيحدث ذلك؟.. أخبرني.."

قال أيمن بدهشة "الليلة قرب الفجر.. لماذا؟ ما الذي جرى لك؟"

هبّ خالد واقفاً وهو يقول بتوتر لا مثيل له "ميا هناك.. أنا واثق أنها هناك"

رفع أيمن حاجبيه قائلاً "تلك الفتاة؟ كيف علمت بذلك؟ وما الذي ستفعله بهذا الشأن؟"

نظر خالد لأيمن بحزم مجيباً "سأنذر أصحاب الحي.. سأحاول منع حدوث تلك المذبحة بكل ما أملك"

قبض أيمن على يده وهو يقف قائلاً "أنت مجنون.. سيقتلك الثوار لو رأوك ولن يصدقوك.. وحتى لو صدقوك واستطعت إنقاذهم، سيتهمك الجيش بالخيانة وسيتم إعدامك.. أنت خاسر في كل الأحوال"

قال خالد مقطباً "لا يهمني كل هذا.. المهم أن أمنع قتل الأبرياء بدون ذنب.. لا تقلق.. سأقنعهم بذلك.."

وغادر بخطوات راكضة تاركاً أيمن يراقبه بذهول، ثم قال مقطباً "كل هذا لأجل فتاة؟.. هذا جنون.. جنون تام.."

وعاد ينظر للشمس التي لامست رؤوس المنازل وكادت تختفي خلفها بصمت.. هذه ليلة مجنونة بحق..

****

الفصـــل الحادي عشر

عندما استدعاها هان في بداية تلك الليلة، وقفت ميا أمامه بقلق وتوتر وهي تفرك يديها محاولة عدم إظهار ذلك القلق بشكل واضح.. منذ بداية ذلك اليوم، لاحظت أن الاستعدادات للرحيل تجري على قدم وساق بين الثوار.. وهذا سبب لها توتراً أكثر بعد أن عجز روباك عن الحصول على موافقة هان على رحيلها معهم.. قضت ميا يومها ذلك بمساعدة رستين على توضيب ما يحتاجه من الأدوية في بضع صناديق تمهيداً لنقل ما يحتاجه معهم، وإن كانت ساهمة أغلب الوقت تفكر في وضعها لو رحل الثوار وتركوها في سِن وحيدة..

لكن هان ابتسم وهو يراها متوترة أمامه وقال "لا داعي لكل هذا الانفعال يا ابنتي.. اجلسي واسترخي"

جلست على كرسي قريب وهي تتطلع إليه بصمت.. فقال لها "أأنت واثقة أنك لا تريدين البقاء في منزل سيميان بعد رحيلنا يا ابنتي؟ أنا واثق أنه وزوجته سيحسنان معاملتك خاصة بعد فقدهما لابنهما الوحيد.. إنهما يعدّانك ابنة لهما، ولن تشعري بأي ضيق عندهما"

قالت مطرقة بضيق "أنا أثق بذلك، لكني لا أريد البقاء.. أريد الرحيل معكم.."

ونظرت له مضيفة بتوسل "أرجوك يا هان.. أنا....."

قاطعها هان بابتسامة "إذن احزمي أغراضك.. فسترحلين معنا"

ظلت تنظر له برهة بعدم فهم، فاستحثها قائلاً "ما بك؟ هل غيّرت رأيك أخيراً؟"

استوعبت ما قاله فجأة، فقفزت واقفة بسعادة واندفعت إلى هان لتعانقه بقوة وهي تقول بفرح "لن تندم على ذلك يا هان.. شكراً لك"

ربت هان على كتفها ضاحكاً "لا بأس يا فتاتي.. يكفيك انفعالاً، أخشى أن يرانا أحد الثوار فيستهزئون بهذا العجوز المتصابي الذي يعانق فتاة لا تبلغ ربع عمره"

ابتعدت قليلاً وهي تشد علي يده قائلة بامتنان "أنت بمثابة أب آخر لي، لك منزلة أبي ومعزته.. لن أنسى لك هذا الجميل"

فقال هان بابتسامة "لا داعي لكل هذا الامتنان.. لولا خشيتي عليك، لما تركتك تغيبين عن ناظريّ لحظة واحدة"

تساءلت ميا "كيف استطاع روباك تغيير رأيك؟"

أجاب هان "لقد أقنعني أن وجودك في المخبأ لن يكون خطراً عليك.. وهذا ما أرجوه حقاً.. هيّئي نفسك، سنرحل خلال ساعات قليلة"

هزت رأسها موافقة، واندفعت خارجة من الغرفة بحثاً عن روباك.. هل علم بموافقة هان؟ يجب أن تشكره على إقناع هان بالموافقة على مرافقتها لهم.. التقت أمام غرفة روباك بدانتين الذي قال بابتسامة "ما بال الفرحة تكاد تنضح من وجهك؟ هل من أخبار سعيدة؟"

قالت بلهفة "أجل.. أين روباك؟.. يجب أن أخبره.. لقد وافق هان على مرافقتي لكم في رحلتكم هذه"

اتسعت عينا دانتين بدهشة قائلاً "حقاً؟ هذا عجيب.. كيف رضي بذلك بعد أن كان رافضاً بشدة؟"

قالت بابتسامة "روباك أقنعه.. أتعلم أين هو؟ أريد أن أشكره على هذا"

قال دانتين مشيراً إشارة مبهمة "خرج في مهمة لا أعلم عنها شيئاً، كالعادة.."

بدا شيء من الإحباط على وجه ميا، وإن زال بسرعة وهي تلتفت لدانتين قائلة "دانتين.. هل أستطيع أن أطلب منك طلباً؟"

نظر لها دانتين باستفهام، فقالت "أريد رؤية سيميان وزوجته"

نظر لها بدهشة معلقاً "لماذا؟ ما الداعي لذلك ولا يفصلنا سوى ساعات عن الرحيل؟"

قالت برجاء "أريد توديعهما وشكرهما على رعايتهما لي بعد أن أنقذتموني من السجن.. وأريد شكرهما على عرضهما الكريم بضمّي لمنزلهما رغم عدم استطاعتي قبوله.. هل تساعدني في ذلك؟"

بدا التردد على دانتين مما دفعها لتقول "أرجوك.. لن أنسى لك ذلك"

فقال دانتين "لبرهة قصيرة فقط.. سيستغرق منا الذهاب والعودة وقتاً ولا نريد التأخر على موعد الرحيل"

استغل دانتين انشغال أغلب الثوار في استعدادات الرحيل ليتسلل هو وميا من المخرج المؤدي للساحة المهملة في ذلك الحي من أحياء المدينة.. لم يلجأ هو أو ميا لإعلام هان برحيلهما خوفاً من رفضه الذي كان مؤكداً.. وعندما غادرا المدخل والساحة وعبرا الزقاق الجانبي الذي كان كالعادة مظلماً تماماً لا ينيره أي ضوء قريب.. تقدم دانتين ومن خلفه ميا ليراقب من زاوية الزقاق بحثاً عن أي دورية قد تمر قريباً من موقعهما، ثم أشار دانتين لميا لتتبعه وهما يتسللان عبر الطرقات متخذين المباني القريبة ستاراً يحجبهما عن الأعين، وسارا بصمت مسافة قبل أن يصلا للمنزل الذي تعرفته ميا على الفور..

طرق دانتين الباب برفق طرقة مميزة، وانتظر استجابة صاحب المنزل وهو يتلفت بحذر.. بينما وقفت ميا خلفه تنظر للمنازل القريبة والطرقات الحجرية المرصوفة.. كانت الطرقات هادئة تماماً مع حظر التجول الذي يبدأ منذ مغيب الشمس.. والظلمة المحيطة بالمكان تجعل من الصعب رؤية تفاصيله بوضوح، لكن ميا ملأت عيناها بما تراه وهي تدقق في كل التفاصيل.. رغم أنها عاشت معظم حياتها في ذلك المنزل الجبلي، إلا أنها تعتبر سِن موطناً لها.. لا تدري لم يخايلها هذا الشعور، لكنها تكاد تجزم أنها المرة الأخيرة التي سترى فيها هذه المدينة.. لذلك كان إصرارها على شكر سيميان وزوجته قبل رحيلها.. لكي لا تشعر أنها مدينة لهما بذلك بعد مغادرتها.. وكأنها تحرق سفنها قبل رحيلها، أو كمن يحرق منزله قبل بدء رحلة طويلة ومصيرية لكي يضمن أنه قطع على نفسه الأمل بالعودة وليستمر قدماً في طريقه بعزم لا يلين..

سمعا الباب يفتح خلفهما ويظهر وجه سيميان الذي قال وقد اشتعل قلقه "ما الأمر؟ أهناك أمر طارئ؟"

دلف دانتين مع ميا بسرعة مغلقين الباب خلفهما، وقال دانتين "لا تقلق.. لقد أتيت بطلب خاص من ميا"

ظهرت زوجة سيميان من خلفه وهي تقول بتوتر "ما الأمر؟"

اقتربت منها ميا وعانقتها بقوة وسط دهشة الزوجين، ثم ربتت الزوجة على كتف ميا متسائلة "ما الأمر يا ابنتي؟ أهناك خطب ما؟"

نظرت لها ميا قائلة بابتسامة "لا.. جئت أودعك والسيد سيميان قبل رحيلي مع الثوار.."

نظرت الزوجة لزوجها الذي قال بشيء من الإحباط "قررت الرحيل معهم حقاً؟ ظننّاك ستقبلين عرضنا وتبقين معنا بدل خوض تلك المخاطرة"

نظرت له ميا وأجابت "بل قررت الرحيل.. أنا أحمل شعار الثوار، ولا يمكن أن أتقاعس عن خدمة الثورة الآن وهم بحاجتي حقاً.."

ومدت يدها إليه مضيفة "أشكر لكما كل ما قدمتماه لي.. لن أنساكما أبداً.."

صافحها سيميان مغمغماً "قولك يشعرني أننا لن نراك مرة أخرى"

قالت ميا بابتسامة "هذا ما أشعر به أيضاً.. لذلك أصررت على وداعكما قبل رحيلي"

رأت ميا الزوجة تغادر المكان مسرعة وهم يراقبونها بتعجب، ثم لم تلبث أن عادت حاملة معطفاً صوفياً طويلاً حتى الركبتين، ناولته لميا قائلة بصوت مهتز "الشتاء على الأبواب، والبرد قارس حيث أنتم ذاهبون"

ابتسمت ميا والمرأة تعانقها وتقول بصوت متهدج "عودي إلينا سالمة.. وسننتظرك أبداً دون ملل"

فتحت ميا فمها لتشكرها، لكن راعتهم تلك الطرقات القوية على باب المنزل والتي حطمت سكون المكان وجعلت قلوبهم تقفز من أماكنها.. تبادل الأربعة النظرات المتوجسة قبل أن يتقدم دانتين من نافذة قريبة فيلقي نظرة على مدخل المنزل.. وعلى الفور لاحظ الجندي الذي يطرق الباب بقوة وإصرار مما دفعه ليقول بقلق "إنه أحد جنود الدوريات.. لو رآنا هنا لقبض علينا"

همست ميا "ماذا سنفعل إذاً؟"

جذبها سيميان قائلاً بتوتر كبير "تسللوا من باب المنزل الخلفي إن لم يكن الجنود قريبون منه.. ونحن سنتولى الباقي.."

أسرع دانتين خلفهما عندما سمعا صوت الجندي يقول "افتح الباب.. أنا أعلم أن لك صلة بالثوار.. افتح الباب أرجوك فلدي خبر طارئ"

نظر سيميان بدهشة وذعر لدانتين الذي قطب مغمغماً "كشف أمرك إذاً؟ هذه مصيبة"

سمعا صوت ميا تقول بهمس وعيناها تتسعان بعد أن تعرفت الصوت الذي لم تنسه يوماً "إنه ذلك الجندي.."

نظرا إليها بعدم فهم، فقالت وتقطيبة كره ترتسم على جبينها "إنه خالد.. ذلك الوغد"

واندفعت تجذب سلاح دانتين، لكنه أبى التخلي عنه وهو يهمس "ما الذي ستفعلينه أيتها المجنونة؟"

لم تجبه وهي تتخلى عن فكرة استخدام سلاحه وتندفع نحو المطبخ لتعود حاملة سكيناً كبيرة بيدين ترتجفان، وأسرعت نحو باب المنزل بغية فتحه لولا أن أوقفها دانتين وهو يمسك يدها بالسكين فيها قائلاً بحنق "ما الذي ستفعلينه أيتها الحمقاء؟"

قالت بغضب "سأقتله وأنتقم لأبي.. هو سبب كل ما جرى لي"

سمعا خالد يصيح مرة أخرى "افتح الباب أرجوك.. إنها مسألة حياة أو موت.. حياتكم مهددة بالخطر صدقوني"

قطب دانتين وهو ينظر لسيميان الذي همس بتردد "ماذا نفعل الآن؟"

جذب دانتين ميا بعيداً عن الباب وهو يجيبه "افتح له الباب وحاول أن تفهم ما يريده دون أن تخبره بأي شيء عن الثوار.. أنا سأختبئ قريباً مع ميا.. ربما نضطر للتخلص منه لنخفي صلتك بالثوار"

حاولت ميا أن تقاومه وهو يبعدها عن الباب، لكن دانتين قال لها بغضب "لا تتهوري وأطيعيني بصمت.. وإلا أفقدتك وعيك وتركتك هنا ورحلت مع الثوار بدونك"

هدأت قليلاً وهي تقطب وتعض شفتها السفلى بغضب شديد.. هو هنا، قريب منها أشد ما يكون.. فكيف تتركه دون أن تنتقم؟ محال..

بعد أن اختفيا خلف كرسي كبير في الغرفة قام سيميان بفتح الباب لخالد وهو يقول بحدة "ما الأمر أيها الجندي؟ هل خالفت أي أمر لتقوم بمداهمة منزلي في هذا الوقت المتأخر؟"

تلفت خالد حوله في المكان قبل أن يقول بتوتر لا مثيل له "اسمع.. بعيداً عن هذه المناورات.. أنت لك علاقة مع الثوار، أليس كذلك؟"

قال سيميان بجفاء "لا علاقة لي بهم ولا يمكن أن أخالف القوانين.. أنا....."

قاطعه خالد بحدة قائلاً "أخبرتك ألا تناورني فلا وقت لدينا لذلك.. أنت في خطر كبير.. الحيّ كله في خطر لو لم تتحرك الآن وتنبّه سكان الحي.. لقد قرر ماركوس أن....."

قطع حديثه عندما لحظ ميا التي خرجت من موقعها مغافلة دانتين واندفعت نحوه مشهرة سكينها وغضب هائل يرتسم على وجهها.. وبينما شتم دانتين في سريرته بحنق، فإن خالد تفادى ضربة من السكين موجهة لصدره قبل أن يقبض على ذراع ميا ويقول بدهشة وبصوت مختلج قليلاً "أنت هنا يا ميا؟"

ظهر دانتين من موقعه مشهراً سلاحه في وجه خالد وهو يقول بصرامة "لا تتحرك.."

لكن ميا حاولت أن تدفع خالد لإفلاتها وهي تصرخ بغضب "أيها الوغد الحقير.. أيها الجبان.. جحدت المنزل الذي آواك في مرضك وأرسلت الجنود ليحيلوه لحطام محترق؟ قتلت أبي بوشايتك، وتريني وجهك بكل صفاقة؟"

دهش خالد وهو يقبض على ذراعها بقوة، وجذب السكين من يدها قائلاً "أنا أرسلت الجنود؟ من قال ذلك؟"

صاحت بعنف "إذن من فعل؟ أنت من خانني واستغل رعايتي له.. أنت من تسبب بموت أبي.. أنت....."

قاطعها خالد هاتفاً "أنا لم أفعل أي شيء من هذا.. مستحيل أن أنسى رعايتك لي وقت مرضي، بل صدمت عندما عدت ورأيت المنزل المتفحم وكدت أفقد صوابي وأنا أبحث عنك.."

ثم رفع رأسه نحو دانتين وأضاف "أنت من الثوار.. أليس كذلك؟"

لم يجبه دانتين ولم يبد أن خالد ينتظر إجابة وهو يقول بسرعة "لدي خبر مهم.. ماركوس ينتوي الانتقام من الثوار لمقتل ستيفان.. وهو سينفذ انتقامه هذه الليلة"

قطب دانتين معلقاً "وما الذي يجعلنا نصدق جندياً؟ لابد أن تكون هذه مكيدة"

قال خالد بحدة "يجب أن تصدقوني.. حياة الجميع في خطر.. لقد قرر ماركوس أن يقصف الحيّ هذا بأكمله عقاباً للثوار ومن مد لهم يد العون.."

اتسعت الأعين بذعر وزوجة سيميان تشهق هامسة "مستحيل.."

قال خالد عاقداً حاجبيه "ليس كذلك.. إن ماركوس أسوأ من ستيفان بمراحل.. وهو مصرّ على عقاب الثوار لتجرؤهم على قتل ستيفان.. سيتم القصف باستخدام الطائرات، وسيطال الحيّ هذا بأكمله.."

تساءل دانتين بحذر "ومتى سيتم ذلك؟"

قال خالد بسرعة "الليلة.. قرب الفجر"

فصاح سيميان بذعر "مستحيل.. ما الذي سنفعله الآن؟"

قال دانتين بحدة "لن نفعل شيئاً بعد.. ما زلت أرى أن هذه مكيدة منهم.."

قال خالد مقطباً "مهما كان رأيك، فحياة المئات من البشر في خطر شديد.. يجب أن تنذروهم ليغادروا منازلهم قبل أن يبدأ القصف، ولا يبعدنا عنه إلا ساعات قليلة.."

ظل دانتين ينظر له بحذر، فقال خالد بحدة "ألم تلاحظ اختفاء الدوريات من هذا الحي الليلة؟ إنهم يتراجعون بخطة مدروسة، حتى لا يبقى للدوريات أي أثر عند حدوث القصف.. لقد أتيت هنا خلسة، لكني لا أشك أن يقوم الجنود بعمل حصار حول الحيّ ليمنعوا أي شخص من الخروج منه.."

تبادل سيميان نظرات محتارة مع دانتين الذي قال أخيراً وهو يتقدم وسلاحه مشهر في وجه خالد "سيميان.. جرده من سلاحه"

فعل سيميان ذلك دون أن يعترض خالد الذي ظل قابضاً على ذراع ميا وهي تصيح محاولة جذب ذراعها من يده "اتركني أيها الحقير.. سأقتلك.. حقاً سأقتلك"

نظر لها خالد وقال "صدقيني يا ميا.. لم أتنكر للجميل الذي غمرتني به أبداً ولا يمكن أن أفعل.. لقد بحثت عنك طويلاً لأطمئن عليك.. ولو علمت بأمر الإعدام قبل حدوثه لسعيت لإنقاذ أبيك بأي وسيلة كانت.. لكني لم أرتكب أي شيء مما تنسبينه لي"

نظرت له ميا بحنق وهي تشعر بدموع الغضب تحتشد في عينيها، بينما تقدمت زوجة سيميان منها وجذبتها بعيداً عنه.. فقال دانتين "سنقيدك حتى نتأكد مما تقوله.. لا يمكن أن نتركك تغادر ونحن نشك بنواياك بعد.. إن صح ما تقوله، فسنسعى لإخلاء الحي بأسرع ما نستطيع"

أسرع سيميان لإحضار حبل من جانب المنزل، فقام دانتين بتقييد خالد الذي لم يُبدِ حراكاً وهو يقول "يجب أن تسرعوا.. إخلاء هذا الحي سيستغرق وقتاً طويلاً.."

غمغم دانتين وهو يقيده "ما الذي يستفيده جندي من الغزاة من إنقاذ سكان حي من أحياء كوميت؟"

قال خالد مقطباً "لأنني لا أستمتع برؤية المئات يقضون نحبهم دون سبب أو ذنب"

نظر له دانتين وهو يحاول تبيّن صدقه من كذبه، ثم قال لسيميان "أغلق بابك وراقبه حتى أعود.. ولا تنس مراقبة ميا لئلا ترتكب أي فعل متهور.."

وغادر المنزل مسرعاً ليغلق سيميان بابه خلفه، فيما قالت زوجته بذعر "ماذا سنفعل الآن؟ أولئك الأوغاد سيفجرون الحيّ بأكمله، فما الذي نستطيع فعله؟"

قال سيميان زافراً "لا أدري.. أيكفينا الوقت لإنذار أهل الحي كلهم؟ ولو فعلنا، ألن ينتبه الجنود لذلك؟"

قال خالد "يجب أن تجدوا طريقة لإخراج سكان الحي منه بسرعة.. كما قلت لكم الجنود يطوقون الحي ولاشك.. فلا مهرب لكم من المكان عبر الطرقات العادية.."

نظر سيميان تجاه زوجته المذعورة، ثم زفر من جديد وهو يجلس جانباً بصمت، بينما جلست زوجته وهي تمسك بميا التي أخفت وجهها خلف يديها محاولة تمالك غضبها ورجفة جسدها.. لقد أعادت لها رؤية خالد كل تلك الصور البغيضة التي حاولت تناسيها منذ شهر أو يزيد.. عادت لها تلك الصور بكل عنفها وكآبتها وما تثيره من مشاعر في نفسها.. ثم رفعت ميا وجهها وهي تمسح الدموع التي لم تسمح لها بأن تنساب على خديها قائلة لخالد بحدة "أنا لم أصدقك بعد.. ولن أصدقك أبداً.. بعد أن ننتهي من أمر هذه الليلة، فسأقتلك.. لن أرتاح حتى آخذ بثأر أبي بيدي"

نظر خالد لوجهها الغاضب وهو عاجز عن إثبات صدقه بأي كلمات، فقال بهدوء "وأنا راضٍ عن هذا.."

نظرت له بحيرة ودهشة لرده الهادئ، ثم أشاحت بوجهها وهي تعض على شفتها السفلى بحنق.. تباً للغزاة.. تباً لهم..

****

تعالت الطرقات الهادئة على باب المنزل، فهبّ سيميان لفتح الباب بلهفة ليجد خلفه هان وعدد من رجاله.. دلف هان المنزل بسرعة وهو يتساءل "أين ذلك الجندي؟"

أشار سيميان خلفه لخالد المقيد وسط المنزل، فنظر له هان بتعجب بينما قال دانتين الذي يقف خلفه "ألا تتفق معي أنها مكيدة؟ كيف يخون جندي من الغزاة جيشه لينذرنا بشيء كهذا؟ لابد أنهم ينتوون أمراً مما يفعلونه.."

اقترب هان من خالد يتفحصه بصمت، فقال خالد "أعلم أن حديثي كله غير مقنع بالنسبة لكم.. لكن يمكن التأكد من هذا بطريقة بسيطة، ولو أنها ستكلفكم الكثير من الوقت الثمين.. اذهبوا لمواقع الدوريات المعروفة في الحي.. إن الدوريات تتراجع بطريقة مدروسة لتخلي الحي تماماً قبل القصف.. ستجدون الآن عددها يقل كثيراً عن المعتاد.."

تساءل هان "لماذا تفعل ذلك أيها الجندي؟"

أجاب خالد "لأنني أرفض حدوث مثل هذه المذبحة.. منذ قدومي للكوكب لم أشارك في أي معارك ولم أقتل أي رجل من كوميت.. وبعد أن علمت بما سيجري الليلة، فضّلت أن أخرج عن طاعة الجيش بدل الصمت وتعذيب ضميري بما سأراه.."

استدار هان لمن خلفه من الرجال وقال "اذهبوا وتأكدوا من وجود الدوريات، وأتوني بخبرها بأسرع ما يمكن.. لو كان ما يقوله هذا الجندي حقاً، فلدينا ساعات معدودة قبل حدوث الكارثة"

غادر رجلان من الثوار لتنفيذ طلبه، بينما أضاف هان "وليبحث لي شخص عن روباك.."

خرج رجل آخر بحثاً عن روباك الذي غادر منذ فترة في مهمة محدودة ضمن الحيّ، بينما سمع هان ميا تسأله بجمود "ما الذي ستفعلونه بهذا الجندي بعد أن تتأكدوا من صحة معلوماته؟"

نظر لها هان قائلاً "إن كان ما يقوله حقاً أم لا، فسنأخذه معنا عند مغادرتنا الحي.. لا يمكننا إطلاقه الآن وقد رآنا جميعاً.."

فقال خالد معلقاً "لا يمكنني العودة للجيش الآن بأي حال.. سيتم قتلي فوراً إن علم رؤسائي بسعيي في إبلاغكم بما سيحدث"

حدجته ميا بنظرة تحمل غضباً شديداً، وقالت موجهة حديثها لهان "أريد هذا الجندي.. بعد أن ينتهي هذا الأمر، أريد أن أقتله بنفسي.."

نظر لها الجميع بدهشة وزوجة سيميان تغمغم "ما الذي تقولينه يا فتاتي؟"

قالت ميا بحدة "يجب أن أقتله بنفسي.. هو من تسبب في مقتل أبي وإحراق منزلنا.. لن يرتاح أبي في قبره وهذا الجندي حي أبداً.."

فقال هان لتهدئتها "لا بأس يا ميا.. سأحقق لك ما تريدينه.. لكن اصبري حتى نغادر هذا الحي جميعاً"

أشاحت ميا بوجهها وهي لا تكاد تسيطر على أعصابها.. لو لم يكونوا بحاجة إليه.. لو لم يمنعها دانتين من قتله سابقاً..... اللعنة عليك يا خالد.. كان يجب أن تموت منذ زمن طويل..

سمعت هان يقول وهو يجلس جانباً "فسّر لي ما سيجري بالتفصيل أيها الجندي.. ما سبب ما سيجري هنا الليلة؟"

أجاب خالد "ماركوس، وهو القائد الجديد للواء الدوريات، قد وضع خطة للانتقام من الثوار وممن عاونهم لقتلهم ستيفان.. يبدو أنهم يملكون معلومة بأن الثوار يلتجئون لمنزل في هذا الحي، وإن لم يتمكنوا من معرفة الموقع بالضبط رغم كل المداهمات السابقة.. لذلك، قرر ماركوس تدمير الحي بأكمله، باستخدام الطائرات، للتغلب على الثوار.. وفي الآن ذاته لإنذار المدينة كلها بخطر التعاون معكم أو محاولة الثورة على جيشنا.."

قال أحد الرجال حانقاً "لقد تجاوزوا كل الحدود بهذا.. يقتلون المئات لأجل رجل واحد؟ والأسوأ أن ذلك الرجل كان أحقر من رأيت في حياتي"

لم يعلق هان وهو يستغرق في تفكير عميق، بينما أضاف خالد "عليك أن تقرر كيف ستنقذ أهالي الحي هذا في وقت وجيز.. لا أشك أن الدوريات تشكّل طوقاً حول الحي لمنع أي شخص من الخروج منه.."

فغمغم هان "إذن هناك سبيل واحد لإخراجهم من هنا.."

وصمت دون مزيد من الشرح مما جعل خالد يتساءل في سره عن ذلك السبيل.. كيف يمكنهم إخراج العشرات والمئات من هذا الحي في وقت وجيز؟ كيف يمكنهم تفادي المذبحة التي ستحدث والتي خطط لها ماركوس بدم بارد؟..

بعد وقت قصير لا يتجاوز نصف الساعة، عاد الرجلان ليبلغا هان صحة قول خالد.. فقال له أحدهما "الدوريات التي لا يقل عددها عن عشر في هذا الحي قد تناقصت ولم يبق منها إلا أربع.. وهي تتراجع ببطء بحيث لا تلفت الأنظار.."

أضاف الآخر بسرعة "لقد راقبنا الوضع خارج الحي، وهناك وجدنا الدوريات التي تراجعت مع غيرها الكثير يحيطون بالحي على مبعدة.. يبدو أنهم فعلاً عازمون على منع خروج أي شخص من هذا الحي الليلة"

غمغم أحد الرجال "اللعنة عليهم.."

بينما تساءلت زوجة سيميان بذعر "ما الذي سنفعله إذن؟"

نهض هان بين رجاله قائلاً بحزم "أريدكم أن تنتشروا في الحي كله وتوقظوا سكانه.. أخبروهم بما سيجري وخذوهم لمدخل مخبئنا.. فهذا هو الطريق الوحيد الذي سيقودهم بعيداً عن الحي، وعن المدينة كلها أثناء القصف"

تساءل سيميان بقلق "أتظن ذلك مأموناً؟ ربما لاحظ الجنود ذلك واستدلوا على المخبأ"

قال هان بحزم "إنقاذ السكان الآن هو الأهم.. ونحن على وشك الرحيل عن المخبأ فليس هناك من داعٍ للاحتفاظ بسريته"

استمع خالد لقوله باهتمام، وإن لم يعلق وهان يضيف "عليكم أن تصدروا أقل ضوضاء ممكنة.. لا يجب أن يشعر الجنود بشيء من هذا.. وتجنبوا الشوارع التي بقيت فيها الدوريات الأربع حتى رحيلها.."

وزّع رجاله بسرعة على مناطق الحي المختلفة، فأسرعوا لتنفيذ طلبه وهو يقترب من دانتين قائلاً "دع أمر الجندي لي.. اذهب لمساعدة الآخرين وأنا سآخذ الجندي معي عبر المخبأ بعد أن أطمئن على رحيل سكان الحي كله"

سأله دانتين "وماذا عن ميا؟"

أجاب هان "دعها لي.. اذهب لتساعدهم الآن"

دخل روباك في نفس اللحظة التي غادر دانتين فيها، فابتدره هان قائلاً "هل علمت بما يجري؟"

قال روباك مقطباً "شيئاً ما.."

فقال هان وهو ينظر له "إذن اذهب الآن ولا تتأخر.. قد تكون هذه هي فرصتنا لنجد الدليل.."

فهم روباك نظرة هان، فانطلق على الفور بصمت خارجاً من المنزل.. بينما التفت هان لسيميان وزوجته الواقفين جانباً وقال "سيميان.. نحن نحتاج إليكما أيضاً.. من معي من الثوار لن يكفوا لتحذير سكان الحي كله.. ثم إن وجودك معهم سيجعل المتشكك منهم أكثر صدقاً بما نقوله.."

تساءل سيميان "كيف تنوي تهريب كل هؤلاء للمخبأ؟ لا أظنه سيسعهم كلهم في وقت واحد، كما أن المخبأ يقع جزء منه تحت هذا الحي، وقد يطاله الدمار أيضاً"

أجاب هان "المخبأ له عدة مخارج غير الذي ستدخلون منه.. سنُخرج السكان من المخرج المؤدي للغابة، وبهذا سيكونون قد تجاوزوا المدينة كلها وتجاوزوا الخطر فيها"

لم يعلق سيميان بكلمة أخرى وهو يجذب زوجته ويخرج من المنزل.. فنظر هان من النافذة ليرى بعض النوافذ في المنازل القريبة قد أضيئت ورأى رجاله يطرقون الأبواب منذرين أصحابها عما سيحدث..

أما خالد، فقد نظر لميا التي جلست جانباً وعلى وجهها تقطيبة وهي تشيح بوجهها عنه.. ورغم الكره البادي على وجهها، ورغم التقطيبة التي أكسبت عينيها حدة عارمة، إلا أنه شعر براحة لرؤيتها بعد كل تلك المدة.. لقد قضى أوقاتاً طويلة يتذكر ملامح وجهها التي لم تغب عن باله، ويتخيل ما سيقوله لها عندما يراها، وها هي ماثلة أمامه الآن.. ورغم كل الأحداث التي على وشك أن تغير حياة سكان الحي بأكمله، إلا أنه لم يستشعر سعادة في قلبه منذ

اليوم الذي غادر منزلها فيه كما يحدث له الآن.. ورغماً عنه، اعترف قلبه له بأنه يحبها.. يعشق تأمل ملامحها.. ويشعر بسعادة عارمة لوجوده معها، حتى لو كانت تكرهه.. كيف لها أن تسلبه قلبه بهذه الطريقة؟ ورغم قصر المدة التي بقي فيها في منزلها، ورغم أنه يرى أن حبه ذلك غير منطقي البتة، إلا أنه لم يجد بداً من التسليم بهذا الحب، والاعتراف به.. وقد أشعره ذلك براحة كبيرة بعد أن كان مبلبل الفكر لأيام طويلة وهو يحاول تفسير المشاعر التي تنتابه وتدفعه للبحث عنها رغم ما يتبع ذلك من عواقب..

إنه واثق أنها تكرهه.. لكنها ستعرف الحقيقة قريباً، وسيزول هذا الكره ولاشك.. وعندها.... يأمل أن يراها تبتسم له ولو لمرة واحدة..

بعد لحظة صمت قال لميا بصوت خافت "كيف حالك يا ميا؟"

لم تجبه ميا بكلمة وهي تنظر لهان، فقال دون أن ييأس "لقد بحثت عنك طويلاً.. منذ غادرت منزلك لم أنسك أبداً، وحاولت أن....."

قاطعته بغضب "اصمت.."

نظر لها بدهشة، فيما تقدم هان منها متسائلاً "أهذا هو الجندي الذي عالجت جراحه سابقاً؟"

أجابت ميا ببغض "أجل.. للأسف"

فالتفت هان لخالد قائلاً "أأنت من أبلغ الجنود عن والد ميا؟ كيف علمت أنه من الثوار؟"

قال خالد بصدق "لم أفعل ذلك قطعاً.. لم أكن أعلم أنه من الثوار.. وحتى لو علمت، أتظنني وغداً حقيراً لأبلغ عن المنزل الذي آواني وبذل أصحابه الكثير لعلاجي وإنقاذ حياتي؟"

غمغم هان "أنت من الغزاة.."

وكأن هذه الكلمة كافية لتبرير أي أفعال تنمّ عن خسّة وحقارة.. فقال خالد مقطباً "ليس الكل كذلك.. أنا من الغزاة، نعم.. لكني لم أسع لذلك، بل أجبرت كما أجبر الكثيرون على ذلك.. كما أنني لم أسعَ لأذية أي أحد، ولست راضياً عن كل ما يجري هنا.. وعندما علمت بما ينتوي ماركوس فعله، لم أستطع الصمت ورؤية المذبحة التي ستحدث.. لذلك تجاهلت كل أمر وأتيت لهذا المنزل"

تساءل هان "وكيف علمت بأن صاحبه متعاون مع الثوار؟"

أجاب خالد "لقد رأيت أحد الثوار يخرج متسللاً من هذا المنزل في الليلة التي تم تفجير مبنى الدوريات فيه.. وقد تعرضت لضربة من أحد رجالك فقدت الوعي بسببها شهراً كاملاً.."

ظل هان يفكر في قوله بينما قالت ميا بجفاء "مهما قلت فهذا لا يعني أننا سنصدقك.. أنت وغد، ولن أسامحك على هذا"

لم يعلق خالد وهو ينظر لميا بصمت، بينما قال هان "هيا بنا.. علينا أن نذهب الآن"

نهض خالد دون أن يفك هان قيده، فقام هان بتفحصه جيداً بحثاً عن أي أجهزة اتصالات وتتبع.. وقبل أن يبدؤوا سيرهم، تخلص من جهاز الاتصال الخاص بخالد في خوذته، والذي كان مغلقاً، خارج المنزل وهو يقول لميا "تقدمينا نحو المخبأ.."

أسرعت ميا عابرة حديقة المنزل الصغيرة وعبر الشارع المظلم، يتبعها خالد ومن خلفه هان رافعاً سلاحه تحسباً لأي حركة مفاجئة من الجندي..

****

في تلك الليلة، والتي بدأت بداية هادئة كغيرها من الليالي، بدأت حركة الثوار الخافتة في أرجاء الحي الذي يقع على مساحة واسعة من المدينة.. انتشرت تلك الخطوات المتسللة في الحي، وأصحابها يطرقون الأبواب بخفة ويجابهون أعين سكان الحي المتسائلة بإجابات مختصرة وطلب ملحّ بمغادرة الحي عبر الطريق المؤدي لمخبأ الثوار.. ورغم حرصهم، إلا أن إبقاء الأمور كلها تحت السيطرة والمحافظة على أكبر قدر من الهدوء كان صعباً..

عندما تعالت الطرقات على باب أحد منازل الحي، قفز صاحب المنزل جالساً في سريره بقلق وهو يقول "ما سر هذه الطرقات المتأخرة يا ترى؟ عساه خيراً"

قبضت زوجته ذراعه قبل أن يهبط من سريره وقالت بذعر "إلى أين أنت ذاهب؟ ربما كانت دورية.. قد يقبضون عليك بأي تهمة"

صمت الرجل وهو يستمع للطرقات التي توالت بإلحاح، ثم غمغم وهو يتقدم من نافذة غرفته "من يدري.."

نظر من النافذة في الطابق العلوي، فرأى رجلاً من سكان المدينة يطرق بابه بدون يأس، ولم يفته مع ذلك مرأى بعض سكان الحي الذين خرجوا بملابسهم المنزلية والذعر على وجوههم يشقون طرقات الحي بصمت.. فقال الرجل متوتراً "هناك أمر ما يحدث.."

نهضت الزوجة لتنظر من النافذة بدورها، بينما أسرع الرجل للطابق السفلي ليفتح الباب وهو يقول لصاحب الطرقات "ما الأمر؟ ومن تكون أنت؟"

أسرع صاحب الطرقات ليقول "اسمع.. أخرج أنت وأهل بيتك من المنزل واتبعوني.. هذا الحي كله سيتعرض للقصف خلال ساعات معدودة، ويجب أن تهربوا قبل ذلك"

اتسعت عينا صاحب المنزل بذعر وهو يهتف "قصف؟ لماذا؟ من أخبرك بذلك؟"

قال الرجل بسرعة "لا تُضِع المزيد من الوقت.. ولا تجذب الانتباه أو تصدر أصواتاً عالية.. يجب أن نتسلل من الحي دون أن نثير انتباه الدوريات المرابطة عند أطراف الحي"

سمع صاحب المنزل زوجته من خلفه تقول بصوت قلق "من هذا الرجل؟"

نظر صاحب المنزل للطارق بانتظار أن يحصل على إجابة، فقال الرجل بحزم "أنا من الثوار.. ولدي أمر بأن أقودكم لموقع آمن، فلا تتسببوا بتأخيرنا"

أسرع الرجل عائداً لزوجته وشرح لها الوضع بكلمات مختصرة وهو ينهيها قائلاً "أيقظي الفتيات ولنغادر بسرعة قبل أن يبدأ القصف.. لا نعلم إلام يهدف الغزاة بفعل كهذا، لكن لا أشك بقدرتهم عليه.."

انطلقت الزوجة مذعورة تنفذ أمره بصمت، وخلال وقت قصير، كانت العائلة تنضم للعشرات من سكان الحي في

طريقهم للمخبأ الواقع في زاوية مهملة من الحي.. وقالت الزوجة بصوت مرتجف وهي تسير بخطوات قلقة "وماذا عن منزلنا؟ وماذا عن أموالنا وكل ما نملكه في ذلك المنزل؟"

قال الرجل الذي يتقدمهم بسرعة "حياتكم أهم من كل ذلك.. وكل شيء يمكن تعويضه"

غمرت الحسرة قلب صاحب المنزل وهو يغمغم بحزن "من يدري"

سمعوا صوتاً عالياً لأحد الرجال وهو يدفع أحد الثوار عنه هاتفاً "أموالي.. لن أغادر قبل أن أحمل أموالي كلها.. اتركني.."

قال الثائر وهو يمسكه بقوة ليمنعه من العودة قائلاً بصرامة "لن تفيدك أموالك بشيء عندما يسقط المنزل على رأسك.. تقدم بصمت وإلا أجبرتك على ذلك بالقوة"

ودفعه ليكمل سيره والرجل يصيح ودموعه تسيل على وجهه "أموالي.. سأفقد كل شيء.. تباً لكم.. لا يحق لكم فعل ذلك.. لا يحق لكم.."

لكن الثوار لم يتركوا له فرصة للتراجع وهم يرغمونه على المضي معهم.. بينما قال صاحب المنزل بمرارة وهو يسير وخلفه زوجته وبناته الثلاث "اللعنة على الغزاة.."

****

الفصـــل الثاني عشر

بين كل تلك المعمعة التي حدثت في الحي الشرقي تلك الليلة، سار دانتين بخطوات واسعة في الطريق الذي يشق الحي وهو يراقب ما يجري بصمت.. قادته قدماه في طريق جانبي وهو يرى سكان الحي يهرعون في الاتجاه المعاكس تابعين الثوار عبر الطريق المؤدي للمخبأ، محاولين ألا يجذبوا انتباه الدوريات التي قبعت خارج الحي في حصار واضح.. فغمغم دانتين "الجنود الأغبياء.. حصارهم للحي ساعد على إقناع السكان بالنية التي ينتوونها لهم.. تصرف أحمق منهم.. لحسن الحظ"

بعد أن خفتت الحركة من حوله، أسرع من خطوه وهو يتلفت مستتراً بالظلام ويقبض على السلاح بيده بقوة.. بدأ المكان يخلو من السكان، وهذا أراح دانتين أكثر وهو يقطع ذلك الجزء من الحي بخطوات سريعة ثم يقف عند زاوية أحد المنازل متلفتاً حوله، ونظر من زاوية المنزل بحذر ليرى دورية فيها ثلاث جنود وقفوا في أحد الأزقة المظلمة يتحدثون بصوت خفيض.. قبع دانتين في موقعه للحظات طالت يراقبهم ويراقب المنطقة حولهم بحذر.. ولما تأكد من خلو المكان تماماً من أي أحد، خرج من موقعه بصمت وسار عدة خطوات تجاه الجنود..

لما شعر الجنود بمقدمه رفعوا أسلحتهم تجاهه بسرعة، فرفع يده بالسلاح عالياً وهو يقول بصوت خافت "لا تطلقوا.. أنا العميل سبعة"

نظروا له بحذر وهو يقف بصمت، ثم قال أحد الجنود "اقترب.."

تقدم دانتين منهم وهو يقول بتوتر "ما الذي يجري هنا؟ أحقاً هناك أمر بقصف هذا الحي الليلة؟"

نظر الجنود لبعضهم البعض بشيء من الصدمة، ثم قال أحدهم بصرامة "كيف علمت بذلك؟"

اقترب دانتين حتى وصل إليهم وقال وهو يلقي نظرة حذرة خلف كتفه "أحد الجنود قام بتحذير الثوار.. لكن لِمَ لمْ تبلغوني بعملية كبيرة كهذه؟.. ماذا لو كنت متواجداً في الحي أثناء القصف؟"

قال الجندي بشيء من الحدة "ماذا قلت؟ جندي قام بتحذيرهم؟"

قال دانتين "أجل.. وهو موجود عند الثوار الآن"

تبادل الجنود نظرات مصعوقة أخفتها خوذاتهم، وقال الأول بحدة "أنت تكذب.. ما من جندي يفعل ذلك أبداً.. ما مصلحته؟"

قال دانتين مقطباً "بل هو من جنودكم.. اسمه خالد.. لقد أبلغ الثوار بذلك وأخبرهم أنه غير راضٍ عن مثل هذا العمل.. ترحيل سكان الحي جارٍ على قدم وساق الآن، لذلك فالعملية فاشلة تماماً.. ألغوها فهذا أفضل لكم، وسيثبت بهذا أن الجندي كان يخدعهم"

نظر الجنود لبعضهم البعض في مشاورة صامتة، ورغم صدمتهم بذلك، إلا أنه لم يكن أمامهم إلا تصديقه.. قال الجندي لدانتين بصرامة "أريد ذلك الجندي.. أحضره إلينا بأي طريقة.. قبل أن يفلح الثوار في استخلاص بعض المعلومات الهامة منه"

قال دانتين مفكراً "قد يغدو هذا عسيراً الآن.. لابد أنهم نقلوه لموضع آمن.."

قال الجندي بحزم "يجب أن تحضره، وإلا وقعت أنت في مشاكل"

رفع دانتين بصره إليه بتوتر قائلاً "لماذا؟ لقد بذلت جهدي لمعاونتكم دائماً.. فلماذا تحاسبوني على ما فعله جندي منكم؟"

قال الجندي بحدة "القائد غير راضٍ عما تقدمه لنا من معلومات قليلة.. أنت لا تأتينا بأي معلومات حيوية عن مخبأ الثوار ولا عن شخصياتهم.. كل ما تزودنا به هو معلومات عن بعض العمليات.. وهذا غير كافٍ"

قال دانتين بسرعة "لا يمكن أن أزودكم بمعلومات مهمة كهذه فسينكشف أمري وأغدو بلا فائدة بالنسبة لكم.. يجب أن نحيك خطة شاملة للإيقاع بهم جميعاً.. وهذا يستدعي بعض الصبر"

فقال الجندي "اذهب وحاول إحضار ذلك الجندي لنا.. أو على الأقل اقتله لأي سبب، فهذا أفضل لنا.."

واستداروا ليغادروا الموقع، فسأله دانتين بسرعة "وماذا عن العملية التي ستجري الليلة؟"

قال الجندي بصرامة "لا شأن لك بهذا.."

زفر دانتين بتوتر وهو يتطلع حوله بقلق، ثم استدار بدوره مغادراً بخفة بين المنازل.. الأمور لا تجري كما توقعها البتة، وهؤلاء الغزاة قد بالغوا في هذه الخطة كثيراً.. لا يدري حتى متى سيبقى على هذا الوضع.. لكنه يخشى اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء..

سمع صوتاً خافتاً خلفه، فاستدار بقلق وتأمل الزقاق المظلم خلفه دون أن يرى أو يسمع ما يدله على سبب ذلك الصوت.. ثم سمع صوتاً آخر في جانب آخر، فاستدار بسرعة وقد بدأ قلقه يتزايد وهو يتمسك بسلاحه بقوة.. ولما انجلى الظلام المواجه له عن ذلك الشخص، اشتعل ذعر دانتين بشدة وهو يرى روباك يتقدم منه وملامح وجهه جامدة لا توحي بأي تعبير كالعادة.. ازدرد دانتين لعابه وهو يشعر بأنه غير قادر على قول شيء وقلبه يطرق صدره بقوة وذعر.. هل رآه؟ لا يمكن.. ماذا لو أنه رآه؟ ما الذي يمكن أن يفعله روباك لو علم بخيانته؟..

بعد صمت متبادل بينهما، سمع روباك يسأله بصوت لا تعبير فيه "ما الذي تفعله هنا؟"

قال دانتين وهو يتراجع خطوة محاولاً أن يكسب صوته نبرة عادية "جئت أطمئن أن هذا الجزء من الحي خالٍ من السكان.. وهو بالفعل....."

فوجيء بروباك يلكمه بقبضته القاسية بقوة ألقته للوراء ليصطدم بجدار منزل خلفه.. تمالك دانتين نفسه وهو يقول بألم "ما الداعي لذلك الآن؟"

أمسكه روباك من ملابسه وضغط على عنقه بذراعه وهو يقول بغضب هائل "أتجرؤ على الكذب فوق كل ما فعلت؟.."

قال دانتين بألم وصوته يتحشرج "ما الذي تعنيه؟ لماذا تتهمني بالكذب دائماً؟"

جذبه روباك نحوه ثم لطمه بالجدار من جديد بقوة وهو يقول بصوت مرعب "أتحاول التنصل أيها الخائن؟ ألم تكن بصحبة الجنود قبل قليل؟"

صاح دانتين بذعر "لا.. كانوا يستجوبونني قليلاً.. ليس الأمر كما تظنه"

جاوبته لكمة أخرى من روباك أسقطته أرضاً، وقبل أن يستعيد توازنه اقترب روباك منه فركل سلاحه من يده ليسقط بعيداً وأنهض دانتين واقفاً ولكمه بقوة جعلته يسقط عاجزاً عن النهوض من جديد.. فجلس بعسر وهو يقول بصوت متألم "لماذا؟ كيف تتهمني بأنني خائن بهذه البساطة؟"

ركله روباك في بطنه بقوة وهو يقول بصرامة "بل كيف تخون أهلك وشعبك بهذه البساطة؟ أي قذارة أوقعت نفسك فيها؟"

قال دانتين وهو ينثني على نفسه متألماً "لو كنت خائناً حقاً، ألا تظن أن من الخطأ فعل هذا بي؟ لن يصمت الغزاة على ما تفعله بعميل لهم"

قال روباك بازدراء "أتظنهم سيهتمون بفأر قذر مثلك؟ أنت واهم.."

نهض دانتين واقفاً بعسر، ولم يكد يفعل حتى جاوبه روباك بلكمة عنيفة على أنفه هشمته وأسقطت دانتين أرضاً يتلوى من الألم.. حاول دانتين الوقوف والهرب من روباك الغاضب بجنون، لكنه توقف مع مرأى الثوار الثلاثة الذين تقدموا من موقعه بهدوء.. أوجس دانتين خيفة وهو يرى ثيابهم ملطخة ببعض الدماء.. بينما قال لهم روباك "هل تمكنتم منهم؟"

هز أحدهم رأسه قائلاً "أجل.. لقد قضينا على الجنود الثلاثة وأخفينا أجسادهم في منزل قريب خالٍ.."

تزايد ذعر دانتين لهذا الخبر وهو يحاول إيقاف الدماء المتصببة من أنفه.. ثم هتف بهم "هل تعلمون ما فعلتموه؟ لقد أقنعتُ أولئك الجنود بإيقاف تلك العملية.. والآن مع مقتلهم لن يصل هذا الخبر لقيادة الجيش، وسيتم القصف في موعده تماماً.."

قال روباك بهزء "وتظنهم سيطيعونك بكل بساطة؟"

والتفت للرجال قائلاً "أحضروه.. سنأخذه لهان، وهو سيقرر مصيره"

تزايد قلق دانتين وهو يجد أحد الرجال يدفعه أمامه بعنف، بينما حمل آخر سلاحه الملقى بعيداً وساروا خلف روباك بسرعة بين طرقات الحي الذي خلا من أصحابه.. وسادته وحشة مطلقة..

****

عندما صدر الأمر من أنطونيو، لم يتردد أي من النسور الست وهم يبدؤون التحليق بطائراتهم السوداء من المهبط الذي يقع خلف مبنى النسور.. طارت الطائرات بحملها من القنابل متخذة دورة واسعة حول المدينة بانتظار الأوامر من القادة وهم يتخذون تشكيلاً محدداً كما كان مخططاً لهم مسبقاً.. ورغم الظلام الذي يعمّ المدينة عادة إلا من أضواء متفرقة، إلا أن قادة الطائرات لم يهتموا بهذا وهم يتجهون لهدفهم المحدد وقائدهم يقول "من النسر-١ للقيادة.. دقيقة واحدة ونصل للموقع المحدد.. نطلب الإذن ببدء العملية.."

أتاه صوت أحد نائبي أنطونيو عبر جهاز الاتصال قائلاً "ابدأ التنفيذ فور الوصول.. وحاذر من إلقاء أي قنبلة في غير موضعها المحدد.."

قال القائد "عُلِم.."

وأنهى الاتصال وهو يقود طائرته التي تتقدم الطائرات الخمس الباقية حتى أصبحوا فوق الحي الشرقي من المدينة.. وبإشارة منه، وبضغطة زر، بدأت كل طائرة تلقي حمولتها من القنابل محدودة التأثير في مواقع محددة من الحي كما يحدد الجهاز في كل طائرة.. وفي تلك الليلة الهادئة، شقّت القنابل الهواء في سقوطها بصفير مميز وهي تهوي خلال ثواني معدودة لترتطم بأهدافها.. وانفجرت أولى القنابل بدوي عالٍ وارتجاج واضح وهي تفجر المنزل الذي سقطت فوقه وتحوله لأشلاء، والتي تطايرت بدورها وارتطمت بالمنازل المجاورة مدمرة أجزاء كبيرة منها.. تتابعت القنابل في سقوطها في أماكن متفرقة مصيبة الحي بانفجارات هائلة وصل صداها لأحياء بعيدة من المدينة وأيقظت ساكنيها وهم يهرعون لنوافذهم بدهشة وذعر..

بدت الانفجارات واضحة للناظر إليها ولو من مبعدة وهي مستمرة في الحي مثيرة سحابة من الدخان ونيراناً صكّت عنان السماء وهي تلتهم ما بقي من المنازل الخشبية المتهدمة.. وخارج الحي، وقفت الدوريات التي تشكل حاجزاً حول الحي على مبعدة آمنة من الانفجارات وجنودها يقفون في مركباتهم بتحفز وأسلحتهم مستعدة للتصدي لكل من يحاول الهرب من ذلك الجحيم.. لكن طال انتظارهم وهم ينظرون للدمار الذي يصيب الحي والأصوات العالية تصمّ آذانهم.. ثم قال أحد الجنود وهو يتلفت حوله "لم يخرج منهم أحد.."

قال آخر بسخرية "ربما لم يجدوا الوقت لذلك.. لحسن حظنا"

ضحك جنديان على قوله بينما بقي بعضهم يتلفت في الطرقات المؤدية للحي بتحفز.. بانتظار أي إشارة تدل على أن في تلك البقعة أي أحياء..

ومن مخرج المخبأ المؤدي للغابة، كان الثوار يخرجون لينضموا للمئات من سكان الحي الذين سبقوهم وانتشروا في الغابة القريبة وهم يتطلعون للجهة المؤدية للمدينة.. فوقف الثوار معهم ينظرون للسماء التي التمعت بنيران حمراء واهتزت الأرض بارتجاجات ناتجة عن الانفجارات نسبة لقرب موقعهم من الحي الشرقي.. كان السكان الذين نجحوا في الهرب من ذلك الجحيم ينظرون لما يجري بذعر وهلع، وبكاء أغلبهم يصل لسمع هان الذي وقف جانباً وهو يغمغم "لست أدري ما الحكمة من كل هذا.. وفي هذه الليلة بالذات.. هذا نذير شؤم"

سمع أحد السكان يصيح بحنق "تباً للغزاة.. يجب أن نقتلهم جميعاً.. إنهم مجرمون"

التفت هان خلفه فرأى عدداً من الرجال يندفعون نحو خالد المقيد بجانبه وهم يتصايحون بغضب ونية الانتقام واضحة في أعينهم، فهتف هان برجاله "لا تدعوهم يلمسونه بأذى.."

أسرع الثوار دون نقاش يشكلون طوقاً حول خالد وهم يرفعون أسلحتهم بتحفز، بينما صاح أحد السكان "تباً لكم.. لماذا تمنعوننا من الانتقام؟ لقد خسرنا كل شيء بسببهم.. لم يبقَ لنا إلا حياة بائسة نعيشها بغير كرامة"

تقدم هان أمام رجاله وهو يقول بصوت مرتفع ليغطي على صراخهم "هذا الجندي هو من أنقذ حياتكم.. لو لم يأت إلينا بخبر هذه النية التي بيّتها الغزاة لنا لما نجا أحد منكم الليلة.. على الأقل، دعونا لا نكافئه بقتله في اللحظة التي ننجو فيها بحياتنا.."

لم يخفت الغضب في الوجوه، فأضاف هان "لو كنتم حانقين حقاً على ما يفعله الغزاة بكم، فابذلوا جهداً أكبر في مقاومتهم بدل الاستسلام المذل لهم"

تبادل السكان النظرات المتوترة، وأحدهم يقول "والآن ما الذي نستطيع فعله؟ لقد خسرنا كل شيء.."

قال هان "عودتكم الآن للمدينة مستحيلة.. سيدرك الغزاة أن المنازل التي تهدمت كانت فارغة، وقد يلجؤون لعقاب من يعود منكم للمدينة في هذه الأجواء.. عليكم بالبحث عن مأوى في القرى القريبة والمدن الأخرى.. ولا تعودوا إلا بعد أن تستتب الأجواء هنا"

استسلم السكان لقوله وهم يعودون لمواقعهم السابقة ويتناقشون فيما قد يفعلونه.. بينما بدأ بعضهم بالفعل بالرحيل عبر الغابة في جماعات متفرقة.. تقدمت ميا من سيميان وزوجته اللذان وقفا بصمت في جانب المكان.. فقالت لهما "ما الذي ستفعلانه الآن؟"

ابتسمت الزوجة قائلة "لا تقلقي.. سنتدبر أمرنا"

نظرت لهما بغير فهم، فقال سيميان "لقد انقطعت كل صلة لنا بسِن مع تدمير منزلنا، ورحيل الثوار عنها.. سنرحل لمدينة أخرى، أبعد وأكثر هدوءاً، لنعيش ما بقي لنا من العمر بعيداً عن كل ما يذكرنا بالغزاة"

غمغمت ميا "أتمنى أن تهنئآ ببقائكما هناك.."

تساءلت المرأة برفق "ألن ترافقينا يا فتاتي؟"

هزت ميا رأسها قائلة "لا.. لقد اتخذت قراري ولن أتنازل عنه.. شكراً لكما على كل شيء"

عانقتها المرأة بقوة، فربتت ميا على كتفها وهي تغمغم "أتمنى أن أراكما مجدداً في يوم ما.."

وتركتهما عائدة لهان الذي قال لرجاله "ألم يعد روباك بعد؟"

أجابه أحدهم "لا.. لم يره أحدنا منذ رحل.. ودانتين أيضاً لم يعد.."

اقتربت ميا لتقف قريباً متسائلة بقلق "هل هما بخير؟"

صمت هان دون أن يجيبها وهو يراقب الانفجارات التي خفتت كثيراً وإن بقي النور المبهر للنيران التي اندلعت في الحي.. فتساءل خالد ليقطع صمت الثوار من حوله "ما هو وضعي بينكم الآن؟"

نظر إليه الجميع بنظرات غير مرحّبة، وهو أمر توقعه تماماً، بينما قال هان دون أن يلتفت إليه "وضعك غير مهم الآن.. لدي قضية أهم لأنهيها.. وبعدها سنرى ما سيحدث لك"

كتمت ميا اعتراضها في صدرها.. لقد طلبت من هان أن يمكنها من قتل الجندي، ورغم أنه أثبت صدقه ورغبته بمساعدة الثوار.. ورغم أنه أنقذ المئات من سكان الحي الشرقي.. لكن كل ذلك لا يساوي في نظرها حياة أبيها التي اغتيلت بسببه كما هي متأكدة..

لكنها كفت عن ذلك وفكرها منحصر بروباك الذي اختفى منذ فترة.. خاصة مع تاريخه المليء بالإصابات المختلفة وتهوره المشهور.. ودانتين أيضاً لم ينضمّ إليهم بعد، وهي تعتبره كصديق تهتم لأمره لكثرة ما بقي معها ومع رستين في العيادة يتجاذب معهما أحاديث مختلفة.. لكن، أين هما الآن؟ وما الذي فعلاه في هذا القصف العنيف؟..

نظرت ميا للنيران التي أضاءت الأفق وأصوات تهدم المنازل بفعل النيران التي تأكل أخشابها يصلها بوضوح.. فضمت قبضتها لصدرها وهي تتمنى أن يكونا بخير.. وأن ينجحا بالخروج من أرض الخراب تلك..

****

عندما بدأ القصف، كان روباك يركض وسط الطرقات وخلفه دانتين والرجال الثلاثة متخذين أقصرها وأقربها لمدخل المخبأ.. لكن مع أول قنبلة سقطت، كان الموقع المستهدف أمامهم بالضبط في أحد المنازل القريبة.. ومع الإنفجار الذي رجّ الأرض تحت أقدامهم، ارتمى الخمسة أرضاً والشظايا تتناثر حولهم بعنف وسحابة من الدخان تغطيهم لمدة محدودة.. فصاح روباك "لنسرع.. لا يجب أن نبقى في الموقع دقيقة أخرى"

وهبّ واقفاً ليعود لركضه في ذلك الطريق وأحد الرجال خلفه يصيح "إلى أين نهرب؟.. لا يزال المخبأ بعيداً"

صاح روباك "الإلتجاء لأحد هذه المنازل هو الموت بعينه.. لنسرع.. قد نتمكن من الوصول للمخبأ قبل تفاقم الوضع.."

بدأت القنابل تتساقط على مواقع مختلفة من الحي والانفجارات تندلع في كل مكان والرجال يحاولون الحفاظ على حياتهم وثباتهم في ذلك الطريق.. رفع روباك بصره ليرى الطائرات السوداء التي لا تكاد تبدو في ذلك الظلام الحالك وهو يغمغم لنفسه "اللعنة.. ألا نمثّل لكم أكثر من حشرات تزحف على الأرض؟ من أي شيء خلقتم؟"

رأى في جزء من الثانية التماع قنبلة تسقط أمامه، فتوقف فجأة وهو يهتف "ابتعدوا.."

لكن الوقت لم يسعفهم والقنبلة تسقط على منزل يقف أمامهم مباشرة فتنفجر فيه لتحيله ركاماً والضغط الناشيء عن الانفجار يطيح بالرجال الخمسة خلفاً أمتاراً عديدة.. تسبب الانفجار بإطاحة المنازل القريبة من ذلك المنزل لشدة تلاصقها وهي تتهاوى وتتراكم أرضاً بدويّ عالٍ.. ولم يبخل الانفجار وشظاياه على الرجال بالعديد من الإصابات قبل أن تندلع النيران في المنزل وما قربه من منازل منيرة بقعة واسعة من الحي..

نهض روباك بعسر وهو يتحسس إصابة في رأسه والدماء تسيل على وجهه.. بالإضافة لرضوض أصابت كافة جسده بعد أن ألقاه الانفجار للخلف ليصطدم بجدار منزل قريب.. تطلع حوله لرجاله ليجدهم ينهضون بألم وإصابات مختلفة توزعت على أجسادهم.. فسأل وهو يقترب من أولهم "أأنتم بخير؟"

أجابه أحدهما وهو ينهض ويحمل سلاحه "أجل.. حالياً على الأقل"

نظر روباك حوله بتوتر، ثم قال مقطباً وهو ينهض "أين دانتين؟"

تطلعوا حولهم بصدمة ليكتشفوا اختفاء دانتين مستغلاً اللحظة التي سقطوا فيها قبل أن يستعيدوا توازنهم، فهبّ روباك راكضاً يبحث عنه في الطريق الذي أتوا منه.. بصعوبة استطاع أن يسمع صوت خطوات خافتة في المكان رغم الانفجارات التي توالت وهزت الأرض والمنازل بقوة.. فصاح روباك برجاله "إنه هنا.. حاصروه"

تفرق الرجال بسرعة وصمت بين المنازل القريبة محاولين الإحاطة بدانتين الذي شق طريقه بين المنازل المحطمة والنار المشتعلة محاولاً الوصول لأقرب دورية والاحتماء بها من غضبة الثوار.. لهث دانتين بقوة والألم

ينبض في رأسه بسبب أنفه المهشم والضربات العديدة التي نالها من روباك، لكنه لم يفكر في تخفيف سرعته وهو يضع يده على أنفه الذي يتصبب دماً ويدور خلف أحد المنازل الذي كان الأقرب لنهاية الحي وإحدى المركبات التابعة للدوريات تبدو من بين المنازل.. فزاد من سرعته وهو يسمع الخطوات الراكضة خلفه تقترب بسرعة.. ولم يكد يتجاوز المنزل الأخير حتى هتف بلهفة "أرجوكم ساعدوني.. الثوار....."

فوجيء بالأزيز المميز لأسلحة الجنود وأشعتها تصيب ساقه لتخلف جرحاً حارقاً دفعه لأن يسقط على ركبته بألم وذعر.. نظر للجنود فرأى أسلحة بعضهم موجهة نحوه وقد بدا أنهم لم يتعرفوا هويته.. وقبل أن يفتح دانتين فمه، وقبل أن تنطلق الأشعة من الأسلحة مجدداً، وجد تلك الذراع التي جذبته من الأرض بقوة ليرتمي خلف أقرب جدار، بينما فحّت الأشعة وهي تضرب الأرض في الموقع الذي غادره منذ ثانية.. ولما استوعب دانتين ما يجري وجد روباك وأحد الثوار قربه وروباك يصيح فيه "أيها الأحمق.. سيقتلونك"

قال دانتين بتوتر "وكذلك أنتم.."

لم يجبه روباك بالنفي وهو ينهضه بقوة ليقف بينما تعالى صوت خطوات الجنود التي تتقدم من موقعهم.. فجذبه روباك وهو يقبض على ذراعه بيد من حديد وقال لرفاقه الذين اقتربوا "الجنود قادمون وينتوون قتلنا.. لنغادر.."

ركض دانتين معهم بعسر وهو يشعر بألم في ساقه بسبب الإصابة فيها.. لكنه لم يعترض وهو مدرك أن روباك لن يهتم براحته ولا بإصابته.. فتحامل على نفسه وهو يرى أن روباك لا يفلته أبداً وهو يشدد قبضته على ذراعه طوال الوقت.. كان القصف قد انتهى وإن بقيت آثاره المدمرة متمثلة في المنازل التي تتهدم بين وقت وآخر بعد أن عجزت عن الوقوف منتصبة كالسابق.. والنيران التي نشرت ضوءها الأحمر على الطرقات ولهيبها يحيل المنطقة لبركان ضخم.. عبر روباك ومن معه الطرقات التي تشوهت معالمها بدون تردد وهم يحاولون إيجاد أقصر طريق للمخبأ بعد أن سدّت المنازل المتهدمة الكثير من الطرق والنيران تأكلها مما جعل تجاوزها مستحيلاً..

بعد وقت طويل جابوا فيه الحي في طريق ملتوٍ لتجنب الدمار، وصل الخمسة للساحة الصغيرة التي تضمّ مدخل المخبأ.. ولصدمتهم، وجدوا المدخل قد سدّته أكوام وأكوام من الحجارة والأخشاب الناتجة عن تهدم المنازل القريبة وسقوطها عليه.. فوقفوا وسط الساحة بتوتر وهم يديرون أبصارهم فيما حولهم وأحدهم يقول بيأس "ماذا الآن؟ لقد نجونا من القصف.. لكن كيف يمكننا الخروج من هذه الورطة؟ الدوريات تحيط بالحيّ وهم عازمون على قتل كل من يخرج.. ولا أشك أن يتقدموا داخل الحي بعد هدوء هذه المعمعة لقتل كل من بقي من سكانه.."

تقدم روباك من جانب الساحة وتناول حبلاً طويلاً ملقىً بإهمال، ثم تقدم من دانتين وقيده بإحكام قبل أن يربط الحبل بعارضة خشبية قوية في جانب المكان.. ثم تقدم من الرجال قائلاً "الحل الوحيد هو شقّ طريقنا عبر المدخل من جديد.. ويجب أن يتم هذا بسرعة قبل أن يصل إلينا الجنود"

واقتطع قطعة من ذراع قميصه ليضمد بها جرح رأسه الذي لم يكن بليغاً بينما قال أحد الرجال باستنكار "هذا العمل لا فائدة له.. قد يكون المخبأ كله قد تعرض للتدمير"

قال روباك مقطباً "لن نعرف حتى نجرب.. هل تريد تجربة حظك مع الجنود؟"

لم يعلق أحد الرجال بكلمة فيما شرع روباك من فوره بحمل الأحجار عن المدخل ورميها جانباً، عندها بدأ بقية الرجال في معاونته بصمت، بينما غمغم دانتين وهو يراقبهم "يمكنني أن أمد يد المساعدة أيضاً"

قال روباك ساخراً "تعاوننا أم تقذف الحجارة على رؤوسنا وتنجو بحياتك؟"

قال دانتين متذمراً "أنجو منكم لأقع في يد الجنود؟ وضعي سيكون تعيساً في كل الأحوال"

قال روباك وهو ينهمك في عمله "كان عليك أن تقدّر ذلك جيداً قبل أن تنجرف في مستنقع الخيانة"

صمت دانتين مقطباً وهو يفكر في وسيلة للنجاة من هذه الورطة التي لم يتوقعها.. لم يظن أن الثوار يشكون به بالذات، رغم أن تصرفات هان وروباك أحياناً تجعله يظن أنهم قد خمنوا هوية الخائن.. والآن، هو في أسوأ وضع ممكن.. في الأحوال العادية، كان يمكنه أن يلتجئ للجنود من ثورة الثوار، وهم لا بد سيعملون على حماية جاسوسهم.. أما الآن، مع الوضع المتفجر، وجهل جنود الدوريات بهويته كعميل لهم، فإنهم لن يتورعوا عن قتله.. لذلك ليس أمامه إلا أن يبقى مع الثوار، حتى تسنح له فرصة الهرب قبل أن يقتلوه.. وهم لابد فاعلون..

****

طال انتظار الثوار لعودة روباك ومن معه مدة طويلة.. وخلا الموقع الذي هم فيه من أغلب السكان الذين تحاملوا على أنفسهم وغادروا بحثاً عن مأوى خوفاً من عثور الدوريات عليهم في هذا الموقع القريب نوعاً من الحي الشرقي.. فاقتربت ميا من هان وهي تسأل بإلحاح "أين أرسلت روباك أثناء إخلاء الحي؟ من المفترض أن يكون معنا الآن.. فما الذي أخره؟"

قال هان بهدوء "أرسلته في مهمة مستعجلة.. لكن لست أدري ما الذي أخره"

فقالت ميا بقلق متزايد "أما من وسيلة للاطمئنان عليهم؟.. ألا ترسل من يبحث عنهم؟ قد يكونون في مأزق.."

أجاب هان هازاً رأسه "مستحيل.. إرسال الرجال للحي الآن فيه مخاطرة كبيرة.. مع كل هذا الدمار والحريق المندلع في المنازل، لا نضمن ألا يصاب رجالنا بأذى.. ولا شك لديّ أن الجنود قد يدخلون الحي بعد هدوء الأوضاع ويفتشونه بحثاً عن ناجين.. أو بحثاً عنا.."

فقالت ميا بصوت مرتجف "ومع كل هذا.. ألا تخشى على روباك ومن معه؟"

تنهد هان مجيباً "من قال ذلك؟ لكن عليّ تحكيم عقلي فيما أفعله.. كي لا أخسر المزيد من الأرواح"

شعرت ميا بقبضة تعصر قلبها مع لفظة (مزيد) التي تفوه بها.. أهذا يعني أنه متأكد أن روباك ومن معه لم ينجوا بحياتهم من القصف؟.. هل استسلم لهذه الفكرة ولذلك لا يريد إرسال رجاله بحثاً عنهم؟..

رأت هان يتقدم من خالد ويحدثه.. فعضت شفتها السفلى بقلق وشيء من الهلع يتسلل لقلبها.. ماذا ستفعل لو لم يعد روباك؟ عادت ببصرها لمدخل المخبأ وهي تحاول كبت ذلك الهلع لئلا ينمو أكثر مما فعل، وتحاول بث بعض الأمل في صدرها.. سيعود.. لن يموت بهذه البساطة.. لا يمكن لروباك أن يتركها ويموت..

أما هان، فقد تقدم من خالد وجلس قريباً قائلاً "إذن أيها الجندي.. هل تريد أن تخبرني بحقيقة ما تفعله؟"

قال خالد وهو يرفع حاجبيه "وأي حقيقة تطلبها مني؟ أخبرتك بكل ما جرى فعلاً.. أنا لست كبقية الجنود.. لا أحب القتل والتدمير.. ولست مقتنعاً بأحقية جيشنا الاستيلاء على موطنكم والتحكم في مصائركم.. نحن غزاة، وسنظل كذلك مهما تظاهرنا بغيره"

ابتسم هان بجانب فمه معلقاً "قول كهذا سيسوقك للإعدام بيد الجيش لو لم تكن حذراً"

قال خالد هازاً كتفيه "لم يعد هناك أي داعٍ للقلق.. أنا خائن بعُرْفهم الآن.. لو عدت، فالقتل سيكون من نصيبي.. لم يعد لي ما أخسره.."

قال هان وهو يتأمله "لماذا حقاً؟"

صمت خالد وهو ينظر لميا التي أولته ظهرها وهي تراقب مدخل المخبأ بإلحاح، ثم قال مبتسماً "أنت تعلم أن ميا قد أنقذت حياتي يوماً.. وقد كنت شبه متأكد أنها معكم.. وأنها في هذا الحي.. لذلك، فوجودها هنا كان دافعاً لي لأفعل ما تمنيت فعله منذ قدومي للكوكب"

ونظر لهان مضيفاً "أن أعترف بالظلم الواقع على شعبكم من الجيش.. وأن أسعى لأرد الظلم ولو قليلاً عنكم.."

فتساءل هان دون أن يبدو عليه أي تعجب لأسبابه "وما الذي ستفعله الآن؟ هل تتوقع أن نتركك وأنت تعرف وجوهنا وأسماء بعضنا؟ وحتى لو فعلنا، ما الذي ستفعله مع الغزاة وكيف ستعتذر عما فعلته الليلة؟"

قال خالد بتصميم "لم يعد هناك أي مجال للعودة.. ولست أرغب بذلك حقاً.. قد أكون أكثر فائدة لكم من عودتي للجيش لألقى حتفي على ما فعلته"

ارتفع حاجبا هان بدهشة وهو ينظر لخالد الذي أضاف بحزم "أجل.. أنا أريد الانضمام إليكم"

قال هان مقطباً "أنت مجنون.. لن يقبل رجالي بذلك.. ولا أعتقد أنني سأقبل به حقاً.."

تساءل خالد بسرعة "لماذا؟"

أجاب هان "وجودك سيظل خطراً علينا.. لقد أنقذت المئات اليوم، لكن ما يدرينا أنها خدعة من الجيش لدسّك في صفوفنا ومن ثم القبض علينا جميعاً بضربة واحدة؟ أتظننا حمقى؟"

قال خالد "يمكنك اتخاذ كل الاحتياطات التي ترغب بها.. لكني لا أستطيع أن أعود.. حتى لو أطلقتموني، فسأهرب بعيداً عن سِن وعن الجيش فيها.. فما الذي يمنع أن تمنحوني بعض ثقتكم وتستفيدوا مما أملكه من معلومات؟"

ابتسم هان وهو يقف قائلاً "أتريد أن أصدق أنك، وأنت من يكره القتل كما تدّعي، ستكون عوناً لنا لقتل رفاقك؟ أنت واهم.."

وابتعد عنه وخالد يتبعه ببصره بصمت.. لقد كان قراره مفاجئاً، حتى بالنسبة له.. لم يضع في ذهنه أنه قد ينضم للثوار في يوم من الأيام.. والفكرة ذاتها مجنونة كما قال له ذلك الرجل.. لكن، هذا هو الحل الوحيد الذي يراه مناسباً الآن.. لينجو من الجيش.. وليعين الثوار على مقاومة الجيش وظلمه البيّن.. وليبقى قريباً من ميا، وهذا شيء غير هين بالنسبة له..

عاد ينظر لميا ملاحظاً قلقها المتزايد وهي تفرك يديها بتوتر.. أهي تنتظر شخصاً ما؟.. رأى أحد الثوار يراقبه بحدة، فأبعد بصره عن ميا وهو يتنهد مفكراً في وضعه المتشابك.. ما الذي سيقوله أيمن لو رآه الآن يا ترى؟ هل سيتهمه بالجنون؟ لا شك في ذلك.. لكنه جنون يريح ضميره على الأقل..

****

استغرق من روباك ورفاقه إزالة الركام وقتاً غير قصير رغم جهود الأربعة في ذلك.. بينما جلس دانتين في جانب المكان وهو يراقبهم ويتلفت حوله بين فينة وأخرى خوفاً من قدوم الجنود.. كانت النار الوليدة قد أنارت الموقع قليلاً مما ساعدهم على عملهم.. لكن كان خطر الجنود يتعاظم في كل دقيقة تمضي.. حاول دانتين أثناء ذلك الوقت جاهداً أن يفك قيده قبل أن يعود إليه روباك.. كان عليه أن يهرب، فحاله لدى الثوار لن يكون أفضل عن حاله عند الجنود.. بل ربما لجأ الثوار لقتله بوسيلة أكثر شناعة عقاباً على ما اقترفه.. وبعد وقت من المحاولة استسلم وهو يعود ببصره للرجال مغمغماً "أكان يجب أن تقيدني بهذه القوة يا روباك؟ تباً لك"

سمع صوت قرقعة عالية جذبت انتباهه لأحد المنازل القريبة والذي لا يزال مشتعلاً بنيران لا تهمد.. فلاحظ على الفور أن قاعدة المنزل قد أكلتها النيران، وبدأ أعلاه يميل بزاوية خطيرة.. عاد ببصره نحو الرجال الذين لم ينتبهوا للأمر، ثم نظر للمنزل الذي بدا أنه قد يتهاوى في أية لحظة.. ومن زاوية ميله، كان واضحاً أنه سيسقط في موقع قريبا جداً من مدخل المخبأ، في الجانب الآخر من موقع جلوسه هو..

نظر لما يجري باهتمام.. لو حدث ما يتوقعه، فإن المنزل مع سقوطه لابد سيطيح بروباك ورفاقه.. مما سيمكنه من الفرار إن تخلص من هذه القيود.. من أين له بفرصة ذهبية كهذه؟..

عاد ببصره للرجال يتأملهم.. وبدأ شعور آخر يتنازعه وهو صامت يراقب ما يجري.. هل يمتنع عن تحذيرهم؟ هل يستطيع فعل ذلك حقاً؟ لكن لا.. هذه فرصته الوحيدة.. إما هم أو هو.. نجاتهم أم نجاته؟ تباً.. لماذا الأمر عسير عليه فعلاً؟..

علت قرقعة مخيفة أخرى وأجزاء من المنزل تسقط أرضاً، فهتف دانتين لا شعورياً "انتبهوا.. سينهار المنزل على رؤوسكم"

رفع الرجال رؤوسهم للأعلى، ولما أدركوا ما عناه تراجعوا بسرعة جانباً وهم يرون المنزل يتضعضع بسرعة قبل أن ينهار بدوي عالٍ وحطامه يسقط أرضاً غير بعيد عن موقعهم السابق مثيراً سحابة عالية من الغبار.. سعل دانتين بقوة وهو عاجز عن تغطية وجهه من الغبار، عندما سمع روباك القريب يسأله "لم فعلت ذلك؟ كانت تلك فرصة نادرة لك للهرب"

غمغم دانتين "لأنني أحمق.. هذا هو السبب"

صمت روباك دون تعليق.. وبعد أن هدأت سحابة الغبار، عاد هو والرجال لموقع المدخل، والذي كان لحسن الحظ كما تركوه دون أن يغطيه ركام المنزل المتهدم الذي سقط على شيء من المبعدة.. فقال روباك "لنسرع.."

عادوا يسابقون الزمن في عملهم الرتيب ذلك، بينما بقي دانتين في موقعه وهو يتنهد.. لقد كان أحمقاً بالفعل.. ضيّع تلك الفرصة الذهبية والتي قد تكون الأخيرة، وعليه الآن مواجهة الثوار وغضبهم.. ولن يكون حكمهم عليه رقيقاً بأي حال..

****

الفصـــل الثالث عشر

في موقع الثوار القريب من مدخل المخبأ في الغابة، بقي الثوار في أماكنهم والتوتر يغزوهم مع طول المدة التي قضوها في انتظار روباك ودانتين ومن معهما.. وأثناء انتظارهم، اقترب رجل من الثوار في أوسط العمر يدعى سارود من هان قائلاً "بعد كل ما جرى، أتظن أن من المناسب حقاً أن نرحل إلى مـايار ونترك المدينة لذلك المتوحش؟"

غمغم هان "هناك أمور أهم من أن نعود لملاحقة عنق أحد القادة.. ما ننويه في مايار أهم بكثير ولا يؤثر فقط على مايار، بل على جيش الغزاة ككل"

فقال سارود مقطباً "وماذا عن سِن؟ ماذا بعد تلك الجريمة الوحشية التي كادت تنقلب لمذبحة؟"

قال هان بحزم "هناك غيرنا من سيسعى خلف عنقه.. أنا متأكد بعد ما حدث، فإن أيام ذلك الرجل ستكون معدودة هنا.. لابد أن الكثير من الرجال والشباب سينهضون لمقاومته ومحاولة قتله، ولن تغدوا أيامه أكثر هناء هنا كما قد يتمنى.."

لم يعلق سارود وهو يراقب ما تبقى من النيران المشتعلة في الحيّ، بينما اقترب أحد الرجال من هان قائلاً "حتى متى سنبقى هنا؟ أخشى أن يعثر الجنود على المخبأ ويصلوا لموقعنا هذا منه.. لم لا نرحل حفاظاً على من بقي من الثوار؟"

تنهد هان وهو صامت، فقال الرجل "على الأقل.. لنرسل رجلاً ليعرف ما جرى لهم بدل الانتظار بلا فائدة"

نظر هان للمدخل وهو يغمغم "يحسن بنا ذلك.."

ونادى أحد رجاله الذي سارع بحمل سلاحه والاقتراب من هان.. فألقى عليه هان تعليماته بشكل مقتضب وهو يطلب منه الحيطة والحذر.. فلابد أن الجنود يملؤون الحي الآن بعد انتهاء القصف.. وأثناء ذلك، تناهى لسمعهم أصوات خافتة مصدرها مدخل المخبأ القريب.. فهبّ الرجال وقوفاً وتحفزت أيديهم على الأسلحة وهم يشكون بهوية القادم عبر المخبأ.. هل هو روباك ومن معه؟ أم هم الجنود وقد اكتشفوا المدخل المؤدي للمخبأ عبر الحي الشرقي؟..

وعندما ظهر أول شخص من المخبأ، ارتفعت الأسلحة في وجهه بتوتر، لكنه صاح "مهلاً.. هذا أنا"

تعرفوا فيه أحد الثوار الثلاثة الذين رافقوا روباك، فخفّ توترهم وهم يخفضون الأسلحة وأحدهم يقول بدهشة "كيف نجوتم من ذلك القصف العنيف؟"

قال الرجل زافراً وهو يتقدم "تلك كانت معجزة.."

تبدّى خلفه الرجلان الآخران، ومن خلفهم روباك وهو يجذب دانتين معه.. وفور أن رأت ميا روباك هبّت واقفة وهي تشعر براحة حقيقية وتنهدت مفرغة توترها الذي تعاظم منذ بدأ القصف، وإن نظرت بقلق للضماد الملطخ

بالدماء حول رأسه.. لكن لما رأت دانتين ووجهه المليء بالكدمات والدماء التي سالت من أنفه المهشم، تقدمت منه وهي تبعد يده عن أنفه قائلة بقلق "ما الذي حدث لك يا دانتين؟ هذه إصابة سيئة"

شعرت به يجذب يده ويبعدها بشيء من الجفاء.. فنظرت له بدهشة وهي مستغربة من التقطيبة التي علت جبينه..

ثم سمعت روباك الذي كان قريباً يقول "دعيه يا ميا.. إنه لا يستحق اهتمامك هذا"

تعاظمت دهشتها وهي تتساءل "من الذي سبب له كل ذلك؟"

لم يجب دانتين وهو يشيح بوجهه.. فقال روباك وهو يجذبه "أنا من فعل.."

اتسعت عيناها بغير تصديق وهي تتابعهما ببصرها.. لم تكن تعلم بأي شيء مما يدور بين الثوار، لكن للمرة الأولى ترى روباك يلجأ لاستخدام العنف مع رفاقه.. ما السبب المهول الذي دفعه لتصرف كهذا مع دانتين الشاب المرح اللطيف عادة؟..

رأت روباك يقترب من هان وهو يجذب دانتين بشيء من القسوة.. ولما رفع هان بصره لينظر في وجه دانتين، أشاح دانتين بوجهه دون أن يتفوه بكلمة.. ولما نظر هان لروباك أجاب الأخير سؤالاً لم يطرحه هان "إنه هو بالفعل.. لم يعد هناك أي مجال للشك"

عاد هان ببصره نحو دانتين ونظر له بصمت لوقت طال.. بينما قال أقرب الرجال منه بحنق "لماذا أيها الخائن؟ أي شيء دفعك لخيانة رفاقك وأهلك وشعب كوميت كله لتعاون غزاة قساة القلوب على احتلال موطنك؟"

صدمت ميا لما تسمعه بينما نظر خالد لما يجري باهتمام.. وضع ذاك الشاب معاكس تماماً لوضعه هو.. هو خان رفاقه ليعاون أهالي كوميت ويردّ الظلم عنهم.. وذلك الشاب خان رفاقه ليعاون الغزاة على المزيد من الظلم.. حقاً إنها صدفة غريبة بالفعل..

تحدث هان أخيراً وهو يقول بلهجة هادئة "لماذا يا دانتين؟"

نظر له دانتين مقطباً وهو يسأل "أتريد مني تفسيراً؟ وهل هذا سيجعلكم تغفرون لي وتسامحوني على ما فعلته؟"

شدد روباك قبضته على ذراعه وهو يقول بحدة "ألا تملك ذرة خجل مما فعلته أيها القذر؟.."

جذب دانتين ذراعه وهو يصيح في روباك "وما أدراك؟ ربما اضطررت لرمي كل ما أشعر به جانباً والمضي في هذا الطريق وأنا أعرف عواقبه لسبب ما.. أتظنني ولدت خائناً؟"

تساءل هان "ولهذا السبب أنا أسألك.. أريد أن أعرف ما الذي دفع شاباً مثلك لخيانة شعبه.. خاصة أن أباك كان من رفاقنا، وكان من أشد المخلصين لكوميت وللثورة"

أشاح دانتين بوجهه قائلاً "لا أحب استدرار العواطف.. ما حدث قد حدث، ولا يهمني إبداء أسبابي"

وجد روباك يدفع سلاحه في صدره وهو يقول بصرامة "ستجيب عن كل ما نسألك عنه.. الآن.."

قال دانتين بسخرية "أنا ميت في كل الأحوال.. فافعل ما بدا لك.."

قال هان بصوت حازم "وربما لا.. يعتمد هذا على تعاونك معنا"

التقت الأعين عنده بدهشة مصدومة، ثم غمغم دانتين بحذر "أتحاول استدراجي؟"

نهض هان فجأة وهو يقول لرجاله "لي حديث خاص مع دانتين.. رستين، هات ما تملكه من عدة واتبعني لتعالج دانتين.. لقد فقد الكثير من دمائه كما يبدو، كما أن ساقه مصابة"

وابتعد مشيراً لدانتين ليتبعه، فسار دانتين خلفه بتعجب واستغراب دون أن يجد اعتراضاً من بقية الثوار رغم الضيق الذي نضح من وجوههم.. وأسرع رستين يتبعهم وهو يحمل حقيبة صغيرة جلبها معه من المخبأ قبل هربه منه..

اقتربت ميا من رباك متسائلة بغير تصديق "روباك.. أخبرني أرجوك.. دانتين خائن؟"

جلس روباك جانباً وهو يقول "أجل.. للأسف كانت الشكوك تدور حوله منذ مدة، لكن لم نتمكن من التأكد من الأمر إلا الليلة.."

تذكرت ميا تحذير روباك لها منذ مدة طويلة بعد حديث دار بينها وبين دانتين.. لكنها قالت بغير تصديق "لا يمكن.. إنه شاب طيب.. وقد ساهم في العديد من العمليات التي قمتم بها وخاطر بنفسه عدة مرات.. لا يمكن"

قال روباك مقطباً "لا تدعي ظاهره يخدعك يا ميا.. لقد تأكدت بنفسي أنه عميل للغزاة.."

سألت ميا بإلحاح "لماذا؟"

هز روباك رأسه نفياً قائلاً "لا أدري.. لكن لابد أن يحصل هان على إجابة هذا السؤال.."

تهاوت ميا أرضاً وهي تفكر في كل ما جرى الليلة ذاهلة.. ما حقيقة ما يجري حقاً؟.. ذلك الجندي الذي ينتمي لغزاة لا تعرف قلوبهم الرحمة، قد خاطر بحياته لتحذيرهم، وأنقذ مئات من سكان الحي من موت محتم.. ودانتين، الذي ينتمي لسِن، ويعاني مثل أهلها من ظلم الغزاة.. والذي ينتمي للثورة ويقاتل معهم لتحرير كوميت، قد خان كل هؤلاء وساعد الظالم على ظلمه.. فأين الحقيقة فيما تراه؟.. أحقاً خدعتهم المظاهر بهذه الصورة السافرة؟.. أين الحق وأين الصواب في كل هذا؟.. ما عادت واثقة من أي شيء أبداً..

****

استغرق رستين وقتاً في علاج دانتين، بقي هان خلالها جالساً على مقربة بصمت وهو ينظر لدانتين الذي يشيح ببصره بعيداً عنه.. كانوا قد انفصلوا عن البقية مسافة معقولة وسط الغابة، وبعد أن انتهى رستين ولملم عدته، قال له هان "اتركنا بمفردنا يا رستين.. وأخبر البقية ألا يقاطعونا"

نظر له رستين بشيء من القلق قائلاً "هل ستكون بخير؟"

ابتسم هان وهو ينظر لدانتين مجيباً "سأكون بخير.. لا تقلق"

تردد رستين قليلاً، ثم غادر تاركاً الاثنين والصمت يظللهما.. فغمغم دانتين "لِمَ تفعل ذلك حقاً؟ ظننت أن طلقة ستصيب رأسي في اللحظة التي سأقف فيها أمامك"

قال هان دون أن تغيب ابتسامته "أتظن ذلك؟ آسف لتخييب ظنك.. لكني لازلت بحاجة لأن أفهم ما يجري.. ولا حجة لديك الآن فنحن بعيدان عن الآخرين ولن يكون هناك أي استدرار للعواطف هنا"

رفع دانتين بصره وهو عاجز عن فهم هان.. هذا الرجل يدهشه بردود أفعاله التي لا تخضع للمنطق.. ثم قال بعد تردد "ما الذي تعتقد قد يدفع المرء لخيانة شعبه؟ لست مريضاً نفسياً ولا أسعى للحصول على أي حظوة لدى أولئك الغزاة.. لقد واجهتني ظروف مؤسية ولم أجد بداً مما فعلت.. ولا أعتقد أن التبرير قد يبرؤني أبداً"

قال هان "سأستمع للحكاية كلها.."

تنهد دانتين وهو يصمت للحظات، ثم قال "أنت تعلم أن أبي قتل في إحدى عملياته التي رافق فيها الثوار.. كان موته صدمة لنا، ولم تخفت الصدمة مع مرور الأيام فقد أصبح وضعنا في المدينة أسوأ بمراحل بعد موته.. عشت أياماً عصيبة وأنا أحاول العمل بكل طاقتي لتوفير حياة ملائمة لعائلتي، وهي ليست بالصغيرة.. لكن ما عجزت عنه هو علاج أمي التي وقعت فريسة مرض قاتل.. لقد كانت تقاوم ذلك المرض منذ زمن طويل، لكن مع مقتل أبي، فإن جسدها استسلم لذلك المرض وكأن قواها ما عادت كافية لمقاومته.. حاولت علاجها بأي طريقة ممكنة.. لكن عجزت عن ذلك ولم أجد مساندة ممن أعرفهم، وكنت جازماً بأن أيام أمي معدودة في هذه الدنيا.."

تنهد وهو يصمت قليلاً، ثم غمغم "وأخيراً، بعد أن ضاقت بي الدنيا، توجهت للغزاة وعرضت عليهم أن أعمل كعميل لهم، مقابل أن يتم علاج أمي في أحد مستشفياتهم الأكثر تطوراً.. وقد وافقوا على ذلك.."

ونظر لهان الذي ظل صامتاً يستمع إليه بدون انفعال، ثم أضاف "بدأ علاج أمي في مستشفى الجيش، وبدأت حالتها تتحسن كثيراً.. كما أنهم وفروا لي مبلغاً مالياً يعفيني من العمل ويمكنني من التفرغ للعمل معهم.. في البدء، كنت أتجسس على أحوال المدينة، وعلى ما أراه وما أسمعه عن الثوار.. لكن بعد فترة من الوقت، وبعد أن استوثقوا من تعاوني، طلبوا مني الانضمام لكم.. على أمل أن أكون أكثر فائدة وأن أمكّنهم من القبض عليكم جميعاً دفعة واحدة"

تساءل هان "ولماذا لم تفعل حتى الآن؟ أنت معنا منذ شهور.."

قطب دانتين مجيباً "لست مجنوناً لأفعل.. قد أكون انضممت لهم، لكن حدث ذلك كرهاً ولم أسرّ به كثيراً.. كنت أزودهم بالكثير من المعلومات المغلوطة، وبعضها فقط كان صحيحاً وإن كان سطحياً.. وكلما تذمر قادة الجيش من ذلك تعلّلت بأنني لا أحظى إلا بالقليل من المعلومات لأنني في وضع أدنى من بقية الثوار نسبة لحداثة انضمامي إليكم.. وكذبت عليهم بشأن المخبأ قائلاً إنكم لم تسمحوا لي بعد بمعرفة موقعه تماماً.. وكلما حاولوا دفعي لدسّ جهاز تتبع في أحد الثوار، كنت أفسد الأمر في كل مرة.."

عاد هان يتساءل "وماذا عن العملية التي انتوينا بها إنقاذ رجالنا من الإعدام؟ هل أفشيت سرها حقاً؟"

أجاب دانتين بمرارة "لقد أكد لي الغزاة أنهم لن يتمّوا الإعدام حقاً، وأنها مجرد خدعة لدفعكم للخروج وإظهار أنفسكم.. لذلك اطمأننت أنه في حال فشلتم في إنقاذهم، أن ضرراً لن يصيبهم حقاً.. وكانت صدمتي مريرة مع مرأى ما حدث.. صدقني لم آسف على شيء فعلته في حياتي مثل أسفي على هذا الأمر.."

اعتدل هان في جلسته قائلاً "وحتى متى كنت ستظل في هذه المهزلة؟"

خفض دانتين بصره مجيباً "حتى تشفى أمي على الأقل.. كنت أرجو أن يحدث ذلك سريعاً، وكنت سألغي اتفاقي معهم بعدها على الفور وأهرب من سين كلها مع عائلتي.. لكن لم يحدث هذا حتى الآن"

أطرق هان مفكراً ودانتين يراقبه، ثم غمغم وهو يتحسس أنفه بالضمادة عليه بألم "ما الذي تنوي فعله بي الآن؟ لا أظنك ستكون بالكرم الكافي لتطلقني.."

رفع هان بصره قائلاً "لا.. ليس بعد.. هناك خدمة أخيرة أود منك تحقيقها لنا.."

رفع دانتين حاجبيه بدهشة وهو يفكر بتلك الخدمة بشيء من التوجس.. لا يمكن أن ينتهي الأمر بهذه البساطة.. فما الذي ينتويه هان حقاً؟..

****

تسلل دانتين بين المنازل المتفحمة، والتي زادها نور الشمس التي اعتلت السماء بشاعة في المنظر، غير عابئ بالرائحة الخانقة التي تحرق الأعين لقوتها.. وعند إحدى الزوايا، توقف لبرهة وهو قابض على سلاحه وتطلع لبضع جنود يسيرون في أرجاء المكان وهم يتفحصون ما بقي من المنازل.. قطب وهو يتذكر قوله لهان قبل أن يفارقهم "كيف تعلم أنني لن أهرب؟ أو أنني لن أخونكم وأقود الجنود لموقعكم هذا؟"

علت شفتي هان ابتسامة هادئة كعادته وهو يقول "نوعاً ما أنا واثق أنك لن تفعل ذلك.. ألا تريد التكفير عن كل ما فعلته؟ إذن حقق لنا هذا، وبعدها ارحل من المدينة كلها.."

تساءل دانتين بقلق "وماذا عن عائلتي؟"

أجاب هان "سنفعل شيئاً بأمرهم.."

كانت إجابة مبهمة، لكن لم يكن أمام دانتين إلا الخضوع لطلبه.. لكن الآن، كان التوتر يغمره وهو يغمغم مراقباً الجنود "ماذا لو أطلق الجنود أشعتهم على رأسي مباشرة؟ سيفشل كل شيء قبل أن يبدأ.."

استجمع شجاعته، وخرج من موقعه مواجهاً الجنود الذين التفتوا إليه بسرعة والأسلحة ترتفع نحوه.. فصاح وهو يرفع ذراعيه عالياً "مهلاً.. أنا دانتين، أحد عملائكم في مدينة سِن"

لم يتراجع الجنود وأحدهم يقول "أتريدنا تصديقك ببساطة؟"

فهتف دانتين وهو يتراجع خطوة "أنا العميل سبعة.."

مد أحد الجنود يده ليبعد سلاح رفيقه قائلاً "مهلاً.. أنا أعرفه.. إنه بالفعل أحد عملائنا"

انخفضت الأسلحة ودانتين يتنهد مقترباً منهم وهو يقول "جيد.. خلت للحظة أنكم ستقتلوني دون تفاهم"

قال له أحد الجنود بصرامة "لقد اختفى ثلاثة جنود البارحة قبل القصف عند أطراف الحي.. أتعلم ما جرى لهم؟"

قال دانتين مظهراً أسفه "رأيت الثوار يقتلونهم قبل أن يفروا من الحي قبل القصف.. لم أستطع مساعدتهم، ومع بدء القصف هربت لأنجو بحياتي"

فقال الجندي مشيراً حوله "وأين سكان الحي؟ لا أرى أي جثث في الموقع.. كيف علموا بالقصف وهربوا قبل حدوثه؟"

هز دانتين رأسه مجيباً "لقد وصلتهم معلومات بذلك من أحد جواسيسهم، ولست أدري كيف حصل على مثل تلك

المعلومة.. وقد قاموا بتحذير أهل الحي ونقلهم بعيداً قبل حدوث القصف"

قال الجندي باستنكار "مستحيل.. لقد حاصرت الدوريات الحي تماماً.. لم يكن هناك أي مخرج للسكان ولم نرَ أحداً منهم"

أسرع دانتين يقول "هناك مخرج.. وهو يؤدي لمخبأ الثوار الذي لا يبعد كثيراً عن الحي.."

قال الجندي باهتمام "وأين هو؟ دلنا عليه حالاً"

فقال دانتين "ليس الآن.. يجب أن تجهزوا ثلة من الجند لمهاجمة المخبأ، والقضاء على الثوار جميعهم بضربة واحدة.."

التفت الجندي لرفاقه يحدثهم بلغة لم يفهمها دانتين، ثم أسرع أحدهما يجري اتصالاً بالقيادة ويبلغهم بما حصل عليه من معلومات.. بينما قال آخر لدانتين "لا تذهب حتى تدلنا على الموقع.. سيتم تجهيز قوة كافية للقضاء على الثوار وتخليص المدينة منهم.."

أبدى دانتين موافقته، عندما سأله الجندي "ما به وجهك؟"

قطب دانتين وهو يجيب "لقد حدث شجار عنيف بيني وبين أحد الرجال.. لا شيء مهم"

نظر له الجندي متفحصاً بشك، فقال دانتين "كان هذا قبل القصف بمدة.."

لم تتغير نظرات الجندي المتشككة فيه، لكن دانتين صمت وهو يراقب بقية الجنود.. كل شيء يسير على ما يرام.. لكن هل سيبقى الوضع هكذا للنهاية؟..

****

استلزم الاتصال بالإدارة وأخذ موافقة القائد ماركوس على مداهمة مخبأ الثوار، ومن ثم تجهيز قوة كافية من الجنود بأسلحتهم وبعض العدة اللازمة للهجوم عدة ساعات.. وعندما قادهم دانتين نحو المخبأ كانت الظلال قد استطالت أمامهم والشمس تميل نحو مغيبها الذي لم يبق عليه الكثير.. سار دانتين عبر طرقات الحي وهو يقول لأحد قادة الدوريات الذي كان يرافقه "المخبأ غير بعيد من هنا.. إنه في موقع لم يخطر في بالي مسبقاً.."

وصلوا للزقاق المؤدي للساحة الصغيرة والمدخل الذي أحاط به الحطام، والذي كانت النار تأكل ما تبقى منه.. فاقترب دانتين من المدخل وهو يقول بصوت خفيض "هذا المدخل يؤدي لجزء مهمل من الأنفاق تحت المدينة.. لو تتبعتموه ستجدون أنه يؤدي بكم خارج الحي والمدينة حيث أعد الثوار الموقع كمقر لهم.. المخبأ له عدة مخارج، لذلك كونوا حذرين عند الهجوم لئلا يفروا من مخرج آخر"

قال القائد بصرامة "دع تقرير هذا لنا.."

واستدار عائداً لجنوده الذين تجمعوا في الساحة وخارجها وألقى إليهم تعليماته بشكل سريع ومقتضب.. بينما تراجع دانتين ليقف جانباً وهو يمسك سلاحه بشدة.. وبعد لحظات، عاد القائد وهو يوجه جنوده لدخول المخبأ،

فأطاعوه وهم يدخلونه بسرعة وصمت حاملين أسلحتهم بتحفز شديد.. وقبل أن يتبعهم القائد، التفت لدانتين قائلاً "هيا معنا.."

توتر دانتين وهو يقول "وما الحاجة لوجودي؟ أخشى أن يراني الثوار ويعلموا بأمري"

قال القائد بحزم "سنقضي على الثوار جميعهم اليوم، فلا خوف من رؤيتهم لك"

تقدم دانتين بمضض دون أن يجرؤ على الاعتراض، فهذا كفيل بنثر الشبهات حوله.. وتبعه القائد بعد أن ترك عدداً من رجاله خارج المدخل تحسباً لأي طارئ.. وفي النفق الواسع، تقدم دانتين بإشارة من القائد والجنود يتبعونه بصمت تام حتى وصل لموقع قريب من مقر الثوار والذي يعزله عن النفق جدار من الأخشاب مدعم بحاجز من الأجولة المليئة بالرمل..

وبإشارة من القائد، ارتدى الجنود أقنعة للتنفس بعد أن تخلوا عن خوذاتهم.. وتسلل بعضهم متقدمين من المخبأ ليقوموا برمي قنابل صغيرة فوق الجدار الخشبي والذي لا يصل للسقف.. وفور سقوط القنابل سمعوا هسيساً يعلو قبل أن يظهر دخان خفيف من الجدار غمر الموقع..

تراجع دانتين بعيداً عن الدخان الذي عرف أنه مسيل للدموع، ونظر بقلق للجنود الذين لم يعلقوا على الصمت التام بعد انفجار تلك القنابل، والقائد يعطيهم الإشارة للهجوم لينطلق الجنود نحو المخبأ وأسلحتهم مشهرة وتحفزهم لا حدود له.. كانت القاعة التي دخلوها خالية، فقام الجنود بتفتيش الغرف الجانبية ومختلف مواقع المخبأ بينما سار القائد يتفحص القاعة قائلاً وتقطيبة على وجهه "هذا بالفعل موقعهم.. لكن يبدو أنهم تركوه على عجالة.. هل علموا بقدومنا؟"

في تلك الأثناء، وفور أن اختفى الجنود في المخبأ، تراجع دانتين وهو يدير ظهره للموقع وللمدخل الذي قدموا منه ويركض عبر الأنفاق المهملة وهو يستخرج من جيبه جهازاً صغيراً أسود اللون.. وبضغطة خفيفة على الزر فيه، ارتجت الأنفاق بقوة مع الانفجار العنيف الذي اندلع من أجزاء متفرقة من المخبأ بعد أن قام الثوار بتوزيع عدد من القنابل فيه.. ورغم ابتعاد دانتين عن الموقع، إلا أن الضغط الناشيء عن الإنفجار في موقع ضيق كهذا قد دفعه أمتاراً عديدة قبل أن يسقط على وجهه بعنف..

نهض دانتين متألماً وهو يشعر بسجحات عديدة في وجهه وذراعيه.. لكنه لم ينتظر وهو يعاود الجري نحو مدخل آخر من المداخل العديدة التي يستخدمها الثوار، والمؤدي لحيّ آخر من أحياء المدينة..

في الوقت ذاته، كان رجلان من الثوار يتسللان من المخبأ المواجه للغابة وهما يسرعان لروباك وأحدهما يقول "الجنود قادمون بالفعل.."

غمغم روباك "جيد.."

دام الصمت في الموقع لأقل من دقيقة قبل أن تهتز الأرض بارتجاجات عنيفة دليلاً أن الخطة جرت كما أرادوا لها.. وبعد أن دام الارتجاج تحت أقدامهم مدة من الوقت، مثيرة فزع الطيور على الأشجار وهي تطلق صيحات حادة، هدأ كل شيء بغتة وسحابة كثيفة من الغبار تندفع بقوة من مدخل المخبأ قبل أن يتهدم والأحجار تغطيه تماماً..

ظل الثوار في مواقعهم بصمت بانتظار أي حركة قد تبدو من المخبأ أو أي صوت قد يدل على وجود أحياء.. لكن طال انتظارهم دون تغيير والصوت الوحيد الذي يسمعونه هو صياح الطيور التي أطلقت احتجاجاتها لما يجري في الغابة مع انتهاء هذا النهار.. بعد صمت طال، التفت روباك لرفاقه قائلاً "هيا بنا.. انتهينا من أمر هذا المخبأ" واستدار مغادراً المنطقة وخلفه الرجال الذين لم يتخلوا عن أسلحتهم وتحفزهم رغم انتهاء كل شيء.. وبعد سير قصير في الغابة، التقوا ببقية الثوار مع هان والذين وقفوا متحفزين بدورهم بعدما وصلهم الدوي المكتوم الذي بدا بوضوح في اهتزاز أشجار الغابة القريبة.. ولما رأوهم تساءل هان "هل نجحت الخطة؟"

قال روباك هازاً رأسه "نجاح كامل.. لم ينج منهم أحد أبداً.."

لم يبتسم هان أو يظهر سعادة بذلك وهو يتساءل "وماذا عن دانتين؟"

قال روباك "لم يظهر بعد.."

تنهد هان وهو ينظر للثوار من حوله وقال "الآن، يمكننا أن نبدأ مسيرنا للعاصمة الشمالية.. ستكون رحلة صعبة وما ينتظرنا هناك لن يكون أقل صعوبة.. فمن يريد التراجع له مطلق الحرية بذلك"

شعرت ميا أنه ينظر لها بالذات عندما قال جملته الأخيرة، لكنها جابهت عيناه بعينين مليئتين بعزم وقوة لا تلين.. ولما لم يتفوه أي من الرجال بكلمة، تنهد هان وهو ينهض قائلاً "حسناً.. سنذهب الآن للمزرعة التي حددها لنا روباك.. ومع الغد، سنبدأ مسيرنا بمجموعات صغيرة.. وملتقانا سيكون في مايار"

تبعه الرجال بعزم، وبينهم خالد المقيد والذي لم ينبس بكلمة، بينما سارت ميا خلفهم وهم يقطعون الغابة الشاسعة بصمت.. ولما ارتقوا أحد المرتفعات القريبة، وقفت قليلاً تنظر للمدينة التي لم تكن على مبعدة من موقعهم.. ومع الشمس الغاربة، بدت أسطح المنازل تلتمع بحمرة زاهية، وظلالها تستطيل وهي تستعد لليل طويل كالعادة.. تنهدت ميا وهي تتذكر أيامها في هذه المدينة، ما رأته وما جابهته في أزقتها.. وما عقدت عزمها عليه وهي مختبئة تحت أرضها.. تذكرت أبيها الذي اغتيل في ساحتها، والذي لم تهدأ مرارة ذكراه بعد مرور كل ذلك الوقت..

شعرت بتربيتة خفيفة على كتفها، فاستدارت لتواجه عين روباك المتفحصة.. وقال لها "أنادمة أنت الآن على رحيلك؟"

ابتسمت وهي ترى انعكاس ألوان المغيب واضحاً في سواد عينه.. وقبل أن تغرق فيها وتنسى نفسها، جذبت بصرها بعيداً للمدينة من جديد وهي تقول "أتمزح؟ أنا أشد سعادة الآن برحيلي مما كنت عليه سابقاً"

وقف روباك قربها صامتاً يتأمل ابتسامتها بتعجب كبير.. ولما طال وقوفهما، جذب يدها قائلاً "لنذهب.. لا تريدين أن يتخلى عنك هان الآن، أليس كذلك؟"

أسرعت خلفه وابتسامة سعيدة ترافق اختلاجة خفيفة في قلبها.. وحرصت في سيرها على البقاء قريبة من روباك أو خلفه ببضع خطوات لا تزيد.. لا تعلم متى سيغيب عن بصرها مجدداً، لكنها الآن تكتفي بهذه السعادة الصغيرة التي يمنحها بوجوده قربها.. ولا تنوي التخلي عن ذلك الآن.. خاصة مع المستقبل المجهول الذي ينتظرهم منذ بدء رحيلهم للعاصمة الشمالية.. ما الذي سيجري لهم أثناءها، وبعدها؟.. لا تعرف.. وحقاً لا تريد أن تعرف ذلك الآن..

****

استغرق من الثوار السير عدة ساعات قبل أن يصلوا لوجهتهم، وهي مزرعة متوسطة الحجم تحت سفح سلسلة جبلية ضخمة.. كانت أقرب المزارع الأخرى والقرى تبعد عنها ساعتين سيراً على الأقدام على الأقل، مما وفر لتلك المزرعة عزلة ملائمة لإيواء الثوار مؤقتاً بعيداً عن الأعين الفضولية، ولحسن حظهم، فقد وصلوا والليل مخيم على المنطقة كلها مما شكّـل ستاراً أفضل لهم..

في البدء، تقدمهم روباك نحو المزرعة ليبلغ أصحابه بوصولهم، رغم أن ذلك قد تأخر عن مخططهم السابق بسبب الأحداث التي جرت في الحي الشرقي.. ولما وصل الثوار بعده، وجدوا أصحاب المنزل في استقبالهم وأكبرهم سناً يهرع نحو هان برفقة روباك ويصافحه قائلاً "يسعدني مَقْدَمكم أيما سعادة يا سيدي.. اعتبروا المزرعة ملككم ولا تتحرجوا من طلب أي شيء"

قال هان "شكراً لك يا صديقي.. سامحنا على إزعاجك وأهلك هذه الليلة.. لن يطول مكثنا هنا فغداً سنمضي في طريقنا.."

قال الرجل "لا تهتم بذلك.. المزرعة وأصحابها رهن إشارتكم.. هذا أقل ما يمكنني فعله للثوار.."

ثم نظر لخالد الواقف قريباً من هان مقيد اليدين، ولا يزال برداء الجنود.. فغمغم الرجل "ألا يوجد خطر من وجوده معكم؟"

قال هان "لا خطر منه حالياً.. لا تقلق.."

تقدم رجل آخر وشاب من الثوار، بينما لاحظت ميا وجود امرأة وفتاتان صغيرتان قرب باب منزل صغير لا يختلف كثيراً عن منزلها الجبلي الذي أحرقه الجنود فيما سبق.. دارت ميا ببصرها في المزرعة التي لم تكن غريبة لعينيها وهي التي عاشت عمرها كله في مزرعة مشابهة، وشعرت بحنين جارف لرائحة التربة المبلولة والمحصول المحصود منذ فترة قريبة والهواء المحمّل برائحة أزهار الأشجار العبقة..

انتبهت أن الثوار تقدموا نحو المنزل الذي أضيئت نوافذه بمصابيح ذات إضاءة خفيفة، فأسرعت ميا خلفهم ودلفت المنزل وسط نظرات المرأة صاحبة المنزل المتعجبة، ولم تلبث أن اقتربت منها مرحبة ومتسائلة بفضول واضح "ما الذي حملك على الانضمام للثوار يا ابنتي؟ أنت فتاة صغيرة، فما الذي يجبرك على إقحام نفسك في عمل خطر كهذا؟"

ابتسمت ميا مجيبة "أنا أساعد طبيب الثوار في عمله.. فلدي خبرة لا بأس بها في ذلك.."

ارتفع حاجبا المرأة وهي تقول "ومع ذلك.. تبقين في وضع خطر ما دمت معهم.. ألن يقلق أهلك؟"

غمغمت ميا "لا.. فلم يبق أحد منهم ليقلق عليّ"

صمتت المرأة ونظرة إشفاق تتبدى في عينيها، أما ميا فقد دارت ببصرها في جوانب المنزل الدافئ والأليف.. ثم راقبت مجموعة الثوار التي سنح لها الحظ البقاء في المنزل مع هان.. أما البقية، ممن لم يضمهم المنزل، فقد أووا لمستودع واسع خلف المنزل قام صاحب المزرعة بإعداده لبقائهم وحرص على أن يضمّ عدة وسائل للتدفئة، لئلا

يتجمد الثوار برداً في هذه الليلة القارسة..

****

عندما اجتاز دانتين المسافة التي تقطعه عن منطقة اللقاء، حيث طلب منه هان أن يلاقيه بعد أن يفرغ من مهمته، وصل للمنطقة الكائنة على أطراف الغابة بعيداً عن مدخل المخبأ.. فوقف هناك بتوتر وهو يدور حول نفسه بحثاً عن أي أثر للثوار.. ثم غمغم لنفسه "هل خدعني هان؟ لماذا؟"

سمع شخصاً يناديه من خلفه بخفوت، فاستدار بسرعة وعيناه تتسعان.. ومن بين الظلال التي لا يكاد نور القمر يزيلها، رأى تلك المرأة التي تسير بشيء من الوهن مقتربة منه، وخلفها صبي وفتاتان متراوحتان في العمر.. كسر دانتين صدمته بصعوبة وهو يندفع نحو المرأة ويضمها بقوة.. فلفّت المرأة ذراعيها حوله وهو تقول بعينين مغرورقتين بالدموع "ما الذى جرى يا بني؟ عندما جاؤوا لاصطحابنا دون أي شرح، أصابني ذعر من أن يكون مكروهاً قد أصابك، فنحن لم نرك منذ مدة طويلة.."

نظر دانتين لوجوههم وهو يقول بدهشة "أمي.. ما الذي تفعلونه هنا؟"

قالت الأم بهلع وهي تتأمل ملامح وجهه بالإصابات والضماد على أنفه "ما الذي جرى لوجهك؟"

غمغم دانتين "لا تقلقي يا أمي.. أنا بخير.."

شعر دانتين بالفتاة الأصغر عمراً تقترب منه وتتمسك بذراعه بدورها قائلة بصوتها الطفولي "أين كنت يا أخي؟ لقد اشتقت لك كثيراً"

ابتسم لها دانتين ماسحاً على شعرها، ثم التفت للأم قائلاً "كيف خرجت من المستشفى؟ بل كيف وصلتم لهذا الموقع؟"

قالت الأم وهي تمسح بيدها على وجهه "لقد غادرت المستشفى منذ مدة يا بني.. وقد جاء أحد رفاقك اليوم وطلب منا الرحيل برفقته بدون إبطاء.. أخبرنا أنه مرسل من قبل هان، لذلك وثقت به"

فقال دانتين مؤنباً "لماذا تركت المستشفى يا أمي؟ تبدين بحال سيئة"

زفرت هازة رأسها "لم أستطع البقاء أكثر من ذلك.. لا أعلم هدف الغزاة من منحي العلاج في مستشفاهم، لكني لم أطق البقاء هناك والنظر لوجوههم لحظة أخرى.. وأنت تعلم كم أبغضهم"

تلفت دانتين في وجوه إخوته مغمغماً "هل أنتم بخير جميعاً؟"

أجابته فتاة تصغره في العمر بقليل قائلة "كنا في أفضل حال عندما جاءنا ذلك الرجل وأثار في نفوسنا ذعراً لا مثيل له.. ما الذي جرى لنغادر المدينة بهذه الصورة؟"

قال دانتين بشيء من الحذر "ألم يخبركم الرجل أي شيء؟"

هزت الأم رأسها وهي تسأله بقلق "لا.. ما الذي جرى؟"

تنهد دانتين وقد أدرك أن هان لم يبلغهم بأمر خيانته، ثم قال "لا شيء.. الغزاة يبحثون عني.. وبقائي، أو بقاؤكم،

في سِن فيه خطورة علينا.. لذلك كان محتماً علينا أن نغادر ولا نعود لها مرة أخرى"

علت الصدمة وجوههم، لكن الأم سارعت لتقول " هذا خير لنا.. لنذهب إلى مسقط رأسي.. إنها قرية صغيرة منعزلة.. وهناك، سنبتعد عن الغزاة وكل ما يذكرنا بهم"

ابتسم دانتين قبل أن يقول "كيف استدللتم على هذا الموقع؟"

أشارت الأم خلفه قائلة "هذا الرجل الطيب ساعدنا على الخروج من المدينة وبقي معنا حتى وصولك"

استدار دانتين ليلاحظ وجود الرجل للمرة الأولى.. فلم يتعرفه كأحد الثوار.. عندها تقدم منه قائلاً "شكراً لك يا سيدي على ما فعلته.. لكن من أنت؟"

أجاب الرجل "أنت لا تعرفني، لكني أعرف هان، وهو قد طلب مني أن أحضر عائلتك من المدينة بأقصى سرعة وأنتظرك هنا حتى تصل.. وهو يقول لك إنك حر في الذهاب أينما تريد"

خفض دانتين بصره مغمغماً بشيء من المرارة "هم لا يريدون رؤيتي بتاتاً.. شيء غير مستغرب"

أضاف الرجل "وقد أوصاني أن أزودك بهذه العربة لتعينك في ترحالك"

نظر دانتين حيث أشار الرجل، فرأى عربة متوسطة عليها ما أحضرته عائلته من بقايا متاعها، يجرها حصان قوي يقف متململاً.. عندها أشاح دانتين بوجهه قائلاً بانفعال حاول إخفاءه "ذلك العجوز.. ما كان عليه فعل ذلك"

لم يعلق الرجل على قوله وهو يضيف "والآن انتهت مهمتي.. انتبهوا في طريقكم وحاولوا اللجوء لأي قرية لهذه الليلة.. ليس من المستحب الترحال في الليل"

وغادر بسرعة دون أن يتمكن دانتين من شكره.. عندها عاد دانتين لأمه وهو يخفي انفعاله قائلاً "هل تستطيعين صعود العربة يا أمي؟"

قالت الأم معاتبة "لست بهذا العجز يا بني"

ابتسم دانتين معلقاً "أنت بالكاد تقدرين على السير على أرض مستوية"

ساروا حتى العربة، وعاون دانتين أمه على الصعود، ثم رفع شقيقته الصغرى عالياً بسرعة وهي تشهق فزعة.. فأطلق ضحكة صغيرة قبل أن يضعها قرب شقيقته الأكبر سناً وشقيقه الصغير.. ثم قفز جوار أمه وأمسك اللجام قائلاً "هيا بنا.. لا يجب أن نبقى قرب سِن أكثر من هذا.."

وضرب الحصان باللجام ليبدأ سيره وهو يصهل جارّاً العربة خلفه بسرعة محدودة.. فنظر دانتين في وجوه أفراد عائلته بصمت، ثم عاد ببصره للأمام وابتسامة راحة ترتسم على شفتيه..

وفي موقع آخر بعيد عنهم، كان روباك يسأل هان "لماذا غفرت له كل ما فعله؟ كان يستحق جزاءً أكبر من مجرد الإبعاد على خيانته.."

قال هان "مشكلتك يا روباك أنك لا ترى الدنيا إلا بلونين.. الأبيض والأسود.. الخير والشر.. لا ترى تدرجات اللون الرمادي التي تكاد تغطي على هذين اللونين والتي تتراوح في شدتها من شخص لآخر"

نظر له روباك بعدم فهم.. فأضاف هان "الأمور لا تخضع كلها لمنطقك أنت.. دانتين اضطرته الظروف أن يلجأ للخيانة.. هو مخطئ، أجل.. لكن هل تستطيع حقاً لومه بضمير مستريح؟"

قطب روباك دون أن يبدو عليه الاقتناع بهذا المنطق، بينما قال هان وهو يربت على كتفه "مادمنا نملك الحماس والقوة لعقاب الخونة، فلنوجه قوتنا هذه نحو أعدائنا الذين اضطروا شبابنا للجوء هذا الطريق.. أليس كذلك؟"

غمغم روباك "لن أفهمك يوماً يا هان"

فقال هان وهو ينظر لما أمامه "ربما.. في يوم ما.."

****

الفصـــل الرابع عشر

في ليلتها الأولى في رحلتهم نحو العاصمة الشمالية مايار، جافا النوم عيني ميا وهي تتقلب في الفراش الذي وضع أرضاً لها في غرفة الفتاتين.. في البدء لم تستطع النوم مع حماس الفتاتين للحديث معها والذي دام ساعات، وبعد نومهما، بقيت بعينين مفتوحتين تتأمل السقف الخشبي وأفكارها تدور في عوالم شتى.. أفكار مختلطة لم تستطع التخلص منها ولم تقدر على الاسترخاء فالنوم قبل الفجر..

في البدء، دارت أفكارها حول هذه الرحلة التي هم مقدمون عليها.. بدايتها لم تكن سعيدة ومريحة مع ذلك اللقاء المفاجئ بالجندي الذي أعاد لها ذكريات تناستها، وما تبعه من صراع لإنقاذ سكان الحي الشرقي، وأخيراً باكتشاف خيانة دانتين واستبعاده من الثورة.. وغداً، سيبدؤون سيرهم نحو مايار دون أن تعلم كم سيدوم ذلك.. وما الذي قد يواجههم أثناءه.. هل سيخوضون معارك خطيرة مع الغزاة؟ وما الذي سيجري لهم في مايار؟ رغم أن هان لم يخبرها بأي شيء، إلا أن ذهابهم لمايار وتخليهم عن سِن ليس عادياً.. لابد أن حدثاً جللاً سيجري هناك، والثوار طرف من هذا الحدث.. فما الذي سينتج عنه؟..

ثم ذلك الجندي.. إنه هنا، لا يبعد عنها الكثير.. فلماذا لم تقتله حتى الآن؟ ألم تقسم على ذلك منذ مقتل أبيها؟ ألم يعدها هان أنه سيمكنها من النيل منه بعد نجاتهم من مكيدة الغزاة الأخيرة؟ أم هل فعل؟..

زفرت بحدة وهي تتقلب في فراشها وتصب اللعنات على رأس خالد وعلى كل جندي في كوميت.. ولم تدر متى غافلها النوم وهي تغرق فيه بعد يوم مليء بانفعالات شتى..

وفي موقع آخر من المنزل، وعلى ضوء مصباح صغير ينشر نوراً ضعيفاً يصبغ الوجوه بصفرة باهتة، جلس هان وسط أربع من أهم رجاله وهم روباك، وسارود، وآخران قريبان من روباك في العمر أحدهما هير والآخر كوبين.. نظر روباك لهان قائلاً "ما الذي تنوي فعله بذلك الجندي؟ يجب أن نحسم أمره الآن قبل أن نكمل مسيرنا نحو مايار.."

قال سارود بهدوء وهو يعبث بشاربه "أمره هيّن.. نقتله.."

علق هان "لو كنا سنقتله لما تكلفنا إحضاره حتى هذه المزرعة لنفعل ذلك.."

تساءل كوبين "إذن ما الذي تنوي فعله؟ لا تقل لي إنك ستطلقه ليعود لرفاقه بما يملكه من معلومات عنا"

قال روباك "هان ليس أحمقاً.."

وقال هان "طبعاً إطلاقه فعل أحمق يا كوبين.."

فقال كوبين مقطباً "إذاً.. ما الذي تنتوي فعله به؟"

صمت هان مفكراً والأعين تتلاقى عنده باهتمام، ولما رفع بصره إليهم أخيراً كان التوتر قد بلغ منهم مبلغه.. فقال "أعلم أن ما سأقوله سيثير غضبكم، لكني أرى أن وجوده معنا فيه فائدة عظيمة لنا"

قال سارود بدهشة "ماذا تعني؟.. كيف تتوقع منا أن نأمن لوجوده معنا في رحلتنا هذه حتى لو كان مقيداً؟.. ثم إن ثوار الشمال سيقتلونه في اللحظة التي يرونه فيها.."

غمغم هان "لم أقصد أن يبقى معنا كأسير.."

ظهر الاستنكار صارخاً على الوجوه وروباك يقول "أتقترح أن نضمّه إلينا؟"

قال هان "ليس بشكل كامل.. بل بشكل محدود حيث نبقيه معنا ونوفر له الحماية مقابل ما يملكه من معلومات.. إنه ضائع الآن ولا مكان له في أي جهة، لذلك سيستفيد من هذا العرض بالتأكيد"

قال كوبين باستنكار "كيف تأمن لشخص غادر مثله؟ هل تستوعب ما تقترحه علينا؟"

أجاب هان "لقد دار بيني وبين الجندي حديث مطوّل قبل اجتماعي بكم.. ولو استفدت شيئاً من ذلك، فهو أن الشاب صادق تماماً.. لقد أجبر على القدوم لكوميت، وهو يؤكد أنه لم يشارك في أي من أعمال العنف الموجهة لشعبنا.. رغم أن هذا لا يعفيه تماماً من المسؤولية، لكنه بتصرفه الأخير قد أثبت حسن نواياه بأكثر مما قد نحتاج.. أليس كذلك؟"

قال روباك "وماذا لو كانت تلك خدعة من الغزاة ليتقرب منا ويعرف خططنا ومخابئنا ورجالنا؟ إنهم لم يخسروا الكثير بفشل القصف، بل نجحوا بدسّ جاسوس علينا"

فقال هان "ألم تنتبهوا أن دانتين، وهو جاسوسهم الفعلي، قد صدم بقدوم الجندي كما صدمنا جميعاً؟ لو كان متعاوناً معه، لبذل جهده في إنجاح تلك الخطة.."

بدا عدم الاقتناع على الوجوه، فأضاف هان "سنعمل على مراقبته لئلا يتصل بالجنود بأي وسيلة كانت، وسنستفيد مما يملكه من معلومات دون أن نكشف له شيئاً من مخططاتنا.. قتله، أو إطلاقه، لن يعود علينا بأي فائدة"

لم يعلق أحدهم بأي كلمة، عندها قال هان "على الأقل، ثقوا بي هذه المرة"

فقال روباك "حسناً.. رغم أن التعاون مع ذلك الجندي ليس بأحب ما أفعله، لكني سأراقب الوضع، وإن تبدت منه أي لمحة خيانة، فلن أستشير أحداً قبل أن أقتله"

ابتسم هان معلقاً "لا أتوقع أقل من ذلك منك"

فقال كوبين بغير اقتناع "مازلت أراها فكرة حمقاء.. عندما نكتشف خيانته، قد لا يسعفنا الوقت للندم عندها"

غمغم هان "لنترك ذلك للزمن.. فسيتَكَشّف كل شيء في النهاية"

قال هير بسخرية "نهايته، أم نهايتنا؟"

لم يعلق أحد بكلمة على ذلك.. فالحكم في الأخير يعود للزمن فعلاً..

****

لم تدر ميا كم طال بها النوم، لكنها عندما استيقظت ونظرت من النافذة القريبة، فوجئت بأن الشمس قد توسطت كبد السماء.. فنهضت بشيء من الهلع وهي تستمع للصمت المريب في المكان.. ثم خرجت من الغرفة بسرعة

وقلبها يدق بقوة، حتى كادت تصطدم بمن يقف وسط المنزل.. وقفت بأنفاس مخطوفة لترى رستين يستدير إليها قائلاً بتعجب "ما بالك؟ هل أفزعك شيء ما؟"

تمالكت جفاف حلقها وهي تراه قد وضع حقيبته بعدّتها المعدودة أمامه يتفحصها، وهو كل ما نجح في إنقاذه من المخبأ قبل القصف، ثم قالت بصوت خافت "ظننتكم قد رحلتم.. النهار قد انتصف والمكان هادئ.. كدت أجزم أنكم تخليتم عني ورحلتم"

ابتسم رستين معلقاً "لو كان هان رافضاً لقدومك معنا لما لجأ لخداعك صدقيني.."

تمالكت نفسها وهي تعدل شعرها المبعثر مغمغمة "إذن ما الذي جرى؟ أين الجميع؟"

أجاب رستين وهو يعود لعمله "لقد بدأ رحيل الثوار في جماعات محدودة لا تتعدى الخمس أشخاص في كل مجموعة، وهان الآن في المستودع مع بقية الرجال ومعهم أصحاب المزرعة.. أنت الوحيدة التي استمتعت بالنوم لهذا الوقت المتأخر"

احمر وجهها لهذا التعليق وهي تقول بارتباك "لم أستطع النوم حتى الفجر.. ولم أعتقد أني قد أستغرق نصف النهار نائمة دون أن يوقظني أحد.."

لم يعلق رستين بكلمة، فترددت ميا قليلاً وهي تتلفت حولها قبل أن تقول "وهل.... هل رحل روباك؟"

غمغم رستين "أخبرتك أن تستسلمي ولا تنجرفي نحوه بمشاعرك.. أنسيت بهذه السرعة؟"

قالت ميا مقطبة "إنه مجرد سؤال.."

علق مبتسماً "أنت لم تسألي عن أي شخص آخر.."

ارتبكت قليلاً، ثم استجمعت نفسها ودمدمت بضيق "وهل الاهتمام به جريمة؟"

نظر لها رستين بنظرة حادة، فأبعدت بصرها عنه وهي صامتة، عندها قال "أنت من سيتألم في النهاية.. فكيف تسلكين درباً وأنت تعلمين نهايته التي لن تعجبك؟"

غمغمت "أليس الثوار هكذا جميعاً في هذه الثورة؟"

قال "هذا أمر مختلف.. عموماً، إنما هي نصيحة أقدمها لك مجاناً، ولك الخيار في أخذها أو تركها"

ابتسمت ميا شيئاً ما وهي تقول "ما عاد هناك مجال للاختيار.."

وعادت للغرفة بينما غمغم رستين وهو يعود لعمله "أنت الخاسرة يا صغيرة.."

****

"أين هو؟"

صاح أنطونيو بهذا بحنق في وجه ماركوس الذي جلس بهدوء في مكتبه وهو يدير قلماً في إصبعه.. ثم رفع بصره لأنطونيو قائلاً ببرود "ليس من مهامي البحث عن أي جندي يختفي بإرادته الحرة بكل إهمال.. كان من المفترض أن تلوم نفسك وأنت قد زرعت فيه هذا الإهمال وعدم تحمل المسؤولية"

قال أنطونيو بغيظ "أي إهمال تعني؟ لقد اختفى فجأة بدون سبب معروف.. ربما اختطفه الثوار بعد أن فعلت فعلتك الشنيعة تلك..ألا تفكر بالبحث عنه ولو باستخدام إحدى دورياتك؟"

اعتدل ماركوس في كرسيه وهو يقول بصرامة "ألا ترى أنك تبالغ بشأن هذا الجندي؟ لقد خسرت عشرين جندياً تقريباً في كمين قام به الثوار، والأمور متوترة في سِن بيننا وبين السكان المحليين.. وتريدني أن أترك كل هذا لأتفرغ للبحث عن جندي واحد؟.."

قال أنطونيو بحدة "طبعاً ستتوتر الأمور، ألم يخطر ذلك ببالك وأنت تخطط لتفجير حيّ كامل؟ أظننت أن السكان سيخضعون لك بكل سرور عندها؟ أم ظننت أنهم سيسلمونك الثوار عن طيب خاطر؟.. لقد أثرتهم ضدنا أكثر مما كانوا عليه قبلاً، وقد رفعت منزلة الثوار عندهم لأنهم الوسيلة الوحيدة لديهم لمقاومتنا.."

واعتدل في وقفته مضيفاً بصرامة "أن تصبح قائداً لا يعني أن تلقي أوامرك دون تدبير.. كان عليك التفكير في كل جوانب خطتك تلك قبل تنفيذها"

ضرب ماركوس الطاولة بيده وهو يقول بحدة "لقد فكرت في كل أمر.. وما زلت أرى أنني غير مخطئ فيما فعلت.. إن كنت مهتماً بأمر ذلك الجندي حقاً، فابحث عنه بنفسك.."

ظل أنطونيو ينظر له بصرامة، ثم قال بلهجة جافة "لمجرد العلم، لقد رفعت تقريراً مفصلاً للقادة الست بكل ما يجرى في المدينة.. هم وافقوا على إجراء تلك العملية الوحشية، لكنهم ربما ظنوا فيك قائداً يحكم قبضته على المدينة بنجاح.. لكن لابد أن خيبتهم ستكون كبيرة بعد معرفتهم بما تتبع ذلك القرار من بلبلة بين السكان.."

وغادر الغرفة دون أن يلتفت وهو يسمع سيلاً من الشتائم ينطلق خلفه، لكنه لم يعلق وهو يلتقي أيمن الذي كان يقف خارجاً بتوتر، فتساءل أيمن بسرعة "ما الذي جرى يا سيدي؟ هل يعلم ماركوس أي شيء عن خالد؟"

قال أنطونيو بصرامة وهو يواجه أيمن "اسمعني يا أيمن.. أريدك أن تخبرني بكل ما جرى مع خالد صراحة.. لابد من سبب لاختفائه المريب ذاك.. وماركوس غير مهتم بما جرى له، لذلك أريد الحقيقة منك أنت.."

فتح أيمن فمه، لكن أنطونيو قاطعه قائلاً "ولا تقل إنك لا تعرف.. أنا واثق أن خالد أخبرك بشيء ما على الأقل.."

تنهد أيمن وهو مطرق، ثم قال "سأخبرك يا سيدي.. لكن ليس هنا.."

سار أنطونيو مغادراً المبنى وهو يقول "حسناً.. يحسن بخالد أن يكون عنده عذر مقنع لغيابه، وإلا لن أرحمه عندها"

صمت أيمن وهو يتبعه وقد تنازعه أمران.. إخبار أنطونيو بالحقيقة مع ما قد يلحق خالد من اتهام بالخيانة، أم ادعاء الجهل وخسران الوسيلة الوحيدة للبحث عنه بمساعدة أنطونيو.. عاد أيمن يتنهد وهو يغمغم لنفسه "يحسن بك أن تكون بخير يا خالد.."

****

قضت ميا أغلب يومها تراقب ترتيبات الثوار ورحيل مجموعات منهم بشكل متفرق، حيث ستأخذ كل مجموعة منهم طريقاً مختلفاً ليجتمعوا في العاصمة، في موقع حدده لهم هان.. لم تجد ميا أثناء ذلك ما تفعله، ولم يطلب أحد مساعدتها في أي أمر.. وأخيراً، بقي عدد قليل من الثوار لا يتجاوز العشر، من بينهم هان ورستين وروباك، وقد قرر هان أنهم سيرحلون تلك الليلة..

وفي المنزل، جلست ميا في جانب المكان حيث اجتمع هان مع رستين وروباك يناقش معهما أمر الرحلة التي سيبدؤونها بعد ساعات، وظلت هي ساهمة تستمع لمقاطع من حديثهما وتغرق في أفكارها في أوقات أخرى.. لكن حواسها تنبهت عندما سمعت روباك يتساءل "وماذا عن ذلك الجندي؟ أأنت متأكد من قرارك الذي اعتزمته؟"

قال هان وهو غارق في التفكير "إن أخذه معنا والاستفادة مما يملكه من معلومات أمر مغرٍ، خاصة أنه أبدى ترحيباً بذلك.. لكنه عمل ينطوي على مخاطر عديدة، خاصة مع ثوار الشمال...."

هبّت ميا واقفة وهي تسأل عاقدة حاجبيها "يبقى معنا؟ من؟"

التفت إليها رستين معلقاً "رجاء لا تتدخلي في هذا الأمر يا ميا.."

قالت بشيء من الحدة "لكن هذا الأمر يخصني.. أم أنك لا ترى ذلك؟"

ثم التفتت لهان قائلة بحزم "ألم تعدني أنك ستتركه لي؟ لقد انتفت حاجتكم له.. ولم يعد هناك داع للإبقاء على حياته أكثر من ذلك"

تساءل روباك بهدوء "هل أنت قادرة على قتله حقاً يا ميا؟"

قالت بحدة "سأفعل ذلك.. سأنتقم لأبي مهما كان الأمر"

فقال روباك بصرامة "كيف؟ ألست أنت من ارتجف ذعراً لرؤية جثث أولئك الجنود في سِن؟"

عضت شفتها السفلى وحنقها يتزايد.. كان محقاً.. لم تكن في يوم من الأيام قادرة على القتل، فكيف تثق بأنها ستفعل ذلك؟.. ورغم أن خالد هو السبب الرئيسي في مقتل أبيها كما هي جازمة، لكن كيف ستدخل تلك الغرفة لتواجهه وهو أعزل وتقتله بسلاحها؟..

أوقفت عقلها عن التفكير في هذا الأمر وهي تقول لهان "ما الذي قررته يا هان؟ أحقاً تريد أن تضمّه لكم؟ إنه جندي.. إنه من الغزاة"

فقال هان "لقد تحدثت معه مطولاً البارحة.. وأنا شبه واثق ألا يد له في ما جرى لأبيك.."

صاحت "كذب.. إنه يخدعك.. كيف تصدقه بهذه السهولة؟"

اكتسب وجه هان صرامة لم تعتدها وهو يقول "ألهذه الدرجة لا تثقين بحكمي على الأمور؟"

ونهض مضيفاً "لقد سئمت من هذا الجدال.. يجب أن نحلّ هذه المعضلة الآن.."

نظروا له بعدم فهم، لكنه لم يشرح الأمر وهو يتقدم من ميا ويجذبها من ذراعها قائلاً "عليك أن تفهمي الأمر منه مباشرة.. حتى تحكمي بنفسك على ما يقوله وتستوثقي من براءته"

هتفت ميا وهي تتراجع "مستحيل.."

لكنه جذبها بقوة لم تستطع مقاومتها متقدماً من باب إحدى الغرف وميا تقول بشيء من الحنق "لم تفعل ذلك؟ أخبرني"

في تلك الأثناء، استلقى خالد في الغرفة التي أفْردت له منذ قدومهم للمزرعة، ومُنع من الخروج منها لأي سبب.. لقد أصابه الملل من طول بقائه وحيداً، إذ لم يرَ أحداً منذ ساعات إلا أحد الثوار الذي أحضر له طعامه صباحاً.. ذلك الرجل بالذات يثير توجسه كلما رآه، إذ يرمقه بنظرات حادة تثير رجفة في أوصاله.. لو كانت النظرات تقتل....!.. يشعر أنه لو تقابل معه في زقاق من أزقة سِن، لما تردد في قتله ثانية واحدة.. ربما من حسن حظه أنه لم يره قبل قدومه للثوار، فقد أسبغ عليه رئيسهم حمايته حالياً، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يطمئنه..

تنهد وهو يفكر في وضعه الحالي.. هل أخطأ عندما استسلم للثوار؟ لكن ما الحل الذي كان عليه اتخاذه؟ عودته للجيش مستحيلة، وبقاؤه في كوميت وحيداً مستحيل.. بقاؤه مع الثوار هي الوسيلة الوحيدة التي يملكها للبقاء هنا، وعليه تيسير هذا الأمر..

وميا؟.. آه من ميا.. إنه لم يتوقع منها أن تبشّ لرؤيته وتظهر سعادتها لذلك، لكن لم يتوقع أيضاً أن تجري خلف عنقه وتهدده بالقتل.. فكيف يقنعها ببراءته؟..

سمع ضجة قرب بابه، فاعتدل جالساً باهتمام عندما فتح الباب فجأة ليدلف منه هان جاذباً ميا الحانقة ودفعها برفق وسط الغرفة قائلاً "عليك أن تتحدثي معه، وتحلّي هذا الإشكال اليوم.. لا أريد أن أقضي ساعة أخرى في هذا النقاش"

قالت بحنق "لا يمكن.. إن لم تسمح لي بقتله فلا أريد رؤيته بتاتاً"

لم يعلق هان وهو يغادر مغلقاً الباب خلفه دون أن يقفله.. ولما عاد للبقية اعترض روباك وهو يقف قائلاً "كيف تتركها مع ذلك الجندي؟ قد يؤذيها.."

قال له هان بصرامة "لا تتدخل يا روباك.. أنا واثق أنه لن يؤذيها بتاتاً"

نظر له روباك بدهشة للثقة التي تحدث بها هان، ثم جلس دون اقتناع وعينه معلقة على باب الغرفة التي اختفت فيها ميا..

وفي الغرفة، وقفت ميا في مكانها مولية ظهرها لخالد وهي تشدّ قبضتيها بغيظ.. بينما شعر خالد بسرور لرؤيتها رغم مشاعر الكره التي تبثها له بوضوح.. فغمغم برفق بعد لحظة صمت "أتكرهيني حقاً يا ميا؟"

قالت بصوت مرتجف غيظاً "وماذا ظننت؟ بعد كل ما فعلته تسألني سؤالاً أحمق كهذا؟"

قال بصوت هادئ "لكني أخبرتك ألا يد لي في كل ما جرى لك.. بل لم أعلم بشيء من هذا إلا عندما حاولت العودة لمنزلك، لأصدم برؤيته محترقاً"

قالت بحدة "حقاً؟ وتريدني أن أصدق هذا بكل بساطة؟"

فوجئت به يقترب منها فيديرها لتواجهه قائلاً بحزم "انظري في عينيّ.. ألا يمكنك تمييز الصدق من الكذب فيهما؟"

أدارت عينيها بعيداً ووجهها يحمرّ بغضب، فقال خالد دون أن يتراجع "لقد بحثت عنك طويلاً بعد أن رأيت المنزل المحترق.. لم أتحمل فكرة أن تكوني قد أصبت بأي مكروه.. أردت الاطمئنان عليك، لكني لم أعثر لك على سبيل" لم تعلق أو تخفت نظرات الكره في عينيها، فأضاف برفق "لا تعلمين كم استعمرني القلق عليك وأنا أخشى مما قد يفعله الجنود بك.. وبسبب بحثي المستميت عنك، جذب ذلك انتباه قادتي، ولم يتورعوا من عقابي لأني أخالف قوانينهم.. بعد أن كنت نسراً أقود طائرتي في السماء، أصبحت جندياً عادياً.. لكن ذلك لم يهمني قدر اهتمامي بمعرفة مصيرك"

واجهته مقطبة وهي تقول "وماذا عن يوم الإعدام؟ أتنكر أنك كنت هناك؟ ألم تشارك في قتل الثوار ومنهم أبي؟"

قال هازاً رأسه "لا.. لم يكن يحق لي التواجد هناك، لكني كسرت ذلك القانون وأنا أرجو أن أجدك هناك.. وصلت بعد أن انتهى كل شيء، ولو علمت بوجود أباك بينهم، لبذلت ما أستطيع لإنقاذه من الإعدام.."

تطلعت في عينيه عاقدة حاجبيها.. وللدهشة، لم ترَ لمحة كذب أو خداع فيهما.. أثار هذا حنقها أكثر.. هل كانت مخطئة في حكمها عليه؟.. أهو صادق في كل ما قاله؟..

قالت بعصبية "مهما يكن.. أنت من الغزاة.. ستظل جندياً مهما فعلت"

فابتسم خالد لدهشتها قائلاً برفق "أيعني هذا أنك اقتنعت ببراءتي؟"

صمتت وهي تشيح بوجهها للحظات، ثم قالت بحزم "ليس بعد.."

وفتحت الباب لتغادر بخطوات سريعة.. بينما وقف خالد يراقبها وابتسامته تتسع أكثر، وقد انزاح ثقل من صدره شعر به منذ رأي نظرات ميا الموحية بكره عارم موجهة له في سِن.. أما الآن، فالأمور لا تبدو بهذا السوء..

****

نظر أنطونيو لأيمن الجالس أمامه وعيناه متسعتان لفترة طالت.. فغمغم أيمن بعد وقت طويل "أعلم أن ذلك قد صدمك يا سيدي.. لكن....."

قال أنطونيو بحدة "صدمني؟ ذلك وصف بسيط لما أشعر به الآن.. أتعني أن خالد لا يزال يبحث عن تلك الفتاة؟"

هز أيمن رأسه إيجاباً، فقال أنطونيو بحنق "أهذا سبب تصرفاته الغريبة مؤخراً؟ لقد شككت أنه بعد عودته لم يكن خالد الذي أعرفه.. لقد انقلب حاله تماماً، ولم أشك أن كل هذا بسبب فتاة.. أي حمق أوقع نفسه فيه؟"

أسرع أيمن يقول "لكن خالد يؤكد لي أن ما يشعر به هو حب حقيقي.. لذلك كان مستعداً للتخلي عن كل شيء لأجلها.."

قال أنطونيو باستنكار "حب؟ وهل يقتل نفسه لأجل الحب؟ في أي عصر نحن؟ لقد خان وطنه عندما خان الجيش.. وهذا لن يؤدي به إلا للإعدام.."

ونهض ليقف قرب نافذة مكتبه مضيفاً "هل يتوقع أن ترتمي تلك الفتاة عند قدميه بانبهار عندما يعترف لها بحبه؟ هل سيتقبله الثوار وسكان كوميت فقط لأنه حذرهم من القصف الذي تم تلك الليلة؟.. لاشك أن الفتاة تكرهه كما

تكره كل جنود الجيش.. وسكان كوميت كذلك بالتأكيد.. أما الثوار، فإما أن يقتلوه دون مهادنة، وإما أن يأخذوه رهينة لمساومتنا بأي شكل من الأشكال"

ونظر لأيمن قائلاً بغضب "هذا الفتى خيّب أملي بتصرفاته تلك.. ظننته أكثر حكمة من ذلك، وأنه سيقدّر عواقب أي تصرف قبل القيام به.. لكنه صدمني بضعفه أمام فتاة واحدة.."

صمت أيمن وهو عاجز عن الاعتراض على ذلك.. إنه بالفعل يرى تصرف خالد غاية في الحمق، لكن لم يكن بيده منعه.. لم يكن بيد أحد، ولا هذا الجيش الكامل، منع خالد من الإقدام على ما فعله.. لقد أبدى خالد عزماً كبيراً أدهش أيمن وهو يتخلى عن مستقبله وكل ما يملكه لأجل تلك الفتاة.. فهل سيثمر هذا الحب أم يموت في مهده؟..

سمع أنطونيو يقول "لو حاول خالد الاتصال بك بأي شكل من الأشكال، فأخبرني على الفور.. حاول أن تعرف أين هو، وما الذي ينتوي فعله.. لا يمكن أن نتركه يهيم على وجهه في كوكب معادٍ مع خطورة ذلك"

هز أيمن رأسه موافقاً وهو ينهض، قبل أن يقول بشيء من التردد "أتظن أنه لا يزال حياً يا سيدي؟"

تنهد أنطونيو قائلاً "لنأمل ذلك يا أيمن.. هذا كل ما بيدنا فعله.."

وأضاف بغيظ "ذلك الوغد ماركوس يرفض البحث عنه باستخدام الدوريات.. فكيف يمكنني العثور عليه؟ لا يمكنني رفع أمره لجهات أعلى مع ما قد يلحق خالد من ضرر جراء ذلك.."

لم يعلق أيمن بكلمة وهو يؤدي التحية قبل أن يغادر المكتب دون أن يخفت قلقه على خالد.. الحيّ الشرقي قد دمر تماماً، فهل كان خالد فيه وقت تدميره؟ هل نجا؟ هل وقع في قبضة الثوار بعد أن قام بتحذيرهم من القصف؟ أم أنهم قتلوه؟.. أسئلة كثيرة تدور في ذهنه.. لكن من أين له بتلك الأجوبة؟..

****

مع مغيب شمس ذلك اليوم، وجد خالد ذلك الرجل حاد النظرات يدخل غرفته ويرمي له بملابس قائلاً "استبدل ملابسك.. لا نريدك أن تثير الانتباه وأنت تتجول بملابس الجنود"

تساءل خالد بشيء من الدهشة "أهذا يعني أنكم ستأخذونني معكم؟"

اقترب منه الرجل وهو يثبت نظراته الحادة على خالد قائلاً بصرامة "للأسف، ليس أمامي إلا الخضوع لذلك الآن.."

قطب خالد قائلاً "ماذا تعني؟"

وقف الرجل قربه وجهاً لوجه وهو يقول بصوت خفيض حمل تحذيراً صارماً "أنا لا أثق بك، حتى لو فعل هان ذلك.. مهما تظاهرت بمساعدتنا، فأنا أراقبك، وإن تبدت منك أي لمحة خداع، فلن أرحمك عندها"

ابتسم خالد بزاوية فمه مغمغماً "إنه يثق بي؟ رائع"

ثم هز كتفيه مضيفاً "راقب كما يحلو لك.. ليس عندي ما أخشى ظهوره"

قبضه الرجل من ملابسه وهو يقول بحدة "أتهزأ بي؟"

قابل خالد نظراته الحادة بنظرات هادئة.. لم يكن انفعال الرجل وحدته غريباً، فلم يكن يتوقع أبداً أن يقتنعوا بصدقه بهذه السهولة.. لكن الأمور لم تكن بالسوء الذي توقعه أبداً، وهذا ما يثير دهشته.. سمعا في تلك اللحظة صوت هان خلفهما يقول "ما الذي تفعله يا روباك؟ لقد طلبت منك أن تسرع"

استدار روباك مغادراً وهو يقول "لقد انتهيت.."

نظر هان لخالد الذي شرع في استبدال ملابسه بسرعة، وقال "اسمع أيها الجندي.."

ابتسم خالد معلقاً "لا أعتقد أنه من المستحب مناداتي بالجندي في كل مرة.. اسمي خالد.."

فقال هان "حسناً.. استمع لما سأقوله يا خالد ولا تنسه أبداً.. لا تذكر لأي شخص أنك من الجنود.. لحسن الحظ شكلك لا يختلف عن شكل أي شاب عادي في كوميت، وإن كانت لكنتك ستسبب لنا المشاكل.. من سنلتقي بهم في الوجهة التي سنذهب إليها قد لا يرحّبون بوجود جندي معنا مهما كان حسن النوايا، وقد يقتلونك بغفلة منا.. لذلك عليك أن تحذر من الحديث بأي لغة غير لغتنا، أو الإشارة لكونك من الجنود.. ابق صامتاً ما استطعت"

فقال خالد "لكنهم لن يصدقوا أني من الثوار بما أني لا أحمل شعاركم.."

أجاب هان "سأخبرهم أنك جاسوس لنا، وهم عادة لا يحملون شعار الثوار.. وأرجو أن يمر الأمر بسلاسة دون مشاكل.."

واستدار ليغادر، لكنه تذكر شيئاً جعله يستدير مضيفاً "إن وقعت في مشاكل مع الثوار، هنا أو هناك، فأنا أطلب منك المعذرة.. لا أستطيع حمايتك بأي شكل كان.. أنت مسؤول عن نفسك، وما يجري لك لا شأن لي به"

ابتسم خالد قائلاً "أتفهم ذلك جيداً"

فغادر هان قائلاً "هيا بنا.. سنغادر الآن"

تبعه خالد بسرعة خارجين من المنزل، فوجد تسعة رجال خارج المنزل مع أصحاب المزرعة وقد اقترب منهم هان يتحدث معهم ويشكرهم على كل ما قدموه لهم.. بحث خالد ببصره عن ميا ليجدها تقف في جانب المكان.. فتمنى لو يستطيع الاقتراب منها والحديث معها ببساطة، لكنه لم يُرد مزيداً من الشك بنواياه.. ثم انتبه لأمر جعله يرفع حاجبيه بدهشة وهو يقف في موقعه.. كانت ميا تتحدث مع ذلك الرجل الحاد وقد بدا الانشراح على وجهها وابتسامة خفيفة على شفتيها.. كانت تلك هي المرة الأولى التي يراها تبتسم فيها منذ التقاها من جديد، بل ربما منذ عرفها إذا استثنينا الابتسامة التي منحتها لأبيها بعد عودته من المدينة.. ظل يتأمل ملامحها التي أنارتها تلك الابتسامة وهو يشعر بانفعال غريب في صدره.. مزيج من السرور والضيق.. مزيج عجيب لم يتخيل أن يشعر به في يوم من الأيام.. لكن الأعجب أن تلك الابتسامة الجميلة كانت موجهة لذلك الرجل العصبي.. ألا يخيفها ذلك الرجل؟..

رأى الثوار يصعدون عربة متوسطة الحجم تقف متأهبة يجرها حصانان قويان بلون أدهم، فأسرع ينضمّ إليهم في الجانب الخلفي من العربة متجاهلاً نظرات العداء من البقية، وملاحظاً تجاهل ميا له وهي تشيح بوجهها.. فكبت ابتسامته بصعوبة وهو يقول لنفسه "تطور ملحوظ.."

سمع ذلك الرجل العصبي يقول لهان "ألا يجدر بنا تقييده كي لا يفكر بالهرب؟"

قال هان "لا داعي لذلك.. لن يهرب.. ولو فعل، فأنا أبيح لك التصرف معه كما تشاء"

ألقى الرجل العصبي على خالد نظرة ضيق ممتزجة بتحدٍ وكأنه يتحداه أن يهرب.. ظن خالد في نفسه أن ذلك الرجل سيكون مستمتعاً أيما استمتاع لو حاول هو الهرب، عندها لن يجد ذلك الرجل من يردعه من قتله، والاستمتاع بذلك أيضاً..

بدأت العربة سيرها وفي مقدمتها يجلس هان مع روباك ورجل آخر، بينما جلس البقية في الخلف تاركين خالد يجلس في زاوية العربة كالمنبوذ، وإن لم يمانع ذلك وهو يرفع بصره للسماء التي غاب قمرها خلف السحب.. لقد بدأت مرحلة جديدة مختلفة تماماً من حياته على كوميت.. من يظن في يوم من الأيام أنه سيهرب من الجيش وينضمّ للثوار؟ من يظن أنه سيرتحل بحرية في أرجاء الكوكب بعد أن كان، كعادة الجنود، لا يغادر مواقع الجيش الحصينة إلا في حماية طائرته، أو في حماية رفاقه من الجنود؟.. ورغم أنه لم يفكر بالأمر كثيراً، إلا أنه نوعاً ما أدرك، مع استحالة عودته للجيش، أنه بالتالي لن يعود للأرض من جديد.. من المحال أن يتمكن من مغادرة هذا الكوكب الذي يحكم الجيش قبضته عليه.. لكن هل له أن يحزن لذلك؟ للعجب لم يكن هذا شعوره في هذه اللحظة..

****

استغرق الثوار نهاراً كاملاً والليلة التي تلته في سلك ذلك الطريق الذي يقطع السلسلة الجبلية، والذي سيؤدي بهم إلى مايار التي يبدو أنها تقع في الجانب الآخر من تلك السلسلة.. حاول هان اختصار فترات راحتهم قدر الإمكان، مما أجهد ميا لطول مكوثها في العربة وهي جالسة لا تتحرك.. ولم تواجههم أي مفاجآت خلال الطريق بعد أن حرص هان على أن يبتعدوا عن مواقع التحصينات الأمنية للغزاة في المسافة الفاصلة بين سِن ومايار.. تساءل أحد الرجال بعد أن بقي عليهم ساعات معدودة قبل الوصول لوجهتهم "كيف سندخل المدينة؟ لا يمكن أن ندخلها هكذا فلابد أن الجنود سيتفحصون القادمين لمايار بتدقيق"

قال هان "سنقابل برتيك ورجاله في موقع خارج مايار.. وهم سيُؤَمنون لنا وسيلة للدخول"

لم يعلق أحد الرجال على ذلك.. وبعد بدء النهار والشمس ترسل أشعتها الضعيفة من بين الغيوم الكثيفة التي غطت السماء، توقفوا مجدداً وهان يقول "ستكون هذه وقفتنا الأخيرة.. بعدها سنستمر في سيرنا حتى نصل العاصمة"

كعادته دائماً، اتخذ روباك دورته المعتادة حولهم متفحصاً المنطقة خوفاً من مباغتة الجنود لهم، بينما سارت ميا قرب الطريق لتحرك قدميها قليلاً وهي تتأمل الموقع الذي توقفوا فيه.. كان الطريق الذي ساروا فيه قد جاوز بهم الغابة المحيطة بجانب من السلسلة الجبلية، وعبر بهم وادياً كبيراً قبل أن يصل لجانب آخر من تلك السلسلة الجبلية الضخمة.. وكان الطريق ذو حافة تقع على ما بدا لها كهاوية، لكن جذب انتباهها صوت جعلها تقترب من الحافة وتلقي نظرة على الأسفل.. فرأت نهراً على شيء من الانخفاض عن الطريق وهو يشق الجبال والوادي بينهما، عندها التفتت خلفها قائلة لرفاقها "هناك نهر جارٍ أسفل الطريق.. هل يمكننا الذهاب إليه؟"

وجدت بعض الرجال يهبطون بالفعل نحو النهر متجاوزين المنحدر الصغير المؤدي إليه للحصول على بعض

الماء، فقال رستين الذي نظر لموقع النهر المنخفض "كوني حذرة من الانزلاق والوقوع في النهر.. لا نعلم إلى أين سيأخذك مجراه"

غمغمت ميا وهي تهبط بحذر "لا تقلق.."

كان النزول نحو النهر على شيء من الصعوبة وإن لم يكن مستحيلاً.. فتوثقت ميا من موضع قدمها قبل التحرك خطوة أخرى وهي تخشى السقوط على تلك الأحجار الحادة.. وفجأة، تحرك حجر تحت قدمها ليسقط بسرعة ويفقدها توازنها، فمدت ميا يدها لتتشبث بصخرة قريبة، عندما وجدت يداً تسندها وتثبتها في موقعها لئلا تسقط نحو النهر.. نظرت لصاحب تلك اليد فرأت خالد الذي وقف قريباً وهو يقول "انتبهي.."

جذبت يدها منه بشيء من الحدة وهي تستمر في سيرها دون أن تشكره.. لكنه لم يتراجع وهو يتبعها خشية انزلاقها من جديد.. وبعد لحظات سمعته يقول "مادمت قد تأكدت من براءتي أتمنى أن تكفّي عن مشاعر العداء تلك.. هل يمكنني أن أرجو ذلك؟"

قالت ميا مقطبة "لا شأن لك بما أفعله.. ولا يهمني ما تريده"

زفر خالد وهو يراها لا تنظر إليه بتاتاً ما استطاعت.. وراقبها وهي تقترب من النهر وتشرب من مياهه العذبة وتغسل وجهها.. لا يدري كم سيدوم عداؤها هذا، لكنه يرجو أن يزول قريباً.. تسوؤه نظراتها الحادة إليه، وتجاهلها التام له في أغلب الأوقات..

سمع صوتاً خافتاً لم يدرك مغزاه في البداية، لكن عندما تبعه صوت طلقة رصاص رجّت الموقع بصداها فإنه انتبه لما يجري وهو ينظر للطريق في الأعلى بدهشة.. بينما ركض الثوار ممن كانوا قرب النهر صاعدين للأعلى وأيديهم ترتفع بأسلحتها التي لم يتخلوا عنها بتحفز..

نظر خالد خلفه لميا التي وقفت بعينين متسعتين، فقال لها "حاولي الاختباء خلف أي صخرة حتى ينتهي الأمر.."

وصعد بدوره ذلك المنحدر حتى وصل أعلاه دون أن يُظهر نفسه لمن هناك، وبنظرة خاطفة، رأى الثوار وقد اتخذوا العربة والصخور الكبيرة القريبة حاجزاً يحميهم من الأشعة التي انهمرت عليهم بغزارة.. وفي الجانب الآخر، رأى مركبة من مركبات الجنود تقف في عرض الطريق، ومن فيها من الجنود يطلقون أشعتهم على الثوار وهم مختبئون خلف المركبة بدورهم..

توتر خالد وهو يراقب المعركة المحدودة، وانتبه لوجود أحد الثوار ساقطاً غير بعيد عن العربة وعيناه شاخصتان، فأدرك أنه نال نصيبه من أشعة الجنود عند مباغتتهم للثوار.. لم يعلم خالد إن كان من الأفضل له المشاركة في تلك المعركة مع الخوف من كشف أمره إن تعرف عليه أحد الجنود، أم البقاء وانتظار نتيجتها.. حسم أمره بعد تردد قصير وخرج من موقعه محتمياً بعدد من الصخور الذي يحجزه عن الجنود حتى يقترب من الثوار بأمان..

في الجانب الآخر، فإن روباك قال لهان وهو يقبض على سلاحه بقوة "ربما من الأفضل لنا مباغتتهم من الخلف.. وإلا لن نتمكن من القضاء عليهم هكذا.."

قال هان "أخشى ذلك.. رصاصاتنا ستنفذ سريعاً، بينما أسلحتهم تحوي طاقة غير محدودة تمكنهم من استخدامها لساعات.. وهم يتعمدون دفعنا لإفراغ رصاصاتنا عبثاً"

فقال روباك بعزم "سأتقدم مع رجلين من المنحدر ونحاول التسلل قرب النهر حتى نباغت الجنود من الخلف.."

هز هان رأسه موافقاً وهو يلتفت لرجاله قائلاً "حاولوا جذب انتباه الجنود لئلا يلاحظوا ابتعاد رجالنا"

أسرع روباك يشير لاثنان من الثوار ليتبعاه، وبدأ يسير محني الظهر بين الصخور الضخمة متجهاً نحو المنحدر، عندما رأى خالد يصعد المنحدر ويختبئ معهم خلف إحدى الصخور.. فصاح فيه روباك "أين ميا؟"

قال خالد بتوتر وهو يقف قريباً منه "عند النهر.. لقد طلبت منها أن تختبئ ولا أظنهم سيرونها في الأسفل.."

فقال روباك بغيظ "أيها الأحمق.."

وانحنى ليتفادى الأشعة والرصاصات المتطايرة وهو يتقدم بخفة نحو جانب الطريق محتمياً بصخرة كبيرة قربه.. وهناك، رأى ميا تختبئ خلف إحدى الصخور، وإن بدت له من موقعه بشيء من الوضوح.. ولهلعه، رأى عدداً من الجنود يتقدمون بجوار ضفة النهر متسللين.. بدا أنهم يحاولون مباغتة الثوار من الأسفل، كما فكروا هم تماماً، وبتقدمهم هذا، سيرون ميا بوضوح في موقعها..

ناول روباك سلاحاً صغيراً يملكه بالإضافة لسلاحه الأصلي لخالد الذي تبعه قائلاً "حاول إبعاد الجنود عن ميا.. أطلق على خزانات الطاقة في أسلحتهم، وهذا سيجعلها تنفجر في وجوههم"

قال خالد بتوتر وهو يصوب سلاحه "أنا لن أقتل أحداً منهم"

صرّ روباك على أسنانه بغيظ وهو يكفّ عن مجادلته.. وأطلق رصاصاته على الجنود الذين لا يتجاوز عددهم الخمس، فأفلح بقتل أحدهم وإصابة آخر في كتفه، بينما قام خالد بإصابة جندي آخر في ساقه ويده الممسكة بالسلاح.. أما الاثنان الباقيان فقد تفاديا الطلقات وهما يختبئان خلف صخور قريبة.. وبدءا يطلقان أشعتهما على روباك وخالد.. فتراجع الاثنان قليلاً وخالد يغمغم "يجب أن نستعيد ميا من الأسفل.."

سمعا شهقتها المذعورة، فنظرا بقلق ليجدا الجندي المصاب في كتفه قد جذبها من مخبئها وأحاط عنقها بذراعه وهو يتراجع بها وسلاحه موجه لرأسها تهديداً.. وصاح بعد أن أمر رفاقه بإيقاف الإطلاق "استسلموا خيراً لكم.. سأنسف رأسها لو أطلقتم رصاصة واحدة.."

رفع روباك سلاحه وهو يقول لخالد "عليك بالجنديين الآخرين"

هتف خالد "لا تقتله.."

لكن روباك أطلق رصاصته فأصابت يد الجندي الممسكة بالسلاح، فتأوه الجندي بألم بينما انثنت ميا محاولة الإفلات منه، ثم أتبعها روباك برصاصتين اخترقتا عنق الجندي بعد أن ابعدت ميا رأسها عنه وهو يشهق ويده تتراخى عنها قليلاً.. وبينما حاول خالد إبعاد الجنديين الآخرين بإغراقهما بطلقات غزيرة من سلاحه، تهاوى جسد الجندي الممسك بميا للخلف، وجذب ميا معه قبل أن تتمكن من التخلص من قبضته.. فشهقت وهي تجد نفسها تسقط في النهر القريب مع الجثة ليغمرها الماء الذي اكتسب برودة شديدة مع دخول الشتاء.. ولقوة التيار وعمق المياه تحتها، وجدته يجذبها معه عبر المجرى وهي غير قادرة على رفع رأسها فوق الماء إلا للحظات معدودة..

وفي الأعلى، كان خالد قد أفلح في إصابة الجنديين الآخرين.. فأصاب أحدهما في ذراعه ويده الممسكة بالسلاح، والآخر في ساقه عندما همّ بالتراجع.. أما روباك، ففي نفس لحظة سقوط ميا في النهر، كان قد قفز عائداً للعربة التي وقفت جانباً، فتناول منها حبلاً طويلاً وعاد متجاهلاً نداءات هان والبقية.. ثم هبط المنحدر بسرعة وتهور ليركض جوار ضفة النهر حيث اختفت ميا.. ورغم قلق خالد على ما حلّ بميا، إلا أنه لم يتحرك من موقعه وهو يطلق رصاصاته على الجنديين الباقيين ليتراجعا بعد أن حاول أحدهما إطلاق النار على روباك.. تاركاً أمر ميا لروباك، وهو شيئاً ما واثق أنه لن يتوانى عن إنقاذها..

****

الفصـــل الخامس عشر

اشتدت برودة مياه النهر وهي تجذب ميا معها بتيار قويّ لم تستطع مقاومته.. لم تكن تجيد السباحة، لذلك تخبطت بعسر وهي تحاول جذب شهقات من الهواء كلما استطاعت رفع رأسها فوق الماء لبرهة.. لذلك ما إن وجدت تلك الصخرة الضخمة في طريقها والماء يدفعها ليرتطم جسدها بها بشيء من القوة، حتى أسرعت ميا تتشبث بها بكل قوتها رغم الوهن الذي اعترى أعضاءها مع البرودة الشديدة التي تغلغلت حتى العظام.. شعرت أن أصابعها ترتجف رغم محاولتها الثبات في موقعها والمياه تدفعها من جديد، لكنها تشبثت بالصخرة بقوة وهي تتلفت حولها محاولة إيجاد طريقة للوصول للضفة الأخرى من النهر دون أن تخاطر بالغرق أو يجرفها النهر أبعد من ذلك..

وبين صوت المياه الهادر وهو يندفع بقوة في مجرى النهر، سمعت ميا صوتاً وصل إليها خافتاً آتياً من الضفة.. تلفتت حولها، فرأت روباك يقف عند الضفة البعيدة ويصيح بها بما لا تسمعه، ثم رأته يرمي بحبل طويل نحوها بقوة.. سقط الحبل على المياه غير بعيد عنها، فمدت يداً محاولة التقاطه.. لكن بسبب الرجفة في يدها المتشبثة بالصخرة، لم تتمكن من الوصول للحبل بسرعة قبل أن يجذبه النهر الجاري بعيداً.. وبسبب ضعف قوتها، انزلقت يدها عن الصخرة المبللة ووجدت المياه تجرفها معها وتغطيها.. أمسكت ميا أنفاسها وهي تتخبط في المياه حتى وجدت صخرة أخرى ترتطم بها، فتمسكت بها بسرعة وهي تصعد بوجهها فوق المياه الثائرة وتشهق بقوة.. بدأ جسدها كله يرتجف بقوة مع برودة المياه وأصابعها تتجمد.. نظرت جهة روباك فوجدته قد دخل المياه حتى وسطه وهو يتابعها وقلق عارم يتبدّى على وجهه.. ولما رآها تتشبث بالصخرة الثانية، أسرع يرمي لها الحبل مجدداً بعد أن تراجع محافظاً على ثبات خطواته في هذا النهر الجارف.. عندها، استجمعت ميا قواها كلها وهي ترمي نفسها نحو الحبل وتتشبث به بيديها الاثنتين.. وبسرعة، جذب روباك الحبل ومعه ميا نحو الضفة.. ولما اقتربت من الضفة، أسرع إليها روباك وجذبها بقوة لتقف وتسير معه بقدمين ترتجفان خارج النهر.. وهناك، انهارت ميا أرضاً وهي ترتجف بقوة وتهمس "كدت أغرق.. بالإضافة لأن أتجمد من البرد"

قال روباك وهو يخلع معطفها المبلل "لازلت في خطر من ذلك"

وأحاطها بمعطفه ليدفئها قليلاً، ثم قال لها "هل أنت بخير الآن؟"

ابتسمت بشفتين مرتجفتين مجيبة "أفضل حالاً.."

فقال "سأذهب لجمع بعض الحطب وإشعال النار لتدفئتك حتى يأتي هان والبقية، فالأخشاب القريبة مبللة ولا يمكن إشعالها.. ستكونين بخير فالجنود بعيدون.. لا تتحركي من موقعك حتى أعود.."

هزت رأسها موافقة، ورأته يغادر بخطوات سريعة لتبتلعه الغابة المجاورة للنهر.. زفرت ميا وهي تتشبث بمعطفه محاولة بث الدفء في أوصالها.. جسدها يرتجف، وإحساسها بأطرافها أضعف من السابق، وأصابعها متخشبة لا تكاد تستطيع ثنيها لتقبض على المعطف.. لقد أعلن الشتاء عن قدومه بأعنف صورة تخيلتها ميا وهي رغم تعودها على الشتاء الجبلي القاسي، إلا أنها لم تمكث قط في العراء مبللة دون وسيلة تدفئة..

مع الوقت، شعرت أن وعيها يغيب وضباب يغلّف عقلها بكثافة.. حاولت البقاء مستيقظة، لكن تطلب منها ذلك جهداً غير عادي.. وبعد مدة قصيرة، سمعت خطوات تقترب منها بسرعة، ولما استدارت رأت روباك يقترب قائلاً "حظنا جيد.. وجدت كوخاً مهجوراً في موقع قريب.."

لم تتمكن ميا من تحريك شفتيها أو التحكم في ارتجافتها.. فقام روباك بحملها بذراعيه وعاد من حيث أتى قائلاً "أنت في حالة سيئة.."

انكمشت ميا بين ذراعيه وهي تسمع اصطكاك أسنانها بقوة، ورأته يسير بين الأشجار بسرعة والنور الخافت للشمس من بين الغيوم قد عجز عن إنارة المنطقة حولهم مما حوّل النهار ليلاً مظلماً.. وبعد مسافة، رأت كوخاً خشبياً متوسط الحجم يربض وسط الأشجار ساكناً مظلماً وقد بدا مهجوراً.. فأسرع روباك إليه ودلف من بابه المفتوح ليخطو وسط الكوخ المظلم والعابق برائحة الرطوبة التي تشرّبها خشبه، والغبار الذي غطى كل شيء فيه..

وضع روباك ميا جانباً، وأسرع لمدفأة في جانب الكوخ الذي يتكون من غرفة واحدة على شيء من الاتساع، وحاول البحث عن وسيلة لإشعال النار فيها لبثّ بعض الدفء في الكوخ البارد.. تطلعت ميا حولها لترى المكان في حالة مزرية من الغبار والأغراض مبعثرة في كل اتجاه وخيوط العنكبوت التي اتخذت من الزوايا ملجأ لها.. يبدو أن صاحبه قد نبذه منذ مدة طويلة، وإن تعجبت من وجوده في موقع ناءٍ مثل هذا.. رأت الشعلة الذهبية تظهر أخيراً بعد محاولات من روباك وتأكل القرابين المقدمة لها لتنشر الدفء في الكوخ بشكل بسيط إنما فاعل.. فنهضت ميا بساقين ترتجفان وتقدمت منها لتجلس قريباً وهي تهمس بصوت منتفض "شكراً لك يا روباك.. هذا أفضل الآن"

رأته ينهض ويفتش في أرجاء الكوخ بصمت، قبل أن يعود وقد عثر على دثار غليظ حال لونه وغطاه الغبار، فنفضه بقوة قبل أن يقربه منها ويحيطها به ليمنحها مزيداً من الدفء معلقاً "على الأقل، لن نضطر للبقاء في العراء وتحمل تيارات الهواء الباردة"

فغمغمت ميا "آسفة لأنك اضطررت للتخلي عن معطفك لي.. ألا تشعر بالبرد؟"

هز رأسه نفياً وقال "لا تقلقي بشأني.."

صمتت قليلاً، ثم تساءلت "أتعتقد أن البقية بخير؟"

قال روباك "أتمنى ذلك.."

صمتت وهي تشعر بتثاقل في رأسها، ودفء في أوصالها رغم أن جسدها لم يكفّ عن ارتجافته.. ولم تدر متى غاب وعيها وهي جالسة تراقب النار بصمت.. وبعد مدة لا تعلمها، استعادت شيئاً من وعيها وهي تفتح عينيها لترى روباك يضع يده على جبهتها ويغمغم "أنت مصابة بحمى شديدة.. شيء طبيعي بعد ما حدث لك"

لم تعلق وهي تجده يحملها ليضعها على كرسي قريب، فاستلقت عليه بإنهاك وهي تشعر بالبرد يفتت عظامها.. وسمعت روباك بصوت عائم يقول "سأذهب لاستدعاء الآخرين.. لا تقلقي، فسأعود سريعاً.."

لم تنبس بكلمة وقد ظنت وهي ترى ما حولها بعين غائمة أنها قد تغمض عينيها فلا تفتحهما بعدها أبداً.. لكنها لم تستطع مقاومة ذلك وهي تغيب عن الوعي مجدداً..

****

نظر هان لما حوله، حيث استلقت الأجساد وقد فارقت الحياة في بقعة غير صغيرة من ذلك الموقع.. كانوا قد نجحوا بمعجزة من التخلص من الجنود الذين هاجموهم، وإن خسروا في سبيل ذلك رجلين من رجالهم.. نظر هان لرجاله قائلاً "من الخطر تركهم هنا فقد ينكشف أمرنا مع العثور عليهم وهم في عرض الطريق.. خذوهم بعيداً في الغابة القريبة وخبئوا الأجساد ما استطعتم.."

وحمل إحدى الخوذات مضيفاً "واحرصوا على تدمير هذه تماماً ليتعطل جهاز الاتصال.."

أسرع رجاله بتنفيذ أمره، بينما ركع هان قرب جسدي الرجلين اللذين قضيا نحبهما في هذه المعركة من رجاله.. فأغمض أعينهما وهو ينظر لملامحهما بأسى.. ولما اقترب أحد رجاله منه، قال هان بصوت هادئ يخفي انفعاله "احرصوا على دفنهما بشكل لائق.."

ثم تقدم هان من خالد الذي وقف قرب النهر يراقب بقلق، وسأله "ألم يعد روباك مع ميا؟"

قال خالد بقلق عارم "لا.. أتعتقد أنها بخير؟"

غمغم هان "لنرجو ذلك.."

وقف خالد في موقعه لحظات، قبل أن يقول لهان "سأذهب للبحث عنها.."

قطب هان قائلاً "لا.. لا يمكنني أن أتركك تجول بمفردك.."

فقال خالد "لن أهرب.. أريد التأكد أن ميا بخير.."

هز هان رأسه بإصرار قائلاً "لا يمكن.. فلننتظرهما.. روباك معها وسينقذها ولاشك.."

انشغل الرجال بنقل الجثث بعيداً عن الطريق وبتحريك مركبة الجنود لإخفائها في الغابة، بينما بقي هان وخالد قرب العربة بانتظار انتهائهم، وبانتظار عودة روباك مع ميا..

لم يخفت قلق خالد وهو ينقل بصره بين الثوار والنهر بصمت، وقد استشعر أن الوقت يطول دون أن يبدو لهما أثر.. وبعد أن كاد يتذمر لهان من جديد ويصرّ على المغادرة بحثاً عن ميا، رأى ظلاً قادماً من ضفة النهر.. ثم سرعان ما تبيّن فيه روباك وهو يتقدم نحوهم وحيداً مما أشعل الذعر في نفس خالد، فترك هان وهبط المنحدر بسرعة وتهور ليقترب من روباك صائحاً "أين ميا؟"

قطب روباك وكأنه منزعج من ذلك السؤال الذي يحوي اتهاماً واضحاً، ثم قال "لقد وجدت كوخاً قريباً من النهر تركتها فيه لتتدفأ.. إنها متعبة ولن تقدر على العودة إلى الثوار سيراً على الأقدام.."

ثم تركه ليعود لهان وبقية الثوار، بينما لم يتردد خالد في العودة من الطريق الذي أتى منه روباك بحثاً عن الكوخ وعن ميا.. لم يكن متأكداً من موقع الكوخ تماماً، لكنه لم يكن قادراً على الانتظار وترك ميا وحيدة ومتعبة.. شعر

بقلق شديد عليها جعله يتهور بالبحث عنها وحيداً دون أن يخشى ضياعه في الغابة المجاورة للنهر.. ودون أن يخشى مما قد يعتقده الثوار عندما يكتشفون اختفاءه وهم قد حذروه مراراً من ذلك..

بعد مسافة متوسطة، وقد غلبه توتر شديد بعد أن عجز من معرفة موقع الكوخ الذي كما يبدو لم يكن واضحاً عند النهر.. رأى في تلك اللحظة سواداً ملقىً أرضاً قريباً من ضفة النهر، ولما اقترب منه اكتشف أنه معطف ميا المبلل.. حمله ونظر حوله، ثم جازف بدخول الغابة من ذلك الموقع شاكّاً بأن الكوخ ولابد قريب من هذا المكان..

في ذلك الوقت، وبعد أن أنهى الثوار إخفاء الأجساد، التفت هان لروباك قائلاً "الآن خذنا لموقع ميا يا روباك.."

فقال روباك "ما الذي تنوي فعله؟ إنها مريضة ولا يمكنها متابعة الرحلة حتى مايار.. فهل نقدر على التأخر يوماً حتى تصبح بحال أفضل أم أن هذا سيضرّ مخططنا بأي شكل كان؟"

قال هان "من المفترض ألا نتأخر كثيراً عن مخطط رحلتنا.. لكن ما باليد حيلة.. لا نستطيع التخلي عن ميا الآن، ولا أضمن تركها هنا مع أحد الثوار والرحيل بعد الهجوم الذي لاقيناه من الجنود.."

ثم نظر لروباك مضيفاً "إنهم كانوا يعلمون بقدومنا.. ولهذا السبب حاولوا القضاء علينا قبل وصولنا لمايار.."

غمغم سارود الذي كان قريباً "أتعني أن بين ثوار الشمال خائناً؟"

قال هان "أغلب الظن.. لابد أن يسعى الغزاة لدسّ جواسيسهم بين الثوار حتى يتمكنوا من القضاء عليهم بأسرع ما يمكن.. لذلك، فنحن في خطر حتى يتمكن برتيك من اكتشاف الجاسوس والتخلص منه"

ثم قال لروباك "هيا بنا.. لا نريد الوقوف في هذا المكان كثيراً فقد يصل المزيد من الجنود.."

تقدمهم روباك نازلاً المنحدر قبل أن يقف قليلاً ويتلفت حوله، وإزاء نظرات هان المتسائلة قال روباك مقطباً "أين ذلك الجندي؟"

تلفتوا حولهم بشيء من الدهشة قبل أن يقول سارود بغيظ "هرب؟ كنت أعلم أنه سيفعل ذلك ما إن نغفل عنه"

فغمغم هان "أأنت واثق من ذلك؟"

نظر له سارود بدهشة، بينما قال روباك "لقد سألني عن ميا.. أتعتقد أنه ذهب بحثاً عنها؟ لكنه لا يعلم موقع الكوخ بالضبط"

فقال هان "سيتضح كل شيء عند وصولنا لذلك الكوخ.."

****

عندما انتبهت ميا لما حولها، بعد مدة طويلة قضتها نائمة بإنهاك، شعرت بيد تمسك يدها وتضغط عليها برفق، فابتسمت شيئاً ما وهي تفتح عينيها هامسة "روباك؟.."

بدا لها الوجه أمامها عائماً، وسمعت صوتاً يقول "ميا.. هل أنت بخير؟ كدت أموت قلقاً عليك عندما غبت عن ناظريّ"

فتحت عينيها دفعة واحدة وهي تتعرف الصوت، وقالت مقطبة "أهذا أنت؟ كيف وصلت إلى هنا؟"

رأت خالد يجلس قريباً منها ووجهه يفضح قلقه، وهو يمسك يدها بيده.. فجذبت يدها وهي تتمالك نفسها لتجلس مضيفة "أين روباك؟"

قال خالد وهو يعيدها لتستلقي "لقد ذهب لإبلاغ الثوار عن وجودك هنا.. وهم قادمون الآن.. لا تقلقي وحاولي أخذ قسط من الراحة.. أنت محمومة"

غمغمت "لقد تسببتُ بتأخيرهم عن المضيّ في طريقهم.. لابد أن هان متضايق من هذا.."

قبل أن يعلق خالد بكلمة، فوجئا بروباك يقترب منهما سريعاً فيقبض على خالد من عنق ثيابه ويبعده بشيء من العنف قائلاً بحدة "ما الذي تفعله هنا؟"

وقف خالد عاقداً حاجبيه وقال "ولم هذه العصبية؟ لقد جئت أطمئن عليها.."

فقال روباك بجفاء "وفّر تعاطفك هذا لنفسك وابتعد عنها.."

سمعا صوت هان من خلفهما يقول "لا داعي لهذا الشجار.."

رأت ميا بقية الثوار يدلفون الكوخ بصمت، بينما اقترب رستين منها وتفحصها قائلاً "سمعت أنك محمومة.. ويبدو هذا واضحاً على وجهك"

وفتح حقيبته ليبدأ علاجها، بينما نظرت ميا لهان الذي اقترب مغمغمة "آسفة إن تسببت في تأخير سيرنا.. أنا لم....."

قاطعها هان قائلاً "المهم أن تصبحي أفضل حالاً.."

وجدت رستين يحقنها بدواء ليخفف الحمى، ثم وضع بعض الكمادات على جبينها قائلاً "عليك ألا تجهدي نفسك حتى تخفّ الحمى ويبدأ جسدك مقاومتها.."

غمغمت وهي تغمض عينيها "شكراً لك.."

أما روباك، فقد اقترب من هان الذي جلس جانباً وقال "ألا نرسل أحداً نحو برتيك لإبلاغه بتأخرنا؟.. ربما يغضب برتيك من هذا فقد سمعت أنه صارم جداً"

قال هان "سأرسل من يعلمه بذلك.. لكن لا حيلة لنا في تأخرنا هذا.."

نظر روباك جهة ميا التي عادت لتغفو ووجهها مشتعل بسبب الحمى رغم الكمادات على رأسها، ثم غمغم "ذلك الجندي لا يعجبني.."

علق هان مبتسماً "شيء طبيعي.. لا أظنه يتوقع منا أن نكون مدلهين في حبه بهذه السرعة رغم معاونته لنا.."

قال روباك عاقداً حاجبيه "لا أعني ذلك.. يبدو مهتماً بشدة بميا.. وهذا يثير في نفسي التوجس.. أخشى أن يسعى لإيذائها بأي شكل كان"

قال هان "لقد أخبرني سابقاً أن وجود ميا كان دافعاً له للخروج على الجيش وانضمامه إلينا.."

نظر له روباك بدهشة وغمغم "هو قال ذلك؟.. أيمكن أن يحمل لميا اهتماماً خاصاً؟"

قال هان وهو ينظر لخالد الذي جلس جانباً وحيداً وإن ظل يلقي بنظراته تجاه ميا "شككت بذلك لما رأيته يحاول إثبات براءته أمامها.. ورأيت اهتمامه بها.."

صمت روباك وهو يحدج خالد بنظرات حادة، ثم قال "هل نتركه يفعل ما يشاء؟"

أجاب هان وهو يقف "لا.. إنه لن يجرؤ لفعل شيء مادام بيننا.. فلا تقلق.."

واتجه نحو خالد ليجلس قربه قائلاً "أتمنى أن تكون مستعداً لمعاونتنا بما نبغيه منك أيها الشاب.. فقد يطول مكثنا هنا حتى نكمل سيرنا نحو مايار"

اعتدل خالد في جلسته مجيباً "سأساعدكم قدر استطاعتي.. لكن لن أشارككم في أي عملية تستهدف قتل الجنود.. فأنا لم أنضمّ إليكم لأصبح قاتلاً"

ابتسم هان معلقاً "لم أتوقع منك ذلك.."

استغرق هان في حديث طويل مع خالد الذي لم يمانع في منحه ما يملكه من معلومات عن الجيش وألويته، وعن الجنود وأسلحتهم وما يملكونه من معدات وأجهزة.. ورغم جهله بالكثير من الأمور في مايار، إلا أن خالد أبلغه بكل ما سمعه وما يعرفه عنها وعن تحصينات الجيش فيها.. وعن المنجم الضخم القائم على مقربة منها وسير العمل فيه.. منحه خالد كل ذلك بطيب خاطر، محاولاً جعل الثوار يثقون به أكثر ولا يعاملونه كمنبوذ كما يفعلون حالياً..

خيانة؟.. إنه لا يعتبر الأمر كذلك.. خيانة عدو ظالم لا تغدو خيانة حقاً.. وهو مقتنع أن ما يفعله هو الصواب، وهو ما كان عليه فعله منذ أمد طويل..

****

مع مغيب شمس ذلك اليوم، والذي لم يصنع فارقاً مع الظلام الذي كان مسيطراً بالفعل منذ الصباح بسبب الغيوم الكثيفة، نهضت ميا وقد شعرت أنها غدت أصفى ذهناً مما كانت عليه في السابق.. تلفتت حولها وهي تشعر بحرارة شديدة تنبعث منها بعد البرودة التي كانت ترجف جسدها رجفاً عنيفاً.. ربما هذا بسبب تلك البطانية التي غطتها طوال الساعات الماضية حتى زالت الحمى من جسدها تماماً.. رأت رستين يقترب منها متسائلاً "أأنت أفضل حالاً الآن؟"

هزت رأسها إيجاباً مغمغمة "شكراً لك.. لم تكن الحمى بتلك الشدة"

فعلق رستين "جيد أنها كانت حمى عابرة.. لن يطول مكثنا في الغابة، ولن تتمكني من الرحيل معنا لو اشتد بك المرض"

تلفتت حولها ملاحظة السماء السوداء من النافذة القريبة، بينما جلس الثوار في الكوخ.. بعضهم يتناول طعاماً بسيطاً قاموا بتحضيره، وبعضهم يرتاح من عناء الطريق استعداداً لمرحلة جديدة منه..

عادت ميا ببصرها نحو رستين متسائلة "أين البقية؟"

ابتسم رستين معلقاً "تعنين روباك؟"

عقدت حاجبيها قائلة "وهان.. والجندي.. أين اختفوا جميعاً؟"

أجاب رستين "روباك كالعادة يجول في المنطقة خوفاً من مباغتة الجنود لنا.. هان مع الجندي في الخارج يتحدثان.. وقد طلب هان أن نتركهما وحدهما حالياً"

صمتت ميا وهي تستشعر الدفء في أوصالها وإن كان الإنهاك والحمى قد أورثاها دواراً بسيطاً.. وبعد دقائق، رأت رستين يقرّب منها بعض الطعام الذي تبرع به صاحب المزرعة التي باتوا فيها ليلة رحيلهم إلى مايار، وقد استخدموا النار في المدفأة لطبخه وهي نائمة.. فشكرته ميا وحاولت تناول القليل منه، رغم أنها بغير شهية بسبب التعب..

وعندما فتح الباب، هبّت عليهم نسمة باردة أزالت الدفء من ميا في ثوانٍ.. بينما تقدم روباك منها وهو يتساءل "أأنت بخير الآن؟"

ابتسمت مجيبة "أجل.. أفضل حالاً.. كدت أغرق في ذلك النهر المندفع لولا مساعدتك"

غمغم روباك "هذه حادثة بسيطة مقارنة بما عليك توقعه من الحرب التي نحن موشكون عليها.."

خفضت ميا رأسها هامسة بضيق "لا داعي لتذكيري بذلك.."

لم يعلق روباك وهو يمسح بيده على شعرها القصير، ثم ابتعد نحو بقية الثوار وهو يحدثهم بما لم تسمعه ميا.. بينما بقيت هي ساهمة في النار المتأججة في المدفأة وسط الكوخ، تفكر في ما ينتظرهم في مايار في الأيام القليلة القادمة.. ورغم أنها لم تفتأ تفكر في ذلك منذ علمت برحيلهم إليها، إلا أن القلق لم يخفت وروعها لم يهدأ مع مرور الأيام..

سمعت الباب يفتح من جديد، ورأت هان ومن خلفه خالد يدخلان الكوخ غير عابئَين بالبرودة الشديدة خارجاً.. واقترب منها هان قائلاً "جيد أن أراك استعدت وعيك يا ابنتي.. اهتمي بنفسك جيداً ولا تستسلمي للمرض"

ابتسمت ميا وهي تهز رأسها.. ولم يكد هان يبتعد حتى اقترب منها خالد قائلاً بقلق "هل أنت بخير حقاً؟"

نظرت له ميا تقطيبة ترتسم على جبينها، ثم قالت "لم أنت مهتم بمرضي كل هذا القدر؟ ما الذي ترمي إليه حقاً؟"

قال خالد بضيق "وهل يجب أن يكون لقلقي مغزىً خفي؟"

ظلت تتفرس في ملامحه بحثاً عن حقيقة ما يقصده، فقال بابتسامة خفيفة "أنا قلق عليك فقط.. هذا كل ما هنالك.."

غمغمت ميا "لن يخدعني هذا.."

اختفت الابتسامة من وجهه، بينما أدارت ميا وجهها نحو النار مجدداً لتقطع عليه سبيل الحديث معها.. فلم يكن هذا مما يسعدها..

****

في اليوم التالي، والذي لم يكن أقل برودة من الليلة السابقة، قال هان لأحد رجاله "ألم يعد وابي ومن معه بعد؟ لقد أرسلته مع أحد الرجال برسالة لبرتيك منذ البارحة.. ومن المفترض أن يعودا اليوم إن لم يعترض طريقهما أحد الجنود"

قال هير "لم يعودا بعد.. أتظن مكروهاً أصابهما؟"

قال هان "لا أعلم.. فلننتظر حتى منتصف النهار، ثم نرسل من يبحث عنهما.."

غمغم سارود الذي كان قريباً من المدفأة المشتعلة "لقد اقترب الشتاء كثيراً.. قد تسقط الثلوج في أي لحظة.. ألن يضرّ هذا خطة ثوار الشمال بشيء؟"

علق هان قائلاً "لا أعلم.. سأسأل برتيك عندما أقابله.."

أما ميا، فقد وقفت قرب النافذة مديرة ظهرها للكوخ الدافئ، ووجهها تجاه النافذة التي يتسلل منها البرد الشديد الذي عمّ الغابة حولهم.. بعد قليل وجدت خالد يقترب منها متسائلاً "هل تريدين بطانية لتدفئتك؟ البرد شديد، وأنت لم تتعافي من الحمى بشكل كامل.."

قالت دون أن تلتفت نحوه "لا.. لست بحاجة لذلك.."

وصمتت محاولة تجاهله، حتى سمعته يقول "ميا.. حتى متى ستكرهينني؟"

نظرت إليه بصمت، فأضاف "ألم تقتنعي ببراءتي بعد؟ لازلت أشعر أنك تكرهينني كأنني السبب في كل ما جرى لك.."

قالت وهي تنظر من النافذة مجدداً "ربما لست أكرهك.. قد أكون اقتنعت ببراءتك شيئاً ما، لكنني لن أغرق في حبك لمجرد أنك بريء.. لا يمكنني أن أنسى أنك من الغزاة.. وإن عاملتك بلطف يوماً ما فذلك لأنك كنت بحاجة لرعايتي.. وليس من عادتي أن أفرّق في معاملتي للجرحى بين صديق وعدو.."

غمغم خالد "إذاً أنا عدو؟.."

أشاحت بوجهها مجيبة "صنّف نفسك كما يحلو لك.."

فقال خالد "لكنني لم أرفع سلاحاً في وجه أحد مواطنيك طوال وجودي هنا.. لم أسعى يوماً لإيذاء أحد بل كنت أنقذ من أستطيع....."

انتبه أنها تنظر من النافذة القريبة ساهمة دون أن يبدو عليها أنها تستمع لما يقوله، ثم فوجئ بها تتركه حيث وقف وتخرج من الكوخ غير عابئة بالبرودة خارجاً مما أدهشه، فغمغم بضيق "وطبعاً لم تكن تستمع لكلمة مما أقول.."

نظر من النافذة ليرى سبب خروجها، فرآها تقترب من أحد الثوار وهو ذلك الرجل حاد الطباع، والذي وقف قريباً من الغابة مولياً ظهره للكوخ.. ظل ينظر إلى ميا متعجباً وهو يراها تبتسم وتبادل ذلك الرجل حديثاً لا يمكنه سماعه.. لفت انتباهه رؤية وجهها الذي أنار وهي بقرب ذلك الرجل، كما حدث عدة مرات من قبل، لكنه غالط نفسه وهو يطيل النظر إليهما دون أن يدري سبب تلك الغصة التي تصاعدت في حلقه..

يحنقه تبسطها مع ذلك الرجل الحاد وتبسمها له.. لم هو بالذات؟ أيمكن أن تكون ميا مهتمة به؟.. نفض الفكرة بسرعة من رأسه وهو يقطب مغمغماً لنفسه "لكنه كبير في العمر.. أكبر منها بما يقارب العشرين سنة ربما.. أيمكن أن تهتم بشخص بهذا العمر بالإضافة لطباعه الحادة العصبية؟ مستحيل.."

أما ميا فما إن اقتربت من روباك حتى قالت مبتسمة "ألا يؤدي جسدك أي من وظائفه كالآخرين؟ البرد قارس هنا وأنت تتجول بملابسك العادية؟"

قال روباك وهو ينظر إليها "وماذا عنك؟ المفترض أن ترتدي معطفاً ثقيلاً عند خروجك من المنزل الدافئ.. خاصة وأنك قد شفيت من الحمى قريباً"

أحاطت جسدها بذراعيها وهي تغمغم "حقاً.. لقد تسرعت بالخروج.. والآن أكاد أتجمد من البرد"

فقال روباك "إذاً أسرعي بالدخول.. لا نريد أن تصابي بنوبة برد من جديد.."

قالت بابتسامة "أليس من المفترض أن تمنحني معطفك في هذه الحالة؟.."

قال روباك مبتسماً "لكنني لا أرتدي معطفاً من الأساس.. فأنا لم أستعده منك بعد، أم أنك نسيت؟"

غمغمت ميا "طبعاً لم أنسَ ذلك.. لا بأس.. لا تضيرني بضع دقائق أقضيها في الخارج.."

صمت روباك وهو يتأمل الغابة حولهما وميا تشاركه الصمت ملقية بنظراتها عليه بين فينة وأخرى.. ثم قالت وهي تحاول كسر الصمت بينهما "هل خرجت لمراقبة الموقع حول الكوخ كعادتك؟"

هز رأسه إيجاباً وهو يقول "أخشى أن يغافلنا الجنود ونحن هنا.. لذلك أردت الاطمئنان أن موقعنا هذا لم يُكشف بعد.."

فقالت ميا "أتظن أن مهمتنا ستكون سلسة في مايار؟ هل سيكون لوجودنا فائدة هناك؟"

قال روباك "ما الذي تقولينه؟ إن رجلاً واحداً يستطيع أن يقلب المعركة رأساً على عقب.. لا تستهيني بنا فرجالنا يمتلكون عزماً لا يمكن كسره.. ولن يعود أحدنا لدياره قبل مقتل آخر جندي من الغزاة.."

أطرقت ميا مغمغمة "معنى هذا أننا قد لا نعود إلى سِن مرة أخرى.."

نظر إليها بصمت للحظات، ثم قال متنهداً "لم أتمنّ قدومك معنا هذه المرة.. فما سنجابهه في مايار يختلف تماماً عما جابهناه في سِن.."

اندفعت قائلة "لكنني لم أكن لأرضى بالبقاء وحيدة وأنا أراكم ترحلون.. سأبقى معكم حتى ننتصر أو نقضي نحبنا جميعاً.."

مد يده يمسك خصلات من شعرها وهو يغمغم "لا تذكري الموت الآن.. فهو آخر شيء أريد التفكير فيه وأنت أمامي.."

ثم وضع يده على خدها الذي اشتعل احمراراً وهو يهمس "لا تعرضي نفسك للخطر يا ميا.. أنت لازلت صغيرة.. كنت أتمنى رؤيتك مستقرة في بيت يحميك من الأخطار، لا أن أراك تغرقين بين الدماء والجراح وعذاب الثوار.."

ظلت ميا تنظر إليه بعينين متسعتين وقلبها يطرق صدرها بقوة.. لم تسمع أي كلمة مما قالها في جملته الأخيرة، كل ما أدركته هو ملمس يده الدافئة على خدها، ونظراته التي اكتست مشاعر لم ترها فيها من قبل.. وكل ما سمعته هو صوت طرقات قلبها المجنونة.. ثم وجدت نفسها تندفع لتقول "روباك.. هل..... هل تحبني؟.."

ورغم لهفتها لمعرفة الجواب، إلا أنها ندمت على تسرعها والاحمرار يغزو وجهها بوضوح.. لكنها ثبتت ولم تهرب من مواجهة عينه وهو ينظر لعينيها صامتاً لثوان، ثم ابتسم قائلاً "بالطبع أحبك.. أنت ابنة أفضل صديق لي وقدوتي.. لو كانت لي أخت صغرى لما أحببتها أكثر من هذا.."

قالت بشيء من الضيق "أتحبني كأخت صغرى فقط؟"

نظر إليها بغير فهم، فقالت خافضة بصرها بصوت مرتجف "لكنني.... أحبك يا روباك.. حقاً أحبك.."

صمت روباك للحظات وهي تشعر بالدماء تتجمع في خديها والحرارة تشع من وجهها.. ثم شعرت به يسحب يده.. ولما نظرت إليه رأته يحوّل بصره للأشجار حولهما قائلاً "ليس في قلبي متسع لشيء سوى ما نحارب لأجله.. حياتي هي وطني يا ميا.. ووطني هو ما يملأ قلبي الآن.."

لم تكن هذه الإجابة التي توقعتها ميا، لكن هذا لم يردعها من أن تسأل من جديد "وبعد الحرب؟ بعد النصر؟.. ألن يتغير أي شيء؟.."

ابتسم روباك متطلعاً إليها وغمغم "من يدري؟.."

وتركها ليتوغل أكثر في الغابة، بينما وقفت ميا مكانها ترتجف.. لا تدري أهو بسبب البرد القارس الذي تغلب عليها، أو بسبب المشاعر التي غمرتها، والتي رغم إجابة روباك المبهمة، فقد أشعلت فيها ناراً لا تهمد..

****

عندما عاد روباك من جولته في الغابة بحثاً عن أي أثر للعدو قربهم، انتبه لوجود ظلٍ أمامه.. رفع بصره متوقعاً رؤية ميا بانتظاره، لكن بدلاً عنها رأى خالد يقف ناظراً إليه بثبات وشيء من الحدة تبدو على غير العادة على وجهه.. فقال روباك "ما الذي أخرجك من الكوخ وحيداً الآن؟"

قال خالد بعد لحظة صمت "كنت أنتظرك.. أريد التحدث إليك.."

علق روباك قائلاً "لا أذكر أن بيننا حديثاً يمكن تبادله أيها الجندي.."

وتجاوزه ليعود إلى المنزل، لكن خالد قال "أنت تعلم أن ميا تصغرك بكثير.. أليس كذلك؟"

تجمّد روباك في وقفته، ثم التفت إلى خالد بتعجب، فيما أضاف خالد "لو كنتَ متزوجاً، لكنتَ تملك ابنة في عمرها الآن.."

ابتسم روباك بجانب فمه وقال "أنا لم أقل غير هذا.."

فقطب خالد قائلاً "إذاً لماذا تحاول استمالتها بهذه الطريقة؟ أنت تعلم أنها تميل إليك نوعاً ما.. لكنها ربما ترى فيك الأب الذي فقدته قريباً.. فلماذا لا تضع حداً واضحاً بينك وبينها؟"

قال روباك ساخراً "لا أذكر أنني طلبت رأيك أيها الدخيل.."

فقال خالد "مهما وصفتني بهذه الألفاظ، فهذا لا يعني أنني سأرتعب منك.. أريدك أن تبتعد عن ميا.. هي صغيرة ولا يحق لك استغلال براءتها لكسب مشاعرها.."

فوجئ خالد بروباك يقترب منه بسرعة بخطوتين ويجذبه من مجمع ثيابه ليرفعه قليلاً قائلاً بحدة "ميا صغيرة وبريئة بالفعل.. فهل تظنني سأسمح لعدو مثلك بالاقتراب منها؟ أريدك أنت أن تبتعد عنها، ولا تفكر بالتقرب منها ومحاولة التأثير عليها.. الغزاة أوغاد، وأنت ستظل منهم مهما عرضت مساعدة الثوار وتظاهرت بالبراءة.."

ودفعه بقوة كادت تسقطه وهو يضيف "أنا لم أقل يوماً إنني أحاول استغلال ميا.. أنا مدرك أنها تحاول تعويض ما فقدته بي.. لكنني واثق أنني لن أسبب لها ضرراً في يوم من الأيام.. أما أنت، فأنا أراقبك، وإن بدر منك ما لا يعجبني تجاه ميا فسلاحي يسبق تفكيري دائماً"

هتف خالد "من الذي فرضك وصيّاً عليها؟ أنا لا أنوي لها شراً.. بل سأسعى لحمايتها دائماً.. لست مثلك أحاول استغلالها في الحرب رغم خطورة ذلك عليها.."

لم يعلق روباك على حديثه وهو يغادر، فيما وقف خالد في موقعه والغيظ يأكله.. لم يكن يشعر بارتياح لوجود ميا قرب ذلك الرجل منذ انضم للثوار.. لكن اليوم، مع نظرات ميا اللامعة وهي تحدثه، ومنذ رآه يلمس وجهها بيده دون رادع، أيقن أن ميا بدأت تنسل من بين أصابعه.. وإن لم يبعدهما، فمعنى ذلك أنه سيفقدها تماماً..

****

الفصـــل السادس عشر

قبل اقتراب المساء في اليوم ذاته، عمّ الضباب أرجاء الغابة كثيفاً يكاد يغطي ملامح المكان كله وتزيد رؤياه البرودة التي تتغلغل في العظام.. وقفت ميا قرب النافذة تنظر للأشجار التي بالكاد تبدو كأشباح وسط الضباب، وتستمع للأحاديث الدائرة خلفها بين هان ورجاله.. لقد اضطروا لتأجيل رحيلهم مجدداً نحو العاصمة التي لم تكن تبعد الكثير عنهم، لكي يتفادوا أي مباغتات من الجنود في هذا الجو الضبابي..

بعد وقت قضته صامتة، قالت وهي تدقق النظر من النافذة "هناك شخص قادم.."

شعرت بتوتر الرجال خلفها، ثم تساءل هان "أليس هو وابي وصاحبه اللذين أرسلتهما لبرتيك؟"

أجابت ميا "بلى.. لكن معهما شخص آخر.."

نهض روباك لينظر من النافذة محاولاً معرفة هوية القادم، بينما سمعت هان يقول "خالد.. إياك أن تفصح عن هويتك لأي شخص.. واحذر من الحديث معهم قدر استطاعتك.."

هز خالد رأسه بصمت.. وبعد دقائق، خرج هان ومن معه لاستقبال الغريب القادم مع رفاقهم.. بينما وقفت ميا في موقعها تنظر لما يجري وهي قلقة شيئاً ما من قدوم ذلك الغريب.. أهو من ثوار الشمال؟.. قدومه الآن يعني أن عجلة الأحداث قد بدأت تدور، ولا تدري عم ستسفر عنه تلك الأحداث التي لن تكون هيّنة..

شعرت برستين يقف قربها قبل أن يقول "أتظنين أنه برتيك؟"

تساءلت ميا "ما الذي منعك من الخروج واستطلاع الأمر معهم؟"

هز رستين كتفيه مجيباً "ليس هذا من شأني.."

فقالت ميا بعجب "أراك لا تتدخل في شؤون الثوار ولا يهمك ما يخططون له.. فكيف ذلك وأنت تنتمي لهم؟"

قال وهو يتأمل ما يجري خارجاً "كل ما يهمني هو تأدية عملي.. ما عدا ذلك فليس من شأني، ولن أنال من التدخل في شؤونهم إلا القلق والتفكير"

تعجبت ميا من هذا المنطق، كيف يمكنه أن يكون بهذه الحيادية وقد قضى معهم زمناً طويلاً كما علمت منه؟..

أما في الخارج، فقد وقف هان مع رجاله بانتظار ذلك الغريب الذي كان يرتدي معطفاً يغطي به رأسه وأغلب ملامحه.. ولما اقترب منهم رفع غطاء رأسه قائلاً "مرحباً.. أأنت هو هان؟.. أنا جوراد"

تقدم هان خطوة ليصافحه قائلاً "مرحباً بك.. أنا هان.. أين برتيك؟ ألن نذهب للقائه؟"

أجاب الرجل "أرسلني برتيك لأبلغكم أنه قادم إليكم.."

بدت الدهشة في الأعين وهان يقول "ظننت أننا سنذهب نحن إليه.. أهناك ما استجد؟"

هز جوراد رأسه مجيباً "لا علم لي.. إنه فقط يطلب منكم انتظاره حتى قدومه.."

لم يعلق هان وهو يدعو الرجل لدخول الكوخ، وتبعه الجميع ليعودوا للدفء داخل الكوخ بعد أن لسعهم البرد في

الخارج.. استغرق الرجال بعدها في الحديث مع جوراد عن العاصمة والأحداث التي جرت فيها مؤخراً، وحال الثوار فيها مع جيش الغزاة..

كانت الأوضاع في مايار أفضل منها في سِن بالنسبة للثوار.. رغم تمركز قوات كبيرة من الجيش فيها وتشددهم في التعامل مع الثورة.. لكن الثوار كانوا يملكون قوة لا يستهان بها، بسبب كثرة عددهم وانضمام رجال لهم من عدة مناطق أخرى مع مرور الوقت بحيث قويت شوكتهم..

كانت كل تلك الأنباء تسعد هان ورجاله وهم يستمعون للرجل باهتمام، بينما بقيت ميا جالسة في جانب المكان تستمع لهم بصمت دون أن تشاركهم الحديث.. لم يكن ما يجري في مايار يهمها بقدر اهتمامها بما هم مقدمون عليه.. ومدى خطورة ذلك على رفاقها من الثوار..

بعد وقت غير قصير قضوه في الحديث، فتح الباب فجأة بغفلة من الجميع، فهبّ الرجال وقوفاً وقد أخذتهم المفاجأة، لكن جوراد قال بعد أن ألقى نظرة على القادم "لا تقلقوا.. إنه الرئيس برتيك"

نظرت ميا للقادم بعد أن هدأت من المفاجأة التي جعلتها تفقز في مقعدها.. كان المدعو برتيك على شيء من الضخامة.. طويل الجسد عريض المنكبين، أسمر البشرة بشعر أسود ولحية خفيفة.. ويرتدي معطفاً يغطي به رأسه ومعظم ملامح وجهه كما كان يفعل جوراد، وملامحه التي بدت من الغطاء كانت صارمة حادة.. لا تدري لم شعرت ميا بعدم راحة لوجوده.. بدا شخصاً ذا شخصية قوية جداً بحيث يُشْعر الآخرين بعدم راحة أكثر من الاطمئنان، وقد بدا هذا واضحاً في وجوه الآخرين وهم يقفون بتوتر، بينما تقدم هان من برتيك ليصافحه قائلاً "سعيد بلقائك حقاً يا برتيك، رغم أن لقاءنا في هذا الكوخ يثير التساؤل"

قال برتيك بصوت عميق "أنت هان.. أليس كذلك؟ سررت بقبولكم دعوتي والحضور لمايار.. أتمنى ألا يكون الطريق قد أتعبكم كثيراً"

قال هان "لا تقلق.. لقد تأخرنا بسبب الضباب ليس إلا.."

دار برتيك ببصره بين البقية متفحصاً، قبل أن يتوقف عند خالد لفترة طويلة توتر لها خالد كثيراً وهو يجابه عيني برتيك الحادتين بصعوبة، ثم قال برتيك فجأة "هذا الشاب لا يحمل وشم الثوار.. هذا غريب"

ابتسم هان ليجيب بسرعة "منذ انضمامه لنا عمل كجاسوس لدى الجيش، لذلك لم يكن من الطبيعي أن يحمل شعار الثوار مع خطورة ذلك في عمله.. "

طال تفحص برتيك لخالد حتى شعر الأخير أن برتيك سيستخرج سلاحه ويطلقه على رأسه فوراً.. لكن برتيك أدار عينيه بعيداً تاركاً خالد يكبت تنهيدة راحة بصعوبة.. وسمع هان يقول "إذن، ما الداعي لحضورك في هذا الموضع مع ما في خروجك من خطورة عليك؟"

قال برتيك وهو يميل تجاه هان "هناك أمور استجدت.. لذلك خرجت لأتفاهم بشأنها معك بنفسي"

ثم تطلع في وجوه البقية مضيفاً "دخولكم إلى مايار مستحيل الآن.."

نظروا له بدهشة وهان يقول بقلق "لماذا؟ ما الذي استجد؟"

قال برتيك "التحصينات الأمنية قد تزايدت هذه الأيام مع قرب قدوم القادة الست واجتماعهم في العاصمة.. دخولكم سيثير الانتباه ولاشك، ولا نريد المخاطرة بانكشاف أمركم وما ينتج عنه من تزايد حذر القادة والجنود.."

تساءل هان "وماذا عن بقية الثوار الذين سبقونا؟"

أجاب برتيك "لا تقلق.. لقد أخذناهم لمخبأ من مخابئنا التي تقع خارج العاصمة.. وسنأخذكم هناك بعد حين"

فقال هان "أهذا يعني أن العملية فاشلة؟"

قال برتيك بصرامة "مستحيل.. لن نفشل بتاتاً.. هناك بعض التعديلات التي سنجريها على الخطة، لكننا سنمضي فيها للنهاية.. حتى لو خسرنا آخر رجل من رجالنا"

توترت ميا لقوله ذلك وهي ترمق رفاقها من الثوار.. ما الذي سيحدث لهم في مايار؟ صرفت تفكيرها عن المخاطر المحيطة بهم وهي تسمع برتيك يقول "أريد أن أجتمع بك يا هان على انفراد لنتناقش بخصوص الخطوة القادمة.. وبعد ذلك سنأخذكم للمخبأ حيث بقية رجالك.."

هز هان رأسه موافقاً، وبإشارة منه، نهض رجاله وخرجوا من الكوخ بصمت يتبعهم جوراد وميا وخالد، فيما بقي هان مع برتيك وحيدين في الكوخ.. وفي الخارج، لاحظوا وجود عدد كبير من ثوار الشمال الذين حضروا مع برتيك، وهو كما يبدو لا يتحرك وحيداً لحماية نفسه من الجنود..

اقتربت ميا من روباك الذي جلس جانباً لتقول "برتيك هذا يثير شعوراً بعدم الراحة في نفسي.. لا أدري لماذا"

غمغم روباك "إنه كذلك.. لكن لا تهتمي به.. المهم أن نقوم بالعملية التي خطط لها مع هان.. فبهذه العملية، ستتغير الكثير من الأمور في كوميت"

رفعت ميا حاجبيها وهي تجلس قريبة متسائلة "لماذا؟ ما هي طبيعة تلك العملية؟"

أجاب روباك "لا أعلم بالتحديد، وما أعلمه غير مصرح لي بالحديث عنه"

صمتت ميا وهي تراقب الأشجار حولهما والبرودة التي زادها الضباب الكثيف شدة.. ثم سمعت روباك يقول "ما الذي جرى بينك وبين ذلك الجندي عندما أنقذته سابقاً يا ميا؟"

نظرت له ميا بشيء من الدهشة متسائلة "ما الذي يدعوك للظن بأن أمراً ما قد جرى بيننا؟ لقد أنقذته من الموت وعالجت جراحه.. هذا كل ما في الأمر.."

فقال روباك "لكن لا يبدو لي أن هذا كل ما هنالك عند الجندي.. إنه يلاحقك بعينيه طوال الوقت.."

التفتت ميا لترى ذلك الجندي يراقبهما فعلاً، وإن لم تفهم مغزى نظراته ولم تهتم بها.. فغمغمت وهي تعود ببصرها لروباك وتراقب ملامحه "هل يسوؤك ذلك؟"

تمنت لو يُظْهر روباك اهتماماً بها، لو يبدي أي غيرة عليها، ربما عندها تثق بأنها تعني له أكثر من مجرد فتاة صغيرة.. سمعته يقول بعد لحظة صمت "طبعاً يسوؤني.. لا أثق بذلك الجندي بتاتاً، ولا أريد منه أن يقترب منك فيؤذيك في يوم من الأيام"

خفضت ميا وجهها بصمت وقد أشعرها رد روباك أن الأمر لا يتعلق بها بالتحديد، إنما هو مجرد كره موجه نحو خالد.. فغمغمت بنبرة حزينة بعد صمت قصير "روباك.. ألا أعني لك أي شيء أبداً؟"

سمعته يتنهد وهو صامت تماماً، فعضت على شفتها السفلى لتمنع ارتجافتها بعد أن طال الصمت بينهما.. إنها لا تعني له شيئاً.. لا تعني له أي شيء.. لماذا لا يدهشها أمر كهذا؟..

سمعته يقول بعدما طال الصمت بصوت خافت "ميا.. لا أستطيع إجابة سؤال كهذا الآن.. وأنت تعلمين ذلك"

فقالت وهي ترميه بنظرة مريرة "وقد لا تجيب عليه أبداً.."

نظر لها صامتاً بنظرة حملت مشاعر متباينة.. شعرت أنه يخبرها بنظرته تلك ألا تلحّ لمعرفة الجواب.. لماذا؟ غمغمت لنفسها.. ألأنه يعلم أن الجواب لن يسعدني؟..

أدارت وجهها بعيداً متأملة بقية الثوار بصمت محاولة أن تتناسى هذا الموضوع.. ربما أخطأت بفضح مشاعرها بهذه الطريقة.. لو لم تخبره بما يعتمل في صدرها تجاهه، لما واجهت رفضه، ولقضت أيامها آملة أن يحمل مشاعر تجاهها في قلبه..

بعد لحظات، سمعت روباك يقول لها بصوت خافت "لا تحزني يا ميا.."

نظرت له بصمت بليغ، فقال بضيق "لا يسعدني رؤيتك بهذه الحال.. ولا أحب أن أكون سبباً في ذلك"

اغتصبت ميا ابتسامة قائلة "لا تقلق.. لست حزينة"

لكن ابتسامتها لم تكن تشي إلا بمقدار حزنها وألمها، بينما فضحت عيناها خيبة أملها الكبيرة.. فتنهد روباك وهو يغادر نحو الغابة محاولاً أن يتناسى كل هذا.. كان يرى بوضوح اهتمامها به.. يشعر باختلاج قلبها الصغير له وحده.. لكنه لم يكن بحاجة لهذه الانفعالات التي تبعده عن الطريق الذي أقسم ألا يحيد عنه.. ليس الآن وهم مقبلون على صراع دامٍ.. ليس الآن ومستقبلهم مجهول تماماً.. ليس الآن وحياته معلقة بخيط رفيع قد لا يتردد في قطعه في أي لحظة..

****

قال برتيك وهو يراقب خروج ثوار سِن من الكوخ "أأنت مطمئن من رجالك تمام الاطمئنان يا هان؟"

قال هان "طبعاً.. لا يمكنني المخاطرة بإصطحاب أحدهم وأنا أشك بخيانته لنا.. فلا تقلق من ذلك"

ظل برتيك صامتاً وهو يراقب الثوار في الخارج من النافذة، ولا يدري هان لم شعر أن شكوك برتيك تدور حول خالد بالذات.. رغم أنه لا يوحي بانتمائه للجنود بأي شكل كان، لكن نظرات برتيك لم تكن مطمئنة تماماً.. ثم وجده يلتفت إليه متسائلاً "وماذا عن تلك الفتاة؟ ما الذي جعلك تضمها للثورة وما الحاجة لوجودها أصلاً؟"

ابتسم هان قائلاً "إنها طبيبة.."

لم يبدُ الاقتناع على برتيك وهو يغمغم "لن تصمد ثواني معدودة عندما يندلع القتال.."

لم يعلق هان وبرتيك يسترخي في جلسته وهو يقول "لقد تأخر قدومكم لمايار عدة أيام عن المخطط، وبسبب ذلك، فإن إدخالكم للمدينة الآن مستحيل كما أخبرتك.."

قال هان "إذن ماذا نفعل خارجها؟"

أجاب برتيك بابتسامة "لديّ خطة أخرى لكم.. وهي خطوة كبيرة في طريق تحرير كوميت"

نظر له هان باستفهام، فمال برتيك نحوه مضيفاً "لكنني أحذرك، ستلقون مقاومة شرسة من الجنود، ولن تكون مهمة سهلة أبداً.. والأهم من ذلك، الأفضل إتمام هذه المهمة في نفس الوقت الذي سنستهدف به القادة الست.. كلا العمليتين خطرة وستستدعي من الغزاة زيادة تحصيناتهم الأمنية، وهو ما سيسبب فشلنا لو تأخرنا في تنفيذ إحدى العمليتين عن الأخرى.."

غمغم هان "أتعني تدمير المنجم الرئيسي للغزاة؟"

قال برتيك بابتسامة متسعة "بالضبط.. لو تمكنّا من ضرب الغزاة في المنجم الرئيسي الذي يعتمدون عليه في كوميت، وفي الآن ذاته قتل القادة الست أو معظمهم، سيتشتت الجيش كثيراً.. وهكذا سنتمكن من إحداث بلبلة كافية فيه لنتمكن من دحره.. سنحاول عندها تأليب الشعب معنا في مايار وفي المدن الأخرى، وأنا متأكد أن عدد الرجال الذين سينضمّون للثورة عندها سيفوق توقعاتك.."

قال هان مفكراً "خطة رائعة، لكن هل سيكون التنفيذ بنفس روعتها؟"

قال برتيك بثقة "سيكون كذلك.. بل يجب أن يكون، فأنا لا أسمح للفشل بالتسلل لمخططاتي.. سننجح، وستكون هذه آخر أيام الغزاة في كوميت"

تنهد هان وهو يغرق في أفكاره.. برتيك متفائل جداً وواثق أكثر مما يجب.. لكن لا يمكنه الاعتراض على ذلك.. بودّه حقاً أن يتحقق ما يطمح إليه برتيك.. بودّه أن يشهد نهاية لهذا الغزو الذي طال واستحكم.. لكن لن يكون الأمر بالبساطة التي يتوقعها برتيك..

انتبه لبرتيك وهو يضيف "الآن سننتقل للمخبأ الجديد الذي ستمكثون فيه حتى نقوم بتنفيذ المخطط.. والمنجم قريب من المخبأ، لذلك لن تكون حركتكم منه صعبة.. لكن بعد العملية، سيغدو من المستحيل عودتكم إليه.. سأترك رجلاً من رجالي معكم عندها ليدلكم على موقع آخر أكثر أمناً"

تساءل هان بتعجب "كم مخبأ تملكون في مايار؟"

قال برتيك بفخر "العشرات.. ومئات الرجال ممن لا يشاركوننا بشكل فعليّ لكنهم يخدموننا كعين إضافية تراقب وترسل لنا تقارير عن كل ما يجري حولنا.."

فغمغم هان "إذن ما الحاجة لقدومي أنا ورجالي؟"

مال برتيك نحوه قائلاً بحزم "لأنني بحاجة لرجل بمثل حكمتك.. رجالي لا يفتقرون للشجاعة، لكنهم بحاجة لرجل يقودهم.. أنا سأنفذ الخطة المسؤولة عن تدمير مقر اجتماع القادة الست.. ولكني بحاجة لمن يقود الرجال في تدمير المنجم.. لذلك فكرت بك.."

صمت هان دون تعليق، فنهض برتيك قائلاً "لنذهب.. ليس هناك داعٍ لأي تأخير"

نهض هان معه، وفي الخارج، أسرع الثوار يتبعونهما دون طرح أي أسئلة.. ورغم أن ميا كانت تتحرق لمعرفة ما الذي ينتوون فعله منذ الآن، إلا أنها كبتت أسئلتها وهي تتبع الآخرين بصمت..

****

مع قرب المغيب، بدأ الضباب يتكاثف ويأخذ حجماً وكثافة لا تصدق.. ورغم عدم توغلهم في الغابة وسيرهم بمحاذاة النهر، فإن الغابة بدت مهيمنة على الموقع بحيث بدوا معزولين عن العالم بشكل تام.. سار الثوار بصمت تام يتقدمهم برتيك ورجاله نحو المخبأ الجديد، وهو كما علموا لا يبتعد كثيراً عن المنجم الرئيسي للغزاة في مايار.. بعد سير طويل، أرسل برتيك رجلين من رجاله ليستطلع الطريق أمامهم قبل أن يتركوا النهر والغابة ويتخذوا طريقاً آخر يقطع منحدراً منخفضاً وخلفه أحد الطرق التي كوّنت سلسلة من الطرق الممهدة التي تقطع الجبال طولاً وعرضاً..

بقي برتيك وقربه هان بانتظار عودة الرجلين بصمت والبقية خلفهما وهم يستشعرون الخطر الذي قد يحيق بهم.. وبعد صمت طال وطال حتى زادهم توتراً، سمعوا فجأة ثلاث طلقات رصاص شقّت السكون القاتم.. في تلك اللحظة، هبّ ثوار الشمال وهم يستلون أسلحتهم تجاه الإطلاق، بينما نظر هان بعدم فهم لبرتيك الذي استلّ سلاحه بدوره قائلاً بتقطيبة بغض "هذه علامة من رجالنا.. معناها أنهم يتعرضون لهجوم من الغزاة.."

وانطلق خلف رجاله يتبعهم هان الذي قال لرجاله "لا تنغمسوا في المعركة قبل أن نرى تفاصيلها.. قد يحاول الجنود مباغتتنا من الخلف أو إيقاعنا بكمين.. كونوا حذرين.."

وبإشارة من يده، توقف رستين عن ملاحقتهم وهو يقبض على ذراع ميا لتبقى قريبة منه، ووقف قربهما ثلاثة من الثوار وهم متحفزون يتلفتون حولهم بقلق غير محدود.. وقفت ميا بذعر وهي تتلفت حولها وتستمع لطلقات الرصاص التي ازدادت غزارة بعد أن انضمّ الثوار للمعركة مع الجنود.. لم يكن البقاء بعيداً أكثر راحة من الانضمام للمعركة المحدودة.. فالقلق والتوتر العارمين ينهش الصدور ويفتت الأعصاب بشكل مؤلم..

دامت المعركة زمناً غير قصير قبل أن يهدأ كل شيء بغتة.. وقبل أن يتحرك رستين وميا من موقعهما، سمعا طلقات رصاص جديدة تندلع في موقع آخر بعيد شيئاً ما عن الموقع الأول.. ورغم أنها كانت أقل حدة من المرة الأولى، إلا أن أحد الثوار قربهما قال "من الأفضل البقاء في مواقعنا وأخذ الحذر.. ربما يحاول الجنود أن يقودوننا نحو فخّ أعدوه مسبقاً لنا"

قال رستين مقطباً "كيف علموا بوجودنا هنا مع ثوار الشمال؟.."

هز الرجل كتفيه بحيرة دون أن يجيب.. وقبل مضيّ وقت طويل، وبعد أن بدأت الأصوات تهدأ، اقترب منهما أحد رفاقهما وهو يقول "هيا بنا.. لقد انتهى كل شيء.."

تبعاه في خطواته الراكضة نحو موقع المعركة التي لم تدم زمناً طويلاً.. وهناك، ارتاعت ميا لرؤية الجثث التي افترشت موقعاً غير محدود حول بقية الثوار الذين وقفوا وبرتيك يتحدث وسطهم بحدة.. وبين الجثث، رأت ميا جثة الرجلين اللذين أرسلهما برتيك سابقاً لاستطلاع الموقع.. فأشاحت بوجهها وهي تشعر بألم في صدرها لهذا المنظر.. بينما قال برتيك بغضب "كيف عرفوا؟ لم نعرف بوجودكم في هذا الموقع إلا اليوم، فكيف وصل خبر هذا للغزاة بهذه السرعة؟"

قال هان وهو يتأمل الجثث حوله "أنت تعلم مغزى هذا.. أليس كذلك؟"

نظر برتيك لهان للحظات، قبل أن يهتف بحدة "مستحيل.."

علق هان وهو يواجه نظرات برتيك "لا يوجد مستحيل في هذه الدنيا.."

فاستدار برتيك بغضب وهو يشير لرجاله قائلاً "هيا.. تقدموا لتتأكدوا أننا لن نواجه مكيدة أخرى من الغزاة.."

أسرع رجاله دون تردد لتنفيذ أمره، بينما نظرت له ميا بشيء من الدهشة.. لقد قُتِل عدد من رجاله منذ قليل.. ولم تبدُ على وجهه لمحة حزن أو أسف.. وها هو يرسل بقية رجاله لذات الفخّ الذي وقع فيه من سبقهم.. من أي شيء صنع هذا الرجل؟.. إنه يبدو لعينيها بلا مشاعر تتجاوز الغضب والصرامة..

بعد ذلك، بدأ الرجال يتبعون برتيك وهان اللذان أكملا الطريق للمخبأ وبرتيك يقول "المصيبة أن المخبأ لا يبعد الكثير عن هذا الموقع.. أخشى أن يعثر الجنود عليه بسرعة بعد هذه المعركة"

تساءل هان "ألن تحاول إخفاء آثار هذه المعركة؟"

قال برتيك ملوحاً بيده "سيفعل رجالي ذلك.. لا تقلق.."

في تلك الأثناء، كان خالد يسير مع الثوار وهو يلقي بنظراته على من حوله.. مع وجود برتيك، فإن ثوار سِن حاولوا عدم إظهار كونه أسيراً لديهم.. لذلك خفّت مراقبتهم له بشكل كبير.. وفي هذه اللحظة، شعر بفكرة تلحّ عليه بشكل كبير لدرجة أن يجازف لأجلها مهما كانت عواقب ذلك الأمر.. وبعد سير قصير، وقد بدأ خالد يتقهقر ببطء، استدار فجأة بعد أن تجاوزه البقية وهم منشغلون بالأحداث التي مرت بهم والتي جعلتهم متوترون كفاية لينسوه مؤقتاً..

أسرع خالد بخطواته وهو يتخفى بين الأشجار القريبة حتى عاد لموقع المعركة السابق.. وبعد أن تأكد من عدم وجود أحد في الموقع، تقدم ببطء من الجثث الملقاة جانباً وشيء من الحزن يعتمر قلبه.. ما ذنب كل من قتلوا هنا ويقتلون في كل موقع؟ اللعنة على من فكّر بهذا الغزو..

اقترب خالد من أحد الجنود، وتناول خوذته التي سقطت جانباً وتأكد أنها لا تزال تعمل بشكل جيد.. نظر للخوذة للحظات وهو يغرق بتفكير عميق.. رغم أنه رمى كل شيء خلف ظهره، لكنه يريد أن يُطمْئِن صديقه أيمن وقائده السابق أنطونيو عن حاله.. لابد أنهما قلقان لاختفائه، ولن يضرّه لو طمأنهما بكلمات قليلة، وسينهي الاتصال قبل أن يتمكنا من تتبعه بأي وسيلة..

وفي مقر النسور، تلقى أنطونيو اتصالاً من نائبه وهو يقول "أحد النسور يطلبك بشكل ملحّ على جهاز الاتصال.."

تساءل أنطونيو وهو يقلب أوراقاً أمامه "من هو؟ وما الذي يريده؟"

أجاب النائب "يقول إنه أيمن.. لكن لم يبلغني بأي أمر ويطلبك بإلحاح"

فقال أنطونيو "حوّل الاتصال إلي.."

بعد لحظة، سمع أنطونيو صوتاً مميزاً يدلّ على تلقيه اتصالاً من خارج المقر، فقال "ما بك يا أيمن؟ هل جرى أمر ما في مناوبتك؟"

لم يسمع إلا الصمت من الجانب الآخر.. فقال وقد عقد حاجبيه "ما الأمر؟ أسرع فلا أملك اليوم كله.."

بعد تردد قليل، قال خالد من الجانب الآخر "مرحباً يا سيدي.."

ساد الصمت لوهلة قصيرة شكّ خالد عندها بأن أنطونيو قد قطع الاتصال، قبل أن تأتيه صيحة هادرة "خالد...!"

ابتسم خالد رغماً عنه وهو يقول "أجل سيدي.. أعلم أنها مفاجأة غير سارة، فقد اضطررت لانتحال هوية أيمن لأتمكن من الوصول إليك.. لكن..."

قال أنطونيو بغضب "أين اختفيت أيها الوغد؟ ما الذي فعلته قبل غيابك؟ لو كنت أمامي الآن لشنقتك في مكتبي وتسلّيت بمنظرك معلقاً عشرة أيام على الأقل"

اتسعت ابتسامة خالد وهو يعلق "سيكون لطفاً منك يا سيدي.. لكن ليس لهذا الأمر اتصلت بك"

فقال أنطونيو بصرامة "أين أنت الآن؟ سأرسل طائرة لاستعادتك على الفور.. لقد بحثت عنك في سِن كلها وأنا واثق أنك لست فيها"

قال خالد بسرعة "اعذرني يا سيدي.. لا أستطيع العودة، ولا أستطيع الاستفاضة في الحديث.. أردت فقط أن أطمئنك أني بخير، ولازلت حياً.. وأتمنى لو يعلم أيمن بهذا أيضاً.. فهو قلق ولاشك"

سأله أنطونيو بحدة "أأنت مع الثوار؟"

قال خالد بعد لحظة صمت "أجل.. أحاول تصحيح مساري.. فبقائي مع الجيش خطأ كبير.."

فقال أنطونيو بغضب "أنت أحمق.. أتنوي المضيّ في طريق الخيانة هذا حتى النهاية؟"

قال خالد زافراً "قل ما يحلو لك.. أنا مقتنع بما أفعله.. وآسف لأن أطلب منك عدم انتظار مكالمة أخرى مني"

صاح أنطونيو "لا تجرؤ على ذلك.. إياك أن تختفي مرة أخرى.. لو علم قادة الجيش بما عملته ليلة اختفائك، أتعلم ما سيكون مصيرك؟.. سيتم إعدامك دون محاكمة"

قال خالد بتوتر "أعلم ذلك بالطبع يا سيدي.. لكن، هل كنت ترضى أن يتم قتل العشرات والمئات انتقاماً لشخص متوحش أذاقهم الويل مدة طويلة؟.. كيف رضيت بفعل ذلك يا سيدي؟ وعبر نسورك بالذات!.."

قطب أنطونيو قائلاً بصرامة "نحن نؤدي عملنا ولا نضيّع وقتنا في متاهات فلسفية كهذه.. عد الآن، وسأحاول أن أجد لك الأعذار لغيابك.. لكني سأعاقبك بطريقتي الخاصة، أتفهم؟"

قال خالد بابتسامة "لا أستطيع ذلك.. عودتي لذاك الجحيم مستحيلة"

وأنهى الاتصال تاركاً أنطونيو يستمع لصوت الشوشرة الدال على انتهائه باستنكار، ثم رمى جهاز الاتصال على مكتبه مغمغماً بغضب "ما الذي تنوي فعله يا خالد؟!.. أتمنى ألا تكون حماقة جديدة من حماقاتك، وألا تنجرف بدور البطل المنقذ لشعب كوميت، فستجد نفسك منبوذاً من الجهتين"

أما خالد، فقد رمى الخوذة جانباً وداس جهاز الاتصال فيها بقوة بحذائه حتى حطمه.. لن يتمكنوا الآن من تتبع اتصاله، ولن يمكنهم إعادته لسِن ولحياة الخضوع للجيش ولأوامره المجحفة والظالمة..

استدار ليعود للثوار، فاصطدم بنظرة روباك الحادة وهو يقف خلفه وقد تغيّر وجهه من الغضب.. وقبل أن يفتح خالد فمه اندفع روباك مسدداً نحوه قبضته القوية، لكن خالد تفاداها وهو يهتف "مهلاً.. الأمر ليس كما ظننت"

لم يعلق روباك وهو يرمي قبضته من جديد في وجه خالد، فتلقاها الأخير بذراعه الذي حمى به وجهه وهو يقول "لا تقفز للاتهامات دون أن تدرك ما حدث حقاً"

قال روباك بغضب "أتظن أنك ستخدعني ببضع كلمات أيها الجندي؟"

فقال خالد بحنق "أنت لم تكفّ عن اتهامي يوماً بأنني جندي وأنني خائن.. لن يضيرك أن تستمع إليّ مرة واحدة"

ابتسم روباك بهزء وهو يتراجع خطوة قائلاً "وما لديك لتقنعني به؟"

رفع خالد الخوذة قائلاً "ألا ترى أنني حطمت جهاز الاتصال؟ لأنني لم أرغب بأن يتتبعوا الاتصال ويعرفوا موقعي الحالي.. لقد تركتهم ولا أريد العودة إليهم مرة أخرى"

فقال روباك بحدة "أتعتقد أن هذا كافٍ لتبرئتك؟"

كان خالد يدرك أن روباك، لو استمع لحديثه، لم يكن ليفهم كلمة مما قالها، وهذا يجعل موقفه أسوأ.. لكنه قال دون أن يتراجع "لدي شخص يهمني أمره.. إنه أحد رفاقي.. وأنا متأكد أنه يظنني قد هلكت في ذلك القصف.. أردت فقط أن أطمئنه ولا أجعله مشغول الفكر بما جرى لي.. أيعتبر هذا خيانة؟"

نظر له روباك بحدة لفترة طالت وخالد يحاول أن يثبت أمام نظراته وهو يضيف "إنه صديق عزيز عليّ.. ولم أرد أن أتركه والقلق يأكله.."

لا يدري روباك وهو ينظر بحدة في وجه خالد الثابت لم لمعت صورة سيث في عقله، لكنه لم يعلق وهو صامت يوازن الأمر في رأسه.. وبعد فترة من الوقت قال خالد "لو أردت خيانتكم لما انتظرت حتى وصلتم لمايار، بل أمْكنتُ الجيش من القبض عليكم قبل أن تغادروا سِن.. أو على الأقل انتظرت حتى أعرف مخبأكم الجديد ومخبأ ثوار الشمال.. أليس كذلك؟.."

قال روباك بشيء من الجفاف "هذا لا يجعلك بريئاً يا هذا.. لكني سأتجاهل ما رأيته هذه المرة.. إياك أن تكرر ما حدث مرة أخرى.. لا يهمني ما تحاول فعله، لكن أي اتصال منك للجيش، سيعتبر دليل خيانة لا يمكنك دحضه"

ارتفع حاجبا خالد بدهشة مع تبدل روباك السريع.. كيف اقتنع بحديثه بهذه السهولة؟ لكنه لم يعترض وهو يرى روباك يستدير ليعود لبقية الثوار، فأسرع خالد يتبعه بخطوات حثيثة وهو متعجب من حظه الذي جعل روباك يلين ويكفّ عن معاداته.. أم أن هناك سبب أقنع روباك بمنطقه؟.. لن يعرف أبداً..

****

عندما وصل ثوار سِن مع ثوار الشمال للمخبأ، والذي كان عبارة عن كهف في أحد الجبال المحيطة بالمنجم، وجد هان الموقع مناسباً مع إطلالته على المنجم بحيث تسهل مراقبته.. وإن كان مخفياً بشكل جيد بحيث لا يثير شكوك الجنود.. وفي وسط المخبأ، وجدوا رفاقهم ممن سبقوهم في المجيء وقد قبعوا بانتظارهم.. فتقدم هان من رجاله يطمئن عليهم ويسألهم عما واجههم في قدومهم، بينما وقف برتيك غير بعيد عنهم وهو يحدّث رجاله، ثم تقدم من هان قائلاً "عليكم أن تكونوا حذرين.. يمكن ملاحظة أي نور قادم من المخبأ بسهولة في المنجم.. عليكم أن تتجنبوا

إضاءة أي مصابيح أثناء دخولكم أو خروجكم من الكهف.. ويمكنكم إشعال النار إن توغلتم قليلاً فيه بحيث لا يبدو ضوء النار للناظر له من بعيد.."

وأشار لعدة صناديق وضعت جانباً وأضاف "هذا الصندوق يحوي أجهزة اتصالات محدودة لتتمكن من البقاء على اتصال ببقية الثوار أثناء تنفيذ العملية.. والآخر فيه الأسلحة والمعدات المطلوبة لإتمام المهمة كما يجب.. كما وفرنا لكم بعض العدة الطبية لمعالجة أي إصابات قد تحدث أثناء المواجهة"

والتفت لهان مضيفاً "سأترك عندك أحد رجالي ومعه كل المعلومات والمخططات الخاصة بالمنجم.. لقد راقبنا المنجم مدة طويلة لنعلم تحركات الجنود فيه وتحصيناته ومواقعه المهمة.. لذلك لن تحتاجوا إلا لفهم واستيعاب ما يحمله رجلنا من معلومات.. وبعدها يمكنكم البدء على الفور، فلا يفصلنا عن وقت التنفيذ إلا ساعات معدودة.."

هز هان رأسه وهو يغمغم "جيد.. أتمنى أن تسير الأمور كما خططنا لها"

قال برتيك بصرامة وهو يبتعد معه نحو مخرج المخبأ "يجب أن تسير كما خططنا تماماً.. وحتى ذلك الوقت، سنبقى على اتصال محدود ما أمكن.. لا أريد أن يتتبع الغزاة اتصالنا ويكشفوا مواقعنا قبل العملية"

قبل أن يتفوه هان بكلمة، رأى أحد رجال برتيك يقترب منهما مسرعاً، ثم ينحني على أذن برتيك ويهمس بكلمات لم يسمعها هان.. لكن ما لاحظه كانت عينا برتيك اللتان اتسعتا بصدمة، قبل أن يقطب بغضب وهو يلتفت إلى هان مزمجراً "أنت أحضرت جندياً معك؟"

نظر له هان بصدمة من معرفة برتيك بالأمر، ثم تجاوز صدمته بسرعة وهو يقول بهدوء "من قال ذلك؟"

هدر برتيك قائلاً "لقد سمع رجالي أحد رجالك يخاطبه بذلك، والأدهى أنه قبل ذلك كان يتحدث عبر أحد أجهزة اتصالات الغزاة.."

قطب هان لهذه المعلومة بينما تقدم منه برتيك خطوة وهو يصيح بغضب "لماذا فعلت ذلك؟ أيها الخائن.. هل أنت عميل للغزاة؟"

بدا التوتر بين الفريقين ورجال برتيك يستلّون أسلحتهم، ففعل ثوار سِن الأمر ذاته والفريقان يتواجهان وعلى الوجوه تحفز عارم.. فقال هان دون أن يتخلى عن هدوئه "هدئ رجالك يا برتيك.. وافهم ما أريد قوله.. لست خائناً، ولن تجد بين رجالي من سيخون وطنه أبداً.. هذا الجندي حكايته طويلة، ولو استمعت لها بصبر فستفهم سبب تصرفي هذا.."

صاح برتيك حانقاً "أي سبب؟ أنت جئت بخائن بيننا وتحاول دسّه في صفوفنا.. ماذا قد تعتقد أن هذا سيعني بالنسبة لنا؟"

قال هان بصرامة "لو كنت خائناً لاكتفيت برجالي ولما أحضرت جندياً قد يُكشف أمره في أي لحظة.."

ظل برتيك ينظر لهان الذي بقي على هدوئه، ثم أشار لرجاله ليخفضوا أسلحتهم، وقال لهان "سأستمع لما تريد قوله.. لكن في البدء أريد التأكد أن ذلك الجندي لن يحاول الهرب أو إبلاغ الغزاة بمخططاتنا"

وأشار لرجلين من رجاله انطلقا على الفور بعد أن فهما رسالته الصامتة.. بينما جلس برتيك جانباً وهو يقول "قل ما عندك.. ولتكن حجتك مقنعة.."

لم يكن خالد يدرك ذلك وهو يتبع روباك وقد زال التوجس الذي كان يشعر به تجاه هذا الرجل.. ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يغمغم لنفسه "حقاً.. لن تكون الأمور بهذا السوء..”

****

الفصـــل السابع عشر

بينما كان خالد يتبع روباك بصمت عائدين للمخبأ الذي جهزه برتيك لثوار سِن، قطع الصمت فجأة وهو يتساءل "ما الذي دفعك لتصديقي بهذه السرعة؟ ظننتك حقاً ستقتلني قبل قليل"

قال روباك بجفاء "أنت تستحق القتل بالفعل.. لكني لن أفعل ذلك دون دليل قوي، ودون أمر من هان"

غمغم خالد "متى ستكف عن عدائيتك هذه؟ ألن تقتنع بصدقي أبداً؟"

وقف روباك فجأة وهو يحدج خالد بنظرة حادة ملؤها غضب مستعر، وقال وهو يتقدم منه خطوة "أتظن أنني أستطيع ذلك؟ ضع نفسك مكاني.. هل ستغفر لغزاة احتلوا موطنك ودمروا منازل شعبك واستباحوا أموالهم وحرماتهم وروّعوا الآمنين منهم؟"

توتر خالد لنظرته الحادة وروباك يضيف بصرامة "الغزاة سيظلون غزاة حتى يغادروا كوميت تماماً.. حتى آخر جندي.. وأنت منهم.."

ظل خالد يبادله النظرات بصمت وهو عاجز عن الكلام.. إنه محق في غضبه وفي كرهه له.. كيف يقنعه بالعكس وهو يرى ما يرتكبه الجنود في سِن وفي البلاد كلها؟ تنهد خالد وهو يقول "لا يمكنني قول العكس.. لكن أتمنى أن تثق بي ولو قليلاً.. سأسعى لمساعدتكم بكل ما أملك، حتى لو عنى ذلك موتي.."

لم يبدُ التأثر على روباك وهو يعلق "لا ننتظر ذلك منك.."

واستدار ليغادر وخالد متعجب من حدته معه.. عندما لفت نظره رؤية رجلين من رجال برتيك يتقدمان منهما بصمت.. فقال روباك "ما الأمر؟"

فوجئا بالرجلين يرفعان سلاحيهما وأحدهما يقول "لا تحاول المقاومة أو الهرب.. فلن نتردد في قتلك"

اتسعت عينا خالد وهو يرى الحديث موجهاً إليه، ثم نظر لروباك الذي لم يكن أقل دهشة منه وهو يقول "ما سبب هذا؟.. هل أرسلكما برتيك؟"

أجابه أحد الرجلين "أجل.. لقد أمرنا أن نقبض على هذا الجندي قبل أن يحاول الهرب أو الاتصال ببقية الجنود.."

اشتعل قلق خالد وهو يتراجع خطوة بعد معرفته بأنهم أدركوا هويته، بينما نظر له روباك مقطباً دون أن يعترض وأحد الرجلين يتقدم من خالد ويستخدم حبلاً لتقييد يديه بشيء من القوة.. بينما قال خالد "ما الذي ستفعلونه بي؟"

أجاب الرجل "هذا راجع لبرتيك.."

واستدار ليعود أدراجه يتبعه روباك.. بينما دفع الرجل الآخر خالد ليتبعهما وهو عاجز عن الاعتراض.. دام سيرهما وقتاً قصيراً والمخبأ قريب من موقعهم السابق.. وهناك، رأى خالد نظرات الكره واضحة على برتيك وهو يجلس وقربه هان يتحدث إليه.. ولم يكد يصل للمخبأ، حتى هبّ برتيك واقفاً وهو يقول بصرامة "كل ما قلته غير مقنع يا هان.. هذا الجندي يجب أن يموت، فقد عرف الكثير عنا.. وترْكه حراً طليقاً سيسبب دمارنا.."

تراجع خالد خطوة وهو يرى برتيك يستل سلاحه وهو يقترب منه، بينما وقف هان قائلاً بحدة "لا يحق لك ذلك.."

صُدم برتيك للحظة، ثم التفت لهان بتعجب لهذه الجرأة وهان يقترب منه قائلاً بغضب لم يشهده أحد عليه "لا يحق لك أن تمسّ أحد رجالي بسوء.. لقد ضممت هذا الشاب لرجالي.. وأنا الوحيد من يملك الحق بنفيه أو قتله.."

نظر له برتيك بحدة بينما تبادل الرجال نظرات الدهشة والتوتر.. وأخيراً قال برتيك ببطء "أتعني أنك ستظل متمسكاً به رغم كل شيء؟ هذا قد يسيء للتعاون بين ثوار مايار وثوار سِن"

قال هان بحزم "لو حدث ذلك، فسأسحب رجالي ونعود لسِن.. لا أسمح لك بتجاوز سلطاتي ولا أنوي اتخاذك رئيساً لي.."

بدت الدهشة متعاظمة على وجه برتيك الذي لم يتعود أن يجادله أحد في أي أمر أو يعصيه بأي طريقة كانت.. ولم تكن دهشة خالد بأقل منه وهو يرى هان يدافع عنه بهذه الطريقة.. لقد توقع أن يتم قتله برضى الجميع، فلم يكن أي رجل من الثوار يحمل له أي مشاعر غير البغض والكره..

بعد لحظات صمت عمّت المكان، قال برتيك ببطء "هكذا؟ أأنت مقتنع بما تفعله يا هان؟"

لم يردّ هان سوى بنظراته الصارمة التي لم تخفّ حدتها، فتلفت برتيك حوله وهو يحاول ضبط أعصابه، ثم قال وهو يعود ببصره لهان "حسناً.. لكن ما الضمانات التي تملكها بأنه لن يخوننا؟ ما الذي يقنعك بأنه ليس عميل مدسوس للغزاة؟"

أجاب هان "ليس الغزاة بحاجة لدسّ عميل بهذه الطريقة المفضوحة.. لديهم من العملاء من سكان كوميت ما يكفيهم.. أما دسّ جندي بيننا وهم يعلمون أنه لن يحصل على ثقتنا بشكل كامل فهذه خطة فاشلة"

فقال برتيك "والاتصال الذي قام به هذا الجندي قبل قليل؟"

قال هان "سأفهم سبب ذلك منه.. لكني أريدك أن تثق به في الوقت الحالي.. لقد تحدثت معه، وأنا واثق منه كما أثق بأي رجل من رجال سِن"

فعقد برتيك حاجبيه وقال "لا بأس.. سأنتظر نتيجة ثقتك هذه يا هان.. لكن لو بدت من الجندي أي لمحة خيانة، فعقابي سيطالك معه، لأنه من رجالك كما قلت.."

وغادر المكان بخطوات صارمة وهو يلقي بنظرة ازدراء واضحة على خالد الذي لم يعلق بكلمة وهو يرى رجال برتيك يتبعونه بسرعة.. وبعد أن خلا المكان منهم، اقترب أحد الثوار من خالد بإشارة من هان ليفك قيده.. ففرك خالد يديه واقترب من هان قائلاً "أأنت مقتنع بما تفعله حقاً؟ لا أظن برتيك سيصمت على ما يحدث هنا"

نظر له هان قائلاً بصرامة "ما قصة ذلك الاتصال الذي أجريته قبل قليل؟ أتملك تفسيراً مقنعاً؟"

وقف خالد قليلاً ينظر للأعين التي التقت عنده بغضب، ثم خفض رأسه قائلاً "سأخبرك بما جرى.. لكن ثق بأنني لم أسعَ لخيانتكم أبداً"

قال هان "دع تقرير ذلك لي.."

زفر خالد قليلاً، قبل أن يشرح لهان سبب حاجته لإجراء ذلك الاتصال.. ولم يكن هان أكثر اقتناعاً بالأمر من روباك، كما بدا الاستنكار والاعتراض صارخاً في وجوه من حوله.. لكن ما إن أنهى خالد حديثه، حتى قال روباك "أنا متأكد من صدقه هذه المرة.. إنه لم يكذب فيما قاله"

نظر له خالد بدهشة تغلبت على دهشة البقية، فيما تنهد هان بعد لحظة صمت قائلاً "مادمت واثقاً من ذلك، فلا يسعني التشكيك في حكمك يا روباك"

نظر خالد لهان بصمت.. يبدو أن هان يضع ثقة كبيرة في روباك، وإلا ما اقتنع برأيه في موضوع مهم كهذا.. ثم نظر هان لخالد قائلاً "احرص على ألا يتكرر ذلك مرة أخرى"

هز خالد رأسه موافقاً، وبإشارة من هان غادر نحو المخبأ ليجلس جانباً وحيداً كعادته.. فقال سارود وهو يقترب من هان "أتظن أن برتيك سيصمت حقاً على قرارك هذا؟ بدا مصدوماً لاعتراضك عليه.. لا يبدو لي من الرجال الذين يسمحون للآخرين بالاعتراض على قراراتهم"

قال هان "لا علم لي.. لكن أتمنى ألا يفعل شيئاً الآن.. فوجود الجندي خير لنا من القضاء عليه.. على الأقل في هذه العملية المهمة"

فقال سارود "إذن علام اتفقتما في الكوخ آنفاً؟ متى سنبدأ العملية وما هو دورنا فيها؟"

فقال هان وهو يجلس جانباً "استدع رجل برتيك.. يجب أن أجتمع به وأعرف تفاصيل العملية التي سنقوم بها.. وبعدها سأخبركم بالخطة كاملة.."

ذهب سارود لينفذ أمره.. بينما تنهد هان وهو ينظر من مدخل المخبأ.. بقيت ساعات قلائل على أهم حدث قد يجري في حياتهم.. ولا يعلم أيهم علام سينطوي..

****

بعد أن سلك برتيك طريقاً ملتوياً مع رجاله لدخول مايار دون أن يكشفوا أنفسهم وسط التشديدات الأمنية في المدينة، وصل لمبنى تحت الإنشاء في موقع قريب من المبنى الخاص بالغزاة والذي سيتم فيه الاجتماع.. وهناك التقى بعدد من رجاله ممن تركهم لمراقبة الموقع وتحركات الجنود، فقال لهم "هل وصل القادة الست؟"

أجابه أحدهم وهو يناوله منظاراً مكبراً "بلى، في وقت سابق اليوم.. لكن الاجتماع لن يبدأ قبل ساعات من الآن"

تناول برتيك المنظار ليراقب مبنى الغزاة الضخم ذو عدة طوابق والذي يشغل مساحة كبيرة من هذه البقعة من مايار.. ثم تساءل "هل علمتم بموقع الاجتماع؟"

قال الرجل " أجل.. أغلب الظن أن الاجتماع سيكون في الجزء الشرقي من المبنى، المواجه للسوق الشعبي للمدينة.."

فقال برتيك "أنت متأكد من هذه المعلومة؟"

أجاب الرجل "أحد عملائنا ممن يتظاهر بالتعاون مع الغزاة قد أكد لي ذلك"

غرق برتيك في التفكير وهو مستمر بالمراقبة، ثم نظر لرجاله قائلاً "حسناً.. ستمضي الخطة كما قررناها سابقاً دون تغيير.. كل فرقة عليها أن تؤدي مهمتها في الوقت المحدد دون إبطاء.. تأكدوا من عمل رجالكم ولا تتوانوا عن تنفيذ المطلوب منكم.. أفهمتم؟"

هز الرجال رؤوسهم إيجاباً.. فيما قدم رجل آخر من الثوار مسرعاً وهو يقول لبرتيك "أخبار سيئة.. لقد أمسكت إحدى الدوريات فريق جالار قبل وصولهم لموقعهم المحدد.."

قطب برتيك وهو يسمع ذلك الخبر بينما قال أحد الرجال بقلق "كيف حدث هذا؟ يجب أن ننقذهم بسرعة قبل أن....."

نهض برتيك واقفاً وهو يقول بصرامة "ليس الآن.. سأعيّن فرقة أخرى مكانهم.. الخطة يجب أن تمضي كما خططنا لها.. لا يمكننا أن نتراجع الآن لأي سبب.."

تساءل الرجل بضيق "ورجالنا؟"

أجاب بحزم "سأجعل إحدى فرقنا تعمل على إنقاذهم بعد أن ينشغل الجنود بما يحدث في موقع الاجتماع.."

لم يعترض أي من رجاله وهو يتقدمهم خارجاً من المبنى وتقطيبة ظاهرة على جبينه.. كيف عرف الغزاة بهوية ذلك الفريق وبما ينتوون فعله؟ لم تكن تلك مصادفة أبداً.. هناك خائن، وهو يعلم من يكون بالتحديد..

****

اجتمع الثوار قبل ساعات من بدء العملية الكبيرة، بينما جلس خالد جانباً يستمع لهم بصمت.. كان هان قد قضى الساعة الماضية مع رجل برتيك الذي فصّل له كل ما يحتاج لمعرفته من المنجم والمنطقة المحيطة به، وتنظيم الجنود فيه وكل ما قد يساعدهم في عمليتهم تلك.. وبعد أن أنهى ذلك الاجتماع الذي طال حتى استوفى كل ما يحتاجه ثوار سِن من معلومات، فإن رجل برتيك قد غادر عائداً لمايار لينضمّ لرفاقه في العملية القادمة..

وعندما اجتمع هان برجاله، أوجز لهم الخطة التي يزمعون تنفيذها وهدفهم بتفجير منجم الغزاة القريب منهم بحيث لا يغدو ذا نفع للغزاة.. ثم قام بتقسيم رجاله إلى عدة فرق، كل فرقة تحتوي على خمسة عشر رجلاً أو يزيد.. روباك كان في الفرقة الثالثة المسؤولة عن التسلل للمنجم وتوزيع بعض القنابل في أنحاء متفرقة منه، بينما توزع عمل الفرق الأخرى بين تشتيت انتباه الجنود في المنجم بعمليات محدودة، و توفير الحماية للفرقة الثالثة أثناء تسللها.. وفرقة سابعة مهمتها مراقبة المنجم وما حوله لإنذار البقية في حال قدوم إمدادات من العاصمة.. وفي المخبأ، سيبقى رستين وميا مع أربعة من الثوار بانتظار عودة البقية، ولعلاج من يصاب منهم بعيداً عن المعركة..

لم يعلق أي الرجال بكلمة إزاء ذلك التوزيع وهان يوصيهم بالحذر نسبة لأهمية ذلك المنجم للغزاة، لذلك ستكون مقاومتهم شرسة وليست هيّنة.. عندما انبرى خالد ليقول "ألن تشركوني في هذه العملية؟"

التقت الأعين عنده بمزيج الدهشة والاستنكار، فقال هان "أترغب بمواجهة قومك حقاً؟"

ابتسم خالد قائلاً "ليس بالضرورة.. أريد المشاركة في الفرقة السابعة"

سأله روباك بشك "لماذا هذه الفرقة بالذات؟"

أجاب خالد "لأنني أملك طريقة أكثر فاعلية لمراقبة تحركات الجنود.."

نظروا له بدهشة، بينما استحثه هان قائلاً "حسناً.. ما هي تلك الطريقة؟"

قال روباك باستنكار "هان.. هل ستشركه حقاً في العملية؟"

قال هان "لن يضرّنا أن نستمع لما يقوله"

فقال خالد باهتمام "لو استطعت الحصول على إحدى خوذات الجنود، فسأستخرج منها جهاز الاتصال بها.. وبالا ستماع للقناة العامة الخاصة بالجنود في مايار، يمكنني أن أعرف تحركات الجنود واقتراب فِرَقِهم نحو المنجم.."

قال روباك مبتسماً بسخرية "ونحن سنصدقك ونسلمك جهاز اتصال بهذه البساطة لتحذر قومك من هذه العملية"

قال خالد بحزم "سأعطل الجزء الخاص بالإرسال في الجهاز وسأبقي الاستقبال فقط.. يمكن لرجالك أن يطلقوا على رأسي النار لو شكوا بنواياي للحظة"

نظر روباك لهان قائلاً "ما رأيك يا هان؟"

غمغم هان مفكراً "لا أعتقد أنها فكرة سيئة.."

أصابت الثوار دهشة كبيرة من قراره وهير يقول بحدة "أنت تمزح.. أليس كذلك؟"

قال هان معتدلاً "لا.. خالد يستطيع فهم لغة الجنود، وسيعرف بواسطة الجهاز بقدوم الإمدادات وسينذرنا بها.. بذلك سنتمكن من مغادرة المنجم قبل أن يسوء الوضع.."

فقال خالد باهتمام "ثم إنني، باستخدام جهاز اتصال آخر، أستطيع أن أطلق شوشرة محدودة في المنجم بحيث يعجز الجنود عن الاتصال بالقيادة واستدعاء المزيد منهم"

تساءل هان "ألن يمنعك هذا من الاستماع للجنود عبر الجهاز؟"

أجاب خالد "لن يتجاوز مدى الشوشرة المنجم وما حوله.. بينما بقائي بعيداً مع الفرقة السابعة سيمكنني من استخدام الجهاز دون مشاكل"

فقال سارود مقطباً "أنت لا تنوي استخدام الدخيل حقاً يا هان.. أليس كذلك؟ سيخوننا ويتسبب بقتلنا جميعاً.."

غمغم هان وهو يفكر "هذا جانب من الموضوع، والجانب الآخر هو حصولنا على نقطة تفوق إضافية لن يتوقعها الغزاة.. أن نستخدم أجهزتهم ضدهم، هذا لن يكون في صالحهم بتاتاً"

بدا عدم الاقتناع جلياً على الوجوه، فقال هان وهو يعتدل في جلسته "أعتقد أنني أثق بخالد.. وستثبت لنا الساعات القادمة صحة حدسي من خطئه"

ثم التفت لكوبين مضيفاً "إذن سيكون خالد في فرقتك يا كوبين.. راقبه كما يحلو لك، لكن أتمنى أن تعاونه في أداء المطلوب منه.. فسييسر ذلك علينا الكثير من المصاعب"

هز كوبين رأسه موافقاً، وسرعان ما تفرق الجمع بعد أن أوجز هان الخطة من جديد وتأكد أن الجميع قد استوعبوا أدوارهم فيها.. وبعد ذلك، اقتربت ميا من خالد الذي جلس جانباً بمفرده كالعادة وتساءلت "ما الذي تنوي فعله حقاً بالمشاركة في هذه العملية؟"

رفع خالد بصره إليها مجيباً "معاونتكم في تدمير هذا المنجم.. نحن هنا بسبب هذا المنجم والمناجم الأخرى، ولو زالت، فهذه ضربة قاسية للجيش"

قطبت ميا وهي تقول "لو فكرت للحظة بأن تخوننا، بأن تتسبب في إيذاء أي رجل من الثوار، فلن أغفر لك ذلك.."

ابتسم خالد قائلاً "لا تقلقي.. حاولي أن تثقي بي مرة واحدة.."

نظرت له ميا وهي عاجزة عن فهمه.. لم قد يفعل كل هذا ضد قومه؟.. هذا ما لن تفهمه أبداً.. عادت حيث وقف هان وروباك والأول يقول "ما نملكه من قنابل محدود يا روباك.. عليك أن تتأكد من الموضع الذي ستضع كل واحدة منها فيه كي تتسبب بأكبر قدر من الأضرار للمنجم.. وإلا لن نتمكن من معاودة المحاولة مرة أخرى"

قال روباك "كن واثقاً من ذلك.. المشكلة في عدم لفت انتباه الجنود إلينا حتى ننتهي من تفجير المنجم.."

تساءلت ميا وهي تقترب منهما بقلق "هل سيكون الثوار بخير في هذه العملية؟"

نظرا لها بصمت للحظة، ثم التفت روباك نحو هان متسائلاً "وميا؟ ما الذي سنفعله بها؟ لقد ظننت أنها ستكون في مخبأ الثوار في مايار، لكن مع هذا الوضع، لا يمكن أن نتركها معنا في هذه العملية"

قال هان "أعلم ذلك.. تلك عملية خطرة، وسنجابه مقاومة شرسة رغم كثرة أعدادنا.. لكن ليس بيدنا أي وسيلة لإبعادها.. سيشتعل الوضع خلال ساعات، و....."

قالت ميا بسرعة "لكني سأبقى.. أنتم تحتاجون لكل يد تعاونكم، ومع القتال سيكون هناك الكثير من الجرحى الذين يحتاجون عنايتي"

قال روباك بحزم "لا يمكن.. يجب أن ترحلي.."

اعترضت قائلة "لماذا؟ سأكون في المخبأ طوال الوقت.. ولن يصيبني أي ضرر.."

التفت روباك لهان قائلاً "ألا يمكن إرسالها مع أحد الرجال لموضع أكثر أمناً؟"

فقالت ميا بحدة "لكني لن أرحل.."

غمغم هان مفكراً "لست أدري.. لا يمكننا أخذها لمايار مع التشديد الأمني فيها، وأقرب مدينة تبعد عنا عدة ساعات، ولا أضمن بقاءها في أي موضع آخر، فقد يجدها الجنود في أي لحظة"

قالت ميا لهان "لماذا تعترضون على بقائي؟"

ثم التفتت لروباك مضيفة بحدة "لا يحق لكم ذلك.."

هدر روباك بغضب "اصمتي.."

صمتت ميا وهي تنظر له متفاجئة بعينين متسعتين، بينما قال هان "لا داعي لهذه العصبية"

لكن روباك أضاف بغضب شديد "أنت عنيدة جداً.. أصررتِ على القدوم معنا.. والآن نحن عاجزون عن إبعادك عن المعركة.. أتظنين أن وجودك في المخبأ سيكون آمناً؟ هذه حرب.. لا أمان فيها لمن يشارك بها ولو بشيء بسيط.."

غمغمت ميا بصوت مرتجف "لكن هذا لن يجعلني أترككم وأتراجع بجبن.."

نظر لها روباك بغضب، فوجدت ميا الدموع تملأ عينيها وهي تضيف بعناد "سأبقى.. مهما كانت النتائج"

زفر روباك بحدة وهان يقول "اعتراضنا نابع من خوفنا عليك يا ابنتي.. أنت مدركة أنني وروباك نخشى من أي أذىً قد يصيبك.. لن نتمكن من حمايتك وسط المعركة، ولا يمكن أن يهدأ لنا بال ونحن نفكر في ذلك"

خفضت ميا بصرها وهي تمنع دموعها من الانحدار على خديها بالكاد.. ثم وجدت روباك يستدير ويغادر بخطوات غاضبة، عندها عجزت ميا عن منع دموعها التي انحدرت على خديها بصمت.. فقال هان متلطفاً "لا داعي للبكاء يا ابنتي.. مادمت مصرة على البقاء معنا، عليك أن تكوني قوية في مواجهة المصاعب.. فكيف تبكين لزجرة زجرك إياها روباك؟"

غمغمت ميا بصوت متهدج "لماذا هو غاضب مني؟ لقد عقدت عزمي منذ البداية على البقاء معه.. أينما ذهب، ومهما كانت المخاطر، فأنا سأبقى معه"

ابتسم هان وهو يشدّ على يدها قائلاً "أعلم ذلك يا عزيزتي.. وهو يعلم ذلك أيضاً.. لكنه يخشى عليك كثيراً.. الحرب ليست لعبة نلعبها دون مخاطر.. الحرب موت ودمار.. فكيف تريدينا الاطمئنان لوجود زهرة صغيرة مثلك وسط ذلك الدمار؟"

لم تعلق ميا وهي تمسح دموعها بصمت، فربت هان على يدها قائلاً "لقد فات أوان استبعادك من هذه المعركة فاطمئني واستعدي.."

هزت رأسها إيجاباً، ولما أذن لها بالذهاب، غادرت المخبأ بعد أن تمالكت نفسها وبحثت بعينيها عن روباك لتجده يجلس وحيداً خارج المخبأ على جذع شجرة سقط أرضاً.. فاقتربت منه وجلست على ذات الجذع بصمت وهي تخفض وجهها.. لاحظت أنه لم يلتفت نحوها، لكنها لم تنبس بكلمة وهي تفكر في حالها معه.. هل يجب أن تعتذر لأنها حريصة على البقاء قربه؟ ألا يعلم كم يعني لها ذلك؟.. ومع الأحداث التي هم مقدمون عليها، صار قلقها يزداد كلما شعرت أنها قد تبتعد عنه.. ألن يفهم ذلك البتة؟..

بعد صمت طويل لم يقطعه أحدهما بكلمة، سمعته ميا يقول بصوت خافت "هل تكرهينني لأنني أخشى عليك يا ميا؟"

غمغمت ميا "هل أنت غاضب مني لأنني أريد البقاء قربك يا روباك؟"

لم يعلق روباك على قولها، فنظرت إليه مضيفة بصوت مختلج "أنا لا أخشى الحرب، لكني أخشى أن أفقدك فيها"

نظر لها روباك قائلاً "لو كان هذا ما سيحدث، فوجودك لن يغير شيئاً من الواقع.."

ظلت ميا تنظر لوجهه بصمت، قبل أن تدير بصرها للمنظر أمامها وهي تقول بعزم "ومع ذلك.. سأبقى.."

عادت تنظر له وهي تضيف بثقة "لن تستطيع التخلص مني بهذه السهولة.."

ابتسم روباك للحظة قبل أن يقول برفق "فتاة عنيدة.."

ابتسمت ميا بدورها لابتسامته وهي تغمغم "لم أكن كذلك قبل أن أعرفك.."

وجدته يضع يده على رأسها بلطف وهو ينظر لها بصمت.. ثم أدار بصره للأمام وهو يمسك يدها ويشدّ عليها بقوة ويهمس "مهما حدث، كوني قوية دائماً يا ميا.."

غلبها القلق لقوله، وقد شعرت أنه عندما أبعد نظره عنها كأنه يهرب من مواجهتها، فقالت "لم تقول ذلك؟ أتعلم ما سيحدث الليلة؟"

قال هازاً كتفيه "ليس بالضرورة.. الحرب قاسية.. وأنا أخشى من قسوتها عليك.."

ظل القلق يتزايد في صدرها وهي تراقب ملامحه الساكنة وهو يتأمل أشجار الغابة القريبة.. ما الذي يدور في رأسك يا روباك؟.. لو أنك تخبرني ذلك صراحة لمرة واحدة فقط..

****

بعد منتصف الليل، وعندما ألقى هان أوامره للثوار باتخاذ مواقعهم قبل بدء العملية، فإن ميا تشبثت تلقائياً بذراع روباك حيث وقفت قربه وعيناها تفضحان خوفها، فابتسم لها ابتسامة صغيرة وقال "لا تقلقي يا ميا.. كل شيء سيكون على ما يرام"

فهمست ميا وهي تشدد قبضتها عليه "أرجوك.. كن بخير.. وتأكد أنك ستعود.."

لمس خدها بظاهر إصبعه وهو يغمغم "سأحاول.."

ثم غادر مسرعاً دون أن يلتفت وخلفه رجال فرقته بحِمْلِهم، وتتابع الرجال بالخروج ومعهم هان تاركين بضع رجال وقفوا عند المدخل بتحفز، بينما وقف رستين وميا يتطلعان تجاه المنجم الذي تنيره المصابيح المتفرقة.. وبعد لحظات من الصمت غمغم رستين "لا تقلقي يا ميا.."

قالت زافرة "وهل أستطيع ذلك حقاً؟"

لم يعلق وهو يبتعد لداخل الكهف، بينما لم تبرح ميا مكانها وقلقها لا يهدأ مع مرور تلك الدقائق الطويلة التي تسبق العملية..

في تلك الأثناء، كان خالد مع أفراد فرقة كوبين يتقدمون من موقعهم المحدد سلفاً، والذي يقع في جانب من جوانب الوادي الذي يحتلّ المنجم معظمه، غير بعيد عن هذا الأخير.. فناول عندها كوبين خالد جهاز الاتصال الأول الذي انتزعه من خوذة جندي قائلاً بصوت خافت "هذا هو الجهاز.. أرني كيف ستقوم بعمل تلك الشوشرة"

فقال خالد وهو يعالج جهاز الاتصال "حسناً.. لكن علينا أن نغادر بعد أن ننتهي من تعطيل الاتصالات في المنجم.. لا أعلم إن كانت إدارة المنجم تملك جهاز اتصالات خاص يمكنها من تتبع موقع الشوشرة، ولا يجب أن نبقى لنعرف ذلك.."

وباستخدام جهاز الاتصال، قام ببثّ ذبذبة على موجة معينة في المنطقة المحيطة به سببت شوشرة للاتصالات كافة، بما فيها الأجهزة التي يملكها خالد والخاصة بالجنود وأجهزة الاتصالات الخاصة بالثوار.. عندها قال خالد "لنذهب.. علينا أن نبتعد بمسافة كافية لأستطيع استخدام جهاز الجنود في التنصت عليهم"

وأخفى الجهاز في شجرة قريبة بحيث لا تبدو لمن يبحث عنه، ثم غادروا بخطوات سريعة مسافة كافية ليستطيعوا استخدام أجهزة اتصالاتهم، عندها قام كوبين باتصال سريع لهان قائلاً "لقد نجحنا في تعطيل أجهزة الاتصالات الخاصة بالجنود.. والآن سننطلق لمواقعنا.. أنتظر أي أمر آخر منك.."

فقال هان "جيد.. سنبدأ العملية حالاً.. وعند اقترابنا من المنجم ستنقطع الاتصالات بيننا.. فكونوا حذرين والتزموا بالخطة"

أشار كوبين لرجاله الذين أسرعوا يتفرقون في مهامهم الخاصة في مراقبة المنجم وما حوله.. وبقي كوبين وثلاث رجال مع خالد الذي بدأ عمله فور تجاوزهم مجال تلك الشوشرة وبدأ التنصت على القناة العامة للجنود في مايار لمعرفة تحركاتهم..

في تلك الأثناء، كان أحد الجنود في المنجم يركض نحو ضابط جلس جانباً أمام مبنى متوسط شيّد في جانب المنجم، وهو يدخن سيجارته بهدوء رافعاً ساقه على ركبته باسترخاء.. ولما رأى الجندي يقترب راكضاً قطب وهو يرمي سيجارته جانباً ويقول بصرامة "ما الذي دفعك لمغادرة موقعك في هذا الوقت أيها الجندي؟"

قال الجندي لاهثاً "خبر مهم يا سيدي.."

قال الضابط بشيء من السخط "ألم تكن تستطيع إبلاغي به عبر الاتصال؟"

قال الجندي وهو يقف أمام الضابط "هذا هو الأمر يا سيدي.. جميع الاتصالات معطلة.. أو بالأحرى هناك شوشرة تعترضها مما يمنعنا من إجراء أي اتصال"

قطب الضابط وهو يتناول خوذته التي تركها ملقاة أرضاً، فحاول إجراء أي اتصال بها ليرتطم بسمعه ذلك الصوت المتردد بشوشرة مزعجة مانعاً إياه من إتمام الاتصال.. عندها غمغم مقطباً "هذه شوشرة متعمدة.. وباستخدام أحد أجهزة اتصالاتنا.."

تساءل الجندي بقلق "من قد يتعمد فعل ذلك؟"

نهض الضابط قائلاً له بحزم "هناك أمر يتم تدبيره لهذا المنجم.. حذر بقية الجنود وليتخذوا حذرهم وليكثفوا الحراسة قرب أسوار المنجم.."

ركض الجندي لتنفيذ أمره، بينما أسرع الضابط ليدخل المبنى خلفه ويتجه لغرفة فيه تحوي أجهزة مبعثرة خاصة بالاتصالات والمراقبة وغيرها من الأجهزة الضرورية.. فحاول إجراء أي اتصال باستخدام تلك الأجهزة ليخاطب الإدارة الرئيسية في مايار ويبلغهم بما يجري.. لكنه عجز عن ذلك أيضاً، فاستخدم جهاز المراقبة ليلقي نظرة على ما يجري عند أسوار المنجم وهو يتمتم بغيظ "لابد أنه من عمل الثوار.. لكن كيف؟ كيف تمكنوا من فعل ذلك وكيف عرفوا الطريقة؟ تباً.. الأمر غير عادي.."

قطع تفكيره صوت عدة طلقات نارية شقت صمت الليل بعنف.. فتأكد له تخمينه وهو يبحث عن مصدر الطلقات بأجهزة المراقبة.. وهناك، قرب السور الشمالي المواجه لأقرب جبل منهم، تمركز عدد كبير من الرجال وهم يطلقون النار على الجنود المرابطين لحراسة المنجم.. وقد بادلهم الجنود إطلاق النيران وأشعة أسلحتهم تنير الليل البهيم..

خرج الضابط من المبنى وركض باتجاه موضع المواجهة وهو يصيح بمن يمر به من الجنود "استدع عدداً أكبر من الجنود.. أحضروا كل ما تملكونه من أسلحة.. يجب أن نقضي على هؤلاء الشرذمة قبل أن يتمكنوا من التسلل للمنجم.."

وأكمل طريقه ليرتقي سلماً ضيقاً حمله لسطح السور الحجري المحيط بالمنجم إحاطة تامة، ولا يحوي أي ثغرات بخلاف عدد من البوابات الضخمة الموزعة في جوانب المنجم.. وفي الأعلى، انحنى مختبئاً عن الرصاص

المتطاير واقترب من جنوده وهو يقول بحدة "ما الذي يجري هنا؟ كيف تمكن هؤلاء الجهلة من مبادلتكم النيران كل هذه المدة دون أن تقضوا عليهم تماماً؟"

أجاب الجندي بتوتر "لقد حاولنا.. لكنهم يتوزعون في الجبال مستفيدين من صخوره الضخمة لتحميهم من أسلحتنا.."

قال الضابط وهو يراقب الوضع "لكنهم بذلك يجعلون هجومهم أضعف.. فهم بحاجة لحماية أنفسهم أيضاً وهذا يضعف تركيزهم.."

ثم قال للجندي "اذهب إلى مخازن الأسلحة وأحضر لي بعض المدافع اليدوية.."

أسرع الجندي يستجيب لأمره، بينما ظل الضابط يراقب الوضع وهو يحاول معرفة مواقع الثوار في هذه الليلة المظلمة، ورغم الكشافات المعلقة على سور المنجم، فإن الثوار قد حرصوا على البقاء خارج نطاق نورها الساطع.. وهذا يجعل الجنود مكشوفين أكثر بوجودهم في موضع النور..

خلال دقائق، كان الجندي قد عاد برفقة جنديين آخرين، وكل منهم يحمل مدفعاً يدوياً يسنده لكتفه، وخلفهم جندي آخر يحمل صندوقاً به بعض الطلقات الخاصة بالمدفع.. ووفقاً لتعليمات الضابط، تمركز الجنود الثلاثة على السور بعد أن قاموا بتعبئة المدافع بالطلقات، واستغلوا فترة قلّت فيها حدة الإطلاق، وبتزامن واحد أطلقوا مدافعهم نحو ثلاث مواقع مختلفة من الجبال..

أدرك الثوار هوية ما يحمله الجنود فور وصولهم، فحاولوا مغادرة الموقع بسرعة، لكن عاجلتهم الطلقات التي انفجرت لتهز الجبل بقوة ونور الانفجار يضيء بقعة كبيرة منه.. وغطّى صوته المدوّي على صرخات الثوار الذين لم يتمكنوا من الفرار بالسرعة الكافية.. وبعد أن هدأ كل شيء وانقشع الدخان، أسرع الثوار ممن بقي سليماً بعد ذلك الهجوم بحمل من أصيب منهم، بينما صاح سارود فيهم "ليتراجع من أصيب منكم بعيداً، وليتقدم من بقي سليماً.. عاودوا الهجوم على السور، ولا تبقوا في الموضع ذاته لفترة طويلة.."

ثم التفت لأحد رجاله وهو يقول مقطباً "ألم ينتهِ الرجال من توزيع القنابل؟.."

أجاب الرجل "ليس بعد.. سأبلغك فور عودتهم.."

هز سارود رأسه موافقاً وهو يتأمل من سقط من الثوار قتلى بسبب الانفجار، ثم قال لرجاله بصرامة "استمروا في عملكم ولا تتوانوا.. ما زال الليل طويلاً.."

قطع حديثه صوت انفجار مكتوم لبعده عن موقعهم، فالتفت الرجال نحو بقعة بعيدة في سور المنجم حيث اشتبكت فرقة أخرى من الثوار مع الجنود على السور.. فغمغم سارود "ما زال الحفل في بدايته.."

****

ربض روباك ورجال فرقته في جانب آخر بعيد عن موضع القتال المحدود، ولما اشتعل الوضع في جانب آخر من المنجم، قال روباك لرجاله "استعدوا.. سنبدأ بعد قليل.."

غمغم أحد رجاله "لكن لا يزال هذا الموضع يعجّ بالجنود.. يبدو أنهم تلقوا أوامر بعدم مغادرة مواقعهم مهما حدث.."

قال روباك وهو يراقب الوضع "لا تقلق.. سيبتعدون.. وعندها سيكون لدينا وقت محدود لنتسلل للمنجم دون أن نلفت الانتباه.."

سادهم الصمت من جديد وهم يستمعون للضوضاء الصادرة من الجانبين.. وبعد مدة طويلة، اهتز سور المنجم بانفجارات متتالية من القنابل التي قام الثوار بتوزيعها على امتداد جزء بعيد من السور مستغلين غفلة الجنود وانشغالهم بالهجوم عليهم.. ورغم قوة السور ومتانته، إلا أن انفجاراً كالذي جرى قد تسبب في تدمير جزء محدود منه كاشفاً بقعة كبيرة يمكن للثوار التسلل منها للمنجم.. وتسبب انهياره بسقوط الجنود ممن كان فوقه ومعهم الضابط، ولم يكن سقوطهم آمناً، إذ تسبب بمقتل وإصابة العديد منهم إصابات مختلفة..

عندما قام الثوار بتفجير السور حسب الخطة، تأهب روباك ورجال فرقته وهم يراقبون الجنود ممن بقي في موقعه.. ومع الانفجار، بدأ التوتر يغزوهم والارتباك يبدو واضحاً في تصرفاتهم.. ومع تصاعد هجوم الثوار بعد أن ظهرت أمامهم تلك الثغرة، تخلى الجنود عن مواقعهم وهم يسارعون لمعاونة رفاقهم في ذلك الموضع من السور في صدّ الهجوم.. عندها قال روباك "لنبدأ.."

تقدموا من السور بخفة وأحد الرجال يحمل خطافاً مربوطاً بحبل، قام برميه بخبرة وقوة ليرتفع عالياً قبل أن يسقط على السطح الذي يعلوهم بعدة أمتار.. فجذبه الرجل حتى ارتطم الخطاف بحافة السور وبدا ثابتاً في موقعه، عندها قام الرجل بارتقائه بسرعة وخفة ليصل لأعلى السور.. وفور وصوله، راقب الموقع حوله للحظة، ثم أعطى إشارته لباقي الثوار بأن الموقع آمن، فأسرع رجال الفرقة يتبعونه بخفة وصمت وكل رجل منهم يحمل على ظهره كمية من القنابل في حقيبة جلدية.. وبعد استقرارهم فوق السور، تفحص روباك الوضع حولهم، ثم أشار لرجاله ليتبعوه وهو يتسلل محاولاً تجنب المواضع التي يلقي فيها الكشاف نوره على السور وساحة المنجم..

كانت هذه هي المرحلة الأولى من الخطة.. وهي الأسهل والأيسر فيها دون شك..

****

الفصـــل الثامن عشر

كانت أصوات الانفجارات والرصاص التي رددتها الجبال واضحة عند المخبأ.. وميا التي غمرها القلق منذ غادرها الثوار قد اشتعل قلقها أكثر مع تلك الأصوات لدرجة أن ظلت واقفة قرب المدخل طوال الوقت وهي تراقب ما يبدو من المنجم وما تلمحه من انفجارات أضاءت الليل الأسود للجبال.. ولما اقترب منها رستين قائلاً "يجب أن تبقي بالداخل.. الوقوف هنا ليس أقل خطورة من المشاركة في تلك المعركة"

أجابته وملامحها تفضح ذعرها "لا أستطيع ذلك.. كيف يمكنك أن تكون بهذا الهدوء طوال الوقت وأنت لا تعلم من سيعود من الثوار سليماً ومن لن يعود أبداً؟"

فقال رستين "لن يغير تفكيري شيئا من الواقع.."

نظرت له بصدمة وقالت "كيف يمكنك أن تفكر بذلك؟ ألا يهمك نجاتهم أو موتهم؟"

تنهد رستين بضيق، فقالت ميا مقطبة "لم أكن أظنك قاسٍ بهذه الصورة.."

فقال رستين "اسمعي يا فتاة.. أنت لم تندمجي مع الثوار كفاية لتعيشي بأسلوبهم.. كيف يمكنك أن تقلقي على رجل وهو يودعك قبل مغادرته وداع ميّت؟ إنهم في كل مرة يغادرون فيها، يحسبونها المرة الأخيرة.. والمحظوظ فقط هو من يعود للمخبأ بعد ذلك.. ولعلمك هم ليسوا سعداء كثيراً بعودتهم، فهذا يشعرهم أنهم لم يبذلوا جهداً كافياً في الدفاع عن وطنهم"

نظرت ميا تجاه المنجم وهي تقول بصوت مرتجف "لا أصدق ذلك.. إنهم بشر.. كل شخص يودّ لو يعيش حياته سالماً مع أحبابه وأصحابه.. هم شجعان، نعم.. لكن هذا لا يعني أنهم يُسَرّون بالموت ويسعون إليه"

فغمغم رستين وهو يغادر "أنت لم تعرفيهم حقاً بعد.."

لم تعلق ميا وهي تراقب الوضع المشتعل وتضغط على موضع قلبها بقبضتها لعله يكف عن الخفقان بجنون وتهمس "أرجوك.. عد لي يا روباك.."

****

لم يكن من السهل التسلل بين جنبات المنجم مع استنفار الجنود وتراكضهم نحو الجهات التي اشتعل فيها القتال بينهم وبين الثوار.. لكن روباك ورجاله لم يتوانوا عن السير قدماً متتابعين وهم يستغلون ما يمرون به من صناديق ومركبات وعربات للاختباء خلفها.. ولما وصلوا قريباً من مداخل المنجم التي تؤدي لقلبه النابض باليورانيوم، وزّع روباك رجاله فرقاً صغيرة كل فرقة ستدلف من أحد المداخل لتوزع قنابلها فيه بشكل مدروس..

تساءل أحد الرجال بقلق "ماذا عن أجهزة المراقبة؟ لابد أنها التقطت صورنا في أكثر من موضع بوضوح.."

أجاب روباك "أشك بوجود من يتابع أجهزة المراقبة تلك مع المعمعة الحاصلة عند الأسوار.. لا تقلقوا وأنجزوا مهمتكم بسرعة.. بقي لدينا أقل من نصف ساعة قبل أن تتراجع قواتنا ويحين موعد انفجار القنابل.. يجب أن ننجز ما علينا قبل مرور هذا الوقت.."

ثم، بعد أن تفحص المنطقة وتأكد من غفلة الجنود عنهم، تحرك مع رجلين لأحد المداخل بسرعة وخفة.. بينما توزعت الفرق الأخرى على المداخل الأخرى والتي تبلغ خمسة مداخل.. وفور أن غابوا في المدخل، الذي كان خالياً في هذا الوقت من الليل، أسرع روباك والرجلين يوزعان القنابل في بضع مواضع من المدخل بعد أن توغلوا فيه قليلاً.. من المفترض أن يكون الدمار كبيراً في المنجم لكي يصعب على الغزاة استخدامه مرة أخرى، لذلك كلما كان التفجير قريباً من قلبه كان أفضل.. وبعد وضع القنبلة في موضع مخفيّ بين الصخور، كان الرجال يقومون بضبطها على توقيت معين اتفقوا عليه مع هان، لكي يتم الانفجار بشكل متزامن بعد أن تغادر الفرقة الثالثة المنجم..

مضت دقائق ثقيلة وهم ينجزون عملهم بحذر وتوتر مع الأصوات التي تتعالى من المدخل.. ولما انتهوا قال روباك "فلنرحل قبل أن ينتبه الجنود لوجودنا.."

رأي الفرق الأخرى من رجاله تتقدم لتنضمّ إليهم وهم يوجزون لروباك ما فعلوه.. فهز روباك رأسه مغمغماً "حسناً ما فعلتم.. لنرحل الآن.."

تقدموا من المدخل يراقبون ما يجري، حيث لا تزال الأمور مشتعلة بشدة دون أن تخفت.. ثم قال روباك بصوت خافت وهو يربض في موقعه "يجب أن نرحل قبل اكتشاف الجنود لنا.. سنسير منفردين حتى نصل للسور ونغادر بنفس الطريقة التي تسللنا بها.."

أشار لرجاله ليتقدموه، وتبعهم بعد أن ألقى نظرة متفحصة لما حولهم.. وبعد عدة خطوات، رأوا جندياً يظهر فجأة أمامهم وما إن رآهم حتى صاح "تباً.. ما الذي....."

ورفع سلاحه في وجوههم، لكن أقرب الثوار منه دفع بمؤخرة سلاحه ليضرب سلاح الجندي بقوة أتبعها بأخرى ألقت السلاح بعيداً، ثم رفع سلاحه نحو صدر الجندي الذي اتسعت عيناه رعباً.. لكن روباك هتف "لا تطلق النار.."

لم يجد الثائر فرصة للاستجابة بعد أن ضغطت يده على الزناد بالفعل وانطلقت الرصاصة تشق صدر الجندي ليسقط أرضاً بدمائه، بينما قال روباك بحنق "صوت الرصاصة سيجذب الانتباه إلينا.. لنرحل بسرعة"

سمع روباك أحد الرجال يقول بتوتر هائل "فات الوقت.. مجموعة من الجنود تتقدم نحونا، يبدو أنهم كشفوا أمرنا بالرغم من كل شيء.. لن يمكننا الخروج من هذا الموقع بسهولة دون قتال"

نظر روباك خلفه، فرأى مجموعة من الجنود تقترب بأسلحتها من موقعهم هذا، فيما أضاف الرجل "لابد أنهم لاحظوا وجودنا قبل أن يسمعوا صوت الرصاصة.. فماذا سنفعل الآن؟"

أجاب روباك "ما يهم الآن أن نتجنب الاشتباك معهم.. إن بدأنا معهم قتالاً فسيصل ذلك لبقية الجنود وسيتكالبون علينا.. يجب أن نغادر قبل اقترابهم"

سار الرجال بسرعة محتمين ببضع عربات مصطفة جانباً فيما تطايرت الأشعة لترتطم بها بكثافة.. لكن قبل أن يغادروا هذا الموضع، فوجئوا بمجموعة أخرى من الجنود تظهر من موقع قريب والأسلحة تشهر في وجوههم.. فتفرق الرجال بسرعة متغلبين على المفاجأة ليندسّوا خلف أقرب شيء يحجب عنهم الأشعة التي تطايرت وطالت بعضاً منهم بجراح متفرقة، بينما سقط أحد الرجال أرضاً بعدما أصابته الأشعة إصابة قاتلة قبل أن يفلح في الاختباء منها..

في تلك الحالة، لم يجد الثوار بداً من مبادلة الجنود الإطلاق وصوت الرصاص يدوّي في المنجم جاذباً الانتباه، عندها قال أحد الثوار بقلق "سيتكالب علينا الجنود الآن.. هربنا غدا مستحيلاً.. ولم يبق على الانفجار الكثير وقد يطالنا معه.."

فقال روباك وهو يقبض على سلاحه بقوة "هناك حلّ آخر.. سنرمي إحدى القنابل عليهم ونشق طريقنا بالقوة"

قال رجل بقلق "لكن هذا إعلان أكثر وضوحاً لبقية الجنود عن موقعنا.."

فقال روباك بحزم "يجب أن نغادر بسرعة قبل أن يصلوا.. هذا هو الحل الوحيد"

نظر الرجال لبعضهم البعض بقلق، بينما استخرج روباك من الحقيبة التي يحملها قنبلة يدوية تختلف عن تلك التي قاموا بتوزيعها في المنجم.. وقال لأحد رفاقه "تولّ أنت أمر الجنود خلفنا، وأنا سأتولى الفرقة التي تعترض طريقنا.."

هز الرجل رأسه إيجاباً وهو يمسك بقنبلة ثانية ناولها إياه روباك، بينما قال روباك لبقية رفاقه "هل أنتم مستعدون؟"

هزوا رؤوسهم إيجاباً، فرمى روباك القنبلة بقوة تجاه الجنود المختبئين خلف حاجز من أجولة رملية، والثاني يرميها على الفرقة الأخرى التي كانت تختبئ في مدخل قريب للمنجم.. ولم تكد القنبلتين تسقط بينهم، وقبل أن يحاول أحدهم الابتعاد، انفجرتا بقوة أطاحت ببعض الجنود بإصابات متفاوتة وسقط الأبعد والأكثر حظاً جانباً في معمعة واضحة سمحت لروباك وفرقته بالتقدم بسرعة.. سار الرجال متخطين الفرقة التي كانت تعترض طريقهم وهم يطلقون على من بقي حياً من الجنود قبل أن يعاودوا مهاجمتهم، وسلكوا الطريق المؤدي نحو السور بسرعة قبل أن يفاجأوا بهجوم جديد.. بينما وقف روباك لحظات يتطلع لما يجري عند أسوار المنجم مراقباً القتال الذي لا يزال محتدماً، وإن حاول الجنود مقاومته بشدة باستخدام كل الأسلحة التي يملكونها.. ثم سار بخطوات خافتة خلف رجاله والصمت التام يغلفهم..

****

رغم أن ميا قضت الساعات الأخيرة دون أن يرف لها جفن بانتظار انتهاء العملية وعودة الثوار، إلا أنها قفزت بقلق متزايد عندما سمعت خطوات مسرعة تقترب من المخبأ.. نظرت نحو رستين بقلق، فهدأها قائلاً "لو كانوا من الجنود، لحذرنا الرجال في الخارج.."

سرعان ما وجدت إحدى فرق الثوار تدلف المخبأ وهم بحالٍ يرثى لها.. ورغم أن ميا كانت تتحرق شوقاً لسؤالهم عن فرقة روباك، إلا أنها أجّلت ذلك مع مرأى إصابات بعضهم التي تفاوتت بين الخفيفة والخطيرة.. فأسرعت تساعد رستين في علاجهم دون أن تنسى أن تلقي نظرات قلقة تجاه المدخل بين وقت وآخر.. ومع تتابع فرق الثوار وتزايد الجرحى، فإنها انشغلت تماماً حتى لم تعد قادرة على القلق على أي شيء آخر.. ولما رأت هان يقف قريباً وخيط من الدماء يسيل من جبهته، أسرعت إليه قائلة بقلق "أنت مصاب.. كيف حدث ذلك؟"

غمغم هان وهو يجلس جانباً "ليس بالشيء الخطير.."

شرعت ميا تعالجه بصمت بينما قال أحد الثوار بحنق "هل فشلنا؟.. لماذا؟ المفترض الآن أن ينفجر المنجم بالكامل.. لكن لا أدري ما الخطأ الذي قمنا به.."

فقال هان "لا ندري ما جرى هناك.. لكن هناك دائماً مرة قادمة"

علق سارود "لن تكون المرة القادمة أسهل من هذه.."

ساد الصمت من جديد حتى أنهت ميا تضميد جرح هان، ثم سألته بقلق "ماذا عن الفرقة الثالثة؟ لم يعودوا بعد.."

قال هان "لا أعلم.. من المفترض أن يعودوا الآن.. لكنهم لا يستجيبون لاتصالاتنا.."

قالت ميا بهلع "أتظنهم.....؟"

هز هان رأسه مجيباً "لا.. لا أظن ذلك حقاً.. التشويش الذي قام به خالد يمنعنا من الاتصال بهم.. لكن تأخيرهم مقلق حقاً"

سمعوا في تلك اللحظة أزيز جهاز الاتصال الذي يملكه هان، فرد هان على الاتصال قائلاً "هذه هي الفرقة الأولى.."

جاءه صوت خالد عبر الجهاز "هذه هي الفرقة السابعة.. من الجيد أنكم ابتعدتم عن المنجم لأتمكن من الاتصال بك يا هان.. هناك أمر طارئ.. الجنود يبحثون عن الجهاز المسبب للتشويش بإصرار.. وقد اقتربوا من موقعه كثيراً"

قال هان "حاولوا منعهم من العثور عليه.. اقتلوهم قبل أن يصلوا للجهاز"

قال خالد بقلق "القول سهل.. لكن إن هاجمناهم فسنكشف موقعه بوضوح.."

قال هان بصرامة "إن أوقفوا التشويش فسيصل خبر ما يجري هنا للقيادة في مايار.. عندها سيستنفر الغزاة قواتهم لدحرنا هنا والقضاء علينا.. لا تزال بضع فرق منا تقاتل قرب الأسوار"

فقال خالد "سنحاول جهدنا.."

وأنهى الاتصال تاركاً هان يفكر في الوضع الذي هم فيه.. بينما وقفت ميا عند المدخل تنظر نحو المنجم وطرقات قلبها تتزايد.. لقد تأخر روباك.. ومادام هان شخصياً قلق من ذلك، فهذا معناه أن الأمور ليست مطمئنة بتاتاً..

****

لم يكد رجال الفرقة الثالثة يقتربون من السور، حتى وجدوا مجموعة أخرى من الجنود تعترض طريقهم.. وتطايرت الأشعة لتصيب رجلين في مقتل وآخر إصابة خطيرة بعد أن وجدوا أنفسهم في وسط الساحة بعيداً عن أي شيء يمكن أن يصد الهجوم عنهم، فصاح روباك "شقوا طريقكم بالقوة.."

لم يتوانى الرجال عن تنفيذ ذلك وهم يهجمون على الجنود القريبين الذين عجزوا عن إطلاق الأشعة من هذه المسافة القريبة.. فالتحم الفريقان في معركة محدودة والضربات تتطاير بالأيدي والأسلحة، ولكون الثوار أكثر عدداً من تلك الفرقة، فسرعان ما تغلبوا على الجنود الذين سقطوا بين قتيل وفاقد للوعي.. عندها ركض الثوار نحو السور القريب وأحدهم يسند الرجل الجريح الذي أخفى ألمه بصمت، ومن ثم صعدوا السلالم المؤدية للسطح، ليجدوا أشعة الجنود تلاحقهم بعد أن بدأت مجموعة أخرى من الجنود ملاحقتهم لمنعهم من الهرب.. لكن الثوار لم يتوانوا عن الصعود، ومن يصل منهم للسطح يلف يديه بأي قطعة من ملابسه لتحميهما من الاحتكاك ويستخدم الحبل للانزلاق للأسفل بسرعة وخبرة تاركاً المجال لرفاقه ليتبعوه دون إبطاء..

بعد أن اجتمع الثوار في الأسفل بدؤوا يتسللون بين الصخور الضخمة التي نثرها الجبل القريب في الوادي وروباك يقول "لم يبق الكثير على الانفجار.."

وجد رجاله يقفون فجأة مع مرأى فرقة أخرى من الجنود تعترض طريقهم والأسلحة في وجوههم مشهرة وقائدهم يصيح "قفوا واستسلموا خير لكم.."

لكن الثوار قفزوا جانباً نحو أقرب مخبأ تمنحه الصخور القريبة لهم ضد الأشعة التي تطايرت بإصرار.. ثم قال أحد الرجال "هل نبحث عن طريق آخر لنهرب منه؟ قد يأتي المزيد منهم.."

تلفت روباك حوله وهو يقول "الجبل يصنع حاجزاً منيعاً خلفنا.. والمنجم يحتل بقية الجوانب.. هذا هو الطريق الوحيد.. يجب أن نشق طريقنا بقوة.."

تساءل الرجل "هل تستطيع تكرار ما فعلته في سِن بأسلحة الجنود؟"

غمغم روباك "ليتني أقدر.. نور الكشافات لا يضيء هذه البقعة ومن العسير إجادة التصويب في هذا الظلام.."

أخذ الثوار يبادلون الجنود الإطلاق محاولين العثور على ثغرة تبيح لهم التغلب عليهم والهرب دون خسائر.. بينما بدأ عدد الجنود في التزايد مما وتر الثوار أكثر فأكثر وأحدهم يقول بسخط "لو كنا نستطيع الاتصال بهان لطلبنا بعض الرجال لمعاونتنا.."

لم يعلق روباك وهو يلاحظ في تلك اللحظة أحد الجنود وهو يحمل شيئاً في يده سرعان ما رماه نحو موقعهم بقوة.. فهتف روباك للرجل القريب منه وقد أدرك ماهية هذا الشيء "ابتعد.. إنها قنبلة.."

ودفع رفيقه بقوة بعيداً عن موقع سقوط القنبلة في نفس اللحظة التي ارتطمت بها تلك القنبلة بالأرض لتنفجر بشكل محدود إنما بشيء من العنف أطاح ببقية الرجال للوراء والانفجار يلفحهم بحرارته.. وبعد أن هدأت الأمور، نهض من بقي سليماً من الرجال بسرعة مبادلين الجنود الإطلاق لمنعهم من الاقتراب بينما أحدهم يصيح بمن حوله "هل أنتم بخير؟"

كان هسيس الأشعة ورصاصات الثوار يكاد يصمّ أذنه، وبالكاد سمع صوت الرجل الذي دفعه روباك جانباً، والذي كانت الدماء تتصبب من رأسه وهو يقول بصوت مهتزّ قليلاً "أنا بخير.. لكن روباك....."

****

تلقى هان اتصالاً من الفرقة السابعة ليسمع خالد يقول "هان.. لقد قام الجنود بتعطيل الشوشرة رغم كل محاولاتنا"

قطب هان قائلاً بشيء من الحدة "كيف؟ من المفترض أن تمنعوهم بكل ما تملكونه"

قال خالد بتوتر "حاولنا، وعديد من رجالنا أصيب أثناء ذلك.. لكن عندما عجز الجنود عن العثور عليه أطلقوا على البقعة عدة طلقات من مدفعهم، فدمروا الموقع مع الجهاز بالكامل.."

صمت هان مفكراً وخالد يضيف "وفور انقطاع الشوشرة، قام المسؤول عن المنجم بالاتصال بالقادة في مايار.. هناك عدة فرق من الجنود قادمة تجاه المنجم.."

تساءل هان "كم يلزمهم ليصلوا إلينا؟"

أجاب خالد "ساعتان على الأقل.. يجب أن ترحلوا من هذا الموقع قبل وصولهم"

فقال هان "سنفعل.. كونوا حذرين"

وأنهى الاتصال ليسمع سارود يتساءل "أهذا معناه أن مهمتنا هنا قد فشلت؟"

قال هان متنهداً "لا أعلم.. لقد بذلنا جهدنا، والآن علينا أن نلملم رجالنا ونرحل قبل أن تزداد الأمور سوءاً"

تساءلت ميا بصوت مرتجف "وماذا عن الفرقة الثالثة؟"

خفض هان عينيه دون أن يجيبها مما زاد القلق الذي يستعمرها.. ثم راعهم في تلك اللحظة صوت انفجارات قوية ومتتالية عمّت المنجم كله.. فقفز الثوار ليقفوا قرب المدخل يراقبون الانفجارات التي اندلعت من أجزاء متفرقة في قلبه ودامت لعدة دقائق تحوّل خلالها المنجم لشعلة متوهجة والانفجارات تضيئه بشكل متتالٍ.. ووقفت ميا تنظر للانفجارات بذعر وهي تعضّ شفتيها حتى أدمتها.. روباك لم يعد بعد، فهل احتُجزوا في المنجم وقت الانفجار؟.. لماذا لا يجيبون على الاتصال؟..

بدا السرور على وجوه الثوار لنجاحهم في تدمير المنجم وهم يهنئون بعضهم البعض، بينما قال هان "مادام الانفجار قد حدث كما خططنا، فهذا يعني أن الفرقة الثالثة بخير.. وإن كنت لا أعلم لم لا يجيبون اتصالاتنا ما دامت الشوشرة قد توقفت.."

قال سارود وهو يجلس جانباً بتعب "أتظن أن دماراً كهذا الذي حصل كافٍ لإصابة الغزاة بضربة موجعة؟"

أجاب هان "أتمنى ذلك.. لكن هذا لا يعني أنهم لا يستطيعون إصلاحه واستخدامه مجدداً.. مادمنا قد وصلنا لهذه المرحلة، فعلينا الاستمرار بعمليات قوية لنمنع الغزاة من لملمة جراحهم والعودة بقوة.. الضربة التالية يجب أن تكون أكثر إيلاماً من هذه"

التفت سارود له باهتمام قائلاً "ألم يصلك خبر من برتيك بعد؟"

هز هان رأسه نفياً والصمت يعود ليظلّلهم من جديد..

****

بعد مضيّ وقت طويل على عودة هان وبقية الفرق، ما عدا الفرقة الثالثة والفرقة السابعة التي ظلت تراقب ما يجري في المنجم وحوله، وبعد انفجار جزء كبير من المنجم منذ فترة، فإن قلق ميا تزايد على روباك بعد أن انعدمت الاتصالات بينه وبين هان.. فظلت واقفة قرب باب المخبأ متجاهلة نداء هان لها، حتى اقترب منها رستين قائلاً "يحسن بك أن تبتعدي عن المدخل.. فقد ينفجر الوضع في أي وقت ونتلقى هجوماً من الجنود"

قالت ميا بقلق وهي تراقب الموقع خارج المخبأ "روباك لم يعد بعد.. هو وفرقته لم يعودوا للمخبأ رغم انتهاء مهمتهم.."

قال رستين وهو يجلس جانباً بتعب "لم يرد إلينا اتصال منهم بعد.. ربما اعترض الجنود طريق عودتهم لذلك تأخروا.."

سألته بتوتر "هل تعتقد أنهم بخير؟ لماذا لا يجيب روباك على اتصالاتنا؟"

سمعت في تلك اللحظة الصوت المميز لجهاز الاتصال، فأسرعت تقترب من هان مع البقية وهي تسمعه يجيب "من الفرقة الأولى إلى الفرقة الثالثة.. هل أنتم بخير؟ ما الذي أخّركم عن العودة؟"

أجاب أحد رجال الفرقة الثالثة وأصوات الإطلاق تبدو واضحة قربه "لقد نجحنا بالخروج من المنجم بالكاد قبل حدوث الانفجار.. لكن الجنود كشفونا قبل هربنا، وهم يحاصروننا الآن ولا نستطيع تجاوزهم والعودة.. نريد إمدادات لمعاونتنا على تجاوز حصارهم والعودة للمخبأ.."

تساءل هان مقطباً "أين روباك؟ لماذا لا يجيب على الاتصال؟"

قال الرجل "روباك مصاب.. نريد العودة بسرعة فأغلبنا أصيب بجروح مختلفة، ولا يمكننا البقاء هنا أكثر من ذلك"

قال هان بسرعة "سنرسل لكم الإمدادات.. فور أن تسمعوا صوت إطلاق النار اسلكوا طريقاً ملتوياً بعيداً عن الإطلاق وعودوا للمخبأ.."

وأنهى الاتصال ملتفتاً إلى فرقتين من الثوار ملقياً إليهم بالتعليمات.. بينما ظلت ميا واقفة مكانها ترتجف خوفاً وقلقاً بعدما سمعته.. لو سمعت صوت روباك لاطمأنت أكثر.. لكن كونه غير قادر على الرد على جهاز الاتصال يعني أن إصابته شديدة..

سمعت هان يقول لها "استعدي يا ميا.. ابذلي جهدك لعلاجهم فور وصولهم فنحن بحاجة للتراجع ومغادرة هذا الموقع الليلة.. وإلا تم القضاء علينا تماماً قبل صباح الغد فور وصول إمدادات الغزاة"

أطرقت ميا موافقة ورستين يتجه إلى عدتهم الطبية يحصي ما بقي منها وإن كانت تكفي أفراد الفرقة الثالثة أم لا..

أما ميا فلم تتحرك وعيناها معلقتان بمدخل المخبأ وقلبها واجف بانتظار ما قد تراه.. استغرقت المعركة المحدودة

التي حدثت بالخارج مدة من الوقت أحست بها ميا كساعات طويلة.. ولما رأت رجال الفرقة الثالثة يدخلون إلى المخبأ والدماء تغمر عدداً لا بأس به منهم بإصابات مختلفة، بحثت عيناها عن روباك بسرعة دون أن تراه بين القادمين.. وقبل أن تتفوه بكلمة رأت اثنان يحملانه من يديه وقدميه ويسرعان به باتجاهها وأحدهما يقول "أرجوك أسرعي في معالجته.. لقد أصيب في انفجار بقنبلة ألقاها الغزاة علينا.."

وضعاه أرضاً وهو لا يبدي حراكاً فيما تهاوت ميا قربه متطلعة إليه بذعر.. كانت الدماء تغمره حتى غدا من المستحيل معرفة موضع الإصابة.. وحروق شديدة تغطي يديه وجانباً من وجهه.. لم تستطع ميا لمسه خوفاً من إيلامه وهي تهمس بصوت مرتجف "أأنت متأكد أنه على قيد الحياة؟"

وجدت رستين يبعدها قائلاً "اذهبي أنت لعلاج البقية وأنا سأتولى أمر روباك.."

تنحت ميا جانباً دون أن تبتعد.. ولما خلع رستين قميص روباك لإيقاف نزيفه زاد ذعرها عند رؤية جراحه التي لا يتوقف الدم من الانسلال منها.. تفحصه رستين بسرعة ليتأكد أنه لا يزال حياً، فوجد نبضه خفيفاً بالكاد يسمع، عندها أسرع يحاول إيقاف النزيف مع إمكانياته البسيطة صائحاً في ميا "عالجي الآخرين يا ميا ولا تقفي هكذا.."

صاحت "لا أستطيع.. يداي ترتجفان ولا أستطيع القيام بشيء.. أرجوك.. أخبرني أن روباك سيكون بخير.."

قال رستين وهو يحاول جهده "أتمنى هذا.. لكن التأخير الذي حصل قبل إحضاره ليس في صالحه.. لقد نزف الكثير.. وجراحه أكثر مما أستطيع علاجها في وقت قصير.."

اقترب هان بعد أن اطمأن على البقية، وقال "بجراح كهذه لا يمكننا حمله معنا.. ولا يمكننا البقاء هنا أكثر من هذا"

هتفت ميا "ماذا تعني؟"

قال هان متنهداً "لا أعني شيئاً.. فقط أتمنى أن يكون روباك بخير حقاً.."

ظلا واقفين بقربه ورستين يبذل جهده مسابقاً الوقت.. مر وقت قصير وهو يضمد جراحه بدون علاج بالأدوية، فقالت ميا بقلق "يجب أن تقوم بتطهير جراحه لئلا تتلوث.."

قال رستين محنقاً وهو يخيط أحد جراحه البالغة "ألا تعتقدين أنني أعلم هذا؟ لكن ما نملكه من الأدوية لا يكفي الجرحى جميعاً.. بل لا يكفي جراحه هو كلها.. فما الذي أستطيع فعله؟.."

وضمّد الجرح الأخير قائلاً "هذا هو كل ما أستطيع فعله.. لكنني لست مطمئناً أبداً.."

فتح روباك عينه في تلك اللحظة وقد بدا كأنه لا يرى ما أمامه، ثم التفت متطلعاً إلى رستين بصمت، فقال الأخير "سامحني يا روباك.. بودي لو قدمت لك كل ما أملك حتى تشفى.. لكني أعلم بعدم فائدة هذا.."

ابتسم روباك قائلاً بصوت متحشرج "شكراً يا صديقي.."

ربت رستين على يده، ثم ابتعد إلى بقية الجرحى ليتولى معالجتهم.. فيما قال هان "الشكر لك يا روباك على كل ما قدمته.. لولا حرصك على حماية رفاق فريقك لما أصبت بهذه الإصابات البليغة.. حقاً أنت مكسب حقيقي للثوار.."

لم يعلق روباك ونظرة عينه تعبر عن الكثير مما في داخله.. فيما اقترب أحد رجال فرقته منه والدماء لا تزال تغمر رأسه ووجهه وهو يقول منكساً رأسه بألم "آسف يا روباك.. لو لم تحاول إنقاذي.. لما.....”

قال روباك مقاطعاً إياه بهدوء "لو لم أحاول إنقاذك، لما هنئت بالحياة بعدك أبداً.. لا أرضى برؤية رفاقي يقتلون وأنا قادر على إنقاذهم.."

خفض الرجل رأسه وقال بصوت مهتز "شكراً لك يا صديقي.. سامحني.."

لم يعلق روباك بينما جذب رستين الرجل ليعالج جرحه.. فتنهد روباك مغمضاً عينه ومقاوماً آلامه وميا تركع قربه قائلة بتوسل "روباك.. أرجوك، قل لي أنك بخير.. أخبرهم جميعاً أنك بخير، وأنك ستشفى من هذه الجراح بسرعة"

لم يعلق روباك وهو يقول لهان "أعلم أن الخطة تقتضي انسحابنا من هذا الموقع قبل وصول الإمدادات للغزاة.. وأعرف أن حالتي لا تسمح بهذا.. لذلك لا تضحي بالكل لأجلي يا هان.. نفذ الخطة المقررة ولا تتردد.. لا أريد أن أكون عبئاً عليكم أثناء انسحابكم"

صاحت ميا "ما الذي تقوله؟ لا يمكنهم أن يتركوك هنا.. يجب أن ننقلك لأقرب مدينة حتى تلقى العلاج المناسب.."

سمعت هان يقول "لا تحمل هماً.. سامحني يا صاحبي فرقاب الجميع معلقة بي.. وأنت تعرف نظام الثوار تمام المعرفة.."

التفتت إليه ميا صائحة "ما الذي تعنيه يا هان؟ هل ستتخلى عن روباك؟ لم يتردد قط في تنفيذ أوامرك، والآن تتخلى عنه لأقل سبب؟"

قال هان بهدوء "أنتِ أعلم مني بنسبة نجاته، سواء تركناه هنا أو حملناه معنا.. بل لو حاولنا تحريكه سنسبب له آلاماً هو بغنىً عنها دون فائدة.."

قالت بحدة ورفض "لا أصدق هذا.. لا يمكنك أن تكون بهذه القسوة.. كل ما قلته لا يسوّغ ما تنوي فعله.."

أمسك روباك يدها قائلاً بصوت متعب "ميا.. اهدئي.."

التفتت إليه بعينين دامعتين وهي تصيح "لا يمكن هذا.. لن أسامحهم لو تركوك هنا تواجه الموت.. أنت بخير.. ستكون بخير مع بعض العناية.."

قال روباك وهو يضغط على يدها بقوة "اهدأي يا ميا ولا داعي لهذا الانفعال.. لم يحدث شيء لم أتوقعه من قبل.. ومهما حصل لي فأنا راضٍ عن كل ما فعلته.."

سالت دموعها على خدها وهي تنظر له غير مصدقة قائلة "رغم كل ما بذلته لأجلهم؟"

قال زافراً بألم "لم أفعل ما فعلته لأجل أحد.. بل لأجل وطني.. لو استطعت القضاء على جندي واحد فهذا يكفيني حتى لو كلفني هذا حياتي ذاتها.."

ثم أضاف مبتسماً ابتسامة ضعيفة "عزائي أنني رأيت وجهك لآخر مرة، ولو أنني لا أحب رؤيتك باكية.."

لم تستطع ميا إيقاف دموعها وهي ترى وجهه الشاحب على غير العادة والابتسامة التي نادراً ما يمنحها لأحد تشيع على وجهه برضى، ودماءه تغمر الضمادات من جديد بلا توقف.. وسمعته يهمس "مهما حدث لي.. فلا تبك يا ميا.. "

لكنـها عـوضاً عن ذلك ارتمت على صدره منتحبة بحرقة، فوضع يده على شعرها مغمغماً "منذ متى وأنت تتجاهلين أوامري يا فتاة؟ هل تريدين أن تذوقي قبضتي من جديد؟"

قالت من بين نشيجها "كيف تستطيع أن تمزح في وقت كهذا؟ الكل يعاملك بقسوة، وأنت تجد في هذا ما يضحك؟"

قال روباك "لو كنت تعرفينهم حقاً لعرفت أنهم ليسوا قساة القلوب.. نحن الثوار هكذا.. نودّع رفاقنا بابتسامة.. لا يمكننا البكاء على كل من يرحل وإلا ما وجدنا وقتاً لعمل شيء آخر ولضاعت قضيتنا دون أن تجد من يحملها.."

هتفت بحرقة "أنت لن ترحل.. قطعاً لن أدعك ترحل.."

فقال بابتسامة "هل جراحي تنبئك بهذا؟"

قالت وهي تنهض ماسحة دموعها التي ما فتئت تسيل على خديها "بل سأجعلها تفعل.."

وعادت تبذل جهدها لإيقاف نزيفه مجدداً وهو يقول مغالباً آلامه "كفاك يا ميا.. ليس من الحكمة الانشغال بقضية خاسرة.."

هتفت مدارية يأسها "ليست خاسرة أبداً.."

لم يعقب روباك بكلمة وهو يتهاوى في غيبوبة جراء ما فقده من دماء، بينما لم تتوانى ميا عن معالجته رغم اعتراض رستين.. كانت تمسح دموعها بيد مرتجفة وتعتني بجراحه العديدة دون توقف، عندما سمعت جهاز الاتصال عند هان يصدر صوته المميز من جديد قبل أن يعلو صوت خالد عبره قائلاً "هان.. الجنود قادمون.. أسمعهم عبر جهاز الاتصال.. لقد اقتربوا كثيراً من موقع المنجم وهم عازمون على القضاء على كل من بقي من الثوار هنا.. يحسن بكم أن تغادروا فوراً"

قال هان "سنفعل ذلك.. لكن أخبرني بمواقع الجنود بالضبط.."

أوجز له خالد الوضع خارج المنجم، ثم أنهى حديثه قائلاً "اسلكوا الطريق المؤدي عبر الغابة.. سنقودكم عبره بأسرع ما يمكن قبل قدوم الجنود.. الكثير من الثوار جرحى ومواجهة كهذه لن تكون في صالحنا البتة"

قال هان زافراً "حسناً.. لكن من يعلم ما سيحدث لنا بعد ذلك.."

قال خالد "لقد أتانا أحد رجال برتيك، وهو سيدلنا على المخبأ الجديد الذي أعدّه برتيك لنا.."

أنهى هان الاتصال بعد أن وعد خالد بالالتقاء به قريباً، ثم نهض من موقعه واتجه لرستين قائلاً "هل يمكننا الرحيل الآن؟ لا نستطيع الانتظار أكثر من هذا لأي سبب"

قال رستين وهو يلملم عدته "أجل.. لقد أنهيت عملي هنا.."

رفعت ميا رأسها بعينين متسعتين وهي تراقب هان.. بدا واضحاً أنه لن ينتظر ثانية أخرى في هذا المخبأ.. عادت ببصرها لروباك الذي لا يزال في غيبوبته وهي لا تصدق ما يجري.. أحقاً ينوي هان التنازل عن روباك وتسليمه للموت ببساطة؟.. سمعت هان يقول لها وهو يقترب منها "هيا يا ميا.. علينا الرحيل.."

نظرت له وقالت بصوت مرتجف "وروباك؟ هل ستحملونه؟"

رمق هان روباك للحظات بأسى واضح، ثم خفض بصره مجيباً "لا.. هذا سيسيء له بكل الأشكال.."

فنهضت بغضب شديد وصاحت في وجهه بغير لياقة "أنت وغد.."

نظر لها الآخرون بدهشة بينما بقي هان هادئاً دون أن ينظر إليها، ثم غمغم "يحق لك قول ما تريدينه.. لكنني أعمل لصالح الجميع.. لا يمكنني التضحية بكل هؤلاء لأجل شخص واحد، ولو كنتُ في موقع روباك، لما رضيتُ ببقائكم هنا لأجلي لأي سبب كان.."

ثم أضاف وهو ينظر لها "لا يمكننا نقله لمايار فالحصار مشدد حولها الآن، وأقرب مدينة تبعد ساعات من موقعنا هذا.. أتظنين أنه سيصمد حتى نصل به لأقرب طبيب أو مستشفى؟"

وأشار لأحد الرجال قربه، الذي تقدم على الفور ليقبض على ذراع ميا بقوة ويجبرها على السير خلف هان نحو مخرج المخبأ.. قاومته ميا بشدة وهي تصيح بغضب "اتركوني.. لا يمكنك إجباري على الرحيل.. أنا سأبقى.."

قال لها الرجل بحدة "يمكنني إفقادك الوعي وأخذك بالقوة إن لم تصمتي.. صوتك سيجذب الأنظار إلينا.."

صاحت "لماذا؟ لماذا تجبروني على الرحيل معكم؟.."

قال هان وهو يتقدمهم "لا يمكن أن نتركك تسقطين في يد الجنود.."

جذبت ذراعها من يد الرجل وهي تتراجع قائلة بحزم "لن أرحل.."

فوجئت بالرجل يجذبها بقوة ويحملها على كتفه رغم مقاومتها وهو يغمغم بغيظ "فتاة عنيدة.."

ضربته بقوة بقبضتيها وهي تصيح "أنزلني.. لا يحق لك أن تحملني بهذه الطريقة.."

لكن الرجل لم يعبأ بها وهو يتبع هان وبقية الثوار الذين خرجوا بعد أن تلقى إشارة من خالد تفيد بأن الموقع آمن.. وتتابع الثوار متسللين عبر طريق ضيق يقطع الجبال، مبتعدين عن المساحة التي يشغلها المنجم، والتي افترشتها جثث رفاقهم وأعدائهم على حد سواء، ومتجهين نحو الغابة القريبة حيث قبعت فرقة خالد بانتظارهم..

****

لم يكن برتيك يعلم، وهو يعطي لرجاله إشارة بدء العملية في مايار، أن خطته كانت مكشوفة تماماً للغزاة.. ففور أن ألقى أمره لرجاله ببدء العملية، نفذ الرجال الأمر بتزامن مدهش.. انطلقت أربع فرق من رجاله نحو جوانب مبنى قيادة جيش الغزاة في مايار لتنفيذ الخطة المحددة.. لكن قبل أن تبدأ أي فرقة عملها، سمع برتيك عبر جهاز الاتصال أصواتاً مختلطة امتزج فيها الصياح والصراخ المتألم بطلقات الأسلحة.. فصاح برتيك عبر الجهاز "ما الذي يجري عندكم يا رجال؟ ما الذي حدث؟"

أتاه صوت أحد الرجال يهتف "إنه كمين.. الجنود هاجمونا قبل أن نطلق رصاصة.."

اتسعت عينا برتيك وهو يصرخ "كيف؟.."

قاطعه أحد الثوار من خلفه وهو يقول "الجنود قادمون يا برتيك.. إنهم يتقدمون من هذا المبنى بشكل حثيث.."

نظر له برتيك بصدمة، بينما تحفز الرجال بأسلحتهم وهم ينظرون إليه بانتظار أمره.. فنهض برتيك ونظر من نافذة المبنى الذي قبعوا فيه بانتظار انتهاء عمليتهم تلك.. كانت فرقة كبيرة من الجنود قد حاصرت هذا المبنى وبدأ بعضهم بدخول المبنى بصمت.. عاد برتيك ببصره نحو رجاله وقال "يجب أن نرحل بسرعة.. لا يمكن أن نقع في

أيديهم الآن.."

تساءل أحد الرجال بتوتر "ماذا عن الرفاق؟ ما الذي جرى لهم؟"

أجاب برتيك بصرامة "سنرى ما حلّ بهم بعد أن نغادر.. لا يمكن أن نتركهم في أيدي الجنود، ولا يمكن أن نسامح من غدر بنا بهذه الطريقة.."

لم يعترض أي من رجاله كما اعتاد منهم، وإن رأى الضيق واضحاً في الأعين دون أن يهتم بها.. توجه برتيك نحو سلالم خلفية في المبنى، وسأل رجاله ممن كانت مهمته مراقبة ذلك المخرج "هل لاحظتم اقتراب الجنود من هذا المخرج؟"

قال أحد الرجال بحيرة "لقد شاهدنا بعضهم يقترب منه، لكن للعجب لم يحاول أحدهم اقتحام المنزل من هذا المخرج.."

فقال برتيك "هذا كمين إذاً.. هيا بنا.."

وأسرع برجاله ليصعد السلالم المؤدية للسطح بدل النزول بها.. وهناك، على السطح المهمل المتكدس بصناديق خاوية وأثاث قديم، أسرع برتيك نحو إحدى جوانب السطح ونظر منه للأسفل ليرى الجنود يتقدمون من المبنى بوضوح ويحاصرونه.. فأشار لرجاله الذين اجتمعوا معه على السطح وقال "لنبتعد.. التزموا الصمت لئلا نجذب انتباههم.."

أسرع أحد الرجال يحضر سلماً خشبياً ملقى على السطح، وتعاون مع الرجال لمدّه من جانب سطح هذا المبنى حتى يصل لسطح المبنى القريب منه.. ثم أسرع الرجال في استخدامه ليعبروا إلى السطح الآخر ومنه للهرب في أزقة المدينة المظلمة بعيداً عن حصار الجنود..

ظل برتيك يراقب رجاله بقلق ويراقب تحركات الجنود في الأسفل خشية أن ينتبه أحد لهم، وبعد أن تأكد من عبور جميع رجاله لسطح المبنى الآخر، أسرع يتبعهم وهو يحاول تحاشي النظر للأسفل وفقدان توازنه.. ولم يكد يتجاوز نصف المسافة حتى فوجئ الجميع بباب السطح يفتح بقوة ويخرج منه عدد من الجنود سرعان ما شهروا أسلحتهم وأحدهم يصيح "قف مكانك.."

لكن برتيك لم يتوقف وهو يتجاوز المسافة الباقية بأسرع ما يستطيع، بينما بدأ الجنود بجذب السلم الخشبي بقوة مما يعني سقوط برتيك من ارتفاع عالٍ وتهشم جمجمته على الرصيف الحجري.. فلم يكن منه إلا أن قفز بقوة ليتجاوز المسافة الباقية ويسقط بقوة على السطح ليتدحرج ويرتطم بجدار غرفة صغيرة مبنية عليه.. أسرع رجاله يعاونونه على الوقوف والأشعة تتطاير في كل مكان، وركضوا خافضي رؤوسهم نحو مخرج ذلك السطح وبرتيك يقول "الجنود ولابد قادمون لهذا المبنى وسيحاولون محاصرتنا.. يجب أن نشتتهم وإلا قبضوا علينا جميعاً.."

تشبث الرجال بأسلحتهم وهم يهبطون السلالم بسرعة ومعهم برتيك يمسك إحدى يديه باليد الأخرى متجاهلاً الألم الحارق فيها.. مواجهتهم مع الجنود حتمية.. لكن، كيف ستكون نهايتها؟..

****

في الغابة، كانت ميا تقاوم بشدة وأحد الثوار يجبرها على السير مع الآخرين المتجهين إلى مايار.. ظلت تقاومه وهو يتبع هان الذي يتقدم الجموع والبقية يسيرون خلفه سيراً حثيثاً بعيداً عن المنجم والمخبأ.. وبعد مسافة قصيرة، التقوا بالفرقة السابعة وخالد يقترب من هان فيسير معه قائلاً "تسعدني رؤيتك بخير.. الجنود قادمون فلم يبق الكثير على وصولهم للمنجم.. من الجيد أنكم تمكنتم من الهرب قبل ذلك"

فقال هان "الانسحاب الآن خير لنا من البقاء والسماح لهم بالقضاء علينا تماماً.."

انتبه لشيء في يد خالد، فنظر له بتساؤل مقطباً.. عندها رفع خالد سلاح أحد الجنود الذي استولى عليه أثناء المعركة في المنجم وقال "أنا أكثر راحة باستخدام هذا النوع من الأسلحة.. كما أن ميزتها أنها لا تصدر أصواتاً"

قال هان وهو يكمل سيره "من عادتنا ألا نستولي على أسلحة الجنود ولا نستخدمها إلا في أوقات معينه ونتخلص منها بعد ذلك.. أنت تعلم أن وجودها معنا شبهة لنا بكل الأحوال.."

غمغم خالد "لا تقلق.."

وتلفت خلفه بحثاً عن ميا، ليراها برفقة ذلك الرجل الذي كان يجذبها من ذراعها قسراً لتسير مع البقية، ثم تساءل "ما بها ميا؟ ما الذي يغضبها بهذا الشكل؟"

صمت هان للحظات وقد بدا لخالد ملامح حزن عميق على ملامحه، ثم كسر هان صمته وأوجز له ما حدث لروباك وسبب غضب ميا.. ورغم صدمة خالد، إلا أنه نظر لميا ملاحظاً الحزن في وجهها وهي تقاوم لئلا تنهار باكية.. ورغماً عنه شعر بالشفقة تجاهها وهو يفكر فيما حدث.. ثم سمعها تصيح وهي تحاول الافلات من جديد "كيف تفعلون هذا؟ إنه لا يزال حياً.. لماذا تتخلون عنه بكل جبن فارين بأرواحكم؟.. دعوني، أنا لن أتخلى عنه كما فعلتم أنتم.. لا يحق لكم جرّي بعيداً دون رغبتي.."

قال رستين الذي كان يسير قريباً بغضب "كفي عن الصياح يا ميا وحاولي تقدير ظروف الجميع.. لسنا بحاجة للفت الأنظار إلينا.. كما لا يمكننا تركك هناك لتقعي في قبضة الجنود بلا فائدة.."

لم تكف ميا عن الانفعال ومدافـَعَة من يمسك بها، فيما اقترب خالد من الرجل الذي يمسكها قائلاً "سلّمها لي.. قد اقنعها بالاستسلام والتزام الهدوء.."

صاحت ميا بغضب "قطعاً لن أستسلم.."

حدجها بنظرة صامتة محذرة، ثم أمسك ذراعها والرجل الآخر يتخلى عنها قائلاً "يا لك من فتاة متعِبة.."

وتقدم مع بقية رفاقه فيما سار خالد بشيء من البطء وميا تقول بحدة "لا تحاول أن تقنعني بنبل تصرفكم.. أنتم أوغاد جبناء.."

همس خالد قرب أذنها "لا داعي لإثارة الانتباه إليك.. تظاهري بالاستسلام والبكاء حتى أستطيع تهريبك منهم.."

اتسعت عيناها وهي تنظر له بدهشة، ثم تساءلت بهمس "هل ستعيدني إلى روباك؟"

قال خالد "أجل.. لفترة قصيرة قبل أن يعود الجنود.. والآن نفذي ما قلت لك.."

عندما التفت رستين إليهما بعد دقائق، وجد ميا مطرقة وهي تنتحب بصوت خافت.. فيما أشار له خالد بأن الأمور على ما يرام.. فزفر رستين وهو يسير مسرعاً مع البقية متتبعين هان وأحد رجال برتيك الذي يقودهم في ظلام الغابة الحالك نحو المخبأ الجديد..

أما روباك، فقد استلقى هادئاً في المخبأ، وبين غيبوبة واستفاقة كان يصيخ السمع للأصوات مغمضاً عينه باستسلام.. لم يعد بقادرٍ على رفع رأسه والانهاك قد أخذ منه مبلغه.. حتى التنفس أصبح عسيراً ويتطلب جهداً مضنياً.. ابتسم وهو يقول في نفسه "لو قضى عليّ الانفجار لكان أفضل لفتاتي.. ولما أتعَبَتْ هان والآخرين معها.. ولربما كان أفضل لي كي لا أرى دموعها تنزل بسببي.."

أطلق تنهيدة حارة وهو يشعر أن قفصه الصدري يطبق على أنفاسه، وعاد يصيخ السمع متوقعاً قدوم الجنود في أية لحظة.. لذلك، عندما سمع صوت الخطوات الراكضة تجاه المخبأ لم يحرك ساكناً وهو يغمغم من بين شهيقه "ليت لي القوة لأمسك السلاح.. ليت لأصابعي القدرة على ضغط الزناد.. تباً للغزاة.."

وصلت الخطوات إلى مدخل المخبأ، وبعد صمت قصير سمع صوتاً يعرفه يهمس "لا أحد هنا.. سنبقى فترة قصيرة ونغادر.."

أدار رأسه بدهشة تجاه المدخل، فرأى ظلاً ضئيلاً يقترب منه وصوتاً يهمس بارتجافة واضحة "روباك.."

لم يستطع روباك أن يتحدث بصوت واضح إنما خرج منه همس ضعيف "ميا؟ لماذا؟"

أسرعت إليه ممسكة بيده وقالت "لم أستطع التخلي عنك كما فعلوا.. هل تستطيع التحرك؟ أريد أخذك إلى أقرب طبيب.. لابد سنتمكن من إنقاذك"

زفر روباك مغمضاً عينه وهو يهمس "كفاك يا فتاة.. ارحلي.."

صاحت بحزن "لا أستطيع.."

حاول إقناعها من جديد لكنه كان قد استنفد طاقته وهوى في غيبوبة جديدة.. فرفعت ميا رأسها إلى خالد صائحة "ألا نستطيع حمله للمدينة؟"

قال خالد من موقعه قرب المدخل حيث يراقب "كلا.. لا تعذبيه أكثر من هذا يا ميا.. لحظاته معدودة وهو يتألم بما فيه الكفاية.."

عضّت ميا شفتها السفلى محاولة منع دموعها من الانحدار، ثم نظرت لوجه روباك الغارق بدمائه هامسة بألم "لا.. إنه لن يرحل.. لن يتركني ويرحل بالتأكيد.."

لم يعلق خالد على قولها وهو يقف عند المدخل يراقب الموقع خارج المخبأ لحظات ثم يتطلع إليها وهو يشعر بقبضة تعتصر قلبه لمرآها..

وعندما فتح روباك عينه بعد برهة من الزمن، وجدها تضع رأسه على حجرها وتمسح الدماء عن وجهه بيدها.. ورغم الظلام، رأى دمعة تنحدر من عينها وهي تتطلع إليه بأسى.. فابتسم ورفع يداً مرتجفة ليمسح دمعتها وهو يهمس بصوت متحشرج "ميا.. ارحلي.."

تدافعت دموعها لتسقط على وجهه وهي تمسك يده وتضغط عليها قائلة "لن أفعل.."

أغمض عينه هامساً "أرجوك..... الجنود....."

ضمّت رأسه إليها بقوة قائلة بصوت مرتجف "لن أفعل.."

لم تر الابتسامة التي أنارت وجهه، لكنها سمعته يقول من بين أنفاسه المتقطعة "لا تبك يا فتاتي.."

لم تقل كلمة وهي تحتضنه بقوة.. ورغم دموعها المنسابة على خديها، فإنها حاولت ألا تبكي وتظهر حزنها وهي تشعر بأنفاسه تتردد بضعف متزايد.. ولم يمض وقت طويل حتى أحست أن أنفاسه قد توقفت، ونبضه الخافت قد استقر، وهمد جسده تماماً.. عندها انتحبت بقوة وهي تطلق لمشاعرها العنان متشبثة بجسده دون أن تتخلى عنه.. لقد رحل روباك.. رحل الرجل الذي ملأ مشاعرها بأحاسيس شتى، وغدا عالمها الوحيد.. رحل وعادت هي وحيدة كما كانت منذ قُتِل أباها.. وها هي تسأل نفسها من جديد.. ماذا بقي لها؟..

لم يتدخل خالد وهو يتطلع إلى السماء الغائمة بألم.. متألم لنهاية رجل مثل روباك سخّر نفسه لقضية نبيلة، لكن العمر لم يطل به حتى ينال ما يتمناه.. ويتألم لحزن الفتاة التي تعلق بها قلبه وهو يراها كسيرة القلب.. ورغم أنه منذ رأى روباك، رغم فارق العمر بينه وبين ميا، شعر بشيء من الغيرة للثقة التي توليها إياه والابتسامة التي تمنحها له وحده.. لكنه الآن تمنى لو لم تكن هذه نهايته، على الأقل حتى لا يرى مقدار الحزن الهائل هذا من ميا.. والتي خسرت أعز شخص لديها مرتين في وقت وجيز جداً..

****

الفصـــل التاسع عشر

أمضى الثوار ما بقي من تلك الليلة في قطع الغابة للوصول للمخبأ الجديد بقيادة أحد رجال برتيك، متجنبين الجنود لئلا يضطروا للاشتباك معهم من جديد مع كل الإصابات التي أصيب بها الرجال.. وقبل أن يلوح الفجر، وصلوا للمخبأ الواقع في مزرعة منعزلة في وادٍ يقطع أحد الجبال القريبة.. وهناك، وجد هان ثوار الشمال بانتظارهم وبرتيك يجلس جانباً وقد ضمّد ذراعه التي كانت قد كسرت في مواجهتهم من الجنود.. فاقترب هان قائلاً "ما الأخبار؟ هل نجحتم في مسعاكم في مايار؟"

قال برتيك مقطباً "لا.. لقد فشلت الخطة قبل أن نبدأ.. كانوا يعرفون أماكننا بالتحديد وقد هاجمونا قبل بدء اجتماع القادة الست"

وتطلع حوله مضيفاً "وطبعاً كل هذا بفضل ذلك الجندي الذي أدخلته بيننا"

قطب هان قائلاً "خالد لا دخل له بالأمر.. إنه لم يعلم بأي تفصيلة من خططك الخاصة باجتماع القادة الست.. وحتى مخططاتنا لم يعرف بها قبل بدء العملية إلا بوقت قصير.. هناك خائن بينكم، وعليك اكتشاف أمره"

قال برتيك بعصبية "خائن؟ أنت تهذي.. رجالي لن يخونونني أبداً"

فقال هان وهو يجلس جانباً بتعب "لابد من وجود واحد.. لا تكن شديد الثقة بحيث تكون صدمتك أكبر برجالك"

بدا التوتر في أعين ثوار الشمال وهم يرمقون هان بضيق شديد، بينما قال برتيك بحدة "لا يحق لك اتهام رجالي.. أين ذلك الجندي؟ سأحقق معه بنفسي.."

واندفع بين ثوار سِن يحدق في وجوههم، قبل أن يستدير بعصبية قائلاً "أين هو؟ هل قُتل؟ سيكون ذلك أفضل له فلن أرحمه لو لم يكن كذلك"

نظر هان لبرتيك الذي عاد يجلس قريباً منه قائلاً بأمر "أين هو؟"

قال هان بهدوء "لقد رحل مع الفتاة.."

نظر له برتيك بصدمة قبل أن يصيح "رحل؟ ماذا تعني بذلك؟"

أجاب هان "تخلّفا عنا عندما رحلنا من المنجم، وكنت مشغولاً بإنقاذ أرواح رجالي لذلك لم أقدر على تأخير رحيلنا حتى أستعيدهما"

صاح برتيك بغضب "كيف تسمح بذلك؟ إنه جندي.. ألا تفهم؟ إنه يعرف كل شيء عنا.. كيف تتركه يرحل حياً؟"

قال هان بحزم "لكني أعرف موقعهما بالضبط.."

قال برتيك بحدة "حقاً؟ إذن لم لا تسترجعهما؟ وجودهما بعيداً عن الثوار خطر علينا.. الفتاة أيضاً تحمل وشم الثوار.. ولو تم القبض عليها فلا أظنها ستصمد كثيراً أمام تعذيب الجنود وستعترف بكل شيء عنا.. هل ستترك مصير الثورة بيد جندي خائن وفتاة ضعيفة؟"

ثم نهض مضيفاً بعصبية "سأرسل رجالي لاستعادتهما.. وإن رفض الجندي ذلك فلا أقل من أن نقتله.."

نهض هان قائلاً بصرامة "هما من ثواري.. لا شأن لك بهم ولا يحق لك أن تمسّهم بسوء.. فور أن يعود رجالي ويبلغوني بموقعهما بالضبط، سأذهب بنفسي لاستعادتهما.. لذلك أطلب منك عدم التدخل.."

نظر له برتيك بغيظ، ثم جلس قائلاً "كان عليك أن تتحمل نتائج خياراتك يا هان.. مادمت اخترت الوثوق بذلك الجندي، كان عليك أن تتأكد أنه سيكون أهلاً لثقتك"

لم يعلق هان وهو يرى أحد رجاله يقترب منه ويهمس بشيء في أذنه وسط نظرات برتيك المتفحصة.. ثم نهض هان قائلاً "عليّ الذهاب الآن.."

راقبه برتيك حتى ابتعد مع الرجل وهو صامت، ثم بإشارة من يده، تقدم أحد رجاله منه وانحنى نحوه.. فقال برتيك بصرامة دون أن يسمعه ثوار سِن "يبدو أن هان قد عثر على موقع ذلك الجندي.. إبعث أحد الرجال ليتبعه دون أن يلاحظه هان أو أحد رجاله.."

هز الرجل رأسه موافقاً وأسرع يبتعد لينفذ أمره.. بينما قال برتيك لنفسه مقطباً "لقد أخطأتُ عندما تركت الأمر بيدك في المرة الأولى يا هان.. لكن هذا الخطأ لن يتكرر مرة أخرى.."

****

ظل خالد صامتاً يتطلع إلى مدخل الكهف الذي التجأ إليه بعد هربهما من المخبأ القريب من المنجم تحسباً لقدوم الجنود.. كانت السماء مغطاة بطبقة سوداء من الغيوم الكثيفة بحيث لم يبدُ خلفها ضوء القمر أو أي نجوم قد تنير الليل الموحش، رغم أن الفجر لم يكن بعيداً عنهم .. مما أعطى شعوراً كئيباً على المكان وكأنها استشعرت الحزن المخيم عليهم.. التفت خالد إلى ميا ليراها منطوية على نفسها وهي تتطلع إلى فراغ المغارة بصمت، ثم علق قائلاً "من يرى بكاءك عندما كنا في المنجم لا يصدق الهدوء الذي أنت عليه الآن.."

ظلت ميا صامتة لثوانٍ وهو متعجب لأمرها، ثم قالت بخفوت وهي تغتصب ابتسامة على وجهها "لقد أخبرني روباك أن الثوار يودعون موتاهم بابتسامة.. وأريد فعل نفس الشيء له.."

وتهدج صوتها وهي تضيف بهمس "لابد أن هذا سيسعده.."

قال خالد متعجباً "لم يمض على لقائك به أسابيع معدودة.. فلماذا أشعر أنه بالنسبة لك أكبر من مجرد أحد الثوار؟"

تنهدت ميا صامتة، فسألها بتردد "أتحبينه؟"

أشاحت بوجهها جانباً دون أن تجيب.. وهو ما ساء خالد أكثر.. لم لا تنكرين هذا يا ميا؟ لم لا تقنعيني أنه مجرد شخص عزيز لديك؟.. لم لا تتفوهين بكلمة؟ ورغم موت روباك فإن خالد شعر بغيرة شديدة جعلته يقطب مشيحاً بدوره صامتاً.. وبعد فترة صمت تساءلت ميا "لماذا ساعدتني على العودة؟"

قال خالد "لأنني لم أتحمل رؤيتك تتعذبين.. بقاؤك معه في لحظاته الأخيرة أفضل من شعورك بالتخلي عنه ونبذه في أحلك اللحظات.."

قالت "لكنك أثرت غضب الثوار ولا شك.. ألا تخاف مما قد يفعله هان؟"

أجاب خالد مقطباً "هان لم يبال بمشاعرك، ولم يبال بأحد زملائه الذي أصيب أثناء محاولته إنقاذ رفاقه.. ما كان سيضره لو سارع بنقل روباك إلى أقرب مدينة لمعالجته فور إصابته؟ لماذا الاستسلام لأمر قد يمكن تفاديه؟"

عادت تتساءل "ما تقوله قد يعرضك للمشاكل مع الثوار.. من السهل عليهم طردك فأنت لا تنتمي إليهم، ولم تعد تنتمي للغزاة، فما الذي ستفعله إن تخلى عنك الثوار؟"

قال خالد متنهداً "إن حدث ذلك فما الذي يمكنني فعله حقاً؟ لقد حاولت بالفعل مساعدتهم إيماناً مني بأحقيتهم في وطنهم وعدم رضاي عن ظلم الجيش البيّن عليهم.. لكني، مع مرأى غضبك لرحيلهم ورغبتك العودة له، لم أستطع إلا أن أحقق لك ما رغبت به.."

نظرت إليه بحيرة قائلة "لماذا؟ ما الذي أعنيه لك؟ لقد أنقذت حياتك بالفعل، لكن الأمر انتهى منذ ذلك اليوم ولا شيء يجمعنا بعده"

قال خالد "لكنه لم ينتهِ بالنسبة لي.. أنا مهتم بك أنت.. منذ اليوم الذي رأيتك فيه عقلي منشغل بك.. لم أعد أستطيع العودة إلى حياتي السابقة دون أن أفكر فيك وأتمنى رؤيتك.."

صمتت ميا دون أن تعلق على قوله ودهشتها تتعاظم، فاقترب منها وأمسك يدها قائلاً بهمس "أنا أحبك يا ميا.."

تغيّر وجهها مظهراً ألماً وحزناً لم يتوقعه خالد، قبل أن تشيح بوجهها وهي تقول "لكنني لا أستطيع الاستجابة لمشاعرك هذه.. وأنت في قرارة نفسك تدرك هذا.. فلماذا تعذب نفسك معي؟"

قال وهو يشدّ على يدها "لكنني لا أستطيع التخلي عنك.. أعرف أن قلبك سلبه شخص آخر.. لكن الآن....."

فوجئ بدموعها تسيل على وجهها المتألم رغم محاولتها مقاومتها، فظل ينظر إليها بمرارة وهي تنتحب بصوت خافت.. ورغم الألم الذي يشعر به في قلبه وهو يراها تبكي لأجل رجل غيره، لكنه تمالك نفسه وهو يقول لها "ألم تقولي إنك لن تبكي بعد الآن؟ ما أسرع ما تكسرين وعودك.."

همست باكية "مازلت أشعر أن هذا حلم سينتهي باستيقاظي.. وعندما أفعل، سأراه جالساً قربي.. لا أصدق أنه رحل.. كيف يتركني ويرحل؟ بالكاد استطعت الوقوف على قدمي من جديد بمعاونته، والآن حطمني من جديد.. فكيف أستطيع أن أنساه وأقف على قدميّ من جديد؟"

همس خالد "ألهذه الدرجة تحبينه يا ميا؟"

قالت بألم "أجل.. أحبه.. ولا أملك إلا أن أحبه.. فما الذي سأفعله الآن وقد فقدته؟ كيف أتغلب على حزني وأنا أعلم أنه لن يعود لي أبداً.. لن أراه أبداً.. لن أستطيع أن أسمع صوته أو أشعر بدفء يده أبداً ما بقيت حية؟.."

لم يجبها خالد وهو يطرق مغمغماً "كم أنت قاسية يا ميا.. أحقاً لا تشعرين بي؟"

أشاحت وهي تقول بحزن "أنا متأكدة أنك لا تعرف لم أحببتني.. ربما أعجبتك ملامحي، أو تحوّل امتنانك لي لإنقاذ حياتك إلى حب، لكن حبي لروباك مختلف تماماً.. في البداية كنت أراه كمنقذ وكَمَثَل أعلى.. كنت أسعى لنيل ثقته واحترامه، وكانت تسعدني كلمة منه وتجعلني أحلق في السماء.. وكلما عرفته أكثر أحببت كل ما أراه منه"

ونظرت من مدخل الكهف للسماء السوداء مضيفة "أحببت وطني من خلاله، وكرهت الغزاة من خلاله أيضاً.. كل كلمة قالها استقرت في قلبي دون أن أدري.. وكل قناعاته أصبحت قناعاتي الخاصة دون أن أتعمد هذا.. فجأة شعرت أنني تحولت إلى إنسانة أخرى، ودهشت أكثر لما عرفت أن التحول كان من خلاله أيضاً.."

ونظرت إلى خالد بعينين دامعتين هامسة "اكتشفت أنني أمضيت كل هذه المدة أحاول اللحاق بخطاه السريعة الواثقة، وبصري معلق بظهره العريض الذي يتقدمني دائماً.."

نظر إليها خالد بحيرة، فقالت "قد لا توافقني الرأي، لكن الحب الذي لا يغيّرك هو مجرد سراب.. لمحة عابرة لن يبق لها أثر"

قال خالد بانفعال "لكنني تغيرت.. ألا ترين أنني تخليت عن رفاقي؟ ألا ترين أنني خنت وطني؟ ألا ترين أنني تركت كل ما أعرفه وألقيت بنفسي في غياهب المجهول لنصرة قضية ليست قضيتي؟ لم يكن هذا ليحدث لو لم أحبك.. لربما كنت تركت الجيش وعدت إلى الأرض، أما أن أنبذ كل شيء وراء ظهري وأنطلق في طريق سيؤدي بي إلى الجحيم، فلم يكن هذا ليحدث لولاك.."

نظرت إليه بنظرة لم يفهم مغزاها، ثم غمغمت وهي تدفن وجهها بين ذراعيها "ليت حبك هذا حرّك مشاعري تجاهك.. لربما كان حالي أسعد الآن.. لكني مع ذلك ممتنة لك، وأتمنى ألا تكرهني لرفضي قبول حبك هذا"

ظل خالد ينظر إليها بألم، ثم أسند رأسه للجدار خلفه وتأمل الجو الصامت بشدّة في الخارج..

****

في اليوم التالي، والذي غطت السماء فيه غيوم كثيفة كالليلة السابقة، خرج خالد من الكهف بشيء من الحذر وهو يتلفت في المنطقة.. ثم قال رافعاً حاجبيه "عجباً.. لقد سقط الثلج على الغابة ليلاً.."

لم تعلق ميا وهي جالسة في موقعها لم تغيّره، فتطلع خالد للمنطقة المحيطة بالكهف وقد زال تعجبه من البرودة التي ازدادت ليلاً.. ورغم جمال المنظر أمامه، إلا أن هذا لم يستطع تبديد شيء من الضيق الذي استعمر قلبه وهو يتنهد مفكراً في حاله وحال ميا.. نظر لها حيث جلست وهو متألم للسكون الظاهري على وجهها.. حتى متى ستظل صامتة؟ حتى متى ستظل حزينة وتكبت هذا الحزن في صدرها؟.. ثم قال بعد صمت "سأجول في المنطقة قليلاً لأتأكد من أننا في أمان.. لا تغادري الموقع مهما يكن.."

لم تجبه ميا أو تحرك رأسها، فاستدار وغادر وهو يخشى أن تهرب بعد رحيله.. قرر أنه لن يبتعد كثيراً وسيقوم بجولة سريعة في الأنحاء.. لم يكن المنجم يبعد عنهما الكثير، وهو يخشى أن يقوم الجنود بتفتيش المنطقة بحثاً عن أي أثر للثوار بعد أحداث الليلة الماضية.. لو وقعا في أيديهم، بعد كل ما جرى، لن يكون عقابهما مخففاً.. لكن لم يكد خالد يخطو بضع خطوات بعيداً عن الكهف حتى سمع حركة خافتة بين الأشجار القريبة منه.. فاستخرج سلاحه بتوتر وهو يتراجع ويراقب موضع الحركة، عندما سمع صوتاً يقول "لا تخف.. إنه أنا.."

ارتفع حاجباه بدهشة وهو يرى القادم يخرج من بين الأشجار متجهاً نحوه.. أما في الكهف، فقد بقيت ميا على وضعها وهي تريح رأسها على ذراعيها بصمت محاولة ألا تعود لأفكارها لما حصل في الليلة الماضية.. بقيت خالية الذهن تستمع للصمت المخيّم على المكان بعد رحيل خالد.. لم تفكر حتى بما تنوي فعله بعد الآن.. تريد أن تنعزل عن الجميع، وعن كل شيء، حتى تستطيع تمالك نفسها قليلاً والمضيّ في طريقها.. لكن أي طريق هذا؟ لن تفكر به الآن.. لن تفكر بأي شيء الآن..

سمعت خطوات تقترب من الكهف، ثم رأت خالد يدلف الكهف من جديد بعد وقت قصير من خروجه.. ورغم تعجبها، إلا أنها لم تتفوه بكلمة.. عندما سمعت صوت أقدام أخرى معه، ورأت ثلاثة رجال يدلفون الكهف خلفه..

هبّت ميا واقفة وهي تتطلع بعينين متسعتين لهان الذي تقدم منها بهدوء، وخلفه رجلان من رجاله بقيا واقفين عند المدخل بصمت متحفز.. ظلت ميا تتطلع لهان بتوجس بينما قال خالد مقطباً "كيف استدللتم على موقعنا؟"

أجاب هان "لم يكن ذلك صعباً.. لقد أرسلت رجالي يتتبعونكما بعد أن اختفيتما.. ولم يكن من العسير معرفة أنكما عدتما لموقعنا السابق.. بعدها قام أحد رجالي بتتبعكم والتأكد من موقعكم حتى قدومي.."

فقالت ميا بتوتر "لماذا؟"

نظر لها هان مجيباً "لاستعادتك طبعاً.. من الخطر البقاء وحدك مع الأحداث المشتعلة في مايار والمنجم القريب.."

تراجعت ميا وهي تنقل بصرها بين خالد وهان والرجلين، ثم أشاحت بوجهها وهي تقول "لن أعود.."

نظر لها خالد وهان بشيء من الدهشة، ثم قال هان "ما الذي تعنينه؟ أهناك ما يدعوك لرفض العودة معنا؟"

قالت بعزم وهي تواجه نظراته "أجل.. لن أعود للثوار.. لا يمكن أن أعود بعد كل ما حدث.."

ظل خالد ينظر لها متعجباً، بينما قال هان متنهداً "أما زلت تلومينا على موته؟"

قالت بصوت مرتجف "وسألومك أبد الدهر يا هان.."

نظر لها هان بشيء من الحزن وغمغم "لا أستغرب ذلك.."

خفضت ميا بصرها بصمت تام، فقال هان برفق "أنت تعلمين أننا لم نتعمد ما حصل.. أليس كذلك؟"

لم تجب أو تنظر إليه، فأضاف "أتتوقعين أنني لم أحزن لرحيل صديق عزيز عليّ مثل روباك؟ أترين أنني جاف المشاعر إزاء ما حصل؟ كنا في موقف حرج، ولديّ أرواح عشرات الثوار الذين يجب أن أحرص على سلامتها.. لو كنت وحيداً هناك، لما غادرت الموقع مهما حدث ولبقيت جواره حتى يلفظ آخر أنفاسه"

غمغمت ميا دون أن تنظر إليه "هذا لا يبرر الطريقة التي مات بها.. ما حدث كان مؤلماً جداً.. ورغم إنكاره، إلا أنني متأكدة أن روباك تألم لرحيلكم وتخليكم عنه"

تنهد هان وهو عاجز عن إقناعها، ثم قال "إذاً.. ألا تنوين العودة إلينا؟"

هزت رأسها نفياً، فعقد هان حاجبيه وهو يتساءل "ما الذي تنوين فعله؟ لا مكان تلجئين إليه، وأخشى عليك من أن يتعرض لك الجنود.."

ونظر لخالد مضيفاً "خاصة بوجوده.. لو أدركوا أنه جندي، سيحاولون استعادته بأي شكل كان، وقد يضرّك ذلك"

نظرت له قائلة "لكنني لن أعود.. ليس الآن على الأقل"

وخفضت وجهها مضيفة بصوت مرتجف "لا يمكنني أن أنساه وأنا معكم"

نظر لها هان بصمت وهو عاجز عن قول شيء.. هل يستنكر الحزن الذي تشعر به؟ كيف يطالبها بما لا تقدر عليه وهو يعلم تمام العلم ما كانت تكنّه تجاه روباك.. أدركه قبل أن تعرف به هي نفسها.. أدركه من لَفَتَاتِها وابتسامتها وتتبعها له بنظراتها أينما ذهب.. تنهد من جديد وهو يتساءل "حسناً.. لا مانع عندي من منحك بعض الوقت.. لكن كم سيدوم ذلك برأيك؟"

هزت كتفيها بغير إجابة، بينما قال خالد "سأبقى معها وسأحميها.. فلا تقلق عليها"

سادهم الصمت لفترة وجيزة وكلٌ غارق بأفكاره، ثم سمع هان ميا تقول بخفوت "أتعلم أين يعيش والديّ روباك؟"

نظر لها بدهشة شاركه فيها خالد، فأضافت وهي تنظر له "أريد الذهاب إليهما"

تساءل هان "لماذا؟"

أجابت "لأنهما لم يعلما بما جرى.. ومن المحزن أن يبقيا على أمل عودته في يوم ما.."

نظر هان لملامحها بصمت لفترة طالت، ثم قال "لا بأس.. لكنها ستكون مهمة ثقيلة عليك.. لن تساعدك على النسيان لو تدركين ذلك"

قالت بعزم "أدرك ذلك.. لكني سأذهب.."

فقال خالد "أنت واثقة من ذلك؟"

هزت رأسها إيجاباً، فقال هان "حسناً.. ربما يجدر بك ذلك.. سيكون إخبارهما بموته أفضل من تركهما ينتظران" أخبرها بموقع القرية التي يعيش فيها والدي روباك، وشرح لها أسهل الطرق للوصول إليها.. لم تكن تبعد الكثير عن مايار، ربما في منتصف المسافة بينها وبين سِن، وإن كانت في جهة أعمق بين الجبال.. بعد ذلك، قال هان "ميا.. عودتك للثوار لا غنى عنها.. سأترك لك الفرصة لفعل ما تريدينه، لكن بعدها.. سأستعيدك مهما حدث.. فلا مجال للرفض"

لم تجبه ميا أو تنظر في عينيه، فاستدار نحو خالد قائلاً "إنها أمانة في عنقك.. فهل تعتقد أنك قادر على حمايتها؟"

هز خالد رأسه موافقاً وهو يغمغم "لا تقلق.."

لم يعقب هان وهو يغادر يتبعه الرجلان اللذان قدما معه.. فوقف خالد يراقبهما للحظات قبل أن يلتفت نحو ميا التي لم تتحرك من موقعها قائلاً "أنت غريبة يا ميا.. ألم تدّعي أنك تريدين نسيانه؟"

نظرت له ميا معلقة "لو كنت لا تريد الذهاب فأنا أعذرك.. سأذهب بمفردي مهما حدث"

قطب خالد معلقاً "مستحيل.. سأذهب معك مهما اعترضت.."

فاقتربت منه ميا وهي تقول "إذاً حريّ بنا أن نبدأ سيرنا.. سيكون طريقنا طويلاً سيراً على الأقدام"

تعجب خالد من حماسها للذهاب وهي التي كانت في أسوأ حالاتها النفسية قبل قدوم هان.. ورغم أن الذهاب لرؤية والدي روباك لم يكن مما يسعد خالد، مع ما يتبع ذلك من استعادة ميا لذكرى روباك الذي لم يغب عن ذهنها بعد، إلا أنه لم يملك إلا أن يقول "حسناً.. مادام هذا ما ترغبين به.."

لفّت ميا معطفها على جسدها وهي تخرج من الكهف لتواجه نسمة باردة هبّت على الجبل الذي هم فيه مثيرة رجفة في أوصالها، لكنها بدأت سيرها وهي تمشي على طبقة خفيفة من الثلج متأملة قمم الأشجار التي غطاها اللون الأبيض كما غطى كل شيء على مدّ البصر..

****

في موقع آخر بعيد عن كل تلك الأحداث، كان أيمن عائداً من إحدى مهامه في سِن.. بعد أن غادر طائرته في موقع هبوطها، سار بتثاقل نحو مبنى النسور بعد أن قضى أغلب الليلة الماضية في طائرته يجوب الغابات والجبال القريبة من سِن، وفكره رغماً عنه يعود لخالد.. لقد أبلغه أنطونيو بأمر ذلك الاتصال، وذلك زاد من تعجبه أكثر.. مادام خالد حياً، فأين هو؟ وما الذي يفعله؟ ولماذا؟ أليس من الطبيعي أن يعود للجيش؟ خاصة أن أنطونيو قد وعده بتبرير غيابه للإدارة بحيث لا يتم إيقاع القصاص عليه بسبب ما فعله.. ذلك الشاب عجيب الأطوار.. لقد كان أيمن يجزم أنه يعرف خالداً كظاهر يده، يعرف أفكاره وخلجاته، ما يسره وما يسبب له الضيق، ما يضحكه وما يحزنه.. لكنه الآن، يشعر أنه لا يعرف أي شيء عنه حقاً.. من كان يتوقع أن تصدر مثل تلك التصرفات من خالد الذي اشتهر بمثاليته في الجيش؟.. بهدوئه وبالتزامه بالتعليمات حرفياً.. لقد تغير فجأة، غدا شخصاً آخر، فهل يمكن أن يكون تغييره نابع من ذلك الحب حقاً؟.. ذلك أمر لا يصدق حقاً..

قبل أن يدلف المبنى وهو يحمل خوذته بيده، سمع أيمن من يناديه من موقع قريب.. التفت ليرى رئيسه أنطونيو يقف قرب مروحية هبطت للتو ولا تزال مراوحها تهدر بقوة.. فاستدار أيمن ليقترب من أنطونيو بصمت وهو متعجب من هذا النداء.. بدا له أنطونيو مقطباً وبضيق شديد، ولما وصل عنده، جذبه أنطونيو بعيداً عن هدير المروحية، وبعيداً عن مرافقيه الذين وقفوا قرب المروحية.. ولما ابتعدا، قال أيمن "ما الأمر يا سيدي؟ تبدو عابساً على غير العادة.."

قال أنطونيو بعد أن تنهد بضيق واضح "لقد قام الثوار بعملية جديدة في مايار.. وكانت عملية كبيرة"

رفع أيمن حاجبيه بدهشة، لم يكن ذلك خبراً جديداً، بينما أضاف أنطونيو "لقد دمروا المنجم القريب من مايار تدميراً شبه كامل.. وسيستغرق منا وقتاً طويلاً وأموالاً طائلة لإعادته للعمل.."

فغمغم أيمن "كان يجب أن يفعلوا ذلك منذ زمن"

حدجه أنطونيو بنظرة حادة قبل أن يقول "احتفظ بآرائك هذه لنفسك، لئلا تعرّض نفسك للعقاب.. الأمر الآخر أنهم استهدفوا اجتماعاً للقادة الست في مايار، لحسن الحظ فإن أحد جواسيسنا قد أنذرنا عن ذلك الهجوم وتفادينا مصيبة كانت ستقع على رأس الجيش لو استطاع الثوار القضاء على أحد القادة.."

تساءل أيمن "وما شأني أنا لتبلغني بهذا الأمر شخصياً يا سيدي؟"

تلفت أنطونيو لحظات حوله بضيق، ثم قال "لقد أبلغ الجنود الذين كانوا في المنجم القادة بأن أجهزة الاتصالات قد تعطلت تماماً بشوشرة أصدرها الثوار، مما منعهم من استدعاء المزيد من الجنود لحماية المنجم وردّ الثوار عنه.. وقد تأكد لديهم أن الشوشرة صادرة عن جهاز اتصالات تابع لنا"

نظر له أيمن بدهشة متعاظمة وهو يغمغم "أتظن....؟"

قال أنطونيو زافراً "هذا ما دار بخلدي أنا أيضاً.. نحن نقاتل الثوار منذ زمن.. وهم لا يعرفون شيئاً عن الأجهزة التي نستخدمها وكل ما يملكونه هو تدميرها.. لكن أن يعرفوا الطريقة التي يمكنهم بها إصدار مثل تلك الشوشرة ومنع الجنود من الاتصال بالقيادة الرئيسية، لا يمكن أن يصدر هذا إلا عن جندي من جنودنا.."

قال أيمن "خالد.."

هز أنطونيو رأسه إيجاباً وقال "أجل.. لكني لم أستطع الإفصاح عن هذا عندما علمت بالخبر وتركت الإدارة تتخبط بحيرة في هذا الأمر.. يكفي ما يحمله خالد من اتهامات على ظهره.. لكني لم أتوقعه سينضمّ للثوار حقاً ويعاونهم في عملية ضدنا.."

قال أيمن بلهفة "هل تعرفون موقعه؟ ألا يمكننا استعادته؟"

قلب أنطونيو شفتيه قائلاً "لا نعلم بعد.. ما نعرفه أنهم كانوا قرب مايار الليلة الماضية.. أما اليوم، فلا نعلم.."

فقال أيمن برجاء "أرسلني يا سيدي.. أريد استعادته بنفسي.. سأحاول استعادته بأي شكل ممكن.."

قال أنطونيو بدهشة "كيف تنوي فعل ذلك؟ لم يعد يملك جهاز اتصال لنخاطبه به، ولا نعلم موقعه الحالي أو أين ينوي الذهاب لاحقاً.."

صمت أيمن مفكراً، بينما قال أنطونيو "أود استعادته أكثر منك.. لا أريد له أن يواجه تهمة الخيانة والإعدام.. لكن كيف السبيل لاستعادته؟.."

غمغم أيمن بضيق "يجب أن نستعيده.. يجب أن نفعل ذلك الآن قبل أن يعثر عليه جنود مايار أو يعلم القادة بأمره"

زفر أنطونيو قائلاً "سأفكر بطريقة.. لو يحاول ذلك الأحمق الاتصال بنا، لعرفت كيف أصطاده.."

وغادر بخطوات متثاقلة بينما وقف أيمن يفكر في كل ما سمعه.. ما الذي يدفع ذلك المجنون لمساعدة الثوار على تدمير المنجم؟ ماذا لو قبض عليه الجنود أو قتلوه؟ أيها الأحمق خالد.. متى ستفيق من هذا الكابوس؟..

****

عندما عاد رجل برتيك يحمل إليه خبر العثور على ميا وخالد، فإن عينا برتيك التمعتا كما تلتمع عينا الفهد عندما يعثر على طريدته، ونهض من موقعه وسط المخبأ وهو يشير لعدد من رجاله قائلاً "أريدكم في مهمة عاجلة.. سيأخذكم هامر لموقع ذلك الجندي، وأريدكم إحضار الفتاة، وجثة الجندي.. وإن رفضت الفتاة، فألحقوها به.."

هبّ رستين حيث جلس جانباً مع ثوار سِن هاتفاً "لا يحق لك ذلك.. لقد طلب منك هان عدم التدخل في أمرهما"

نظر له برتيك شذراً وقال "ومن تكون أنت لتتدخل؟"

تقدم رستين قائلاً بغضب "لا ترسل رجالك إليهم.. هان سيستعيدهم بالتأكيد.. كيف تفكر بقتل ميا أيضاً؟"
قال برتيك وهو يواجهه بصرامة قائلاً "أترى الأفضل أن نتركها لتقع في يد الغزاة؟ أنا أقوم بخدمة لكم، ومنها سنتأكد أن أحداً لن يسرّب معلومات عن الثوار.."
قال رستين بحدة "انتظر عودة هان، فهما سيعودان معه بالتأكيد.. هان لا يمكن أن يسمح لكم بفعل ذلك"
دفعه برتيك شيئاً ما قائلاً بحزم "لا دخل لك في هذا.. نحن في مايار، والسلطة لنا هنا.. نحن نحاول الحفاظ على أمننا وأمن بقية الثوار.. كان على هان أن يكون أكثر حكمة من إحضار جندي خائن وفتاة تقلّبها أهواؤها"
وأشار لرجاله لتنفيذ أمره قائلاً "لا تعودوا إلا بعد أن تنجحوا فيما طلبته.."
أسرع الرجال لتنفيذ أمره بصمت، بينما وقف رستين في موقعه ينظر لما يجري بغيظ ممزوج بقلق.. برتيك لا يعرف الرحمة، ولن يكون رجاله خيراً منه.. ماذا لو لم تعد ميا مع هان؟ ماذا لو لم ترضَ بالعودة مع رجال برتيك؟ لن يتورعوا عن قتلها.. ولن يستطيع هان ردعهم أبداً.. سحقاً لبرتيك..

****

بعد أن تجاوزا الوادي القريب من الكهف، وسارا عبر أحد الجبال المحيطة بالوادي، وصل خالد وميا لطريق حجري أخبرهما هان أنه يؤدي لأقرب موقع من قرية روباك.. وبعد سير قصير عليه، وجدا لحسن حظهما إحدى العربات المحملة بمختلف أصناف الخضار والفواكه، وصاحبها يعتزم أخذها لسِن لبيعها هناك.. وبعد مفاوضة قصيرة، اقتنع الرجل بنقلهما معه على العربة قريباً من القرية.. فصعد خالد قرب الرجل بينما جلست ميا في الخلف بعد أن عثرت لنفسها على موقع صغير لتجلس فيه بالكاد.. لكنها لم تتذمر وهي تتأمل المساحات الشاسعة التي غطاها الثلج بشكل متفاوت، وتستمع لتذمر الرجل الذي يعلن عن تعسر تجارته بسبب تعنت الجنود في المدينة والتي تصل أحياناً لتدمير محصوله بالكامل دون مقابل.. وبينما بقي خالد يستمع إليه صامتاً وهو يتألم لحال الشعب في كوميت الذي لا ذنب له في ذلك الغزو والذي يخدم مصالح الغزاة فقط دون اعتبار لأي أمر آخر، أما ميا فقد بقيت ساهمة تلف معطفها على جسدها اتقاء للبرد الذي لا تكاد الشمس تزيل جزءاً منه.. غير عابئة بالجوع الذي يعتصر بطنها ويعيدها لواقعها رغماً عنها..
وأخيراً وصلا لمشارف تلك القرية الجبلية الصغيرة مع انقضاء أغلب النهار، بعد أن تركهما صاحب العربة عند مفترق طرق بحيث اضطرا لإكمال بقية الطريق سيراً على الأقدام لعدة ساعات، وقد كان الرجل كريماً بما فيه الكفاية لمنحهما بعضاً من بضاعته وقد رأى الإنهاك على وجهيهما.. وقفت ميا تتأمل جوانب القرية بصمت تام وخالد قربها يتأمل ما تفعله دون أن يتفوه بكلمة.. كان يدرك المشاعر التي تعتمل في نفسها لدى رؤية مسقط رأس روباك، ولذلك، لم يصبر أن يقطع أفكارها قائلاً "هل نكمل سيرنا؟"
غمغمت ميا بهدوء "أجل.."

وسارت معه عبر الطريق الذي يقطع تلك القرية التي لا يتجاوز عدد منازلها البسيطة عشرون منزلاً، والتي تحفها الجبال من كل جانب، وتنتشر المزارع في كل مساحة ممكنة بينها.. وفور اقترابهما من أول منزل، تقدم خالد من رجل يسأله عن منزل والدي روباك، بينما بقيت ميا على صمتها وهي تتأمل زوايا تلك القرية الصغيرة.. ورغم تعجب الرجل من وجود غرباء في القرية الهادئة عادة، إلا أنه دلهما على موقع المنزل برحابة صدر.. قبل أن يسأل خالد بفضول "من تكونان أنتما؟"

أجاب خالد وهو يشكره "نحن من رفاق روباك.. لدينا رسالة مهمة لوالديه.."

وغادر والرجل يراقبه بفضول متزايد.. فقال خالد لميا "هيا بنا.. لقد عرفت موقع المنزل.."

تبعته ميا وهي تشعر بمشاعر متضاربة منذ قدومها.. رغم أنها لم تنسَ روباك، ولا تظن أنها ستنساه في يوم ما، إلا أنها شعرت بحضوره يزداد قوة في هذا المكان.. تأملت المنازل البسيطة التي يمرون بها، والوجوه التي تتأملهم بفضول، وشعور بالحسد يعتريها.. لقد عرف أولئك روباك في مرحلة من عمره لم تعرفها هي فيه.. عرفوه كشاب قبل أن يصبح ثائراً.. عرفوه كشخص عادي، وربما رأوه يبتسم ويضحك بسعادة.. بينما هي لم تره إلا وهمّ وطنه يبدو جلياً على وجهه.. تمنت في السابق لو رأته يضحك خالي البال.. لو رأته يبتسم بصدق.. لكن لم يسعفها الوقت لتحقق أمنيتها تلك..

بعد سير قصير، وقف خالد أمام منزل متطرف قائلاً "هذا هو.."

وقفت ميا وهي تتأمل المنزل بشيء من الانفعال.. فحثّها خالد قائلاً "هيا.. ألم تكوني ترغبين برؤيتهما؟"

غالبت ترددها واقتربت متأملة المنزل الصغير.. كان مكوناً من طابقين، بلون طيني ونوافذ ذات إطار أزرق.. وعلى النوافذ، رأت أصصاً قد زرعت بزهور متنوعة أعطت المنزل منظراً مبهجاً لمن يراه، وأمامه حديقة زهور صغيرة تعبق برائحة عطرة.. وقفت ميا أمام الباب أزرق اللون وهي مترددة في طرقه.. ولما طال انتظار خالد، قام بجذب حلقة في الباب وطرقه بها عدة مرات قبل أن يتراجع ليترك ميا واقفة أمام الباب..

بقيا واقفين أمام الباب وصمت يغشاهما حتى كاد خالد ييأس من استجابة أحد لهما.. ولما همّ بطرق الباب مجدداً، وجدا الباب يفتح فجأة ويخرج منه رجل متسائلاً "ما الأمر؟"

وقفت ميا في مكانها تنظر للرجل الأشيب الذي نقل بصره بينها وبين خالد قائلاً "ما الأمر؟ ماذا تريدان أيها الشابان؟"

نظر خالد لميا بتوتر منتظراً أن تبدأ الحديث، لكنها ظلت تحدق في وجه الرجل المتغضن بلحيته البيضاء وشعره الثائر تحت قبعته، ثم رأت امرأة عجوز تخرج من خلفه وهي تتساءل بقلق "ما الأمر؟ ماذا يريد هذان؟"

ثبتت ميا بصرها على وجه الأم الذي يبدو شديد الطيبة وخصلات شعرها البيضاء التي خالطت سواده، بينما تنحنح خالد قبل أن يقول "أهذا منزل روباك؟"

نظر له الرجل بتوتر كبير بينما اتسعت عينا المرأة وهي تضع قبضتها على صدرها وتنظر لهما بشيء من التوجس.. بينما قال الرجل "أجل.. أنا والده.. هل أنتما قادمان من عنده؟"

رغماً عنها، بدأت الدموع تتدافع من عيني ميا حتى بدا وجهاهما الذاهلان غائماً قبل أن تخفض وجهها وتنتحب حيث وقفت.. عادت لها ذكرى تلك اللحظة التي رأت فيها روح روباك تفارق جسده بكل ما تحمله من ألم وحزن مرير.. لم تعي ما يجري حولها وهي تسمع خالد يحدث الرجل بصوت عائم، وترى من بين الدموع الرجل يستدير نحو زوجته التي بدا أنها على وشك السقوط أرضاً بصدمة قبل أن تبدأ في البكاء بدورها وهي تتشبث بزوجها الذي أشاح بوجهه وهو يحاول كبت دموعه وإن فرّت إحداها من عينه لتسيل على خده المتغضن..

شعرت ميا بخالد يربت على كتفها ويحاول تهدئتها لتكف عن بكائها بكلمات مبهمة.. لكن رغم محاولتها مسح الدموع التي تدفقت، فإن ما سال على خدها فاق ما مسحته.. لو كان روباك هنا، لضربها ضربة خفيفة على رأسها حانقاً من بكائها باستسلام.. وربما وضع يده على رأسها وهو يطلب منها أن تكون أكثر قوة.. أو ربما ضمّها وهو يرجوها أن تكف عن بكائها الذي يؤلمه.. آه يا روباك.. لم رحلت الآن؟..

****

بعد أن هدأت ميا واستجمعت شتات نفسها، وبعد أن ابتلعت الأم صدمتها بعسر كبير واكتفت بدموع صامتة، جلس الأربعة في منزل والدي روباك اللذان جلسا جانباً وحزن جليّ على وجهيهما.. وبعد صمت عمّ المكان، قال الأب بلهجة مريرة "كنت أعلم أن هذه ستكون نهايته.. إنه متهور.. لا يمكن ألا يجازف بحياته لأدنى سبب"

قالت ميا بحزم "لقد جازف بحياته لهدف سامٍ.. لأجل وطن حر.. وعليك أن تفخر بأن لك ابناً مثل روباك"

نظر الرجل لها قائلاً بحزن "ما فائدة الوطن الحر إن لم يشهده روباك بنفسه؟ يا حسرةً على ابني الذي فقدته مرتين.. مرة عند رحيله عنا، ومرة عند موته دون أن نراه ولو للحظة.."

مسحت الأم دموعها بيد مرتجفة وهي تقاوم البكاء من جديد، ثم التفتت لميا وخالد قائلة بصوت متهدج "هل كنتما تعرفانه؟ أخبراني عما فعله منذ انضمامه للثوار.. أريد أن أعرف ما الذي فعله هناك.. هل كان سعيداً؟"

نظر خالد لميا التي بقيت صامتة للحظات.. ثم بدأت تحدثهما عن الأيام التي شهدتها مع روباك.. عن كل ما رأته، وكل ما سمعته منه.. كل ما حفظته في قلبها من اللحظات التي عاشتها معه، والتي تعود لها الآن كأنها قد حدثت منذ دقائق فقط.. استمع لها والداه بلهفة وكأنهما يحاولان الاستعاضة بحديثها عما فقداه، بينما بقي خالد قريباً يراقب ميا وهي تتحدث عن غريمه.. رغم حزنها قبل لحظات، فإن وجهها قد أنار وهي تتحدث عنه.. شعر من حديثها المفصّل أنها كانت تراقب روباك في كل لحظة.. شعر أنها أمضت الشهر الماضي تلاحق روباك بعينيها، وتحفظ كل كلمة قالها بقلبها.. ورغماً عنه، ملأته مرارة مع غصة شديدة وهو يشهد ما أقنعه أن ميا لن تنسى روباك أبداً.. كان خالد مقتنعاً أن الأيام كفيلة بأن تنسيها ذلك الحب.. حاول إقناع نفسه أنه يملك كل الوقت لاستعادتها وكسب حبها له.. لكن الآن، مع نظراتها الحانية وهي تتحدث عنه.. مع صوتها الملهوف وهي تستعيد ذكراه.. أيقن أنه قد فقدها تماماً.. يئس من كسب حبها، ويئس من أن يكون بالنسبة لها شخصاً مهماً كما كان

روباك.. ورغم موته، فإن خالد قد أيقن أنه، في منافسته لروباك، قد خسر هذه الجولة أيضاً.. خسر جولته الأخيرة..

****

الفصـــل العشرون

خرجت ميا من منزل والدي روباك بعد أن طال مكثها هناك وقد استغرقت في حديث طويل عنه، دون أن تقدر على مقاومة نظرات اللهفة الممزوجة بحزن من عيني والديه.. وبعد أن تركتهما، بحثت بعينيها خارجاً رغم الظلمة التي غطت الجبال حولها مع قرب حلول الظلام.. حتى رأت خالد يجلس تحت شجرة قريبة من المنزل، غير عابئ بالبرد المتزايد والثلج الذي غمر الأرض تحته.. اقتربت منه ميا متعجبة وتساءلت "ما بالك؟ لقد غادرتنا فجأة ولم تعد.. ظننت لوهلة أنك قد تخليت عني وغادرت القرية كلها"

نظر لها خالد بهدوء قائلاً "لا.. لقد شعرت بأن الجو خانق في المنزل، ولم أطق البقاء هناك لفترة طويلة.."

تزايدت دهشتها وقالت "وهذا البرد المتزايد أفضل بالنسبة لك؟"

لم يعلق خالد بكلمة، فسألته بشيء من القلق "هل حدث شيء؟"

تنهد خالد متأملاً القرية الصغيرة التي أضيئت بأنوار ضعيفة في منازلها، ثم غمغم "لقد كنت أحمل أملاً بأن الأمور قد تغدو أفضل غداً.. لكن الآن، تيقنت أن ذلك الأمل قد مات في مهده ولا فائدة ترتجى منه.."

قطبت ميا قائلة "ما هذه الإجابات الفلسفية؟ ما الذي جرى لك؟"

نهض خالد وهو يقول "لا شيء.. والآن.. ما الذي سنفعله؟"

بدا كأنه يغلق ذلك الباب لكي لا تتحدث فيه، فتجاوزت الأمر وهي تقول "لا أظنني سأبقى هنا أكثر من ذلك.. أريد أن أغادر القرية"

قال "إلى أين في هذا الوقت المتأخر؟"

علقت "لقد عرض علىّ والدي روباك أن نقضي الليلة عندهما، لكن لا أظن أنني سأطيق ذلك"

لم يعلق خالد وهو يقول "هل تملكين موقعاً معيناً تريدين الذهاب إليه؟"

هزت رأسها نفياً قائلة "لا.. لكني لن أذهب للثوار مجدداً.. ولو بقيت هنا، فقد يحاول هان استعادتي من جديد"

ثم نظرت لخالد مضيفة "وأنت.. ماذا ستفعل؟"

قال خالد وهو يرفع بصره للسماء التي بدت باهتة لناظريه رغم ألوان الغروب المذهلة "وما الذي يمكنني فعله؟ أنا غريب هنا.. لا مكان لي لأذهب إليه، ولن يضمّني أي جانب بعد كل ما فعلته.. لا الجيش يريدني، ولا الثوار يريدونني كذلك.."

ابتسمت ميا بمرارة قائلة "لستَ الوحيد الذي يشعر بأنه غريب.. لقد فقدتُ كل من أعرفهم في هذا الكوكب.. لا أملك مسكناً ولا أقارب ولا أصحاب.. أينما ذهبت فأنا غريبة.. ولا أعلم حتى متى سيدوم ذلك"

التفت خالد إليها قائلاً "لكنني معك على الأقل.. لن أتخلى عنك أبداً"

ابتسمت له مغمغمة "وجودك معي، للدهشة، يريحني.. فهذا خير من البقاء وحيدة.. لكن لا أريد استغلالك أكثر مما فعلت.."

رغم أنها كانت المرة الأولى التي تبتسم له ميا، كما تمنى دائماً، إلا أن ابتسامتها قد أثارت فيه مرارة وهو يقول "أيُسمّى السماح لي بالبقاء قربك استغلالاً؟.. إذاً أنا سعيد بهذا الاستغلال"

فقالت متبرمة "أنت تبالغ في وصف الأشياء.. ما الذي ستستفيده من البقاء معي؟ أنت تعلم أني لا أستطيع استجابه حبك أبداً"

قال خالد بهدوء "لم أطلب منك ذلك.. لكني كما قلت لك لا أملك مكاناً أذهب إليه.. لذلك سأبقى معك في الفترة الحالية"

وسار في الطريق المؤدي بين منازل القرية والذي يعود بهما من حيث أتيا.. فوقفت ميا تنظر له وهي محتارة فيما يجري بينهما.. هل تبقى معه حقاً؟ هل تتركه؟ وإلى أين تذهب؟ وكيف تأمن على نفسها وهي وحيدة؟ لكن بقاءها قرب خالد وهي تعرف مقدار حبه لها يعدّ تعذيباً له واستغلالاً لحبه، وهي تكره هذا..

تنهدت وهي تترك كل ذلك للأيام لتفصل فيها.. وأسرعت خلفه وهي تحاول الحديث معه بصورة عادية قائلة "ماذا نفعل الآن؟ ألا يجب أن نجد وسيلة للترحال؟ ثم إلى أين سنتجه؟"

قال خالد "أنت أعلم مني بالكوكب.. الأفضل أن نتجنب المدن الكبيرة، ونختار موقعاً بسيطاً يمكننا البقاء فيه دون لفت الأنظار.. أم أنك ترغبين بأن نظل مرتحلين حتى لا نقع في قبضة الثوار أو الجيش؟"

قالت ميا مفكرة "لا أعلم.. لنبحث عن وسيلة لترحالنا، ثم نقرر ما سنفعله.."

فقال خالد "ربما نعثر على واحدة عند أهالي القرية.."

تساءلت ميا بدهشة "كيف؟ بأي شيء ستقايضها ونحن لا نملك مالاً؟"

أجاب خالد "قد لا أملك مالاً.. لكني أملك هذا"

رأت في يده سلاحه الذي أحضره معه، فقالت بشك "وما الذي قد يجعل قروياً يرغب بسلاح الغزاة؟"

أجاب خالد هازاً كتفيه "قد يحصل على مبلغ إن قام ببيعه.."

فقالت ميا "إن كنت واثقاً مما تفعله"

ثم أضافت "سأنتظرك على التلة المرتفعة عند مدخل القرية"

سألها بدهشة "ما الذي ستفعلينه هناك؟"

ابتسمت شيئاً ما مجيبة "أحب أن ألقي نظرة أخيرة على القرية قبل أن نغادرها.."

أدار خالد وجهه بعيداً بصمت للحظة حاول فيها ابتلاع انفعاله وهو يرى تعلق ميا بهذا المكان الذي لا شك يذكرها بروباك في كل ثانية، ثم قال "كما تشائين.. سأعود سريعاً"

وابتعد متجهاً نحو جمع من القرويين وقفوا في جانب المكان.. فاستدارت ميا وحثّت الخطى نحو مدخل القرية لتقف على تلك التلة المطلة على الوادي حيث تقبع المنازل المتفرقة.. أدارت بصرها بصمت تحاول حفظ تفاصيل المكان قبل مغادرتها للمرة الأخيرة.. تنهدت وهي تتخيل روباك يمشي في أزقة القرية وشوارعها البسيطة، وغمغمت لنفسها بصوت متهدج "ليتك كنت معي اليوم يا روباك.. ليتك أتيت لرؤية والديك، وزيارة قريتك الجميلة هذه.. لكن، فات أوان كل هذا.."

استمعت للصمت الدائر في المكان وهي تحاول التغلب على انفعالاتها المختلفة، عندما سمعت حركة خافتة خلفها جعلتها تستدير بدهشة.. ومن بين الأشجار القريبة، رأت ميا ثلاث رجال متلفعين بالمعاطف التي تخفيهم وتلقي ظلالاً على وجوههم، فتراجعت ميا خطوة وهي تنظر بدهشة وشيء من الذعر لهم وهم يتقدمون منها ويقفون أمامها.. ثم قالت وهي تراهم يحدقون بها باستمرار "من أنتم؟"

تقدم أحد الرجال خطوة نحوها وهو يقول بصوت أجش "أنت ميا.. أليس كذلك؟"

تزايد ذعرها وهي تتساءل بحذر "من أنت؟ وكيف تعرفني؟"

قال الرجل وهو يزيل غطاء المعطف عن رأسه "أنا من رجال برتيك.. لقد رأيتك مرة مع هان، وأذكرك تماماً"

تعرفت ميا على وجهه بعد أن رأته بوضوح.. كان بالفعل أحد الرجال الذين رأتهم جوار برتيك في المرات القليلة التي التقى فيهما بهان.. وإن لم تعرف اسمه ولا ما يريده منها.. فعادت تسأله "وما الذي يريده برتيك مني؟"

تلفت الرجل حوله قائلاً "أين ذلك الجندي الذي كان يرافقك؟ هل انفصل عنك؟"

قالت مقطبة "وما الذي تريده منا؟ فسّر سبب حضورك إليّ حالاً، بل كيف علمت بموقعي بالتحديد؟ هل أخبركم هان به؟"

نظر إليها الرجل بنظرة حادة وقال "نحن ثوار الشمال.. هذه البلاد كلها هي عين لنا.. وكل شخص لا يتوانى عن مساعدتنا فيما نطلبه.."

قالت ميا "ما دمتم قد بذلتم جهداً للبحث عني والوصول إليّ رغم مشاغلكم العديدة، يعني هذا أن ما تريدونه أمر مهم.. فما هو؟"

نظر لها الرجل بصمت للحظات طالت وتوترها يزداد.. ثم قال بلهجة حيادية "برتيك يأمرك بالعودة للثوار.."

نظرت للرجل عاقدة حاجبيها، ثم قالت بصرامة "برتيك ليس رئيساً لي.. رئيسي هو هان، وأنا قد انفصلت عن الثوار حالياً.."

قال الرجل بابتسامة "أتظنين الأمر سهلاً؟ أنت مطالبة بالعودة للثوار، فلا يمكنك التنصل من هذا الأمر أبداً"

قالت بشيء من الحدة "لماذا هذا الإصرار؟ أخبرتك أنني لن أعود.. وهذا نهائي"

قال الرجل بصوت صارم وهو يتقدم منها "من قال إن الخيار لك؟ هذا أمر.. وستنفذينه سواء شئت أم أبيت"

تراجعت ميا عدة خطوات بعيداً عنه وهي تقول بعصبية "لماذا؟ ما الذي تريدونه مني بعد؟"

أجاب الرجل "أنت تعرفين الكثير من أسرارنا.. تعرفين وجوهنا، وأسمائنا.. تعرفين مخابئنا، وخططنا.. أتظنين أن من الحكمة ترك شخص مثلك يهيم في هذا البلاد وعلى عنقك شعار الثوار؟ لو قبض عليك الجنود، وهذا حتمي، فاستجواب صغير منهم سيجعلك تُفشين أسرارنا كلها أمامهم.. لا يمكننا تعريض الثورة للخطر بسبب أهواء فتاة مثلك.. عودي معنا بصمت.. وإلا....."

قالت بحدة "وإلا ماذا؟"

هز الرجل رأسه مجيباً "هل يجب أن أقولها لتفهمي؟ نحن مطالبون باستعادتك مهما يكن الأمر.. وفي حال أصررت على الرفض، فلا أقل من أن نقتلك لنضمن عدم سقوطك بيد الأعداء.."

نظرت له بصدمة شديدة أعجزتها عن الحديث للحظات طويلة، قبل أن تقول بصوت مرتجف "أهذا أمر هان؟"

صمت الرجل للحظات قبل أن يقول بهدوء "هان قد وقع في قبضة الجنود.."

تزايدت صدمتها وهي تشعر بذعر شديد لما حدث.. هان وقع في قبضتهم؟.. كيف؟ وماذا فعلوا به؟.. سمعت الرجل يضيف "بعد استهدافنا قتل القادة الست، فإن جهود الغزاة في البحث عنا والقبض علينا قد اشتدّت وصارت أكثر خطورة.. وقد وقع هان ومن معه في قبضتهم بعد عودته من لقائك.."

عضت ميا شفتها السفلى وشيء من الندم يعتريها لأنها سبب في القبض على هان، بينما أضاف الرجل "برتيك لا ينوي تركه في قبضتهم.. وسيعمل على إنقاذه بأسرع ما يمكن.. والآن عودي معنا بصمت ودون مقاومة"

ثم قال وهو يعود للتلفت "لم تخبريني.. أين ذلك الجندي؟"

قالت بشيء من الحدة "تركني منذ فترة.. لماذا؟ ما الذي ستفعلونه به أيضاً؟"

قال الرجل ببساطة "سنقتله بالطبع.. لا يحق لأحد من الغزاة البقاء حياً في كوميت.. أليس كذلك؟"

قالت ميا باعتراض "لكنه لم يعد منهم.. لقد مد لنا يد العون مرات عدة، وسيفيدكم في ثورتكم حقاً"

قال الرجل "لا يمكن أن نضمنه.. سنقتله، ونتخلص من خطر وجوده بيننا"

تراجعت ميا من جديد وهي تقول بحزم "لن أعود معكم.. أخبروا برتيك بهذا.. وذلك الجندي قد رحل منذ مدة.. لن تجدوه في....."

قاطعها الرجل "أليس ذلك هو؟"

استدارت ميا بذعر لترى خالد يقترب منهم مسرعاً وقلق بادٍ على وجهه بعد أن لمح الرجال قربها.. فصاحت به ميا "اهرب أيها الأحمق.."

لكنها وجدته يستلّ سلاحه وهو يركض تجاهها، فصرخت "سيقتلونك.."

وجدت الرجل خلفها يمسكها بقوة ورفاقه يشهرون أسلحتهم وهو يقول لها "وفّري جهدك.. سنقتله في كل الأحوال.."

وجدت الرجلين الآخرين يتقدمان أمامها ويطلقان رصاصاتهما نحو خالد الذي رمى نفسه جانباً وتدحرج حتى اختبأ خلف بعض الصخور التي منعت عنه الرصاص.. ثم أخرج سلاحه ليطلق دفقتين من الأشعة على الرجلين لم تصب هدفها، قبل أن يتسلل من بين الصخور التي شكلت له حماية من الأعين ليدور خلف الرجال بصمت..

بينما قال الرجل الذي يمسك بميا "تقدما ببطء وكونا حذرين.. وأصيباه في مقتل دون إبطاء.."

أطاعه الرجلان وهما يتقدمان من الموضع الذي كان خالد عنده في البدء، بينما قالت ميا بصوت محتد "لم تفعلون ذلك؟ لو أنكم تركتمونا، لما سببنا لكم أي أذىً.. كل ما نريده أن نبقى بعيداً عن...."

قاطعها الرجل قائلاً بصرامة "هذا يكفي.. لا أريد سماع تبريراتك.."

لم يكد ينهي جملته حتى فوجئ بالأشعة تنطلق من موقع آخر على يسارهما لتصيب الرجلين في أيديهما وساقيهما، لكن هذا لم يدفعهما للتخلي عن أسلحتهما.. فاستغلت ميا صدمة الرجل لتعضّ يده بقوة حتى أدمتها، ولما صاح بألم وهو يطلقها، أسرعت تتراجع للموضع الذي ظهر فيه خالد وهي تستشعر طعم الدم في فمها..

استدار الرجال الثلاثة نحو خالد الذي وقف وميا خلفه وهو يهمس لها "اختبئي خلف أقرب صخرة قبل أن تشتعل الأمور.."

لم تعلق وهي ترى الأصابع متحفزة على أزندة الأسلحة وخالد يقول وسلاحه موجه للرجال أمامه "يحسن بكم أن ترحلوا قبل أن تزداد الأمور سوءاً.. وهذا ليس مجرد تحذير.."

قال أول الرجال بسخرية "يزداد سوءاً لنا أم لك؟.."

وكأنه أطلق شرارة البدء بقوله ذلك، إذ أطلق الثلاثة رصاصاتهم في تزامن واحد غمر المنطقة حيث يقف خالد بشكل كامل.. لكن، ولأنه توقع ذلك ثوانٍ قبل أن تنطلق أول رصاصة، فإن خالد دفع ميا بذراعه وقفز متجنباً ذلك الموقع ليسقط معها خلف صخور حرص على البقاء قربها عندما واجه الرجال.. سمعا صوت الرصاصات وهي ترتطم بالصخور خلفهما وميا تهمس "سيقتلوننا ولاشك.."

لم يعلق خالد وهو يستمع للصمت الذي ساد الموقع فجأة.. فشحذ أذنيه وهو يسمع الخطوات الخافتة التي تدوس الثلج بخفة، ولما شعر باقترابها أخرج ذراعه فجأة بالسلاح وأطلق عدة طلقات عشوائية قبل أن يعيدها لجانبه من جديد وهو يسمع صيحة متألمة وصوت جسد يهوي أرضاً.. فتجرأ على أن يطلّ من فوق الصخرة التي يختبئ خلفها، عندما قابلته رصاصتان ارتطمت إحداهما بالصخرة بصوت عالٍ بينما مرت الثانية قرب أذنه بأزيز قوي.. اختبأ خالد بسرعة دون أن يفوته رؤية الجرح الذي أصاب كتف أحد الرجال الذين اقتربوا منه، بينما سقط آخر على ركبتيه وهو يتلوى ألماً بعد أن أصيب برصاصة في جانبه..

بقي الثالث سليماً دون إصابة وهو يصيح "هذه محاولات بائسة أيها الجندي.. استسلم خيراً لك، وإلا فجرنا رأس الفتاة أمامك قبل أن نقتلك"

نظر خالد بقلق تجاه ميا، فأسرعت تقول بحزم "لا تعبأ به.. سيقتلونني في كل الأحوال، فأنا لن أرضخ لهم مهما يكن"

غمغم خالد وهو يمد يده نحو عنقها "مهما يكن، فأمامنا فرصة وحيدة معهم"

رأته ميا يقبض على قلادة صغيرة كانت ترتديها على الدوام، وهي عبارة عن سلسلة تنتهي بدائرة لامعة تحمل نقشاً لوردة بلون أزرق، فأسرعت تفكها من عنقها وتناولها لخالد دون أن تدرك ما يبغيه منها.. ثم وجدته يرفعها قليلاً ليرى عبر سطحها الخلفي اللامع الرجال الذين بدأوا بالاقتراب من جديد.. فعلقت ميا بقلق "لا تحاول أن تخرج يدك من جديد هذه المرة فسيصيبونك"

لكنه عوضاً عن ذلك سدد سلاحه لتلك القلادة وهو يوازن ذراعه بدقة تامة بعد أن أجرى حساباته في عقله، ثم أطلق عدة طلقات من سلاحه لتنطلق الأشعة فتصيب السطح اللامع للقلادة ثم ترتد عنه بزاوية حادة فتصيب أقرب الرجال في رأسه وترديه أرضاً.. وقبل أن يدرك الرجلان الباقيان ما جرى كان خالد يدير القلادة ويطلق سلاحه من جديد فيصيب قائدهم إصابة مميتة في صدره ألقته بدوره جثة هامدة.. ألقى خالد القلادة على الثلج بعد أن لسعته الحرارة التي اكتسبتها من الأشعة هامساً "بقي واحد.."

لكن الرجل الثالث، رغم إصابته في جنبه، قد تدارك نفسه ووقف وهو يطلق رصاصة على سلاح خالد الذي بدا

من خلف الصخرة بوضوح.. أصابت الرصاصة سلاحه لترميه بعيداً دون أن تجرح يده لحسن حظه، وعاد الرجل يرفع السلاح ليصوبه نحو رأس خالد وهو يقترب من موقعهما.. لكن خالد الذي كان راكعاً خلف الصخرة قبض على حجر بحجم الكف من الأرض ورماه بكل قوته نحو الرجل لتصيبه في وجهه بقوة.. صرخ الرجل وهو يتراجع خطوتين بألم، فهبّ خالد نحوه وارتمى عليه ليسقطا أرضاً، قبل أن يلكمه خالد في وجهه بقوة ويستولي على سلاحه.. ثم وجه السلاح نحو وجه الرجل وهو يقول "إن وعدتني بأن ترحل دون أن تحاول إيذاءنا، فلن أقتلك.. أنت مصاب بما يكفي.."

هز الرجل رأسه موافقاً وهو يضع يده على وجهه المتألم من أثر الضربة، فتراجع خالد خطوات ليسمح له بالوقوف وقال "إذن ابتعد.. ولا تُرني وجهك مرة أخرى.."

فوجئ بالرجل يقفز نحوه غير مبال بالسلاح الموجه لصدره، لكن خالد الذي توقع هذا الغدر منه لم يتردد هذه المرة في إطلاق رصاصة نحو الرجل أصابته في عنقه ليهوي أرضاً على الفور بحشرجة خافتة قبل أن تهمد حركته تماماً..

تأمل خالد الأجساد الملقاة أرضاً وضيق شديد يعتريه.. لم يكن يحب القتل، ولا حتى قتل الجنود الذين يعيثون الفساد في هذا الكوكب.. فما بالك بقتل الثوار الذين يسعون لتحرير وطنهم من ظلم الغزو؟ حتى لو كانوا يحاولون قتله وقتل ميا، وحتى لو كان السبيل الوحيد للنجاة بعنقيهما هو قتلهم، لكن لا يمكنه أن ينكر المرارة التي تغلبه مع مرآهم وهم جثثاً هامدة..

التفت نحو ميا التي لاحظ صمتها منذ مدة، فرآها تقبض على سلاحه الذي سقط جانباً بقوة وهي تنظر له ساهمة.. فاقترب منها متسائلاً "ما الأمر يا ميا؟"

التفتت إليه بعد برهة وكأنها لا تراه حقاً، ثم قالت بصوت خافت "خالد.. هل أطلب منك أمراً؟"

كانت تلك هي المرة الأولى التي تلفظ فيها اسمه أمامه.. ورغم بساطة قولها، إلا أن خالد شعر بنفضة خفيفة في قلبه دفعته ليقول بانفعال "طبعاً.. اطلبي ما بدا لك"

رفعت السلاح بيدها وهي تقول "أريد التخلص من هذا الوشم"

نظر خالد لوجهها لحظات دون أن يستوعب ما قالته، ثم قطب قائلاً "ماذا تعنين؟"

قالت وهي تمد السلاح إليه "أسلحة الغزاة تسبب جرحاً لا ينزف.. لو استخدمته بشكل سطحي، يمكنك أن تزيل هذا الشعار من عنقي دون ضرر كبير.. ولن أكون بحاجة لمعالجة إلا حرق سطحي"

قال خالد باستنكار "هذا جنون.. لا يمكنني فعل ذلك أبداً"

نظرت في عينيه وهي ترى الرفض واضحاً فيهما، ثم أدارت السلاح نحو عنقها قائلة "إذن سأفعل ذلك بمفردي"

جذب خالد السلاح من يدها بقوة وهو يقول بحدة "كفي عن هذا الجنون يا ميا.. ما الداعي لهذا الإصرار الآن؟ لنذهب للمدينة، لابد أن نجد من يمكنه أن يزيل هذا الشعار بأمان دون أن يسبب لك أي ضرر"

قالت ميا مشيحة بوجهها "أنا لن أعود للمدينة.. سيحاولون إعادتي للثوار، ولا أريد ذلك البتة"

نظر لها خالد للحظات قبل أن يغمغم برفق "ماذا جرى لك؟ أصرت تبغضين الثورة؟"

قالت بصوت مرتجف غضباً "لا أبغض الثورة ذاتها.. لكني لا أستطيع أن أسامحهم على نبذهم روباك بتلك الطريقة.. سأظل أذكره وأذكر ما عاناه كلما نظرت في وجوههم، وسيزيد كرهي لهم مع الوقت.. أريد أن أنسى كل شيء، عسى أن تزول المرارة التي تملأ حلقي.."

ثم نظرت له بعزم قائلة "إن لم تساعدني بإزالته، فسأفعل ذلك بنفسي.."

زفر خالد مغمغماً "عنيدة.."

ثم رفع بصره إليها قائلاً "حسناً.. لكنك ستتألمين.."

قالت "لا يهم.."

وأشاحت بوجهها وهي تبعد شعرها عن عنقها لتكشف موضع الوشم في إشارة صامتة، عندها رفع خالد السلاح وهو يشعر بتوتر كبير جعله يقبض على السلاح بقوة.. كان واثقاً أنه، بمهارته، لن يسبب لها أي جرح بليغ أكثر مما يستلزمه لإزالة الوشم، لكن أن يسبب لها الألم بإرادته كان أكبر من قدرته على التحمل.. زفر من جديد ثم صوب سلاحه بإحكام وهو يقول لها "لا تتحركي.."

ظلت ميا واقفة بثبات دهش له خالد وكأنها لا تواجه فوهة سلاح، وبعد تردد طال، ضغط خالد الزناد بخفة ليطلق طلقة صغيرة من الأشعة مرقت قرب عنق ميا ولم تمسّه إلا بشكل خفيف في موقع الشعار بالضبط.. ورغم ذلك، فإن ميا سقطت أرضاً على ركبتيها وهي تتلوى ألماً وإن عضّت شفتها السفلى بقوة لئلا تصرخ أو تصدر صوتاً وهي تغمض عينيها بشدة.. فأسرع خالد يرمي سلاحه وهو يركع قربها قائلاً بهلع "هل أنت بخير يا ميا؟"

غمغمت بصوت خافت "لا تقلق.. أنا بخير.."

وأبعدت يدها عن رقبتها ليرى في موضع الشعار حرقاً واضحاً وقد احمرت البشرة حوله بشدة.. لكن لحسن الحظ فقد نجح الحرق في إزالة معالم الوشم كلية مما سيوفر على ميا معاناة جديدة لإزالته..

سمع خالد ميا تغمغم "شكراً لك يا خالد.. أنا مدينة لك.."

أسرع خالد يحمل قبضة من الثلج ويضعها على موضع الحرق وهو يقول بتوتر "تشكرينني على إيذائك؟ أنت تهزئين بمشاعري"

لم تعلق ميا وهي تغمض عينيها بقوة متحملة الألم أقصى ما تستطيع، ثم نهضت وقالت "الآن تحررت من قبضة الثوار.. أرجو أن يقتنعوا أني لن أعود لهم، فلا أريد مواجهتهم مرة أخرى.."

سمعوا خطوة خافتة خلفهما، فالتفتا بتوتر ليريا رجلاً آخر يرتدي ذات المعطف الذي يرتديه ثوار الشمال بالغطاء الذي يلقي ظلاله على وجوههم وهو يلقي نظرة مذهولة على الأجساد التي تكدست أمامهم.. وقبل أن يستوعب خالد أو ميا سبب وجوده بعد القضاء على الآخرين، كان الرجل قد رفع سلاحه وأطلق بسرعة رصاصة نحو خالد الذي حاول تفاديها بالارتماء جانباً وهو يدفع ميا لتسقط بدورها بعيداً عن مرمى رصاصاته.. ثم رأت ميا خالد يرفع صخرة صغيرة من الأرض ويقذفها بقوة نحو الرجل أصابته في وجهه وألقته راكعاً أرضاً يتلوى ألماً.. بينما نهض خالد بسرعة ليحمل سلاحه الملقى أرضاً ويطلق أشعته على يد الرجل الممسكة بالسلاح.. فألقى الرجل

سلاحه وهو يقبض على يده بألم، فيما وجّه خالد سلاحه نحو وجهه وهو يقول له بصرامة "ابتعد وعد لرئيسك برتيك.. أخبره أن ميا لم تعد من الثوار ولن تعود لهم.. وإن فكرت بالعودة فسأقتلك هذه المرة.."

نهض الرجل ببطء بينما حرص خالد على إبعاد سلاح الرجل نحو ميا التي حملته وهي تقف بتحفز.. ظل الرجل ينظر لخالد الذي صرخ به "ابتعد الآن.."

فاستدار الرجل وعاد من الطريق الذي أتى منه راكضاً وهو يقبض على يده المصابة.. بينما وقف خالد يراقبه حتى تأكد أنه لن يعود، عندها انثنى على نفسه شيئاً ما وميا تسرع نحوه قائلة بقلق "ما بك؟ هل أصبت؟"

لم يجب خالد وميا هلعت لرؤية بقعة الدماء التي انتشرت في جانبه الأيمن، بينما تحامل خالد على نفسه وهو يقف قائلاً "تباً.. لماذا حدث كل هذا؟ يا له من قاسٍ رئيسهم ذلك.."

قالت ميا وهي تسنده "أنت جريح.. يجب أن أعالجك"

غمغم وهو يضغط على جرحه بقوة "بماذا؟"

نظرت له بتوتر، ثم نظرت للقرية خلفها، حيث وقف عدد من القرويين ينظرون بفضول ممزوج بقلق لما يجري وقد جذبهم صوت الرصاص، ثم قالت "لنذهب للقرية، لابد من وجود طبيب هناك"

وأسندته ليقف ثم ساعدته ليسير متحاملاً على ألمه، فنزلا من التلة واتخذا الطريق الذي يعود بهم للقرية بشيء من البطء وخالد يقول "يجب ألا نطيل مكثنا هنا.. قد يرسل برتيك المزيد من الرجال لاستعادتنا.. ولن يكون راضياً عن مقتل رجاله"

غمغمت ميا "أعلم ذلك.. لكن علاجك يأتي في الدرجة الأولى"

ولما اقتربا من القرية، أسرع إليهما أحد الرجال قائلاً "ما الذي جرى هنا؟ من أولئك الرجال؟"

توترت ميا وهي تنظر لخالد، ثم قالت للرجل "لقد حاولوا قتلنا.. إنهم من الثوار.. لكنهم حاولوا قتلنا بأوامر من قائدهم"

نظر خالد لميا مقطباً بينما تساءل الرجل "لماذا؟"

قالت والضيق يبدو على وجهها "يريدون إجبارنا على العودة إليهم.. رغم أني أوضحت لهم عدم رغبتي بذلك"

قال رجل آخر عاقداً حاجبيه وهو يقترب منهم "كيف يجبرون فتاة صغيرة على الانضمام للثوار مع خطورة ذلك؟"

علق الأول بحنق "إنهم يتصرفون بعنف مع المحليين على حد سواء.. لقد أصابهم الغرور مؤخراً"

قالت ميا بلهفة "ألا نجد عندكم طبيباً؟ أريد علاجه فقد أصابوه برصاصة"

قال الأول باهتمام "هناك رجل ذو خبرة طبية في القرية.. اتبعيني.."

وتولى مساعدة خالد عنها ليقوده نحو منزل صغير لا يختلف عن غيره من المنازل.. وهناك، كان أحد الرجال قد سبقهم وأبلغ صاحبه عن إصابة خالد.. وخلال دقائق، كان خالد يستلقي على أحد الأسرة ورجل في أوسط العمر لا يختلف شكله عن أي قروي آخر، قد بدأ في علاج جرحه الذي في جانبه الأيمن، والذي لا يكف عن نزف الدماء باستمرار.. بينما بقيت ميا خارج الغرفة وشيء من القلق يعتريها على ما يجري له..

وبعد نصف ساعة، خرج الرجل قائلاً "إنه بخير الآن.. لقد استخرجت الرصاصة وأغلقت الجرح.. لكنه نزف شيئاً غير قليل من الدماء، وسيحتاج لبعض الراحة ليسترد قواه"

ثم أشار لعنقها متسائلاً "هل أصبت أنت أيضاً؟"

قالت وهي تخفي الحرق الذي لم يفتأ يؤلمها "لا.. إنه مجرد حرق بسيط"

ثم قالت "أشكرك كثيراً على ما فعلته لنا يا سيدي.. هل أستطيع رؤيته الآن؟"

أجاب الرجل "أجل.. يمكنك ذلك"

فأسرعت ميا للغرفة لتجد خالد يستلقي على السرير بشيء من الشحوب، ثم ابتسم لها معلقاً على ملامح القلق في وجهها "هل أنت قلقة؟"

قالت وهي تجلس جانباً "أجل.. خاصة وأننا بحاجة للمغادرة بأسرع وقت.."

فقال خالد "لكني بأحسن حال.. سنغادر بعد ساعة، وهي كافية لأسترد فيها قواي"

وبعد أن تأكد من ابتعاد الرجل عنهما، قال خالد لميا مقطباً "لماذا أخبرتهم أن أولئك الرجال من الثوار؟ كان من الممكن أن ينقلب أهل القرية علينا ويحاولوا قتلنا بدورهم"

قالت ميا "لابد أن رجال القرية قد ذهبوا للتخلص من الجثث، وخشيت أن يعثر الرجال على شعار الثوار في أعناقهم.. عندها سيشكون بأمرنا والسبب الذي دعانا لإخفاء ذلك عنهم.. وقد عوّلت على أنهم سيتعاطفون معي، ففي القرى لا يحظى الثوار بشعبية كبيرة كما في المدن"

لم يغادر القلق وجه خالد، عندما سمعا الباب يفتح.. فالتفتا له ليجدا والد روباك يدلف منه متطلعاً لخالد، قبل أن يتقدم قائلاً "لقد أخبروني بما جرى.. هل أنتما بخير؟"

هز خالد رأسه إيجاباً، فأضاف "هذا جيد.. لكن لم فعل أولئك الثوار ذلك؟ أليسوا رفاق روباك؟"

قالت ميا مقطبة "لا.. إنهم من ثوار الشمال.. وهم صارمون ومتعنتون أحياناً.. ورئيسهم لا يعبأ بأرواح من معه مادام ذلك سيعني نجاح خطته"

قطب الرجل وهو يصمت، قبل أن يغمغم "لا أظن روباك كان سيرضى بأمر كهذا.."

ثم نظر لهما مجدداً قائلاً "والآن، ماذا تنويان أن تفعلا؟ يمكنكما أن تبيتا في داري، فرفاق روباك مرحّب بهم دائماً.."

قالت ميا "شكراً لك.. لكننا بحاجة للمغادرة سريعاً.. نخشى أن يرسل الثوار رجالاً آخرين لاستعادتنا.. ولا نريد أن نسبب الأذى لهذه القرية بقدومهم.."

فتساءل الرجل "وهل تملكان وسيلة للترحال؟ سمعت أنكما أتيتما على أقدامكما"

هزت ميا رأسها نفياً قائلة "لا.. ولا نملك ما ندفعه مقابل واحدة.. سنسير حتى الطريق المؤدي لمايار، وهناك سنركب مع أي عربة تمر بنا"

صمت الرجل وهو ينقل بصره بينهما، ثم غادر بدون أن يضيف كلمة أخرى.. فنظرت ميا متعجبة لخالد الذي قال "هل ضايقه أمر ما؟"

هزت ميا كتفيها وهي تقول "لا أعلم.. خذ قسطاً من الراحة الآن، وسأعود إليك بعد ساعة"

وغادرت الغرفة لتغلق بابها خلفها، فأراح خالد رأسه على الوسائد وهو يتنهد.. وتفكيره منحصر فيما هما مقدمان عليه منذ الآن..

****

بعد خروجها من عند خالد، بحثت ميا عن الرجل الذي تولى علاجه، فوجدته خارج المنزل يتحدث مع أحد القرويين الذي يشتكي من آلام في ساقه.. اقتربت ميا من الرجل بعد أن انتهى من الحديث مع القروي، وسألته بشيء من القلق "أخبرني أرجوك.. هل يستطيع رفيقي المغادرة بعد ساعة أو ساعتين؟ نحن بحاجة للرحيل بسرعة.. لكن أخشى أن يؤثر ذلك عليه ولا أريد أن أسبب له أذىً.."

أجاب الرجل "لا يمكنه ذلك.. خاصة أنكم لا تملكون وسيلة للتنقل.. السير لمسافة قصيرة سيسبب له آلاماً جمة، بالإضافة لخطر أن ينفتح الجرح مجدداً.. إنه متعب، وبحاجة لراحة يومان على الأقل.."

ظلت ميا تفكر في قوله قلقة.. بينما أضاف الرجل "عليك أن تعتني بتغذيته حتى يسترد قوته.."

وتركها لينطلق لأعماله، فجلست ميا خارج منزله وهي تفكر بضيق.. من أين لها ذلك وهي لا تملك أي نقود؟ هل تتسول الطعام من أهل القرية؟ ساءتها تلك الفكرة، فظلت صامتة وهي ترمق السماء الملبدة بالغيوم.. لقد تزايد البرد بشدة، فهل يستطيعان حقاً الرحيل في هذه الأجواء ومع إصابة خالد؟..

قطع تفكيرها صوت أقدام تقترب منها، فالتفتت لترى والدة روباك التي تحمل وعاء في يدها وتسألها "هل الشاب بخير؟ سمعت أنه جريح"

غمغمت ميا وهي تقف "سيكون أفضل حالاً.. شكراً لك"

فابتسمت المرأة وهي تقول "أنا واثقة من أنه سيصبح أفضل حالاً بعد تناول بعض الطعام.."

وأسرعت تدخل المنزل لترى خالد، بينما وقفت ميا ودهشة تغمرها برؤيتها.. رغم الحزن البادي على وجهها، رغم عيناها المحمرتان من البكاء، إلا أن الأم كانت تبدو متماسكة وكأنها تحاول أن تتناسى ذلك الحدث الحزين بأي صورة..

رأت ميا في تلك اللحظة والد روباك الذي اقترب منها وهو يجذب خلفه حصاناً بني اللون يطلق صهيلاً محتجاً على إخراجه في هذه البرودة المتزايدة.. ولما اقترب من ميا، مد لها اللجام وهو يقول "خذي هذا يا فتاة.. سيساعدكم في ترحالكم.. مع هذا الجو القارس، من الخطر أن ترتحلوا على الأقدام"

قالت ميا بدهشة دون أن تمد يدها وتتناول اللجام "لكن لماذا؟ لابد أنكم بحاجة إليه.. فكيف تتخلى عنه بسهولة وأنت تعلم أني قد لا أتمكن من إعادته؟"

ابتسم الرجل ابتسامة صغيرة وهو يقول "هو شكر لكما على إبلاغنا بموت روباك.."

تزايد تعجب ميا والرجل يضيف "لا أعتقد أنني سأحب بقائي في انتظار ابني بينما هو قد فارق الحياة منذ زمن.. ثم إنني مدين لك.."

رفعت ميا حاجبيها وهي تغمغم "مدين لي؟ لكني لم أفعل شيئاً.."

قال الرجل هازاً رأسه "يكفي ما فعلته لزوجتي.. لو وصلها خبر موت روباك عبر شخص آخر، لربما ماتت كمداً وحزناً عليه.. لكن بوجودك، وبحديثك عن روباك، فأنت قد خفّفت شيئاً من الحزن في قلبها.. جعلتِها تعيش لحظات معدودة معه ولو عبر الحديث عنه.. وهذا قد رفع معنوياتها قليلاً.."

نظرت ميا لباب المنزل الموارب حيث اختفت الزوجة، ثم همست بصوت متهدج "تمنيت لو أنني تمكنت من إحضاره إليكم ولو لمرة.. لكنه كان مصمماً على إكمال طريق الثورة حتى النهاية.."

خفض الرجل رأسه دون أن يعلق، ثم مد اللجام مجدداً نحو ميا وهو يقول "سأكون سعيداً لو قبلتِ مني هذا الحصان"

عندها، مدت ميا يدها وتناولت اللجام منه وهي تغمغم "شكراً لك يا عماه.. لن أنسى جميلك هذا أبداً.."

وبعد ساعتين، بعد أن تأكدت ميا أن خالد قد أضحى أفضل حالاً ولو بشكل محدود، امتطت ظهر الحصان بيسر وهي تمسك لجامه بقوة.. بينما صعد خالد بمعونة أحد الرجال وتمسك بسرج الحصان بيد بينما علق سلاحاً أخذه من الثوار القتلى على كتفه بعد أن تخلى عن سلاح الجنود.. ثم قال "يجب أن أخبرك أنني لا أملك أي خبرة مع الأحصنة"

قالت ميا التي احتفظت بسلاح آخر من أسلحة الثوار "لا زلت أذكر ذلك.. عليك فقط أن تتشبث به جيداً.."

ونظرت للقرويين الذين تجمعوا قريباً وهم يراقبونهما، ومن بينهم وقف والدي روباك بصمت.. فابتسمت ميا وهي تحني رأسها لهما.. ثم لكزت الحصان وهي تدير اللجام ليستدير ويسلك الطريق الذي سيخرج بهم من القرية ومن هذا الوادي كله..

رغم أن ميا لن تنسى روباك أبداً.. رغم أنه لن يغيب عنها، ولن يغادر موقعه من قلبها.. لكنها بزيارتها هذه تشعر أنها قد تخففت من بعض الحِمْل الذي تشعر به تجاه موته.. شعرت أنها قد طوت حزنها عليه ومرارتها بسبب موته وتخلي رفاقه عنه في تلك اللحظة، ولم يبق لها إلا ذكرياتها السعيدة معه والتي ستبقى معها لفترة طويلة.. قد تدوم ما دامت أنفاسها تتردد في كوميت..

****

الفصـــل الحادي والعشرون

نظرت ميا لخالد الذي جلس مستنداً على صخرة قريبة وهو يتنفس بتعب بشكل متلاحق، ثم نظرت للموقع الذي غمره نور الشمس الوليد مضفياً بعض البهجة على الجبال التي تغدو موحشة في الليل بشكل لا يطاق، رغم عدم قدرتها على تبديد شيء من البرودة التي تغلغلت في عظامهما.. ولحسن حظهما لم تهبّ أي رياح قوية عليهما مما قد يعني تجمدهما برداً بالتأكيد.. كانا قد توقفا لينالا قسطاً من الراحة، أو بالأصح لينال خالد بعض الراحة بعد ساعات من السير المتواصل بعيداً عن القرية، وبعيداً عن سِن ومايار وكل موقع يعرفانه.. كانت إصابة خالد تزداد سوءاً وجرحه يؤلمه بشدة رغم إنكاره ذلك بشكل متواصل.. لكن نظرة لعينيه كانت تنبؤها بما يعانيه..

نهضت ميا واقفة وهي تقول "هل يمكنك البقاء هنا؟"

نظر لها بتساؤل، فقالت "يجب أن نعثر على مصدر للمياه.. لا يمكننا أن نبقى هكذا طويلاً، وما حملناه معنا من القرية من طعام قليل قد نفذ.."

قال خالد وهو يحاول الوقوف "الأفضل ألا نفترق.. سآتي معك"

قالت باعتراض "أنت تعرّض نفسك للهلاك هكذا.. ابق وأعدك أن أعود سريعاً"

قال خالد بابتسامة منهكة "لا أكذب وعودك.. لكن أخشى أن تلاقي بعض الثوار أو الجنود في طريقك.. لن أستطيع الراحة هنا وأنا أخشى عليك من ذلك"

لم تستطع ميا الاعتراض، فصعدت على الحصان بينما امتطاه هو بعسر شديد.. ولكزت الحصان ليسير بخطوات هادئة وهي تخشى من الإسراع به لئلا يؤلم ركضه جرح خالد.. شعرت بشيء من الشفقة حياله وهي تقلب بصرها فيما حولها بحثاً عن مصدر للماء.. لم تدرك من قبل كم أضحى خالد وحيداً طريداً منبوذاً من الجميع.. ومع ذلك لم يبدُ ساخطاً من ذلك.. ورغم رفضها الصريح له، إلا أنه لم يتخلّ عنها بل ساندها ولا يزال يفعل ذلك رغم جرحه البليغ..

سار الحصان براكبيه عبر طريق يقطع الجبال والوديان ماراً بملامح طبيعية تتغير باستمرار.. وبينما منعته ميا من السير بسرعة حرصاً على عدم إيلام خالد الذي جلس بإنهاك خلفها، فإنها ظلت تتلفت حولها بقلق بحثاً عن مصدر للمياه أو مكان يأويان إليه ليتمكن خالد من الراحة، غير عابئة بالهواء الذي يضرب خديها ويكاد يجمّد وجهها بشدة.. وبعد وقت وآخر كانت تلتفت إليه وتسأله بإشفاق "هل أنت بخير؟"

ابتسم متحاملاً على ألمه وغمغم "طبعاً أنا كذلك.. هذه ليست إصابة قاتلة"

قالت ميا وهي تستدير لتنظر أمامها "ستصير كذلك لو أهملتها"

توقفت فجأة بالحصان وهي تقول "انظر.. هذا كوخ قد نستطيع الالتجاء إليه مؤقتاً"

نظر خالد حيث أشارت، للكوخ الذي لم يكن كبيراً بحيث يصبح منزلاً ولم يكن صغيراً كباقي الأكواخ.. متوسط الحجم مصنوع من أخشاب داكنة، وعلى يمينه مزرعة صغيرة، أو ما تبقى منها بعد أن غطاها الثلج وتحاتّت

أوراق أشجارها المتفرقة.. فلكزت ميا الحصان ليقترب من الكوخ بدون عجلة فيما تساءل خالد "أأنت متأكدة أننا سنكون بخير هنا؟"

أجابت ميا "مؤقتاً على الأقل.. حتى نستدلّ على قرية أو مدينة نتخذها كمأوى لفترة من الوقت.. جرحك بحاجة للعناية، ولا يمكننا البقاء في رحلتنا هذه لمدة أطول.."

وصلا للكوخ الذي بدا ساكناً لا حياة فيه، فقالت ميا لخالد "اصبر حتى أتحدث مع أصحابه.."

ونزلت من الحصان لتتقدم من باب الكوخ الخشبي ككل شيء فيه.. وبعد تردد قصير، طرقت بابه برفق ولبثت تنتظر إجابة لفترة.. ثم أعادت الطرق من جديد دون أن تحصل على استجابة، عندما أتاها صوت صادر من خلف الكوخ، فتركت الباب بعد أن يئست من الحصول على رد، ودارت حول الكوخ قاطعة المزرعة الصغيرة وخالد يقول من خلفها بقلق "احذري.."

أشارت له ليهدأ، وتفحصت المكان حولها وهي تجد أمامها في جانب المزرعة حظيرة صغيرة يصدر منها أصوات حيوانات متخالطة.. فاقتربت من الحظيرة وهي تنادي "هل من أحد هنا؟"

خفتت الأصوات فجأة وإن استمرت الحيوانات تصدر ضجيجها، قبل أن تجد ميا فجأة إحدى أدوات المزرعة الحادة يلوّح بها رجل في أوسط العمر خرج لها قائلاً بحدة "من أنت؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟"

قالت وهي تتراجع قليلاً "أنا مجرد عابر سبيل.. صاحبي الذي جاء معي مصاب ويحتاج لبعض الزاد والراحة"

قال الرجل بشيء من الحدة "مصاب؟ أنا لست مسؤولاً عن أي مصاب يمر بنا.. اذهبي به إلى المدينة القريبة خير لك.."

قالت بسرعة "لكنني عالجته بالفعل في إحدى القرى القريبة.. كل ما أطلبه منك هو بعض الطعام والماء ليقوى جسده قليلاً، وموضعاً يرتاح فيه من عناء الطريق.."

قال الرجل محتداً "طعام؟ ما نملكه بالكاد سيكفيني وعائلتي طوال شهور الشتاء القاسية، ولا أملك ما يمكنني اقتسامه مع الغرباء.. والآن اخرجي من مزرعتي"

نظرت له ميا بضيق من قسوته، ثم قالت كرجاء أخير "على الأقل، دلني على موضع نهر قريب أو أي مصدر للمياه.."

أجاب الرجل بجفاء "الجبال تزخر بمختلف مصادر المياه.. والآن ابتعدي.."

عندها استدارت ميا مغادرة وملامحها تنضح غيظاً من تصرف ذلك الرجل.. ولما اقتربت من الحصان وامتطته سمعت خالد يتساءل "هل طردك صاحب المزرعة؟"

غمغمت "كيف عرفت؟"

ابتسم مجيباً "يبدو هذا واضحاً على وجهك.."

أدارت ميا اللجام وهي تقول "لا بأس.. سنجرب حظنا في موضع آخر.."

ودفعت الحصان للسير مجدداً تاركين الكوخ والمزرعة بصمت كما كانت.. وعادت ميا تتلفت حولها وقلقها لم يخفت عما كان عليه..

****

بعد سير طويل، كاد الاثنان ييأسا فيه من العثور على مأوى، تناهى لسمعهما صوت خرير خفيف يصدر من بين شجيرات قريبة.. فهبطت ميا وأسرعت تتجاوز الشجيرات لتجد أمامها جدول ماء تكاد الصخور تخفيه عن الأعين، ويتكوم الثلج على جانبيه دون أن تفلح المياه في إذابة شيء منه.. فانحنت ميا تشرب القليل من مياهه المثلجة لترطب حلقها المتيبس جفافاً، ثم عادت أدراجها لتجد خالد قد ترجل بدوره واقترب منها منثنياً على نفسه بشيء من الألم وهو يضغط على خاصرته.. وإزاء نظراتها القلقة قال بهدوء "لا تقلقي.. مع بعض الراحة سأكون بخير.."

وبشيء من الألم، انحنى على النهر يشرب ما يملأ معدته ويبلل عروقه، ثم جلس جانباً وميا تقرّب الحصان ليحصل على بعض الماء والزاد من الشجيرات القريبة التي حافظت على أوراقها رغم الثلج الذي يكاد يغطيها، دون أن تنسى أن تربطه في إحداها لئلا يخسرا وسيلة سفرهما.. ثم اقتربت ميا من خالد قائلة "أريد أن أطمئن على جرحك.. أخشى أن يكون قد تضرر من الحركة، فالألم على وجهك لا يبشر بخير.."

لم يعترض خالد وميا تفك أربطة جرحه وتكشفه بشيء من الحذر، ثم سرعان ما أعادت الأربطة بإحكام قائلة "كل شيء على ما يرام حتى الآن.."

فغمغم خالد وهو يعيد قميصه ليغطي الأربطة "الحمدلله.. أتمنى ألا تزداد الأمور سوءاً بعد الآن.."

نظرت له ميا بإشفاق واضح، ثم قالت "ما الذي تنوي فعله الآن؟ ألا تستطيع العودة للجيش؟ سيعالجونك بالتأكيد.."

قال خالد مبتسماً "بل سيقتلونني بالتأكيد.. خاصة بعد عملية منجم مايار.."

فغمغمت ميا "لم فعلت كل ذلك حتى وصلت لهذه النهاية؟ كان يمكنك أن تكتفي بإنذار الثوار عن القصف، دون أن تشارك الثوار بشكل حقيقي.."

لم يجب خالد وهو ينظر إليها، ورغم أن الجواب كان واضحاً في عينيه، إلا أن ميا وقفت فجأة دون أن تسعى خلف جواب مباشر وهي تقول "أعتقد أن علينا البدء في مسيرنا قبل انقضاء النهار.."

واتجهت للحصان تفك أسره بينما تبعها خالد وقد عاد إليه شعوره بالألم بعد طول استرخاء.. ولما استطاع ركوب الحصان بعد عناء بمساعدتها، أسرعت تمتطي الحصان بدورها وتدفعه للسير وهي تقول "لسوء حظنا لا نملك ما نحمل به بعض هذه المياه"

لم يعلق خالد والصمت يسودهما لمدة من الوقت، قبل أن تقطعه ميا وهي تشير لما أمامها قائلة "انظر.. هناك لافتة تخبرنا بموقع مدينة قريبة"

نظر خالد للافتة الصغيرة التي تقع عند مفترق طرق، بينما أضافت ميا "تبدو مدينة صغيرة.. لا أعرف حالها مع الغزاة، لكن أعتقد أننا نستطيع الحصول على مأوىً وبعض الطعام بمقابل معقول.."

عاد خالد يتساءل "ومن أين لنا بهذا المقابل؟"

هزت ميا كتفها مجيبة "سنتدبر أمرنا عندما نصل.."

صمت خالد وهو يراقب خصلات شعرها الناعم والهواء يعبث به بحرية.. رغم سعادته بوجوده معها، إلا أنه يدرك مدى تأزّم وضعها بعد كل ما جرى لها وله.. إنه لا يستطيع أن يكون سنداً لها، فخطر انكشاف أمره وانتمائه للجنود قائم في كل لحظة، وهذا سيسبب لها المخاطر من الجيش والثوار على حد سواء.. بل إنها تعينه أكثر مما يعينها هو في الوقت الحالي، وربما بعد وقت تشعر بأنه عبء عليها..

تلفت خالد حوله يراقب الجبال التي بانت صخورها السوداء من بين بياض الثلج الباهر.. ثم لم يملك أن تساءل بصوت خافت "هل ستتخلين عني لو تفاقمت إصابتي يا ميا؟"

قالت ميا على الفور "لو كنت سأفعل لتركتك في تلك الليلة العاصفة معلقاً فوق الشجرة تنزف الدم باستمرار.."

ابتسم خالد وهو يصمت مكتفياً بإجابتها هذه التي تغنيه عن أشياء كثيرة..

****

عندما وصلا لمشارف تلك المدينة الصغيرة، كانت تبدو كبيرة مقارنة بالقرية التي تركاها منذ يوم، وإن كان حجمها لا يتجاوز ربع حجم مدينة مثل سِن.. وقفا على أقرب مرتفع من المدينة يتأملانها على نور الشمس الغاربة، ثم تنهدت ميا وهي تقول "أتعتقد أن هذا قرار صائب؟"

أجاب خالد "المهم أنني لا أرى أي تحصينات للجيش أو أثر لمركباتهم أو جنودهم.. يبدو أن اهتمام الجيش منحصر بالمدن الكبيرة، لذلك وجودنا في هذه المدينة الصغيرة لن يكون خطراً إن أحسنّا إغلاق أفواهنا.."

لم تعلق ميا وهي تدفع الحصان لينزل ذلك الطريق المؤدي لمدخل المدينة، قبل أن يستوقفها خالد قائلاً "مهلاً.. ربما من الأفضل أن نستطلع أمور المدينة قبل أن نخاطر بدخولها بشكل مكشوف.."

قالت ميا "ألم تقل للتو ألا أثر هناك للغزاة في المدينة؟"

قال خالد وهو يترجل من الحصان "ومع ذلك، الحذر واجب"

هتفت "ماذا تفعل؟ المفترض أن أذهب أنا لاستطلاع الأمر.. لا يمكنك السير خطوات بجرحك وتعبك هذا"

قال بإصرار "مستحيل.. لا يمكنني تركك ترحلين وحيدة وأنا لا أعلم ما قد يواجهك هناك.. لن أتأخر كثيراً.. ابقي على هذه التلة وراقبي الوضع حتى أعود"

غمغمت ميا وهي تراه يحاول بث النشاط في خطواته المنهكة "أنت أحمق بالتأكيد.."

لم يعلق وهو يستمر في سيره هابطاً من تلك التلة نحو المدينة القريبة.. بينما ترجلت ميا بدورها وهي تربط الحصان في شجرة قريبة وتقف قربه تتأمل المدينة.. مع مرور الوقت كانت حيرتها تزداد إزاء ما عليها فعله من الآن فصاعداً.. هل تبقى مع خالد مع كل المخاطر التي قد تحيق بها عند ذاك؟ أم تتركه بعد أن يصبح بحال

أفضل؟ لا تعرف أي أحد في هذا الكوكب كله، بخلاف الثوار الذين لا تنوي العودة إليهم، وسيميان وزوجته اللذان رحلا لوجهة لا تعلمها.. فما الذي عليها فعله حقاً؟..

كما أن خالد قد أضحى في وضع لا يقل سوءاً عنها.. غريب وحيد لا ملجأ له ولا أصحاب.. فهل سيتركها حقاً لو طلبت منه ذلك؟.. لا يبدو ذلك وارداً..

تنهدت ميا وهي تجلس جانباً بصمت بانتظار عودة خالد التي طالت حتى مرت ساعة وهي جالسة في موقعها لا تتحرك.. عندما سمعت ما يقطع الصمت من خلفها بهدير مميز جعلها تلتفت بدهشة وشيء من الصدمة.. عندها قفزت واقفة بتوتر وهلع وهي ترى ثلة من الجنود يقتربون منها على ظهر مركبتين تقطعان الطريق بسرعة.. تمنت ميا لو تستطيع الاختباء خلف إحدى الأشجار القريبة، أو لو تمتطي الحصان وترحل في اتجاه آخر، لكن فعلها ذلك سيغدو مشبوهاً أكثر من بقائها في موقعها.. فأشاحت بوجهها وهي تقترب من الحصان متشاغلة بالتربيت عليه حتى يتجاوزها الجنود، فكان ذعرها أكبر عندما سمعت المركبتان وهما تقفان قريباً وأحد الجنود يصيح بها "يا فتاة.."

التفتت ببطء لترى جندياً يقف في المركبة وهو يقول لها "ما الذي تفعلينه في هذا الموقع وحيدة؟"

قالت بشيء من التوتر "أنا في طريقي لمايار، ورفاقي قريبون"

دفعها لإطلاق هذه الكذبة ما قد يفعله الجنود لو أدركوا أنها وحيدة، فقال الجندي "ألم يمرّ بك مجموعة من الرجال؟"

غمغمت بحذر "من تعني؟"

أجاب الجندي بسرعة "أعني أي مجموعة تبدو مشبوهة.. نحن نبحث عن مجموعة من الرجال نظن أنهم مروا في هذه الأنحاء.. من يعاوننا له أجر كبير، ومن يتستر عليهم لن يكون مصيره أقل منهم"

أدركت ميا أنهم يبحثون عن الثوار الذين قاموا بالعملية في المنجم وفي مايار تلك الليلة، ويبدو أنهم يواجهون صعوبة في الحصول على معلومات عنهم.. هزت ميا رأسها نفياً قائلة "لا.. لم أقابل إلا قليلاً من المزارعين في طريقي إلى هنا"

وجدت الجندي يقفز من المركبة متقدماً منها، فتراجعت خطوة وتوترها يزداد، عندما مد يده يقبض على فكها بقوة ويدير وجهها جانباً ليكشف جانب عنقها الأيسر الذي كان شعرها يغطيه، ثم قال بصرامة "ما سبب هذا الجرح؟"

قالت بتوتر "لقد هاجمني أحد اللصوص في طريقي بغية سرقة حصاني، وقد سبب لي هذا الجرح عندما حاول قتلي"

فقال الجندي بحدة "هذا جرح تمّ بسلاح من أسلحتنا.."

أسرعت تقول "أجل.. لقد كان يملك واحداً وقد استولى عليه من الجنود كما يبدو.."

ظل الجندي ينظر لعنقها بنظرات أشبه باتهام صريح، ثم قال ببطء "أم أنك كنت تحاولين إزالة وشم معيّن؟"

كتمت ميا أنفاسها بخوف ظاهر للحظة، قبل أن تسارع لتنفي الأمر هاتفة "ليس الأمر كذلك.. صدقني.. ليس ذلك

إلا حادثاً غير مقصود.."

قال الجندي بحزم "أيتها الكاذبة.. أتظنين أنك تستطيعين خداعي؟"

انتبه في تلك اللحظة للسلاح الذي أخفته ميا في شجرة قريبة، فاستولى عليه قائلاً بسخرية "وهل وجود هذا طبيعي؟"

تراجعت ميا خطوة بذعر، لكنه أمسك ذراعها بقوة عنيفة وهو يسألها بحدة "أين رفاقك؟ أين بقية الثوار الذين قاموا بتخريب المنجم قرب مايار؟"

قالت ميا بهلع "لا أعلم شيئاً.."

هزها بعنف وهو يصيح "لا تكذبي.. أين هم؟ هل كنت معهم أثناء قيامهم بتلك العملية؟ أريد أسماءهم وأوصافهم رجلاً رجلاً بالتفصيل.. أفهمت؟"

صاحت ميا بهلع متزايد وهي تجذب ذراعها "لا أعلم عن هذا شيئاً.. صدقني.."

التفت الجندي لرفاقه القريبين الذين تأملوا ما يجري بصمت، وقال لهم "لابد أن الثوار قريبون من هذا الموقع.. ابحثوا في كل مكان، أنا واثق أننا سنقبض على أحدهم اليوم"

رأت ميا الجنود يقفزون من المركبة ويتفرقون في المنطقة حولها بصمت وأصابعهم متحفزة على أسلحتهم، ثم عادت ببصرها لذلك الجندي الذي لم يزل ممسكاً بها وقالت "ما الذي ستفعله بي؟ أنا لا شأن لي بالثوار، صدقني"

قال الجندي "هذا ما سيقرره القائد في مايار"

وأجرى اتصاله بالقيادة في مايار ليشرح لهم الوضع هنا، بينما تلفتت ميا حولها بحثاً عن وسيلة للتخلص من هذا الجندي والهرب، وقلقاً على خالد لو فكر بالعودة الآن ليسقط في قبضة الجنود..

في تلك الأثناء، كان خالد يجدّ الخطى رغم تعبه وألمه الشديد عائداً لموقع ميا بعد أن تأكد من خلو المدينة من أثر للجنود، عندما استوقفه صوت المركبتان اللتان تقدمتا لتقفا قرب ميا وحصانها.. استل خالد سلاحه بتوتر وهو يراقب الوضع من خلف شجرة قريبة وهو قلق أشد ما يكون على ميا.. كان الجنود كثر، وهو وحيد ولا يملك إلا سلاحه، فهل يكفيه للقضاء على هذه المجموعة المسلحة المتحفزة كلهم؟..

أسرع يتسلل بين الأشجار بخفة وهو يدرك أن الجنود قد يعثرون عليه ببعض البحث.. تأمل الموقع بعينيه بحثاً عن موقع يمكنه من الاختباء وتفاديهم حتى يرحلوا، لكن عندما رأى الجندي يقترب من ميا ويقبض على ذراعها بقوة والفزع بادٍ على وجهها، وعندما رأى الجنود يقفزون من المركبتين لينتشروا في المنطقة، أدرك أن المواجهة معهم حتمية.. فأسرع يرتقي إحدى الأشجار القريبة الكثيفة الأوراق، وربض على أحد أفرعها العالية وهو يدرس موقفه جيداً.. ما الوسيلة الأفضل للقضاء على الجنود بسرعة ودون مخاطر؟ لا يريد المخاطرة بميا، ولا يريد لوضعه أن يزيد سوءاً مع جرحه هذا.. ولا يملك إلا سلاحاً واحداً وعدداً محدوداً من الطلقات.. رأى جندياً وحيداً يقترب من موقعه ويتلفت حوله بحذر، فشدّ خالد على سلاحه وهو يتذكر ملحوظة قالها روباك منذ مدة، رغم أن خالد رفضها في البدء.. لكن الآن، هل يملك غيرها؟..

رفع سلاحه وصوّبه بإحكام ناحية الجندي الذي استمر في سيره بصمت.. ثم أطلق رصاصته دون تردد، مراهناً

على براعته في التصويب رغم عدم التدريب لمدة طويلة..

وفي موقعها، انتفضت ميا عندما سمعت صوت الانفجار الذي بدا مكتوماً وبعيداً.. بينما تحفز الجندي وهو يجري اتصالاً سريعاً برفاقه لمعرفة سبب ذلك الانفجار، قبل أن يعود لميا صائحاً بحدة "كم رجلاً من رفاقك هنا؟ أجيبي؟"

قالت بصوت مرتجف "ليس هناك أحد.. لقد ذهبوا لتلك المدينة القريبة"

قال الجندي محتداً "ألم تقولي إنهم بصحبتك؟ أيتها الكاذبة"

قاطعهما صوت انفجار آخر في نفس الاتجاه، فعاد الجندي يصيح عبر جهاز الاتصال "ما الذي يجري هنا أيها الأغبياء؟ ما الذي يفعله أولئك الجهلة؟"

أتاه صوت أحد الجنود لاهثاً "صوت الانفجار هذا أتى من جهة سكوت وديريك.. أنا ذاهب لاستطلاع الأمر الآن.."

فقال الجندي الأول "كن حذراً.. لا نعلم عددهم ولا أين يختبئون.."

قال جندي آخر قائلاً "يا للشيطان.. لقد قام شخص ما بتفجير الموقع، وقد أطاح هذا بهما معاً.."

سمع الجندي الأول صوت جنديين آخرين عبر جهاز الاتصال وهما يتفحصان جثتي الجنديين الصريعين، فقال متوتراً "لا تقفوا في نفس البقعة معاً.. لابد أن الثوار قريب....."

صمّ أذنيه صوت انفجار قوي والاتصال ينقطع بينه وبين من بقي من الجنود، فصاح عبر جهاز الاتصال بحنق مذهول "ما الذي تفعلونه أيها الحمقى؟"

في تلك الأثناء، وبعد أن اطمأن لقضائه على من حوله من الجنود، هبط خالد من الشجرة بحذر وتلفت حوله قبل أن يتقدم من الجنود ليتفحصهم.. فتناول إحدى الخوذات التي سقطت جانباً وهو يتأملها بصمت للحظات.. وبينما هو يتفحص الخوذة، سمع صوت سلاح يشهر خلفه وصوت صارم يقول بحدة "قف مكانك ولا تأت بحركة.."

تجمد خالد بصدمة وقد كان يعتقد أنه تخلص من الجنود، بينما قال الجندي خلفه "استدر ببطء وارم سلاحك جانباً.."

نهض خالد واقفاً، ثم استدار بسرعة رافعاً سلاحه في وجه الجندي، لكن الجندي عاجله بطلقة من سلاحه في ذراعه اليمنى أشعلت ألماً حارقاً فيها.. ورغم ذلك، لم يتخلّ خالد عن سلاحه وجزّ على أسنانه بقوة وهو يحكم التصويب وبنظرة خاطفة قاس المسافة القصيرة بينه وبين الجندي الذي استعدّ لإصابته من جديد.. ثم أطلق رصاصته قبل الأخيرة دون تردد..

وعندما سمع الجندي القريب من ميا صوت ذلك الانفجار، أطلق سبّة وهو يتركها ويستل سلاحه ليتقدم نحو الغابة القريبة بحذر متلفتاً حوله، ونادى عبر جهاز الاتصال "يا رفاق.. ما الذي جرى لكم؟ من الذي هاجمكم؟"

جاوبه الصمت التام، فتقدم من الغابة وهو يجري اتصالاً بالقيادة في مايار ليرفع تقريره بما جرى، عندما سمع صوت طلقة انطلقت من موقع قريب.. وقبل أن يدرك ما يجري أو يلتفت، كانت الرصاصة قد أصابت خزان الطاقة في سلاحه، فانفجرت بدويّ مكتوم مطيحة بالجندي عدة أمتار للوراء وميا تحمي رأسها بذراعيها فزعة من

الانفجار المفاجئ.. ولما هدأ كل شيء، نظرت لجثة الجندي التي سقطت أرضاً والدماء تلطخ بقعة لا بأس بها حوله لتمتزج بالثلج مكونة منظراً بشعاً.. شعرت بقشعريرة تسري في جسدها وهي ترى هذا المنظر، ثم أغمضت عينيها محاولة تهدئة أنفاسها المتلاحقة وهي تربت على عنق الحصان القريب الذي كان يصهل ثائراً فزعاً من الانفجار، ولولا أنه كان مربوطاً لشجرة قريبة لفرّ هارباً.. ثم سمعت صوت خطوات تقترب من الغابة القريبة منها، فتحفزت في وقفتها وهي تراقب الموضع الذي ألقت الغابة القريبة عليه ظلالاً حالكة وهي لا تعرف هوية القادم.. أهو خالد؟ أم جندي آخر؟.. بعد لحظة توتر، انقشعت الظلال التي ألقتها الغابة عن وجه خالد لتجده يتقدم منها في حال يرثى لها.. فهلعت لمنظره وهي ترى الدماء تغطي جزءاً كبيراً من ملابسه، بينما كان يجرّ قدميه جراً على الأرض وهو لا يقدر على رفع سلاحه بيده فتركه يتدلى معها بجانب جسده، بينما يده الأخرى تقبض على خوذة أحد الجنود بشدة..

هرعت ميا نحوه متجاوزة جثة الجندي وهي تهتف بذعر "ماذا جرى لك؟ هل أصابك الجنود؟"

قال وهو يرمي السلاح جانباً ويتهالك جالساً أرضاً "لا تقلقي.. لقد قضيت على الجميع"

ثم نظر للجندي المرمي جانباً وغمغم بمرارة "لم أكن أريد فعل ذلك.. يا إلهي.. لم أرغب بقتل أحد أبداً.. لكني أجد نفسي مجبراً على ذلك أكثر وأكثر مع مرور الوقت.."

هتفت ميا بانفعال "لكنهم من الغزاة.. إنهم ظالمون"

قال خالد بسخرية "أنسيت أني منهم؟ ليسوا جميعاً مذنبين فيما يجري في كوميت.. أعرف أن الكثير منهم لم يرغب بإيذاء سكان الكوكب، لكنهم مجبرون على المشاركة في هذه الحرب الظالمة"

ووضع رأسه على يديه مغمغماً بمرارة "يا إلهي.. سامحني على ما فعلته.."

قالت ميا وهي تهز كتفه "المهم الآن أن أتفحص جراحك.. الدماء تسيل منك بغزارة.."

سمح لها بأن تتفحصه لتجد جرحه السابق قد تضرر بشكل كبير، بالإضافة لإصابات متفرقة في صدره وجرح كبير في فخذه الأيسر.. ولما سألته عن سبب هذه الجراح وهي تحاول إيقاف النزيف من جرح فخذه، أجابها محاولاً تمالك ألمه مع ضغطها على الجرح "عندما يئست من التغلب على أولئك الجنود لكثرتهم، لجأت لطريقة علمني إياها روباك.."

رأى اختلاج وجهها لذكر روباك، لكنها لم ترفع بصرها نحوه وهي مستمرة في عملها، فأكمل دون أن يعلق على ذلك "لجأت لإطلاق الرصاص على خزانات أسلحتهم المليئة بالطاقة، والتي تنفجر بالتبعية لتطيح بصاحبها.. لكن آخر جندي ممن واجهتهم في الغابة غافلني وكان قريباً مني جداً وينتوي قتلي.. لذلك لم يكن أمامي بد من تفجير سلاحه من ذلك القرب قبل أن يتمكن مني، وقد سبب لي ذلك الانفجار هذه الجراح"

غمغمت ميا مشفقة "أنت بحال سيئة.. يجب أن نذهب للمدينة لتجد من يعالجك"

صمت خالد حتى انتهت من ربط جرح فخذه، ثم نهض بعسر مستنداً على سلاحه وقال "لا.. لابد أن يأتي الجنود للبحث عن رفاقهم، ولابد أن يدركوا أننا لجأنا للمدينة.. لنرحل بعيداً، لقرية أو مدينة أخرى أبعد من هذه"

قالت ميا بقلق "لكن حالتك لا تسمح بذلك.. أرجوك.."

هز رأسه نفياً وقال بإصرار "لا يمكن.. لا أريد أن أواجه المزيد من الجنود.. لنذهب.."

انحنى ليحمل الخوذة، ثم اتجه للحصان بخطوات ثقيلة، فأسرعت ميا وقربت الحصان منه.. لكنه توقف فجأة وهو ينظر للمركبتين اللتين قدم بهما الجنود وقد وقفتا خاليتان بجانب الطريق.. فاستدار إليهما وحثّ الخطى وميا تنظر له متعجبة، ثم سرعان ما لحقته وهي تتساءل "أتنوي الرحيل باستخدام هذه المركبات؟ هذا خطر جداً، سنلفت النظر بوضوح"

أجاب خالد "أدرك ذلك طبعاً.. لكني سأفتشهما بشكل كامل بحثاً عما قد يفيدنا بأي شكل من الأشكال.."

صعد على أقرب المركبين وتأمل ما تحويه من صناديق معدودة، ثم بدأ يفتح الصناديق ويتفحص محتوياتها، قبل أن يرفع محتوى إحداها قائلاً "انظري.."

تأملت ميا الكرات السوداء وهي تغمغم "هذه....."

قال خالد "قنابل.. لدينا مخزون كبير منها هنا.."

فقالت ميا "وما الذي سنفعله بها؟ قد يكون من الخطر حملها معنا.."

علق خالد وهو يتأمل جهازاً صغيراً في يده "لكنها ستفيدنا حتماً في وقت ما.. سنحمل ما نقدر عليه.."

وأضاف مشيراً لهذا الجهاز "هذا جهاز تحكم عن بعد.. سيغدو نافعاً بالتأكيد"

وترك لميا حمل بعض القنابل في قطعة قماشية بعد أن نبهها أن تحرص في تحريك تلك القنابل، وتوجه للمركبة الثانية يتفحصها دون أن يجد شيئاً يذكر، عدا عن بضع قنابل عادية.. فحمل بعضاً منها ثم عاد وحمل القطعة القماشية التي ضمّت في قلبها عشر قنابل دون أن ينسى جهاز التحكم، وربطها لسرج الحصان قائلاً "عليك بالحذر أثناء سيرنا.. أي حركة مفاجئة قد تعني تناثر أشلائنا في المكان كله.."

قالت ميا بضيق "لا زلت أعتقد أن هذه فكرة خطرة"

لم يعلق خالد بكلمة وهو يمتطي الحصان.. فتبعته ميا بعد أن استعادت سلاحها من جثة الجندي، وأمسكت لجام الحصان وهي تعود من حيث أتت عبر الطريق الذي يبعدهما عن المدينة القريبة ويعود بهما ليقطعا السلسلة الجبلية تلك.. بعد صمت قصير قالت "أليس من الأفضل لنا أن نبتعد عن هذا الطريق؟ لابد أن يأتي الجنود عبره أيضاً.."

غمغم خالد "معك حق.. ربما من الأفضل لنا أن نسلك طريقاً يقطع الغابة.."

أدارت الحصان ليقترب من الغابة ويدلف بين أشجارها فأطاعها بصمت.. بينما تساءلت ميا "ما الذي تنوي فعله بهذه الخوذة؟"

قال خالد وهو يعبث بالخوذة بشيء من الصعوبة مع حركة الحصان "أنوي استخدامها في حال تقطعت بنا السبل.. هذه هي ورقتنا الأخيرة، وسأتركها للنهاية"

تساءلت بقلق "هل تنوي استدعاء الجنود؟"

أجاب بسرعة "لا تقلقي.. أنوي الاستعانة بأحد أصدقائي، وهو لن يتوانى عن مساعدتي في حال طلبتها.. على الأقل أنوي الاستعانة به في الذهاب لمدينة بعيدة لأتمكن من تلقّي العلاج هناك دون خشية الجنود"

صمتت ميا وهي مستمرة بسيرها عبر الغابة رغم الظلام الذي غدا مسيطراً مع كثافة الأشجار، بينما تأكد خالد من فصل جهاز الاتصال عن الخوذة وإغلاقه لكي لا يتمكن الجنود من تتبع الجهاز بغفلة منهما والاستدلال على موقعهما حالياً.. كان أيمن هو طوق نجاته الأخير، وهو متردد حالياً في الاستعانة به خشية أن يسبب له سوءاً بمعاونته لجندي خائن، لكن من يدري ما قد يدفعه لفعل ذلك في المستقبل؟..

****

الفصـــل الثاني والعشرون

كان الليل في الغابة يختلف عن غيره في أي موقع آخر من هذه السلسلة الجبلية.. حيث تضفي الأشجار ظلمة حالكة على ما تحتها حتى يغدو من الصعب على المرء رؤية أين يؤدي به طريقه.. ورغم ذلك، لم تتردد ميا وهي تسلك طريقاً متعرجاً بين الأشجار بعيداً عن الطريق الذي خلفاه خلفهما وبعيداً عن مركبتي الجنود وجثثهم التي غمرت الثلوج بدماء حارة سرعان ما تجمدت بدورها..

بعد فترة من الصمت تساءلت ميا "أأنت بخير يا خالد؟"

غمغم خالد بابتسامة "ألا تملّين من طرح هذا السؤال؟"

قالت متنهدة "لأن حالك لا يسرّني أبداً.. أنت تسير من سيء لأسوأ ولا تترفق بجسدك أبداً"

لم يعلق خالد وهو يدير بصره في الغابة التي غزاها صمت مطبق بعد حلول الظلام عدا عن حفيف الأوراق بفعل الهواء المتزايد.. كان يدرك سوء حاله، ويدرك العبء الذي يضعه على ميا مع إصابته تلك.. ورغم تساؤلاتها التي لا تتوقف، يشعر أنه لا يعني لها أكثر من مجرد رفيق سفر.. وهذا يجعله بخشية من اللحظة التي قد تقرر فيها التخلي عنه والاستمرار بمفردها.. هل يقوى على فراقها مرة أخرى؟ الأيام التي قضاها مع الثوار ومع ميا يراقبها في كل لحظة قد زادته تعلقاً بها.. فكيف يقنعها بأن تبقى معه للنهاية؟..

تنهد وهو يتأمل جهاز الاتصال في يده، فعلقت ميا "ما بك؟ أهناك ما يقلقك؟"

غمغم خالد "كل ما يجري يقلقني.."

فقالت "لا تخشَ شيئاً.. فور أن نصل لأقرب مدينة سأسعى لأن تحصل على العلاج الملائم.. ستكون الأمور على ما يرام"

علق على قولها "أنت متفائلة.."

لم تنبس بكلمة وهي توقف الحصان فجأة، فرفع خالد بصره لينظر لما أمامهما.. كانا يقفان أمام ساحة واسعة وسط الغابة، يتوسطها منزل خشبي السقف ومبنيّ من قرميد أحمر اللون، وقد بدأت عدة شجيرات تدبو على جدرانه لتزيده جمالاً.. تساءل خالد "أتريدين المحاولة مع أصحاب هذا المنزل من جديد؟"

قالت ميا وهي تتقدم من المنزل "إنه مهجور.."

لاحظ خالد في تلك اللحظة نوافذ المنزل التي غطاها الغبار وبعضها قد تهشم قطعاً صغيرة.. وبدا الباب بحالة سيئة وهو يكاد يسقط جانباً.. هبطت ميا من الحصان وعاونت خالد على الهبوط، ثم تقدمت من المنزل تجر الحصان معها وهي تقول "سنبقى هنا لهذه الليلة.. وغداً نكمل سيرنا.."

ربطت الحصان في موقع قريب، ثم حملت القنابل وتقدمت من المنزل خلف خالد الذي حمل سلاحه بتعب ظاهر وهو يتقدم من الباب فيفتحه مصدراً صريراً عالياً شعرا أنه أيقظ الغابة كلها.. كان المنزل خالياً مغطىً بغبار

كثيف ورائحة عطنة، فتقدم خالد وهو يتفحص المنزل بحذر، فيما علقت ميا "يبدو خالياً تماماً.. فلا داعي لكل هذا التحفز.."

تنهد خالد وهو يغادر المدخل الخالي من أي شيء ويدلف من أقرب باب يتأمل الغرفة المظلمة التي تناثرت بها بعض الكراسي ومدفأة اسودّت من أثر النيران، فغمغم "أتمنى ألا نصطدم بأي مفاجآت هنا.."

لم تعلق ميا وهي تضع القنابل جانباً وتبدأ بنفض الغبار عن الكراسي المتناثرة في المكان.. سعلت قليلاً من الغبار الذي تطاير وغطت أنفها بيدها مغمغمة "لماذا بنى أصحابه هذا المنزل في بقعة منعزلة كهذه؟ يبدو أن الغابات لا تخلو من غريبي الأطباع.."

لم يقل خالد كلمة وهو يستلقي على كرسي طويل قريب.. وتنهد وهو يضع يده على جرح فخذه، فتساءلت ميا "هل يؤلمك؟"

لم يجب خالد على سؤالها الذي لا يتطلب إجابه، بينما قالت ميا "لو لم يكن الحصان منهكاً لما توقفنا حتى نصل لمدينة أخرى.."

ثم نهضت مضيفة "سأذهب للبحث عن مصدر للماء أو أي طعام في هذه الغابة.."

قال خالد بضيق "لا تفعلي.. أخشى عليك من الجنود"

قالت "الطعام سيساعدك على مقاومة إصاباتك واسترداد قواك.. أنت لم تأكل شيئاً يذكر منذ يومين، والحصان أيضاً منهك من الجوع والعطش.."

وغادرت دون أن تنتظر تعليقه، فزفر وهو يفكر في وضعه الآن.. إنه منهك، والألم في جسده لا يوحي بخير.. فحتى متى سيقدر على الصمود يا ترى؟..

نظر لجهاز الاتصال بين يديه لمدة طالت.. هل يلجأ له أخيراً مع خطورة ذلك عليهم جميعاً؟ هل يتجاهل كل شيء ويطلب من ميا الرحيل؟.. لكنه متأكد أنها لن تفعل.. لم تستطع التخلي عنه عندما كان مجرد عدوٍ لها ولأبيها.. لم تتردد في عصيان أبيها ومساعدته رغم غضب أبيها الهائل، فلا يمكن أن يتوقع منها أن تتخلى عنه الآن، رغم أنه شبه واثق أنه لا يعني لها شيئاً ذا بال..

تنهد وهو يعيد الجهاز لجانبه بصمت ويتأمل جوانب هذا المنزل المهجور.. وبعد أن طال انتظاره، نهض متحاملاً على آلام جراحه وسار نحو باب المنزل مغمغماً لنفسه "أين ذهبت تلك الفتاة يا ترى؟ أتمنى ألا يكون أحد الجنود قد اعترضها بسوء.."

لم يكد ينهي جملته حتى وجد الباب يفتح فجأة وميا تظهر خلفه، ولما رأته قالت "ما الذي تفعله؟ عليك بالراحة.."

وجذبته من ذراعه ليعود لموضعه السابق وهو يقول "قلقت عليك.. ارتبت من تأخرك وخشيت أن تكوني قد أصبت بمكروه"

قالت وهي تعيده ليستلقي على الكرسي الطويل "لم أتأخر، لا تستسلم للوساوس أكثر من اللازم.."

تفحصت جراحه لتطمئن عليه، ثم قالت "حالتك تزداد سوءاً يا خالد.. يجدر بنا أن نغادر قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه"

قال خالد "سأحاول، لكن ليس الآن.. فلننتظر قليلاً.. لابد أن عدة فرق من الجنود تجوب هذه المنطقة بحثاً عن الثوار، خصوصاً بعد مقتل أولئك الجنود.. وجودنا في هذا المنزل أكثر أمناً من السير في الطرقات المكشوفة.."

نظرت له ميا بإشفاق، ثم غمغمت "كما تشاء.."

انتبهت ليده القابضة على جهاز الاتصال بقوة، فتساءلت "هل اتصلت بصديقك ذاك؟"

هز خالد رأسه نفياً وقال "ليس بعد.. رغم أني أتمنى ألا أضطر للجوء إليه لئلا يتورط في مشاكلي، لكن يبدو ألا مفر من ذلك"

فقالت ميا بجدية "أعتقد أن عليك الاتصال به.. لا أعتقد أنك ستصمد حتى نصل لأقرب مدينة، خاصة مع وجود الجنود في المنطقة.."

قال خالد مقطباً "لكني أخشى أن يتتبع الجيش اتصالي فيستدلوا على موقعنا.. لا أريد أن أجرك لأي خطر بوجودك معي"

قالت ميا بحزم "أعلم أنك تخشى عليّ.. لكني لا أريد أن أشهد تردّي حالتك وأنا عاجزة عن مساعدتك.. جراحك الأخيرة لم تلق العناية المناسبة، ومن الخطر بقاؤك هنا.."

زفر خالد وهو يحدق بجهاز الاتصال بصمت، عندما سمعت ميا صوت الحصان خارج المنزل يصهل بضيق، فقالت وهي تنهض "لابد أن البرد الشديد يزعجه.. ربما علي إدخاله للمنزل حتى لا ينفق من شدة البرد.."

رآها خالد تسرع خارجة، فقال بقلق "انتبهي يا ميا.."

لم تعلق ميا وهي تغادر بصمت، بينما وضع خالد يده على جرح فخذه الذي ما برح يسبب له آلاماً جمّة.. كان يشعر بطاقته تنسحب منه، ويرى الدماء بوضوح تتسلل من بين الضماد بسبب قلة العناية بجراحه.. ثم تنهد وهو يريح رأسه على الكرسي قائلاً "هل سأتمكن من النجاة؟.. لا يهم.. المهم أن تنجو ميا، وبعدها فليكن ما يكون.."

لم يكد خالد ينهي جملته حتى فوجئ بصرخة حادة أطلقتها ميا، فهبّ بنشاط رغم تعبه السابق وآلامه الجمّة وهرع للخارج حاملاً سلاحه.. ولذعره، فقد رأى فور خروجه من المنزل مجموعة من الجنود تحيط بالمنزل، وأحدهم يقبض على شعر ميا الواقفة قرب المدخل وقد بدا الذعر في وجهها.. ارتفعت الأسلحة على الفور في وجه خالد فور أن رأوه يخرج بدوره، بينما وقف خالد بصدمة لرؤية الوضع الذي هم فيه، ثم سمع أحد الجنود يقول بصرامة "لا تأت بحركة وألق سلاحك.."

قال خالد بلغة أهل كوميت وهو يتشبث بسلاحه "ما الذي تريدونه منا؟"

قال الجندي متفحصاً وجهه وعنقه "أنت من الثوار، أليس كذلك؟ أين البقية؟.."

قطب خالد وهو يقول بتوتر "مهلاً.. كيف يمكنكم إطلاق الاتهامات عليّ دون دليل؟"

قال الجندي "جراحك هذه أبلغ دليل على ما فعلته.. أنت من تعرض للجنود خارج الغابة، أليس كذلك؟"

نظرت له ميا بقلق وهي تتراجع بعد أن أفلتها الجندي، بينما نظر خالد حوله قائلاً "كيف استدللتم على هذا الموقع؟"

فأجاب الجندي بسخرية "لسوء حظكم لم تهطل الثلوج الليلة، لذلك فآثار حصانكم واضحة على الثلج وقادتنا هنا.."

ثم تقدم منه وهو يقول "أنصحك بألا تحاول المقاومة.. ليس هذا من مصلحتك أبداً.."

نظر خالد لما حوله بقلق وتوتر وهو يحصر الجنود ومواقعهم منه مدركاً عبث محاولة استخدام السلاح الآن، ثم تراجع خطوة وهو يستخرج من ثيابه قنبلة يدوية رفعها عالياً وهو يصيح "لا تحاول الاقتراب.. هذه القنبلة تكفي لقتلكم جميعاً.."

تجمّد الهواء في المكان والجنود ينظرون إليه، فيما قال الجندي له "لا تجرؤ على ذلك.. هل ستقتل نفسك والفتاة؟"

قال خالد بصرامة "على الأقل، لكي أضمن أنكم ستنضمون إليّ في ذلك.. فلا أشك أن الموت ينتظرني بأيديكم لو قبضتم عليّ"

تحفزت الأصابع على أزندة الأسلحة، فسارع خالد ليسحب حلقة الأمان في القنبلة دون أن يتخلى عنها بيده وهو يهتف "لا تفعلوا.. لو أصبتموني، فقد أفلت القنبلة لتنفجر بينكم دون رادع.. هل تريدون ذلك؟"

نظر الجنود لبعضهم البعض بصمت، بينما قال خالد لميا بحزم "عودي للمنزل يا ميا بسرعة.."

نظرت له ميا لثوانٍ بقلق جمّ، ثم تراجعت بخطوات سريعة لتدلف المنزل، فيما ارتفعت بعض الأسلحة تلاحقها، لكن خالد صاح وهو يرفع القنبلة عالياً "لا تحاولوا.."

عاد كل شيء للتجمد كما كان، فقال الجندي له مقطباً "ما الذي ستفعله بعد هذا إذاً؟ لو حاولت المغادرة، أو رمي تلك القنبلة علينا، فستستقبلك رصاصاتنا قبل أن تفلت يدك القنبلة.. استسلم خيراً لك"

غمغم خالد وهو يتراجع خطوة "لست أحمقاً لأفعل.."

في تلك اللحظة، فوجئ الجميع بصوت طلقة تشق صمت الغابة فتصيب أحد الجنود في كتفه.. بهت خالد فيما ارتبك الجنود وهم يشهرون أسلحتهم ويتلفتون حولهم بقلق وقائدهم يصيح "إنهم الثوار.. لابد أن يكونوا قريبين.."

تجمد خالد في موقعه عندما شقت طلقة أخرى طريقها لترتطم بخوذة جندي آخر تبعتها ثانية غاصت في الأرض عند قدمه.. انتبه عندها أن الطلقات تأتي من الطابق الثاني من المنزل خلفه وميا تهتف به "تراجع يا خالد.."

لاحظ الجنود السلاح المصوب إليهم من إحدى نوافذ الطابق الثاني، وفيما ارتفعت الأسلحة نحوها والأشعة تصيب النافذة وما حولها بغزارة، فإن خالد استغل الفرصة فتراجع خطوات حتى باب المنزل ثم رمى قنبلته بين الجنود.. لكن في نفس اللحظة تلقى عدة خيوط من الأشعة أصابت ساقه وفخذه الأيمن مما جعل ساقه تنثني تحته ويركع أرضاً بألم في الثانية التي سقطت فيها القنبلة أرضاً لتنفجر بعنف مطيحة بالجنود القريبين منها ومذيبة جانباً لا بأس به من الثلوج التي غطت الأرض والأشجار، بالإضافة للدمار الذي أصاب الأشجار القريبة بفعل الانفجار وفروعها تتحطم وتسقط أرضاً..

لم يسلم خالد من الانفجار بعد أن عجز عن الاحتماء بالمنزل القريب في الوقت المناسب، إذ دفعه الانفجار بقوة ليرتطم بالجدار القرميدي بظهره بعنف مثيراً دواراً شديداً في رأسه، فيما شعر بعدة إصابات مؤلمة في كتفه وصدره وذراعيه من الشظايا التي تطايرت بفعل الانفجار..

بعد ثوانٍ قليلة، هدأ كل شيء وعاد الصمت للمكان رغم أصوات العصافير والحيوانات التي أبدت خوفها وانزعاجها لكل هذا الدمار والعنف الذي حطم هدوء ليلها.. تحامل خالد على نفسه وهو يئن بألم ويحاول الوقوف

بقدمين متألمتين.. نظر حوله فرأى فرقة الجنود قد أبيدت عن بكرة أبيها وغمر الموقع دخان ذو رائحة كريهة امتزجت فيها رائحة الاحتراق مع رائحة الدماء صانعة مزيجاً مثيراً للغثيان.. في تلك اللحظة فتح باب المنزل وميا تخرج منه بقلق شديد على وجهها.. بنظرة سريعة أدركت ما حدث في المكان، ولما نظرت نحو خالد قالت بذعر "أنت مصاب بشدة.. ما الذي فعلته أيها التعس؟"

نظرت جانباً فرأت الحصان يصهل بقوة وجرح واضح في فخذه الأيسر، فعبست وهي تشعر بألم لما جرى له دون أن تملك أن تساعده في أمر، ثم ساعدت خالد على العودة وهو يستند على كتفها بألم محاولاً ألا يضغط عليها بثقله.. سارت معه لتعيده للكرسي الذي كان مستلقٍ عليه سابقاً وهو يسحب خلفه خيطاً من الدماء غمر الأرضية.. ولما استلقى على ظهره بإنهاك على الكرسي، أسرعت تمزق قميصه الذي غدا مهلهلاً لترى من تحته جرحاً كبيراً يحتل صدره وينزف بغزارة، ولم تغفل عن عدة جراح احتلت ذراعيه وكتفيه ووجهه وإن كانت أقل خطورة.. فاقتطعت من ملابسها قطعة لتضغط بها على جرح صدره محاولة إيقاف النزف، بينما غمغم خالد بصوت متعب "أأنت متأكدة من فائدة ما تفعلينه؟.."

لم تجبه وهي تقطب وتستمر في عملها، بينما قام خالد بيد مرتجفة بتناول جهاز الاتصال القريب، ودون تردد قام بوضعه في أذنه وهو يدخل فيه الرقم الخاص بأيمن، والذي يحفظه عن ظهر قلب.. استمع لصوت الاتصال المتردد والذي خالطه بعض التشويش، وعندما سمع صوت أيمن على الجهة الأخرى، قال بصوت حاول ألا يبدو متعباً "مرحباً يا صديقي.. كيف حالك؟"

سادت لحظة صمت مصدومة لثوانٍ قبل أن يأتيه صوت أيمن القلق يقول بلهفة "خالد؟.. أين أنت يا رجل؟ أأنت بخير؟ أأنت حي؟"

أجاب خالد "بخير وحي يا أيمن.."

فقال أيمن بعصبية "كيف تختفي بهذه الطريقة دون أي خبر؟ لو لم يبلغني أنطونيو باتصالك به لتيقنت من موتك في ذلك القصف.. لقد أكلت نفسي من شدة قلقي وتفكيري بمصيرك.."

لم يعلق خالد محاولاً تمالك آلامه، فقال أيمن بقلق "هل أنت بخير؟ ماذا جرى لك؟"

زفر خالد نابذاً ما يشعر به من ألم، وقال "أريد مساعدتك يا أيمن.. لقد أصبت في عدة مواجهات مع بعض الجنود، ولا أستطيع اللجوء لأي مدينة قريبة لتلقي العلاج فالجنود يملؤون المكان"

تساءل أيمن بقلق وانزعاج "أصبت؟ وما سوء إصابتك هذه؟"

أجاب خالد بتعب "سيئة بما يكفي لأعجز عن الرحيل دون مساعدة"

فقال أيمن مقطباً "لا تقل لي إنك من ساعد الثوار على تفجير منجم مايار؟"

ابتسم خالد قائلاً "إذن وصلتك أنباء ما جرى هناك؟"

اعترى القلق صوت أيمن وهو يعلق "هذا جنون.. الجيش مشتبه في وجود خائن من الجنود بين الثوار، وشكوكهم منصبة عليك بالتحديد بعد بلاغ من ماركوس باختفائك ليلة القصف.. ستكون في ورطة حقيقية لو حاولت العودة إليهم أو لو قبضوا عليك"

ثم أضاف ‘‘سيكون من الخطر أيضاً لو تتبعوا اتصالك هذا..’’

قال خالد زافراً ‘‘لا فائدة.. لقد واجهت فرقة من الجنود قبل قليل، ولابد أن القيادة في مايار تعلم بموقعي..’’

فقال أيمن بسرعة ‘‘إذن غادر هذا الموقع بسرعة.. سأتصل بك فور مغادرتي سِن، حتى ذلك الوقت لا تبق في مكانك’’

قال خالد ‘‘لا فائدة.. لو كنت أستطيع المغادرة لما لجأت إليك.. أنا بحاجة لمساعدتك في نقلي مع ميا من هذا الموقع، إلى أي مدينة بعيدة عن عيون الجيش.."

غمغم أيمن بدهشة "أهي معك؟"

صمت خالد للحظات وهو ينظر لميا المنشغلة بجراحه، ثم قال مبتسماً بتعب "أجل.. هي معي.."

فزفر أيمن قائلاً "بودي رؤية هذه الفتاة التي حولتك لرجل مجنون.. لابد أنها تختلف عن بقية البشر"

ثم قال "سأصل بأسرع ما يمكنني.. اصمد يا صاحبي..’’

لم يعلق خالد وهو ينهى الاتصال محاولاً التنفس بعسر ويتأمل ميا وهي تضغط على جرحه محاولة إيقاف النزيف، ثم غمغم "هل ستبكين لأجلي يا ميا؟"

نظرت له بنظرة متباينة المشاعر، ثم قالت وهي تستمر في عملها "وهل ستسعد لفكرة أن أبكي لأجلك؟"

غمغم "لو علمت أنك ستبكين لفقداني لشعرت أن لي قدراً عندك طالما تمنيته.."

قالت وهي تلف جرحه بقطعة قماش أخرى "كفّ عن هذه التعابير الملتوية واصمت فأنت بحاجة للراحة.."

ابتسم مقاوماً آلامه وهمس "يقال أن من لهم أقدار متشابهة لابد ستجمعهم الحياة.. لم أدرك كم هذا القول صحيح حتى الآن.."

نظرت إليه باستفهام، فقال "روباك وأنت وأنا.. كلنا كنا نجري خلف قضية خاسرة، أو على الأقل لم يُقدّر لنا أن نرى نهايتها السعيدة.. روباك كان يسعى خلف وطن حرّ، ولم يشهده.. أنت كنت تسعين خلف رجل وهب نفسه لوطنه، ولم تري نهاية سعيدة لحبك هذا.. وأنا كنت أسعى خلف فتاة وهبت قلبها لرجل آخر دون أن أستسلم، لكني لم أنجح في كسب قلبها رغم كل ما بذلته.."

قالت بتوتر "لا داعي لهذه الأحاديث الطويلة، ولا داعي لتذكير نفسك بما خسرته.. لم لا تتذكر ما كسبته؟"

ضحك بشيء من العسر وقال "وما الذي تريننني كسبته؟"

أجابت "لم تكسب حبي، لكنك كسبت احترامي.. على قدر ما كنت أكرهك منذ موت أبي، على قدر ما احترمت فيك نصرتك للحق وأصحابه.. لم أجد رجلاً آخر من الغزاة مستعد للتضحية بكل ما لديه لنصرة قضية ليست قضيته.. ولن أنسى أنك تخليت عن كل شيء لأجلي.."

ابتسم خالد مغمضاً عينيه وهمس "يكفيني هذا.. شكراً لك يا ميا.."

فقالت بتوتر "لا تستسلم يا خالد.. يمكنني علاج جراحك وستشفى بكل تأكيد.."

علق قائلاً "ما المعدات الطبية التي تملكينها وستمكنك من هذا؟"

لم تجب وهي ترى جراحه بالغة السوء لا تتوقف عن دفع الدماء خارج جسده، فهمست بحنق "تباً.."

عندها غمغم خالد "لا تعذبي نفسك معي.. حاولي الفرار من هنا.. فبعد الجنود الذين قتلناهم لابد سيتحول المكان إلى ساحة معركة في وقت قصير.. خذي جهاز الاتصال هذا معك، وسيتصل بك أيمن بعد قليل.. قد يتمكن من معاونتك على الهرب قبل أن يقبض عليك الجنود.."

قبل أن تجيب ميا باعتراض سمعا صوت أيمن عبر جهاز الاتصال يقول "خالد.. هل أنت بخير؟"

أجاب خالد وميا لا تفهم ما يقولانه بالعربية "أنا بخير يا صديقي.. أين أنت الآن؟"

أجاب أيمن "أنا في طريقي إليكم.. لكن هذا سيستغرق عشر دقائق على الأقل.."

قال خالد "اهرب بميا يا أيمن.. لا أستطيع الهرب معكما ولا أستطيع الحراك أبداً.. سأجعل ميا تغادر قبل قدوم الجنود، فخذها بعيداً عن الغابة وعن هذه البقعة لمنطقة أكثر أماناً.."

هتف أيمن "لا تقل ذلك يا صاحبي.. يجب أن ترحل معي فلن أتخلى عنك.."

فقال خالد "أيمن افعل ما أقوله لك واهرب بميا بعيداً.. أنا سأبقى.. لا وقت لانتظاري وأنا مقضيّ عليّ في كل الأحوال.."

ودفع جهاز الاتصال إلى ميا قائلاً "ارحلي يا ميا.. الجنود سيصلون في أي لحظة وأنا لا أريد تأخيركم أكثر من هذا.."

هزت ميا رأسها برفض وقالت بحزم "لن أرحل.."

ثم حاولت أن تسنده ليقف قائلة "هيا.. سنهرب الآن.."

قال خالد وهو يرفض التحرك "لا.. الجنود قادمون لا محالة.. لا تتأخري بسببي واهربي"

قالت باعتراض "ما الذي تقوله أيها الأحمق؟ لنغادر بسرعة.."

فدفعها خالد بعيداً وهو يقول بحدة "ارحلي يا ميا.. الجنود قادمون، وأيمن لن يصل الآن، وحتى لو فعل لن يسمح له الجنود بتهريبنا.."

قبل أن تجيبه ميا سمعا صوت أيمن يصيح "خالد.. عدد من الفرق تقترب من الغابة وهدفهم القبض عليكما مهما يكن.. أسمعهم عبر القناة العامة.. إن لم ترحلوا الآن فلن يتسنَ لكم الفرار.."

فالتفت خالد إلى ميا صائحاً "الجنود قرب الغابة يا ميا.. ارحلي أرجوك.."

لم تعلق ميا وهي تفكر مقطبة فيما هم فيه.. حتى لو غادرا المنزل، مع إصابة خالد السيئة، وإصابة الحصان بحيث غدا بلا فائدة لهما، فلا تشك أن الجنود سيسعون للحاق بهما وسيقبضون عليهما في وقت قصير..

برقت في ذهنها فكرة مفاجئة، فهبّت بنشاط لتحمل الحقيبة المرتجلة التي تحوي القنابل، وخالد الذي يراقبها يقول بعسر "ما الذي تنوين فعله؟"

قالت وهي تنظر إليه "سأقضي على أولئك الجنود جميعاً بضربة واحدة، عندها لن يتمكنوا من مطاردتنا.."

نظر لها بصمت نظرة أدركت معناها، فقالت بحزم "وأنت سترحل معي.."

لاح شبح ابتسامة على وجهه وهو يغمغم "فتاة عنيدة.."

لم تعلق وهي تخرج من الغرفة وتهرع لنواحي محددة من المنزل توزع فيها القنابل التي لا تتعدى العشر، بحيث تضمن انهيار المنزل كله عند انفجار تلك القنابل لتقضي على كل من فيه.. وبعد أن انتهت، نظرت لجهاز التحكم الذي تحمله بيدها وهي تشعر بتوتر لا مثيل له.. عليهم الآن أن يخرجوا قبل انتظار الجنود ومن ثم تقوم بتفجير المنزل على رؤوسهم.. فهل سيضمن لهم هذا النجاة مؤقتاً؟.. عادت إلى خالد مسرعة، وقالت وهي تحمل السلاح في يدها "هيا يا خالد.. يجب أن نبتعد.."

لم يجبها خالد بكلمة أو يفتح عينيه، فاقتربت منه بقلق وهزته قائلة "لا وقت للراحة.. أرجوك انهض.."

ولما ظل الصمت مهيمناً على المكان تفحصت نبضه وهي متوجسة.. مرت ثوان ودقات قلبها المتعالية تمنعها من التركيز على سماع نبضه، ولما فعلت، تأكد لها عندها أن قلبه قد كفّ عن النبض للأبد، ولم يعد هناك نفع من انتظار جوابه.. تطلعت بصدمة إلى وجهه الشاحب رغم الابتسامة على شفتيه، ثم أطرقت بحزن دون أن تتمالك دموعاً نزلت من عينيها بصمت، وغمغمت بأسى "لماذا.. لماذا ترحل أنت الآخر؟.. لماذا يحب الكل أن يرحل ويتركني؟ أما آن لأحزاني أن تنتهي؟"

سمعت صياح أيمن عبر جهاز الاتصال، فحملته وقالت عبره "خالد لا يستطيع الإجابة.. لن يستجيب لأي أحد بعد الآن.. ولم تعد هناك فائدة من قدومك"

صاح أيمن "أنت ميا؟ ما الذي جرى لخالد؟"

قالت ميا مطرقة "جراحه كانت أبلغ من أن يتحملها.. آسفة، لم أستطع مساعدته بشيء"

وتهدج صوتها وهي تهمس "حقاً آسفة.."

ورمت جهاز الاتصال غير مبالية بهتاف أيمن وهي تجلس أرضاً وتخفي وجهها بين ذراعيها محاولة تمالك حزنها الذي تصاعد بقوة.. تذكرت قول خالد عن تشابه مصيره معها ومع روباك.. لقد كان محقاً، ولا يعني حياتهم فقط بل مماتهم أيضاً.. رغم كثرة رفاق روباك من الثوار ومن أهالي القرية ووجود والديه على قيد الحياة، فإنه قد مات وحيداً لا يؤنسه إلا وجود ميا التي تمكنت بمعجزة من البقاء قربه في لحظاته الأخيرة.. خالد أيضاً مات وحيداً رغم كثرة رفاقه من الغزاة، ورغم وجود صديقه قريباً جداً منه، ولم يكن معه إلا ميا أيضاً.. وهي، هل ستكون وحيدة في لحظاتها الأخيرة؟ هل تكفيها ذكرى روباك الذي أحبته وخالد الذي منحها كل ما يملك لتستعيض بها عن وجود رفقة معها عند موتها؟..

سمعت خطوات الجنود تقترب وهتاف أيمن مستمر عبر جهاز الاتصال دون أن يجد رداً، فأسرعت تنظر من نوافذ المنزل لترى الجنود يقتربون من المكان مطوقين المنزل بحيث لا يمكن أن تنسلّ من أمامهم دون أن يلمحوها.. وفي السماء لاحت لها طائرة أيمن دون أن يبدو منها غير أنوارها.. فنظرت ميا فيما حولها بصمت، ثم عادت للغرفة التي يرقد فيها خالد وتأملته بصمت.. تذكرت في تلك اللحظة قول روباك بتصميم "لم أفعل ما فعلته لأجل أحد.. بل لأجل وطني.. لو استطعت القضاء على جندي واحد فهذا يكفيني حتى لو كلفني هذا حياتي ذاتها.."

فغمغمت بصوت مرتجف "أهذه نهاية كل شيء؟"

لم تبد لها هذه النهاية سيئة.. هربها الآن مستحيل، وبعد من تسببا في قتله في آخر صدام لهما مع الجنود سيكلفها حياتها دون مناقشة.. فهل سيسعدها أن تقضي نحبها بأيدي الغزاة؟.. جلست قرب خالد مطرقة وهي تتذكر كل ما مضى منذ تلك الليلة التي انقلبت فيها حياتها رأساً على عقب.. تذكرت كل من مرّ بها ومن عرفته.. كل من قضى نحبه وكل من عاش جاهلاً لمصيره في الأيام القادمة.. تذكرت روباك، وهذا جعل الدموع تحتشد في عينيها وهي تهمس بصوت مرتجف "روباك.. كن معي أرجوك"

ظلت في موقعها وجسدها كله يرتجف، وهي تمسك بيد خالد بصمت محاولة أن تستمد الشجاعة منه، حتى بعد رحيلة.. وباليد الأخرى تقبض على الجهاز الصغير بقوة.. ظلت مطرقة حتى وهي تسمع الضربات على الباب الأمامي والخلفي.. حتى وهي تسمع زجاج النوافذ يتحطم.. حتى وهي تسمع صوت أشياء ترتطم بالأرض الخشبية للمنزل يتبعها هسيس خفيف ودخان يظهر من تحت باب غرفتها.. أصابها الدخان بسعال شديد وحرقة قوية في عينيها أسال الدمع غزيراً.. لكنها لم تتحرك من مكانها وهي تستمع بانتباه للخطوات التي دكّت الأرض الخشبية للمنزل في أنحاء متفرقة منه، وتركز بصرها على باب الغرفة.. ولما فتح الباب بركلة قوية ودلف منه عدد من الجنود بخوذاتهم السوداء وأسلحتهم المتأهبة، قالت بابتسامة متسعة "مرحى.."

وضغطت زر الجهاز الصغير في يدها دون تردد..

عندها.. فزعت حيوانات الغابة وطيورها بصوت انفجار عنيف تردد في هذه البقعة الهادئة من الغابة هزّ الأشجار بقوة ونور مبهر يشق السماء.. قبل أن تلتهم النيران المنزل وما تبقى منه منيرة ما حوله بنور أحمر مخيف..

تسبب الانفجار في مقتل كل الجنود الذين اقتحموا المنزل، بالإضافة لسقوط العديد من الجنود ممن بقي خارج المنزل جرحى بإصابات مختلفة، بينما تراجع من بقي منهم سليماً لحسن حظه وقد صدموا لما حدث، وقائدهم يسرع لرفع تقرير بما حدث للقيادة في العاصمة الشمالية، وليتلقى الأوامر بالتراجع ببقية الجنود..

لم يكن هذا الانفجار يختلف عن أي انفجار غيره يقع في أي بقعة من كوكب كوميت.. هو ليس إعلان ببداية الحرب، ولا إعلان بانتهائها.. بل هو تضحية أخرى من سلسلة تضحيات بُذِلت في طريق تحرير الكوكب من ظلم الغزو.. وحتى الآن لا نعلم تمام العلم إن كان أحد منهم سيصل إلى نهاية هذا الطريق.. أم أن الطريق سيطول بأصاحبه إلى ما لا نهاية..

كل ما نرجوه بعد كل ما قيل..

هو أن تُبعَثَ زهرة النار من بين الرماد من جديد..

النـــهـــايـــة